كتب ومؤلفون





تأليف الأستاذ:
عبدالعزيز الربيع

إعداد وجمع:
محمد صالح البليهشي

رقم الكتاب (١١٥)
منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي

كتب ومؤلفون

تأليف الأستاذ

عبدالعزيز الربيع

إعداد وجمع

محمد صالح البليهشي

ح نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الربيع، عبدالعزيز

كتب ومؤلفون / جمع محمد صالح البليهشي ـ المدينة المنورة.

٤١٦ ص، × ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٥ ـ ٣١ ـ ٦١٨ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الكتب ـ النقد ٢ ـ الأدب العربي ـ نقد

أ ـ البليهشي، محمد صالح (جامع)

ب - العنوان.

ديوي ٠٢٨,١ ١٥٦٥/ ١٩

رقم الإيداع: ١٥٦٥/ ١٩

ردمك: ٥ ـ ٣١ ـ ٦١٨ ـ ٩٩٦٠

رقم الكتاب (١١٥)

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم. والصلاة والسلام على النبي الأكرم الذي أعجز ببلاغته العرب والعجم وعلى آله وأصحابه أولى النهى أرباب السيف والقلم وسلم تسليمًا كثيراً **أما بعد:**

فلقد انتظرت طويلًا لكي التقي معكم أيها القراء في مثل لقائي هذا، الذي أحمل فيه راية وفاء ومنار كلمة.. لقاء أقدّم فيه أثرًا وضيئًا لعملاق نقدره جميعًا ونجله، ونقر له بالأستاذية المطلقة في كافة جوانبها وجميع معانيها.

وقبل أن أطلعكم على ما لديَّ من بضاعة، هي في واقعها ليست بضاعتي، وإنما هي بضاعته يرحمه الله.

ليست لي فيها سوى نفض الغبار عنها، وتنظيمها وترتيبها وجمعها وعرضها بأسلوب عرض أرجو أن أوفق فيه.

قبل أن أنظم أمامكم حبات هذه القلائد، بما حوته من درر وجواهر ولآلئ، ظلت مبعثرة زمنًا طويلًا، ظن معه الظانون أنها قد فقدت وضاءتها ونضارتها، وشكك آخرون في وجودها أصلًا طيلة زمن البعثرة هذه.

قبل أن تطَّلعوا على هذه القلائد التي نظمت حباتها بمعرفتي المحدودة، أرجو أن تسمحوا لي بتذكير من نسي، وتعريف من لم يعرف بمن شرفت بجمع درره وتقديمها اليوم لدنيا الثقافة والأدب من خلال تعريفه بنفسه في عبارات مقتضبة واسلوب مؤدب وجمل رصينة مختارة.. حيث قال يرحمه الله: (وُلدتُ في هذه البلدة الطيبة. حيث وُلد الكثيرون ممن آمنوا برسالة الحق والخير والسلام. وحملوا رايتها المظفرة إلى أقطار الدنيا، ونشأتُ مع لدّاتي في الجيل الذي سبق هذا الجيل مباشرة.. فنحن في الواقع مخضرمون، نحمل في دمائنا ميراث الجيلين معًا. جيل مطلع الخمسينيات، والجيل الذي يليه.

وكادت الظروف تضطرني إلى عدم مواصلة الدراسة. والإخلاد إلى عمل روتيني يضمن لي لقمة العيش بسلام.. ولكنني كنت أشعرُ في أعماقي بحوافز تدفعني إلى متابعة كفاحي في سبيل الحياة الأفضل والمستقبل الأرحب.. الأوسع.

حيث أشعرُ بأنني أعيش بكل مواهبي وإمكاناتي، وبكل القوى التي وهبتها لي يد القدرة المبدعة، وواصلت تعليمي العالي. وكنتُ من الجامعيين القلائل الذين جمعوا في ذلك العهد بين ليسانس آداب جامعة القاهرة ودبلوم التربية العالي وعلم النفس من جامعة الاسكندرية.

إنها حقائق تعمدت أن أصوغها بهذا الأسلوب. رغم عزوفي عن الحديث عن نفسي. ومقتي لهذا اللون من الأسلوب في الحديث عن النفس، لأنني أحببت أن يكون في قصة حياتي - رغم تواضعها - ما يثير نوازع الطموح ومشاعر الإيمان بالله ثم بالمستقبل في نفوس ناشئتنا الجديدة.

وبدأتُ حياتي الوظيفية بعد ذلك مفتشًا بإدارة التعليم بضع سنين. قبل أن تسند إلى مديرية التعليم.. فالطريق كما تعرفون كانت صعبة عند بدايتها.. ولكنها بعد أن تسلحت بسلاح العلم، وتزودت بزاد المعرفة والثقافة أصبحت معبدة.. مذللة.. تكتنفها الواحات وتتناثر حولها الخمائل) أ.هـ.

بهذه الجمل الرصينة، نستطيع أن نرسم الملامح لعملاقنا في جوانب مجاله، ونُعرِّف به في جانب الثقافة والإبداع الأدبي.. ولنبدأ معه مع بداية الكتابة والشعر، حيث بدأ حياته الأدبية وهو طالب بالمرحلة الابتدائية متأثرًا بالأديبين الكبيرين مصطفى صادق الرافعي وأحمد حسن الزيات، وكانت مؤلفاتهما من أول ما وقع تحت يده من الآثار الأدبية القيمة كما يقول، ولكن ذلك التأثر لم يدم طويلًا، فقد استطاع في وقت مبكر أن يفتح كل النوافذ ويستقبل كل التيارات.

وقد كان يرحمه الله يدين بالفضل في ثقافته وإبداعه لوالده.. ويقول إنه

رجل محب للعلم.. وقد ظل إلى آخر عمره يتعلم ويقرأ مما أثر في حياته تأثيراً بالغًا وتعلم منه الصبر وحب العلم وحفظ القرآن في سن مبكرة. كما تأثر بشخصية أستاذه ومعلمه فضيلة الشيخ محمد الحافظ الذي تولى رعايته منذ طفولته في مدرسة العلوم الشرعية، ويذكر بأنه وجهه توجيهًا صحيحًا وفتح له قلبه ومكتبته وأعجب كثيراً لسماحته ونبله وحرصه ورجاحة عقله. وقال عن أستاذه الشيخ الحافظ بأنه (أنموذج الرجل المثالي.. وقد أثر في نفسه تأثيراً بالغًا لا يُنسى، وله فضل عليه لن ينساه..).

أما شخصيات التاريخ، فيذكر بأنه قد تأثر بشخصية الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الحاكم العادل القوي المثقف الإنسان، وتأثر بشخصية أبي الطيب المتنبي الذي وقف في عالم يموج بالعجمة والشعوبية يدعو إلى العروبة ويخاصم من أجلها، ويصور مفاخر العرب دون خوف حتى آخر رمق في حياته.

كما تأثر بشخصية مصطفى صادق الرافعي الذي كتب وحده فصلًا قيمًا في التاريخ الأدبي دون أن يعتمد على مؤهل دراسي أو شهادة جامعية، ووقف وحده يقاوم الإلحاد والتحلل والشعوبية.

هذه الملامح البدايات الاولى والمكونات الأساسية لشخصية أستاذنا عليه رحمة الله، مما كان له الأثر الكبير في وضوح أسلوبه وسلامة عبارته وتسلسل منطقه في مجالات البحث والإبداع والنقد.

وقد اتجه في كتاباته الأخيرة إلى النقد الأدبي، وهو النقد الجاد الذي يهز حياة الناقد قبل أن يهز الحياة الأدبية نفسها كما يقول؛ لأن الناقد الجاد مضطر إلى أن يقرأ مع الأثر المنقود وربما قبله عشرات من الكتب.. وهذا ما لا يتاح لغيره من الكتّاب والأدباء.

وعُرف عنه تضلعه في مجال النقد الأدبي بنزاهة وصدق، يميل دائمًا إلى المذهب التكاملي في النقد.. وهو المذهب الذي يستقطب كل الاتجاهات والزوايا الفنية.. ويعطي الأثر الأدبي نكهته ولونه وملامحه العامة.

وبعد كل هذا القول الذي أردتُ منه أن أذكر من نسي، وأُعلِّم من جهل بالملامح العامة لشخصية الأستاذ والمربي والأديب والناقد الأدبي عبدالعزيز الربيع.

أعود مرة أخرى لأقول أن أديبنا وأستاذنا الذي اتيح لي وشرفت بأن أنظم قلائد عقوده هذه بما حوته وعثرت عليه من جواهر ولآلئ ودرر فكره وثقافته لأعرضها لمحبي الأدب وعشاق المعرفة وكتَّاب الحرف، وأنا فخور بجمع تراث أديب ناقد عاش عمره للثقافة والأدب والفكر، وضحى بوقته وجهده من أجل العلم والمعرفة.. وعاجلته المنية قبل أن يسعد بطبع إنتاجه وإظهاره للناس.. ولعلي بهذا أضيف جديداً إلى دنيا الثقافة والمعرفة.. لأن هذا التراث الأدبي والثقافة إذا لم تختزنه بطون الكتب لإفادة الأجيال اللاحقة سيكون مصيره الضياع.. وفي ذلك خسارة فادحة وجحود ونكران للجميل.

وكم خسرت دنيا الثقافة على مر التاريخ الإنساني بضياع وإهمال حصيلة كثير من العلماء والأدباء والمفكرين.

وأعود مرة أخرى إلى هذا السِفْر الذي جمعت مادته من هنا وهناك، وتعبت كثيراً من أجل تحقيق هذا الأثر الذي اقدمه كتابًا بعنوان (كتب.. ومؤلفون) يضم بين دفتيه ذلك الاعجاب بالكتاب، والفرح، به والحصول عليه. والنهم بقراءته القراءة الواعية الناقدة التي تنصب الموازين، وتقدر العمق والجهد والحصيلة الثقافية للمؤلف ومركزه في الحياة الثقافية والعمق الأدبي.

أما الجانب الآخر وهو «المؤلفون» فيتصل بالجانب الأول في مجال العرض وإظهار المزايا والعيوب إضافة إلى أمور أخرى تعرض لها الربيع مفنداً مزاعم المضللين والكاذبين والخادعين لشباب أممهم وأوطانهم، ومبينًا إعجابه بكل المكافحين والمناضلين عن العربية الذين كانت لهم وقفات صامدة خلدها التاريخ، وتغنى بها شداة الأدب واساطين الكلمة وعشاق الحرف.

وقد يقول قائل: إن بعض الموضوعات التي (اقحمتها) في الكتاب ليس هذا

مكانها.. وأجيبه: أن جميع ما اندرج بين دفتي هذا الكتاب (وقد يظن بأنه ليس منه) يدخل تحت مسماه، كما أنه لا يخلو من هوامش نقد رصينة لها مكانتها في باب النقد والتقويم، ولها نكهتها الخاصة ورائحتها المميزة في مسار الأدب أو في دنيا الأخلاق.

ثم إن العنوان نفسه (كتب.. ومؤلفون) كان من اختياره يرحمه الله وقد ذكر هذا في العديد من المقابلات الصحفية واللقاءات الأدبية.. ولذلك قمت بكتابة العنوان وجمعت تحته ما له علاقة به من قريب أو من بعيد خدمة للأدب وتنفيذاً لرغبة المؤلف في تسمية كتابه وإيمانه بهذا الاسم. وفي يقيني بأنه لو كان الذي جمع هذه المقالات والموضوعات لإعداد كتاب تحت هذا المسمى هو المؤلف نفسه يرحمه الله، لخرج بصورة غير صورته هذه، إما بحذف بعض ما وضع في الكتاب، أو بزيادة ما فيه؛ لأن فارق الثقافة والدراية والحس الأدبي والنظرة النقدية والتعامل مع الكلمة بحرفها وجرسها وأضوائها وبعد مراميها تختلف بين المؤلِف والمُعِد، إذ المؤلف أستاذ من أساتذة البلاغة والبيان وله باعه الواسع ونظرته الثاقبة.

وخلاصة القول: إن كتاب (كتب.. ومؤلفون) يمثل محطة من محطات النقد الأدبي في عمقه وفي هوامشه.. والنقد بأبعاده وموازينه.. وإيضاح المفاهيم ومناقشة الحقائق.. وهوامش النقد بكل مكملاتها وجوانبها المختلفة، وهو في مجموعه يعمق فكرة الإصلاح أدبًا ونقداً وأخلاقًا ومفهومًا.

وختامًا.. أرجو من المعلمين والكتَّاب والأدباء والمفكرين والمعجبين بالأديب الناقد والناقد الأديب الأستاذ عبدالعزيز الربيع.. من أولئك الأدباء والكتَّاب وأرباب النقد الأدبي الكبار الذين اقتحمت خيمتهم لأنصب فيها هذا المعلم أن يتجاوزوا عن هفواتي إن أخطأت في الكيفية التي ولجت فيها تلك الخيمة أو في كيفية تقديم هذا الأثر الأدبي الراقي، وأرجو أن يغفروا زلتي إن وجدوها، ويقيلوا عثرتي إن كانت.. وحسبي أنني مجتهد وكفى.

محمد صالح البليهشي

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وبعد:

فإننا نظلم النقد والنقاد في بلادنا ـ دون شك ـ إذا ما قلنا إن ذخيرتنا من النقد، أو حصيلتنا من النقاد، لا تعدو دوافعها الرئيسية: المجاملات أو الأغراض الشخصية. فمما لا ريب فيه أن شيئًا مما ينشر ـ ولعله ليس بالقليل ـ ينبثق عن الرغبة في تقويم العمل الأدبي، واعطائه ما يستحق، دون مراعاة العلاقات الشخصية بين الناقد والمنقود. كما أن الكثير مما ينشر يستهدف التعبير عن الانطباعات الذاتية للناقد، وقد يكون فيها الكثير من الخطأ والانحراف، ولكن ذلك لا يحملنا على اعتبار هذا النقد منبثقًا عن الرغبة في التجريح أو التشفي أو الغرض الشخصي، لأنه في أساسه رغبة صادقة في التعبير عن انطباعات الناقد عن الأثر المنقود، ولكن ضعف مستوى التأثر بالتجربة الفنية أو عدم اكتمال الناقد لمؤهلات النقد المطلوبة وفي مقدمتها الثقافة الواسعة العميقة والمعايشة الدائمة للإنتاج الأدبي الرفيع، واستكمال الدراسات اللغوية والفنية والعلمية الضرورية لإرهاف الملكة وتقويم الطبع وشفافية الاحساس، كل ذلك حال بين القائم بعملية النقد، للأثر المنقود وبين التقدير الدقيق الذي يستحقه.

كما أن الكثير من الدراسات النقدية، تبدأ بروح محايدة نزيهة بقدر الإمكان، ثم تغلب عليها نزعة التشفي والانتقام، والرد المباغث السريع من الأديب أو الكاتب الذي ضاق ذرعًا بالنقد، رغم محاولة الناقد التجرد المطلع وحرصه على عدم الإشارة إلّا إلى عدد قليل من الأخطاء، وبكل ما يستطيع من الذوق والمجاملة ودماثة الخلق.

ولي أنا شخصيًا عشرات التجارب في هذا المجال، حتى إنني آثرت في الفترة الأخيرة أن أتوقف عن الدراسات النقدية، لأنها سببت لي الكثير من

المشكلات، وفصمت أو أضعفت الوشائج والصلات التي تربطني بكثير من أصدقائي.

فقد ترسب في ذهني منذ نشاتي الأدبية الأولى أن النقد مسؤولية ورسالة، وأن كلمة الحق أكبر وأشرف من كل الصلات الشخصية.

وأُعترفُ صادقًا بأنني عانيت الكثير من هذه (الترسبات الذهنية) إذا صح التعبير، وأنني فكرت أكثر من مرة في أن التزم الطريق الأكثر يسراً والأقرب إلى قلوب الناس ومشاعرهم؛ لأن ذلك سيضمن لي أصدقاء جدداً باستمرار، وسيدفع كل كاتب ومؤلف لدينا وبخاصة من شداة الأدب إلى إهدائي مؤلفاته وتدعيم صلته بدلًا من أن يلجأ بعضهم - كما حدث كثيراً - إلى إخفاء مؤلفاته والادعاء بأنها لم تطبع بعد أو أنها نفدت. لقد أصبحت وبعض الاخوة النقاد في بلادنا الحبيبة، أشبه بالبعبع الذي يُخوِّف به الأطفال أو غير الناضجين من أدبائنا، لا لشيء إلا لأننا لا نستطيع أن نتستر على ما نعتقد أنه حق وصواب، وإن كنا نقوله بأقصى ما نستطيع من اللطف والذوق.

ففي بلادنا - كما قلت - يوجد النقد النزيه المخلص، الذي يضطر في نهاية الأمر إلى الدفاع عن نفسه بقوة وفعالية. وهو القليل على أية حال، كما يوجد النقد المنبثق عن المجاملات أو الأغراض الشخصية، أو عدم توفر إمكانيات النقد وهو الأغلبية الساحقة - مع الأسف - وهي فيما يبدو لي ظاهرة طبيعية. لأن الناس - ومنهم الأدباء - متفاوتون في عمق الثقافة وضحولتها، ورهافة الاحساس وتبلده، ولكن الظاهرة التي تبدو أكثر شيوعًا في مجتمعاتنا الأدبية، هي ظاهرة تبرم أدبائنا بالنقد.. فنحن هنا بين أديب كبير يعتقد بأن النقد سيزعزع مكانته الشخصية ويسيء إلى سمعته الأدبية. وأديب دون ذلك يشعر بأنه لا يزال يشق طريقه ويكافح في سبيل الوصول إلى ما يتطلع إليه من شهرة ومجد. ويجد في النقد مهما كان نزيهًا ومحايداً معوقات صعبة تقف في طريق تقدمه، أو معاول صلبة تجعل التراب ينهال تحت قدميه.

والناقد هو الضحية بعد ذلك.. لأنه سيهاجم من هؤلاء وأولئك، بسيل من الشتائم والاتهامات.

أما: ما هو السبيل إلى ايجاد نقد علمي بناء متجرد؟ مع وجود ظاهرة تبرم أدبائنا بالنقد.. فتلك مشكلة يستطيع الزمن وحده أن يحلها... لأنني على يقين من أن النضج النفسي والفكري هو السبيل الوحيد، لتقبل النقد بصدر رحب، واعتباره مجهودًا من الناقد لوضع الحق في نصابه، وتوجيه الحركة الأدبية إلى مسارها الصحيح، وهو مرتبط بنضوج المشاعر، وتفتح الذهن، وعمق الثقافة. وهي مكاسب لا تتحقق بين ليلة وضحاها ولا بين يوم وآخر، ولكنها محصلة الوعي والدأب والزمن.

ولدي اقتراح غير عملي ولكنه طريف، سأضعه في صيغة سؤال، ثم احاول الإجابة عليه:

ما الذي يحدث لو شعر كل أديب بمسؤوليته كاملة تجاه ما يكتب من دراسات أو بحوث أو إنتاج فني بصفة عامة، وأحس في الوقت نفسه بشبه اتفاق أو تعاون بين قادة الفكر والأدب، على أن يقفوا وقفة واحدة ضد كل من يحاول الدفاع عن نفسه بغير المنطق والحق فأخذ يكيل السباب والشتائم للنقاد (المساكين)؟

إنها فكرة طريفة دون شك، ولكنها إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة.. ومع ذلك فدعونا نفكر قليلًا، ونتصور ان الفكرة انتقلت من الخيال إلى الواقع. ألا تتصورون ان الناقد والمنقود معًا، سيفكر كل منهما ألف مرة قبل أن يبدأ الكتابة أو النقد؟

وسيكون هذا الحل مؤقتًا بالطبع، ريثما نبلغ مرحلة النضوج، وهي المرحلة التي نصل فيها إلى الشعور برقابة ضمائرنا، وهيمنة الإخلاص والصدق والنزاهة على ألسنتنا وأقلامنا بإذن الله.

والله من وراء القصد، وهو المستعان في كل حال وأوان ،،

عبدالعزيز الربيع

دراسة وتحليل

(نفس تبحث عن نورها).. ذلك هو - في رأيي - مفتاح شخصية شاعرنا الكبير السيد محمد حسن فقي.

وبالرغم من أن أولى قصائد الديوان[1]، هي قصيدة (من أنا؟) وهو الطبيعي دائمًا في كل أثر فني ينبع من أعماق الذات، فإنني أستميح القارئ العذر، لأبدأ رحلتي مع الشاعر في ضوء هذه القصيدة، لنتعرف معًا على تجربته الشخصية، وهو في طريقه الطويل للبحث عن سكينة نفسه ونور ضميره، وحقيقة الحياة من حوله.

ونحن هنا على موعد، مع عدد من المشاهد الطبيعية التي عبر بها وتحدث إليها، وبثها أحزانه وآلامه ومواجده.

على موعد مع الأنجم المضيئة، والروض الذي كسته الطبيعة برود الحسن والطيب، والعاصف المدمر الذي استباح حمى البحر وزلزل الأرض، والشاطئ الحزين الذي يلطم الخضم العملاق جنبيه، والبلبل المغرد الذي راعه فراق الأليف، والشمس التي أنارت الدياجير، ولكنها لم تنر ديجور نفسه.

القصيدة تبدأ بالحديث مع النجوم، وتنتهي بالتحدث إلى الشمس، وفي ذلك تناسق فني ملحوظ، يستحق الإشارة إليه، ونحن نستعرض مشاعر النفس التي تبحث عن نورها:

قلت للأنجم المضيئة حولي ... أي نجم يضيء ظلمة ليلي؟

ولم تتركه خواطره الحزينة وهو في غمرة الأسى والألم، أن يسترسل في حديثه وتساؤلاته مع الأنجم المضيئة، فانتقل إلى الحديث مع الليل:

(سرمدي الظلام ، هذي دياجيك ، تراكمن في فؤادي وعقلي ، حندس فوق

---

(١) الديوان «قدر.. ورجل» شعر محمد حسن فقي - طبع عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م - طبعة أولى - الناشر: الدار السعودية للنشر. يقع في (٣٨٢) صفحة.

حندس ـ أيها الليل ، وهول يسير في أثر هول و ـ إلخ)

ونتساءل عن السر وراء هذا الشقاء النفسي الذي يغمر الشاعر فيقول إنه:

اغـترابٌ يحــــن للــــدار والأهــل فـيشـقـى بـكـــــل دار وأهـل
ومــسـير إذا اسـتراح إلى الـسـير تـصـدى لـوقـفـــــه ألـف غـل

ويعود ليقول:

إن في وحــدتي فـرارًا مــن الـنــاس ولـكـنـــــه فــــرار الـمــــدل
ما الذي أبـتـغيه مـنـهـم سوى الجهل وحــســبـي أني أضـيـق بـجـهـلي؟

ولا يسعنا هنا إلا ان نقف أمام: ما الذي أبتغيه منهم سوى الجهل؟ فقد تكون كلمة (أبتغيه) (ألتقيه) أو يعني بها الشاعر هنا أتوقعه.. وحينما قال الشاعر بعد ذلك:

رب مـسـتـوحـد تجلى لــه الأنـس ومـسـتـصـحـب عـداه الـتـجـلي

كان يتوقع أن نقول له: ولماذا إذن تشكو وتتوجع وأنت تعيش في وحدتك بعيدًا عن الناس؟ فأسرع يقول:

إن روحـي لـو اسـتـظـل مـن الـشـمـس لـيحـس الهجـير في كـأس ظـل
قـد تـولّـتْ سـعـادتي، فـتـجـلّـدْتُ ولـكـن عِـزَّتــــي لم تُــــوِل

حينما نضم إلى هذين البيتين قوله:

إن في وحــدتي فـرارًا مــن الـنــاس ولـــكـــنـــــه فــــرار.. الـمـــدل.

نلمس أعماق الجرح، الذي لا يزال ينزف بالدماء، رغم مظاهر الفتنة والسرور التي يسند رأسه المتعب في ظلها الوارف الممدود، ولذلك لم يكن من العجيب، أن نقرأ في المقطع الثاني من القصيدة:

قلتُ للروض: هل تعيد إلى الغبطةِ قـلـبـاً يـا روضُ عـاش كـئـيـبـا؟

وقبل أن يستـمـع إلى إجابة الروض، أو قبل أن يتيح له الفرصة للإجابة يقول له:

إن شدو الطيور، والألق الضاحي ... والماء سلسلا والطيوبا
إن هذي الآلي لن تسعد النفس ... ولن تطفئ الجوى واللهيبا

ولماذا؟ فيقول:

إن نفسا ترى الجديب خصيبا ... هيَ نفسٌ ترى الخصيب جديبا
وهي نفس تضيق بالحسن والمتعة ... ما دامَ نخسها مكتوبا

وتلك هي المأساة الأبدية للفنان:

إنه يخلق عالمه ويبنيه من مشاعره وأحاسيسه، ويلونه بما يعتلج في نفسه، وينبض به قلبه.. فيحيل الصحارى الجديبة إلى مروج خضر يانعة، والصخور الصم الصلبة إلى ينابيع وجداول وأنهار، والدياجير الحالكة المدلهمة، إلى آفاق واسعة يتراقص فيها النور المتألق، وتتعانق على حواشيها الظلال الحالمة.. وتلك هي الإنسانية أو البشرية في ذروتها، ولكنه مقابل ذلك يحمل في صميمه بذور الشقاء الأبدي، حين يقدر عليه أن يصبح قلبه المرهف الحساس، مسرحًا للألم والعذاب.

فلا الأنجم المضيئة، ولا الشمس المشرقة، ولا الظلال الوارفة، ولا الرياض اليانعة، ولا الينابيع المتدفقة، ولا كل ما في الطبيعة من مرائي الحسن والفتنة والجمال، بقادرة بعد ذلك، على أن تحيل الدموع في عينيه إلى بسمة ضاحكة، ولا النشيج في قلبه إلى أغرودة مرحة.

وهذه الحساسية المرهفة عند شاعرنا الكبير، ليست متقوقعة أو مغلقة، ولكنها منفتحة على الطبيعة والحياة.. والبشر جميعًا.. فهو يقول للعاصف المدمر الذي زلزل الأرض، واستباح حمى البحر.. هذا العاصف الذي لا يبالي بما يلاقي ضحاياه التي لا تستطيع اتقاء الخطوب.

يقول له الشاعر: هل أنت رب الحروب؟ ثم يقول له:

قف ترفَّق قبل الوثوب فما ... ثَمَّ سبيل للرفق بعد الوثوبِ
إن نفسي تعاف بادرة الظلم ... ويرثي غفرانها للذنوبِ

ولكن التجارب المريرة التي مر بها الشاعر، وخاصة مع الناس، حملته على

أن يقول:

لَتَمَنَّيْتُ - يا عسوفُ - ضميرًا ما يُبالي بنكبةِ المغلوبِ

ومع ذلك فهو يحس بأن هذه الأمنية، ليست نابعة من أعماق رغباته الحقيقية، والرغبات الإنسانية الخيرة التي تحب الإنسان وتؤمن به فيستدرك:

أنا في رجفة الصراع مع النفس اغذيٌ محامدي بعيوبي

هي في ظلمة.. فإن أشرق النور عليها.. تحفَّزَت للغروبِ

لأنه يعرف تمامًا الدوافع التي ألجأته إلى الوحدة والفرار من الناس، فليس هناك من سبب إلا أن هذه النفس:

قادها الناس للزهادة في الناس فعاشت في وحدة المشرَّيب

وهو لذلك يقف أمام الشاطئ الحزين، المستكين أمام لطمات الخضم العملاق، وهو في موقف الضعيف الذي يرده العجز للهون، فيرضى بصفقة المغبون، ليصرخ في وجه البحر:

أيهذا الخضم.. يا رب سجان تهاوى من نقمة المسجون

غير أنه يتحامل على نفسه، فيرتمي على الشاطئ، يطوي شجونه في شجونه، ثم يلتفت إلينا ليقول:

إنه هو أيضًا شاطئ غزته الأواذي، ولكنه لم يرضخ ولم يستسلم لما دكت الأمواج من حصونه. ويقارن بينه وبين الشاطئ، فهو مثله في وحدته واكتئابه، ولكنه غيره في محنته وظنونه.

وفي المقطع الخامس من القصيدة، أخذ يستمع إلى البلبل المغرد في الروض، وقد راعه فراق الأليف.. وظل البلبل يشدو، وجرح الشاعر يعاني من حرقة ونزيف، فهما سيان، غير أن أغاني البلبل للربيع، وأغاني الشاعر للخريف.. ولذلك قال له:

غن للروض.. للغدير.. لأحلامك نشوانة الرؤى والطيوف

وفي إطار التجربة التي عاشها الشاعر مع الحب، وفي ضوء فلسفته في الجمال، يقول للبلبل:

وإذا لم يعد أليفك للعش فلا تبكه بدمع الأسيف
حطم العش، وانطلق في الفراديس فليس الطليق مثل الرسيف

(وحيثيات الحكم) في هذه الدعوى ـ حسب تعبير رجال الفقه أو القانون -

أولًا: إنه كان مثله هيمان، فأبلى تالده وطريفه، دون أي جدوى.

ثانيًا: إن الحسن موضوع نسبي، وهو لا يزهو إلا (في عيون أساراه) ومن خلال لمحات الرضى والحنان، لهذه العيون.

أما في المقطع الأخير من القصيدة، حين يتحدث إلى الشمس، فقد تكثفت الظلمة من حوله وتمادى في الهدى وفي الضلال، وأصبح الطهر يقوده كما يقوده الرجس، وغدا في حيرة مطبقة تساوى عنده فيها الوصل والهجر، والمأتم والعرس، ومعطيات السعادة ومعطيات النحس حتى ليقول:

أفسعدي الذي يَسِمُ حياتي وينمي الشكوك أم هو نحسي؟

وهذه الفلسفة الثنائية، التي نلمحها بوضوح عند شعراء المهجر في العصر الحديث، وعند عدد من شعراء الصوفية في العصور القديمة، هي التي تمثل اتجاهات شاعرنا الفلسفية، وخاصة في قصائده التأملية، وهي في نفس الوقت، مفتاح شخصيته كما سبق أن أشرنا.

☆ ☆ ☆

نعود بعد ذلك إلى قصيدة (من أنا؟) فاتحة الديوان، وهي التي تبدو وكأنها تفسر لنا هذه الثنائية العجيبة، في قصيدته السابقة التي يقول فيها:

أنا في حيرةٍ فقد عادَ وصلي مثل هجري، ومأتمي مثل عرسي
وتماديت في الضلال وفي الهدى فَطُهري يقودني مثل رجسي
مَسَّنِي طائف من الخير ليلًا ثم أصبحت أرتضي شرَّ مَسِّي
أفسعدي الذي يَسِمُ حياتي وينمي الشكوك أم هو نحسي؟
أيها الدهر قد شقيت بيومي مثلما قد شقيتُ فيك بأمسي

فالأمس الذي يشير إليه الشاعر، قد يكون أمسه القريب الذي عاشه قبل

أيام، أو قبل سنوات، وقد يكون أمسه البعيد الذي يقول عنه:

منذ عهد من الزمان بعيد   لست أدري عن بدئه وانتهائه!

والواقع أن معرفتنا للأدوار الحياتية التي يتصور الشاعر أنه عاشها قبل أن ترده الحياة لدنياه بشراً بعد طول المسير، تعمق مفهومنا لنفسيته، وللنوازع السلوكية التي يتصور أنها تحدد علاقاته بالبشر.

ففي خلال هذا التاريخ الطويل كان الشاعر: طيراً مرفرفًا فوق غصن مائس باخضراره وروائه، وحواليه ألف لون من الحسن، تناثرن في البساط الرحيب، وحولن الوجود كله روضًا أنيقًا: طرزت أرضه أكف سمائه. وفي غمرة هذه النضرة التي شملت كل شيء حواليه، تحول هو نفسه إلى وردة، تبرأت من الشوك في أحضان الربيع الخصيب..فلمسته الأكف لمس حنان، ورعته العيون رعي حبيب، وعمر طويلًا بنضرته وطيوبه.. ثم تحول إلى غدير عذب، يترامى العشب النضير حواليه ويشدو الغناء الحلو الشجي.. غدير سمح كريم، لم يمنع من الورود لا الطير ولا الوحش، ولا الظامئين من البشر.. حتى روَّعته الحياة فاصبح دوحًا ظليلًا في قلب الصحراء، يشتكي السائر الهجير إليه، ويستروح النسيم العليل إن لاذ به.. ولكنه في هذه المرة، بدأ يعاني مرارة التجربة، فقد كان رأسه يدور من وقدة الشمس ويغلي.. ولكنه لم يفقد إيمانه بالحياة وبالأحياء، فقد كان قلبه رغم ذلك، ينضج بالطيب والشذا والنضرة، وكان سعيداً لأنه، على شقوته كان المكان الجميل، لمن يلوذ به من الأحياء.

وفي الطور الخامس بدأت تقسو عليه الحياة أكثر فاكثر.. فامسى صخرة فوق سلسلة من الجبال الشاهقة، التي تهيم فيها الوحوش، مستكينًا يتلظى تحت وقدة الشمس.. أية شمس؟؟ إنها في هذه الجبال شموس ـ هكذا.. شموس.. وكأن الشاعر وهو يستعرض هذه المرحلة القاسية، من أطوار حياته الماضية، شغل حتى عن القافية، فجعلها سينًا بدل الشين، لأنه كان في شغل عنها، بذكريات العذاب الذي كان يعانيه ويكابده!!

وأي عذاب أكثر من أن يصبح الغمام الذي كان يهزج وهو يترشفه ـ حتى

عاد قطرًا نديًا مثله ـ سحابًا يغري وهو يسح عنصره؟ وان يغدو وليس حوله بعد البشاشة والأنس والهناء، وجه بشوش؟

ولكن المرحلة التالية، كانت في رأيه أعنف وأقسى، فقد تحول رغم أنفه إلى عقاب جارح، لا يعرف من الحرام والحلال، إلّا ما اتفق ورغباته وشهواته.. وكان من الطبيعي وهو الإنسان الرقيق الشعور المرهف الإحساس، أن يصرخ من أعماق قلبه:

أي روح هـــذي الــتـي تــنـشـــد الـعـــيش رخيًا.. فــتــزهـــق الأرواحا

وتوسل للحياة.. فأعادته بعد هذه الرحلة الطويلة المضنية إلى دنيا البشر.. لتبدأ المشكلة:

فهو لا يعرف غير اليسير عنهم، وهو غريب ليس ينكر أنه يخاف مصيره بينهم، وهو مع ذلك يحيا على أرض لم يكن من أهلها، بعد أن عاش شكولًا من الحياة، في جنة وجحيم. ولذلك بدأ يتساءل:

أفي الناس سعير يذيبهم كسعيري؟ ولكنه بدأ ينفصل عن عالمه القديم، شيئًا فشيئًا.. فأخذ يشكك فيه، وفيما بقي له من آثار:

أفــأمــســى قــد كــان مــنــي وإلا لم يــكــن فــهــو رحــلــة في الــســديــم؟
قــد تــولى فــلــم يــعــد غــير حــس بــاهــت. بــاهــت.. كــكــلّ قــديــم

ويمضي به المطاف، ليعرف انه مثل الألوف في هذه الارض، رسيف ما بين شتى القيود، فيعود يصرخ من جديد، ولكن كإنسان يحس بآلام البشر:

أيُهــذي الــســدود.. هــل نــصــرم الــعــمــر هــبــاء.. ونــحـــن خــلــف الــســدود؟

غير أن نزعة الشك والحيرة تعود وتطغى عليه فيؤكد غربته عن دنيا البشر، ويستعرض بسرعة الأطوار التي مر بها، ثم يتساءل:

أي عــمــر هــذا، وهــل كــان خــيرًا.. يــشــتــهــيــه الأنــام أم كــان شرا؟
وأنــا مــن رأي الــحــيــاة أفــانــيــن وحــيــدًا،؟! ام الخلائــق طــرا؟

وتنتهي القصيدة بهذه الأبيات الرائعة:

يا غريبًا عن الديار.. عن الناس عن الخلق كلهم أجمعينا
يا وحيدا طوى السنين.. فراضته وما استطاع أن يروض السنينا !
خل ذكراك.. ليس في الأرض ذكرى مثل ذكراك تستثير الشجونا
إنها أنت.. حين كان بك الغيب ضنينا.. وكنت فيه جنينا
نمط - كان للزمان - فريد ثم شاء الزمان أن لا يكونا

هذه هي الخطوط العريضة للقصيدة، تشكل لنا في مجموعها ملامح إنسان يشعر بغربته بين بني جنسه، ملامح إنسان حائر متشكك، لم يزده اقترابه من الناس إلا بعدًا عنهم. ولم يتح له مزاجه الفني الخاص، ان يضع الحدود الفاصلة بين الخير والشر، والقبح والجمال، أو بتعبير آخر لم يكيف نفسه كفنان، ليتجاوب واقعيًا مع منطق الحياة ولكن قصيدته: (ازميل وتماثيل) تقترب به كثيراً من الواقعية، فهي معرض يضم في رحابه عددًا من التماثيل الصغيرة التي نحت الكثير منها بدقة وبراعة.. فهناك مثلًا تمثال الشاعر وهو ينحني على الغدير، ولكنه يدير وجهه عنه وهو يقول:

عفتُ الغدير - وما يُعافُ.. لأنني حاولتُ شُزب نميره فتمنعا !

وهناك تمثال الذي هفت به الذكرى إلى آماسه، بعد أن وهَى بنيانه وتصدع.. وتمثال المغرور الذي تغلغلت في نفسه اسطورة، لم تبق فيها موضعًا للحقيقة.. وتمثال الحسناء الجامحة، التي جمد الشاعر حين رآها تنضو حجابها بوقاحة أذهلته.. وأخيراً صورة مجسمة لموطن الأحرار، الذي تقف الجبابرة خشعًا عند بابه، والذي نرنو إليه بحاضر متوثب، يأبى الطموح عليه ان يتسكع.

وفي قصيدته (غربة الروح) جوانب جديدة من حيرته وشكوكه، وسخطه على الناس الذين يعايشهم، ويتطلع إلى الحياة معهم في حب وصفاء فيهتف:

أين أرواحكم فإني حزين شدَّ ما راعني الفراق المبين؟ !
أين أرواحكم سئمت من الوحـ ـدة واشتقتُ ان تحين المنون؟

لقد أنكرت ميوله حاضره، وهزته لماضيه رجفة وحنين، وتلفت يرتجي نظرة الحب، فخابت ظنونه مما ارتجى، وحوله نطاق من المكر والتملق ترتد عنه

العيون، كلما شاء أن يلوذ باوهامه وهو يواجهه أبى عليه يقينه وإيمانه. ويقول:

إن كينونتي لتضرب في الأر ... ض فما يعرف الورى من تكون !
نال منها السرى.. وضعضعها الأ ... ين وجاق الهوى.. وعق الخدين !
هي في غربة تحن إلى الإلف ... ولو قادها إليه الجنون !

يا لبؤسه.. لقد رضي التفاهات ولكنها لم ترض به.. واكتنفته الحيرة من كل جانب:

قال انه مثقف فرموه بالغرور، وازدهى بحسه الأصيل فثار الضجيج من حوله، وبكفاءته فرموه بالتطاول والجنون، وبأنه دؤوب ووفي وصفوح ووديع وطموح وسخي، فاستفز اضدادها من الطبائع البشرية المنحرفة ولم تلاقِ روحه التي تجيش بالحب للناس.. وتدعوهم إلى مقابلته بالمثل، إلّا:

لقيت شر ما يلاقي المحبو ... ن جزاء يبدد الأحلاما

ويختم قصيدته بقوله:

ايه يا روح انه القلق المض ... ني جنينا من روضه الآلاما !
هو زيت النبوغ، يلهب مسرا ... ه فيطوي الأمداء والأعواما
لا يبالي أوخده واصل السي ... ر أو أنّ الطريق ضج زحاما؟

ثم يقول بعد ذلك:

إنما نحن في الحياة أساطيـ ... ـز وَوَهْمٌ يُساير الأوهاما !

وفي قصيدة (مجد الطهر) لون من ألوان الإنسانية المحلقة، في شعر الشاعر ونوازعه الخلقية.. هي قصة سيدة في ريعان الشباب أصابها الزمن في (بعلها) وكاد لها وقاومت بشمم كل مغريات السقوط والانحراف، فلجأت إلى الشاعر تسأله عملًا يدفع عنها غوائل العوز والحاجة، ومعها أطفالها الصغار.. والقصيدة ـ في الواقع ـ مترعة بعدد كبير من الصور اللطيفة المجسمة.. وبالأبيات المختارة. منها صورة الفتاة المتهالكة، التي توشك أن تنهار على الأرض، من شدة الإعياء والسغب، لولا بنيانها الوثيق، وكأنها زجاجة مشروخة ولكنها متماسكة، والقامة المتأودة بما حملت، وكأنها غصن

يميل بعوده الحمل والبيت الذي يقول:

كالبُرعُمَين نضارة.. وشذى فإذا رأيت.. رأيت ما يحلو

أخْصَبْت لا أمْحَلت... والفضل يعرف من مخائله... إلى غيرها من الأبيات المتينة السبك الصافية الديباجة.. وان كنت أحب أن أسجل هنا، ان حسن الفتاة الذي (طمع) فيه الغلام والنبيل والسفيه، كاد أن يذهب بلب شاعرنا الكريم، غير أنه:

أغضى لها.. ورأى بمقلَتِها جدًا.. يذوب أمامه الهزل

وعلى أية حال.. فقد:

أعطى.. ولم يأخذ.. وكان له ماض يساوم حبه قبل

وننتقل من هذا الجو الخضل الندى، إلى جو آخر، كله جدال ومنطق وفلسفة، لنناقش مع شاعرنا الكبير قضية الفروق الطبيعية بين الطبقات، وتفاوت الناس في القوة والضعف، والقبح والجمال، والحصافة والغباء.. وهذه القصيدة[١] هي الوحيدة في الديوان التي تبدو وكأنها نظمت على طريقة الشعر الحر، فقد احتفظت بالأوزان والقوافي، ولكنها (أخذت حريتها) في عدد التفاعيل.. وبالرغم من أن لي في الشعر الحر رأياً معروفًا، غير أنني أؤكد أن الحس الموسيقي لدى الشاعر، استطاع أن يملأ كثيراً من الفجوات التي توجد عادة في مثل هذا الشعر.. وتبدأ القصيدة هكذا:

يا للّتبابْ

يا للتنابز والسبابْ

يا للفضائح تزكم الآناف في وضح النهارْ

ثم يقول:

أي الفروق؟

ليست فروق الجنس.. ليست فروق الدين.. ليست فروق المال والأمجاد:

---

(١) قصيدة (فروق) ص ١٢٤ من ديوان الشاعر.

لكنها.. تلك الفروق..

فروق موهبة وعقل..

فروق أخلاق وفضل..

لابد أن يمتاز أهلوها..

وان يتفوقوا..

أو قل.. على الدنيا السلام..

على العدالة والوئام..

ونأتي إلى قصيدة (وساوس الإيمان).. لنناقش مع الشاعر عددًا من قضايا الوجود: الثراء، المجد، الشعر، الدين، العلم، الحب:

وما عدت أسعى للغنى تستفزني   إليه حماقات عمتها نقودها

فليس بمجديني.. وكم من غني ـ الخ ـ ثم هذا البيت الجميل:

ويا رب نعمى لو كشفتْ غطاءها   لولى فراراً من قذاها حسودها

أما المجد فليس إلا صبوة طامح إلى قمة غير مأمونة.. بالإضافة إلى ملاحظة أخرى:

وكم ناعم بالمجد لو ان مجده..   تعرى.. لضجت في السماء رعودها

والشعر ليس من شك في أنه ليس في تجليه إلا نغمة سماوية ما يستفيق المغرم بها.. وإن كان يفقد قيمته الحقيقية حين يغدو حبالة قانص، لا حافز له من الروح، ولا صلة له بالسماء، أو حين يغدو مجرد لغو لا سند له من الإحساس الصادق أو الإدراك الواعي.

والدين ليس في الطقوس وحدها وإن أغرت مظاهرها، ولكنه إشراقة الروح الهادية، التي تصر على أن تسير على الطريق إلى نهايته، حين تطمئن إليه، وان واجهت العقبات والحتوف.

وللعلم آيات تبدَّت نحوسها   فهل تتبَّدى للعيون سُعودها؟

إذا العلمُ لم يحمِ السلام فإننا   طرائد بلوى ليس ينجو طريدها

والحب..؟ ما قيمته ان لم يشمل الكون كله، ويسمو بأوطار الهوى

ويقودها.. ثم حديث قصير عن الحب وعن الفاتنة النشوى التي تكيد بسحرها، ولكنه تصدى لها من سحر شاعرنا الكبير ما يكيدها:

لنا نظرةٌ في الحب الا تصيبنا تفاهاته.. إلا تهاوت بنودها

وبعد ان يتساءل عن مصير الأرض، بعد أن أصبحت كفة حابل، مسدودة أغوارها ونجودها هل ستستقر على شاطئ الأمان، أم سيبتلعها الموج الهادر.. تعود فتلفه وساوسه وتطغى عليه الحيرة فيقول:

لقد بت ما أدري الحياة أم الردي سبيلي إلى أرض يطيب صعيدها؟
وهل تتمنى النفس ان يعصف البلى بها دون رجعى. أم مناها خلودها؟

وقد كان أقوى مقاطع القصيدة، من زاوية المنطق الشعوري، مقطعي الثراء والمجد ثم المقطع الذي يتحدث فيه عن العلم ومشاكله.

أما في قصيدة (نفس تبحث عن نفسها).. فيطالعنا فيها الشاعر بوجه جديد، لقد تعودنا منه أن يكون الضحية دائمًا، فيقول ان نفسه:

قادها الناس للزهادة في الناس فعاشت في وحدة المستريب

ويتحدث عن مأساته مع المجتمع في قصيدته: (أشباح) فيوجه أصابع الاتهام كلها إلى الناس الذين يعايشهم.. أما في القصيدة فهو يقول:

ويح نفسي أرى رفاقي.. فما أبصر فيهم.. إلا نقاء وطهرا
أ أنا الخاسر الوحيد.. فما أزجر نفسي عن الغواية.. زجرا؟
أَلَهُمْ أنفس يباركها الخيرُ فتصفو؟ ! وما يبارك شرا؟
أم هو الداء قد تمكن حتى عافه طبه.. كما عاف قبرا؟
وهو اليأس.. ما يرجي من الإثم نجاة.. وما يرى فيه نكرا؟
كلما شده إلى الخير حبلٌ بترته يد الغواية بترا

ويقول بعد أبيات:

شع بالشيب مفرقي وبنفسي جنبات يرتد عنها الشعاع
أجبان عن الهدى وشجاع في الهوى.. بئسما يكون الشجاع؟!
يا رفاقي ودعتمو اللهو من قبل فما لي يهول نفسي الوداع

والعجيب بعد هذا كله، ان هذه الصرخات الباكية، لم تكن تنبعث من ضمير جنى عليه الإثم والضلال، كما يتبادر إلى الذهن، وكما هو المفروض، ولكنها انبعثت من نفس تشعر بأنها (مظلومة). مظلومة أيضًا في هذا الموقف الجديد، بالنسبة لقصائد الديوان، أو انها على الأقل، لم تكن تشعر بالمتعة الحقيقية وهي تقارف الاثم:

لو تمتعت ما شكوت ولكن.. فاتني - رغم ما ارتكبت - المتاع
فأنا الخائب الذي عافه الإثم.. ولكن جنى عليه السماع؟
وأنا.. من أنا ومن أنت؟ إلَّا.. مركب قاده - فسار - الشراع

أعترف، بأنني أنا نفسي أشعر بأنني أتخبط في دياجبر مدلهمة، أحاول أن أتلمس فيها طريقي، فمنها حاولت أن أبرر هذا التردد بأنه ليس من الضروري أن يكون رفاقه كما تصور، قد استطاعوا الارتفاع عن الحمأة التي كانوا يعيشون فيها، ولكن أثقال الإثم التي ناء بها هي التي صورت له هذا الوهم، مهما حاولت ذلك فإنني اصطدم بالبيت الذي يقول:

يا رفاقي ودعتمو اللهو من قبل فما لي يهول نفسي الوداع؟

فهناك ـ كما يقول ـ رفاق كانوا يسيرون معه على نفس الطريق ـ ولكنه:

قد تلمست في الدياجي طريقي.. ومشيتم.. والشمس تسطع ظهرا

وذلك مما يؤكد لنا، ان مفتاح شخصيته هو ما سبق أن أشرنا إليه (نفس تبحث عن نورها) وبهذا وحده نستطيع أن نوجد التناسق بين شتى الأحاسيس والمشاعر، التي تخالجه وتستولي عليه. ففي القصيدة بجانب الجبرية الواضحة، تطلع إلى النور، ومحاولة لتأكيد الذات:

ربما كان لي غدي.. فإذا الأمس رماد.. تذروه هوج الرياح
فإذا بي.. بعد التعثر في القيد.. شديد الرضى.. طليق السراح

وهو حينما يتصور الحياة بعد ذلك، وقد تجسدت له فرآها مثله مثل بقية الناس، شبحًا من الأشباح، لا حول لها ولا قوة، عزلاء، لا تستطيع لنفسها نفعًا ولا ضرًا، درة في الفضاء، لا تعرف مصيرها. وحينما رآها (وقد

تجردت من وشاحها) لعبة القضاء المتاح، وتبين في ملامحها الضعف فكفكف فرحته ونواحه، وأصبحا سواء في الخيبة والنجاح، حينما يتصور الحياة على هذه الصورة لم ينس أن يقول ان الحياة قالت له:

وتراني. مثل الألوف من الناس. فتخشى.. أسنتي وصفاحي

وكان من الطبيعي وقد أدرك أن الحياة على هذه الدرجة من التفاهة، وانها ليست غير هباء يسير خلفه الهناء الذين هم الناس، وسراب لا يبل غليل الظامئين، ورداء يخلب اللب، ولكنه رداء الفناء وصغار يهوي إلى الأرض بالناس، فيفوتهم مجد السماء.

ظنه الناس كبرياء فلما.. عرفوه.. بكوا على الكبرياء

كان من الطبيعي ان يسترد ثقته بنفسه، فيهتف:

نحن مَنْ صَنَغنَا سُموًا وخفضا.. ومتاعاً.. بالنسك والإغراء

فلماذا نضيق ذرعا بما نصنع.. حتى نضلّ في بيداء؟

فإذا ما احترق من وهج الاثم فماذا يجدي بكاؤه عليه، ثم كيف يشكو جنته وجحيمه، وعلته ودواؤه من صنعه؟.. ويهتف:

أنا من آثر المتاع على الزهد فويلي من شقوتي.. وهنائي

ولقد لُذتُ بالرضى وتوخيت سلامي.. في الحب لا في العداء

وتجردت.. وانطلقت أجاري.. صبوتي في الوضوح لا في الخفاء

ونحس بعد هذا الاستعراض السريع للقصيدة، ان الصراع العنيف الذي عاناه الشاعر، في بداية تجربته الشعرية، قد خف أواره وخبت حدته، بل إنه استحال إلى رضى وسكينة وسلام، وإنه تمكن في النهاية، من تفريغ الشحنة العاطفية ذات الطاقة العالية، التي كانت تثقل ضميره، وتقلق روحه، وتعكر صفو لياليه، وتلك ـ في الحقيقة ـ هي وظيفة الفن. وبغير هذا التفسير النفسي لمراحل التجربة، من بدايتها إلى منتهاها، سنحس بكثير من التناقض والحيرة ونحن ننتقل من مقطع إلى مقطع، بل وفي المقطع الواحد أحيانًا.

وتغلب على شاعرنا الكبير روح الفلسفة والتساؤل، حتى في الموضوعات التي تبدو وكأنها بعيدة عن الفلسفة وعن متاهاتها. ففي القصيدة التالية: (مرآة الخريف) وفيها يتقمص شخصية حسناء كانت تفتن بسحرها الألباب.. تقف على أنقاض الربيع الراحل، لتقرع السن بالسن، وتقلب الطرف فما ترى سوى وحدتها الصماء، وهي تفترس المنى وتلقي بأحلامها إلى ظلمة السجن، سوى الحسن بعد ان ولت نضرته وتوثبه، وعاد بلا طعم (يذاق) ولا لون، سوى طلل بالٍ تمر به الرؤى سراعًا، وليس يبقى فيه سوى الأثر المكفهر الداجي.

تطوف برأسي ذكريات مريرة ... فتلقي على روحي، ظلالًا من اللعنِ
وتسعدني حينًا، فادعو طيوفها ... ولكنَّني أصحو.. وقد هربَت مني

في هذه القصيدة، التي تقمص فيها بدقة متناهية شخصية الحسناء التي تقف على ربيعها الراحل لا ينسى الفلسفة، فبعد أن تقول الحسناء إنها لو كانت تدري المصير الذي انحدرت إليه لتمتعت بشبابها على هون وهدوء، ولما استنفدت ربيعها بسرعة، تتساءل:

أفي الصدق أرجو من حياتي سعادتي ... فأشدو به.. أم أرتجيها من المين؟

والواقع ان محاولة استعراض القصيدة، قد تؤدي إلى تشويهها.. فقد:

تطلعت للمرآة فاستهولت عيني.. ... مرائى ما كانت لتخطر في ذهني

ثم يبدأ في استعراض التغيرات التي طرأت على الحسناء، ابتداءً من شعرها الذي استحال سواده بياضًا، إلى أن يصل إلى الساقين ثم يعود إلى الزند والمعصم وأعضاء أخرى لم يتعرض لوصفها من قبل.. وكنت أريد أن أقول إنني أتمنى لو أمسك الشاعر بهذه الأعضاء بالترتيب حتى يصل إلى الساقين مثلًا، غير أنني أعتقد أن هذه الطريقة التي لجأ إليها قد تدل على التحسر والألم، أكثر مما لو راعى تسلسل الأعضاء وترتيبها. فبعد أن تحدث عن الشعر الذي غزاه الشيب قال: وكان قوامي السبط كالرمح فانحنى، وخصري تناهى في النحول، وقد كان وجهي في الدجنة كوكبا، ونفاثتا سحر كعيني ما اشتهت عيون، وأنفي متطلعا كأنف كليوباترة، وقد

كان صدري شامخًا متوثبًا، وغصني محملًا بالثمار، ونهداي أشهى ما تطالع في هذا الغصن، وردفاي هزا النهى باهتزازهما، وساقاي لما تستفق من ظلالهما النواظر، وكم زهوت بمعصم يكاد يسيل من النعمى، وزند كنور شف عنه غلافه، وجيد أين منه ظبي الكناس وجيده، وكل ما أوحت به روعة الفن، ونحر تخال السحر في قسماته، وثغر كالربيع الضحوك (وظهر تندي بالعبير!)، وبطن يشبه الحرير في ملمسه، وضبن يتأرج المسك من نفحاته، وبنان رخص في لطافة الورود، ولكنه أحلى من المنّ عند اللثم، وشعر أثيث كالدجى المدلهم، ترتمي غدائره في كبرياء على على حضني، وبشر يسبي المتحنث ويدعو الموتور إلى الصفح والسلام، وخفة روح تسبي العقول وتذهب بالحزن، وصوت يشبه مزمار داوود في .حلاوته.

وماذا حدث بعد هذا كله؟

وها أنا قد ولى الربيعُ بوشيه — وصَوَّح روضى أقرغُ السن بالسن
أقلب طرفي أين صحبي فما أرى — سوى وحدتي.. كأني بلا خدنِ
سوى وحدتي الصمَّاء تفترس المنى — وتلقي بأحلامي إلى ظلمة السجنِ
سوى الحسن ولي نضرة وتوثبا — وعاد بلا طعمٍ يذاق ولا لونِ
سوى طللٍ بالٍ تمر به الرؤى — سراعاً وما يبقى سوى الأثر الجونِ

تطوف براسي... وتسعدني حينا....

ولكن روح الفلسفة والتساؤل، كانت في هذه القصيدة طبيعية جدًا، لأنها لم تكن كما عودنا الشاعر في قصائده الأخرى، تطلعًا للمجهول واستكناهًا لأسراره، ولكنها كانت صراعًا في صدر الحسناء بين موقفين تفرض عليها حتمية الظروف التي تعيشها أن تختار أحدهما، موقف الرضا بالأمر الواقع وتقبله، وموقف الإصرار على مغالطة نفسها، والتمويه على الناس، وإن كان يبدو لي أن الوضع بالنسبة لهذه الحسناء، بعد أن تغيرت هذه التغيرات الجذرية، لا يحتمل هذا الصراع، ولكنها حواء مهما كان الأمر، حواء التي لا يمثل المنطق من وجهة نظرها الا التأكيد على قيمتها كأنثى، مهما عصفت بها رياح الخريف.

ننتقل بعد ذلك إلى لون آخر من ألوان الشعر في هذا الديوان، هو الشعر الذي وضع له عنوان: (عروبة وإسلام)، وعروبة الشاعر وإسلامه، قضية لا تحتاج إلى جدال. ففي القصائد السبع، التي ادرجت تحت هذا العنوان، أكثر من دليل على عروبته الأصيلة وإسلامه الحق.

أولى هذه القصائد، قصيدة: (من وحي النبوة)، وهي قصيدة طويلة تبلغ أبياتها مائة وتسعة أبيات افتتحها بقوله:

كسرت اكوابي وعفت شرابي وزهدت في لهوي وفي أصحابي
وتطلَّعتْ عيني إلى مستشرف عالي الصروح.. مقدس الأعتابِ
تتواثب الأنوار فيه.. كأنها أسراب طير فوق خضر روابي

وبعد ان استرسل قليلًا في وصف المقام الشامخ الرفيع، اختتم الجولة الأولى من القصيدة بقوله:

إن الصبابة لا تكون تباهيا بالحب أو هي نزوة المتصابي
اغفيت بين هوىً وبين عقوبةٍ وصحوت بين هدىً وبين ثوابِ
فطفقت الثم - في الخيال - انامـلًا قلبَتْ نعيماً شقْوتي وعذابي

ثم أخذ يناقش أعداء الرسالة وخصوم الرسول، محتجًا ببعض معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، مثل نسج العنكبوت على الغار، ونزول جبريل عليه السلام، وانشقاق القمر، ثم استدرك فقال: إنه لا يعدد مآثر النبي لأنه عليه الصلاة والسلام وراء كل حساب، ومن كان كماله من الله، كان الكمال نفسه من طلابه، واختتم هذه الجولة بالبيت الجميل:

من كانت الأقدار ترسم خَطَّه ذاق الحلاوة من مرير الصاب

واستعرض في الجولة الثالثة الآثار الكبيرة التي تركها عليه الصلاة والسلام في أصحابه والمهتدين بهديه، الذين كانوا لولا الروح التي نفخها فيهم، مجرد معشر من الأعراب، لا يؤبه بهم ولا يقام لهم وزن.. ولكنهم بهديه وبرسالته التي جاءهم بها، تواثبوا للمجد بعد تخلف، وأخذوا بأسباب الحضارة، وأتوا بما يذهل العقول ويحير الأفئدة، حتى لقد تزلزل عرش كسرى، وهوى قيصر، واختتم المقطع باستعراض بعض المزايا، التي يمتاز

بها معشره وصحابه.. صلى الله عليه وسلم.

وطفق بعد ذلك يستعرض أسماء بعض هؤلاء الأبطال المغاوير مع ما عرفوا به في التاريخ الإسلامي المجيد:

هل قام كالصديق من متبتل — أو عادل كقرينه الخطاب

أو مثل عثمان، أو مثل حيدرة، أو مثل خالد، أو مثل عمرو، أو كابن عباس، أو مثل بلال.

فهم النجوم نسير في أضوائها — أيا تبعت.. تبعت خير شهاب

ضرَبَتْ كتائبهم بكل تنوفة — ومشت مراكبهم بكل عباب

غير أن الذي آخذه على شاعرنا الكبير في هذا المجال هو أنه اعتبر ان كل انتصارات المسلمين، في بداية التاريخ الإسلامي، كانت قائمة على المعارك الحربية، إن لم تكن فيها كلها ففي معظمها، وإن الفتوحات الفكرية لم تبدأ إلا بالمعري والغزالي.. فهو يقول بالنسبة للصحابة الذين استعرض اسماءهم فيما سبق:

ومضوا بأطراف الأسنة والقنا — يبنون... لا بيراعة وكتاب

ويفلسف هذه الفكرة بقوله:

المجد أوسطه اليراع محلقًا — لكن أوله من القرضاب

ان النجيع هو الخضاب لأمة — عاشت لغير تبرج وخضاب

ولقد اتت اقلامهم بعجائب — من بعد تدحض فرية المغتاب

هل كالغزالي مفحماً بتفلسف — أو كالمعري معجزاً بسوابي؟

مع ان الدعوة الإسلامية لم تلجا إلى معركة السلاح، إلا بعد أن عجز اليراع والبيان، عن هداية الضالين، أو القضاء على نوازع العصبية والكبرياء في نفوسهم وعقولهم، وكانت قبل أن تشهر السيف أو تشرع الرمح في كل المعارك التي خاضتها، تحتكم إلى المنطق وإلى دعوة الخير والحق والسلام.. بالإضافة إلى أن نزعة الفلسفة والتساؤل عند شاعرنا الكبير، أبت عليه إلا أن يضم المعري والغزالي معًا وفي بيت واحد، على بعد ما بينهما في الوسيلة

والهدف والاتجاه العقائدي.

وبعد أن ينتهي من هذا الاستعراض السريع لبعض رجال الدعوة وحماتها، يلتفت إلى المسلمين الذين تنكبوا طريق الدعوة وتنكروا للإسلام فيقول لهم:

عودوا إلى الإسلام إن سبيله ... ما تلتوي في جيئة وذهابِ

فقد تلطخت المسالك والسبل بالدماء، واعتز حماتها بالأسلاب، ونبذوا التراحم فيما بينهم، حتى لجأوا إلى استعمال كل وسائل الإرهاب والعنف والقسوة... ويقول:

لم يعرف الإسلام أن رؤوسه ... دِيسَت بلا حرج من الأذناب

أو يعرف الإسلام أن أخوة ... كانت مَثَار تشاحن وسباب

ويرسم صورًا سريعة نابضة للمآسي الموجعة التي استحالت إلى مهازل والدرك المنحط الذي تهاوى إليه الكثير من المسلمين، في هذا الزمن الذي استشرى فيه الباطل، وسيطرت البغضاء والشحناء، وضاعت كلمة الحق، ثم يقول:

يا مَنَ أتيتَ من السماء بملّةٍ ... تهدي العقول بمنطق خلاب

ملأت بقاع الأرض حكمة سرمد ... وسلام آبادٍ وخلْدَ شباب

وبعد أن يستطرد بعض الوقت في إبراز الخطوط العريضة للدعوة الإسلامية، يقول: ما أشد سعادتنا بهذا الدين، فلو لم نحد عنه، لبلغنا في رفعة الشأن وعلو المنزلة ما بلغه الأجداد في سالف الأحقاب، وأخذ يعدد بعض مفاخر الإسلام ويناقش اليهود والنصارى في كفرانهم بصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، مع أن الانجيل بشر ببعثته الكريمة، والزبور والتوراة لقباه صلى الله عليه وسلم باشرف الألقاب.

ويعود يتساءل عن مصير الإسلام، بعد أن أصبح في غربة، وأعرض عنه أصحابه إلى مسترذل العقائد والأهواء، ويقول لقد صدق النبي، فها هو ذا الإسلام يعود غريبًا كما بدأ، وها هم المسلمون قد أعرضوا عنه..

هذي العقائد كلها محمومة ... من حقد موتور وزيف محابي

عكفوا على أهوائهم فرقابهم ... ما تنحني إلا لشر رقاب

مـا مجدهـم إلّا سعار خلاعـة ... أو وحـيـهـم إلّا خمار شراب
أو وكـدهـم إلّا ثمار منـافـع ... أو عـلـمـهـم إلّا قـشـور لـبـاب

ويفلسف شاعرنا الكبير، استمراءهم للانحراف والسقوط بقوله:

إن الحمـائـم قـد يـعـاف هـديـلـهـا ... مَنْ ليس يطربه سوى التنعابِ

ويعود فيتحسر على ما تكابده الأمة الإسلامية، من كيد المنتسبين إليها، ولؤم أبنائه الذين يساومون على مقدراته، فأمتنا:

رزئـت بـإسـلامـيـة.. وعـروبـة ... نـكـراء تـطـرب للدم المنـسـاب
رزئت بها دعـوى تـطـن عـريـضـة ... بـرئـت مـن الأديـان والأحـسـاب
من عصبة لا تستجيب لدينها ... حـقـا.. ولا لـعـروبـة الأصلاب

فهي ليست تستقيم لها غير آرائها، حتى ولو كانت طنين ذباب.. كما أن العنف مركبها إلى غاياتها: (والعنف مهما رضت ـ شر ركاب) ويثور على المارقين الملحدين، الذين ينسبون انحرافاتهم وعقائدهم الممسوخة إلى الإسلام ويعوون عواء الكلاب لنصرتها، فيقول انهم لو صدقوا لقوبلت دعواهم بالترحاب، ولكنهم كذبوا فيما زعموا وفيما ادَّعوا، فالشمس لا تخفى على متطلع، ولو أنها استترت وراء السحاب.

وفي غمرة الأسى والألم والتمزق الذي يشعر به، لا يجد له ملاذاً غير الله، يبثه شجنه وشكواه:

يـارب أنـت مـلاذنـا مـن محنـة ... قـذفـت أمـام عـيـونـنـا بـضـبـاب
كيف السبيل إلى اتقاء كريهة ... ركـب الحمـير بها مـتـون عـراب

فلقد جاء أحمد المصطفى بالإسلام، وبشريعته الواضحة السمحة، التي لا تحتمل اللبس ولا الإبهام ولا الغموض، منها ياربّاه، فكم لها من أعداء ومن خصوم.. و:

كم من دعي يستمد نفوذه ... مـنـهـا.. ويطعنها وراء حجاب

ومن هنا تنبع المشكلة الحقيقية، التي يعاني منها الدين، ويقاسي المسلمون من ويلاتها، فالمصاب الذي يلحق بنا من المجاهرين بعدائهم وخصومتهم،

مصاب هين من السهل تداركه والتغلب عليه، لأنه يلبس لباسه الحقيقي، والواضح المعروف. أما المصاب الذي يخشى منه فهو المصاب الذي يجره المنافق، بتستره ومراوغته وتحطيمه لكل المقدسات والشعائر، وهو يلبس مسوحها، ويتكلم باسمها، ويؤكد للناس أنه حاميها المخلص وراعيها الأمين. وقبل أن يختتم القصيدة لم ينس أن يخاطب الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو في موقف الخشوع والضراعة لله عز وجل ملتمسًا منه الشفاعة، فلن تعوز الله وهو الرحيم عقوبته، ولن يعجز الله وهو الكريم ثوابه.

وبعد هذه الرحلة الطويلة، التي استغرقت مائة وتسعة أبيات، مع مفاخر الرسالة ومعجزات النبوة ـ وإشراقة الإسلام ـ وأمجاد التاريخ، كان من الطبيعي أن يختتم الشاعر قصيدته بقوله:

إني لأشتم العبير.. كأنما تتنسم الدنيا عبير ملاب

فأنا هنا وكل القراء فيما أعتقد... كنا مغمورين بهذا العبير السماوي الأخاذ، وقد حرصت على أن أظل معهم أطول فترة ممكنة، ونحن نقرأ هذه القصيدة، لأنها نشرت أول مرة قبل حوالي خمس سنوات[١]، ثم أعيد نشرها قبل سنتين تقريبًا[٢]، وليس من شك في ان النذر الرهيبة التي تحدث عنها شاعرنا الألمعي عندما نشرت القصيدة أول مرة، قد استشرت وازداد سعارها وطغيانها، مما حتم علي أن أقف وقفة طويلة ـ نسبيًا ـ مع هذه القصيدة. ومن رحاب محمد، نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، ننتقل إلى مشارق النور في مكة المكرمة. فللشاعر قصيدة عن أم القرى، اقترح عليه نظمها الأستاذ عبد الله عريف ـ أمين العاصمة ـ معارضة لقصيدة تماثلها في الوزن والقافية عن جده للشاعر الأستاذ حمزة شحاتة كما يبدو من طريقة معالجة شاعرنا الفقي لموضوع قصيدته.. وليس هنا مجال المقارنة بين القصيدتين ـ بالطبع، ولكنني أحب أن أشير إلى أن صاحب الديوان حرص في قصيدته على ألا يشيد إلّا بالناحية الروحية وحدها، وأن يركز عليها بعمق، بالرغم من مظاهر الحسن المتعددة التي كان في استطاعته أن يشيد

(١)، (٢) لم نتمكن من الوقوف على معرفة تاريخ النشر.

بها. ونقطة أخرى أحب ألَّا ترغمني المجاملة على الإغضاء عنها هي أن كثيراً من أبيات القصيدة، تنم بوضوح عن هذه المعارضة، فهناك مثلًا:

ما تبالين بالرشاقة والسحر فمعناك ساحر ورشيق

و ما أباهي... بالحسن فيك على كثرة ما فيك من مغانٍ تشوق

و قد تركت... البريق للبلد الخامل ماذا يجدي عليك البريق؟

وابيات أخرى كثيرة.

حتى لأكاد أُتصور أن هذه القصيدة، لم تنظم إلَّا لمعارضة تلك، وهذا ما أعطى القصيدة ـ في نظري على الأقل ـ صبغة تقريرية، كنت أتمنى لو خلت منها. فقد تغلب المنطق والجدل فيها على الإحساس والشعور، وكانت كلها تقريبًا على طريقة: (لا أنا أحسن منك أنت كده وأنا كده!)، مع أن شاعرنا الكبير لو ترك لخياله ومشاعره العنان كما فعل في الكثير من قصائده الأخرى، كقصيدة (من أنا؟) مثلًا، وتحدث عن مكة المكرمة والبيت العتيق، من أغوار الزمن السحيق، وعاش فيها (بقلبه) مع إبراهيم الخليل عليه السلام وهو يرفع قواعد من البيت وإسماعيل، وقصة السيدة هاجر وهي تبحث عن الماء في ذلك القفر الموحش الظامئ، وعن عشرات الصور والقصص الأخرى التي تدور حول هذه المعاني، أقول: لو أن شاعرنا الكبير تناول بأسلوبه الملحمي هذه الجوانب البكر، لكان لنا ـ دون شك ـ ملحمة شعرية ـ سامقة تستطيع أن تقف على مشارف الخلود بكبرياء واعتزاز. ولست أنكر مع ذلك أن هذه القصيدة تضمنت بعض اللمحات السريعة المشرقة لهذه الجوانب، فقد تحدثت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، والصديق رضي الله عنه، وشكول من الرجال، سبوق، جد من خلفه، فجلى سبوق، وعن الإغريق والرومان، وعن الخلد الذي مشى مختالًا في ركابها، ركاب مكة، وعن البلاد التي تتيه بما جاءت وتساءل: أجاءت؟ بالذي جئت أم هو التلفيق؟ إلى مكانة ام القرى وقدسيتها، ولكن من أهم الملاحظات التي احب ان اوردها قوله:

درج المصطفى عليك فأغلاك وأغلاك.. بعده الصديق

فإن أول ما يتبادر إلى الذهن، أن المصطفى صلى الله عليه وسلم أغلاها.. لأنه درج عليها.. وليس هذا ــ بالتأكيد ــ ما يهدف إليه الشاعر، ولكن صياغة البيت تشعر به. بالإضافة إلى أن الصبغة التقريرية أو اللهجة الخطابية، هي التي تسيطر عليها تقريبًا.

وما أبلغ الشاعر وهو يختم القصيدة، فيقول:

ما تأنقت في المقال. ففي سحرك   معنى - يعي المقال - أنيق

واللسان الذليق يعجز أحيانًا   إذا أحصر اللسان الذليق

حقًا ان البيان مهما بلغت مكانته وقوته، يقف أحيانًا مكتوف اليدين، مطبق الشفتين، تجاه العظمة الساحقة، تلفه بجناحيها في شموخ وجلال، فلا يملك إلا أن يغض ناظريه ويخفض جبهته و... يسجد... لخالق الكون ومبدع الحياة.

☆ ☆ ☆

ومن أغوار الزمن السحيق، نعود إلى هذا العصر الذي نعيشه.. من مكة المكرمة شرفها الله إلى رحاب جزيرتنا العربية العتيدة، لنحتفل مع الشاعر بيومنا الوطني، وهو ما درجت الأمم والشعوب في مختلف بقاع الأرض على تسميته بالعيد الوطني.. والتسمية الأخيرة دون شك، لا تتناسب مع تراثنا الديني الأصيل، مما ألجأنا إلى التسمية الأولى.

في هذه القصيدة بدأ الشاعر أولًا بتعريف هذا اليوم:

هو يوم بداية التوحيد.. فيه تمت على يد الصنديد

وبسرعة البرق، نقلته عملية تداعي الخواطر والذكريات ــ كما يعبر علم النفس ــ إلى مآثر هذا البطل الصنديد، فأخذ يتحدث عنه:

لم يكن يعرف المحال من الأمر..   اذا سار في الطريق الحميد

وغلبت الشاعر طبيعة الحكمة والفلسفة في شعره، فأخذ يضرب الأمثال:

ليس في هذه الحياة محالٌ.. يتصدى أمامَ عزمٍ شديد
يتهاوى المحال حين يرى العزم.. تهاوى الجدار تحت الحديد

ثم عاد إلى سيرة البطل، موحد الجزيرة، المغفور له الملك عبد العزيز، ومآثره الجليلة في توحيد الشمل ورفع البناء، وتهيئة وسائل العيش الرغيد لأبناء شعبه، وكفاحه في سبيل الدين والعروبة حتى:

رددت ذكره القلوب فأمسى هانئًا بعد موته بالخلود

ومن الليث انتقل الحديث إلى الشبل، الذي ما بعده من مزيد، الشبل الذي يتحلى بعزمه كحد السيف، ورأي سديد في المعضلات، واناة واعية تسير بهدوء وثقة حتى تدرك الفرصة:

ولقد جاء فيصل بعد لأي صامت شفه... وبعد صدود
كان منا القريب بل كان منا دانيًا... دانيًا كحبل الوريد

ويتحدث عن الفيصل المفدي، حديث الإنسان الخبير الواعي، الذي يعرف مواطن العظمة والسمو في جلالته وهي تتمثل في حلمه وإناته وصبره وبُعد نظره، وسعادته في السهر على راحة المواطنين، ونوازع الخير التي تهدف إلى أن تضم كل الوجود، وإصراره على المضي في طريقه ما دام يعرف أنه يسير على طريق الهدى والحق:

ما يبالي بالإفك ما دام يمضي في سبيل الهدى ولا بالجحود

ويختتم هذه المقطوعة بأربعة أبيات، تدور في فلك هذا المعنى، وتمثل له وتستدل عليه، وتقارن بين الصعيد والقمة.. ثم يستأنف الحديث عن اليوم الوطني، بعد أن عرفه في المطلع، ويقول له انه أشرق فينا بكل معاني السعادة، وانه من الأيام العتيدة الباقية على الدهر، وان كل أبناء جزيرتنا العريقة يومنون إليه بالإكبار والتمجيد، ثم يقول له:

أنت رمز التوحيد... رمز الأماني نشاوى ورمز عيش رغيد
رمز عهد يضم كل بديد.. بعد ما ضاق ذرعنا.. بالبديد

وحدة وطدت طريقها إلى المجد، ومهدت من صعاب وحدتنا الكبرى، واستأثرت ـ من أجل ذلك ـ بشرف الإعداد والتمجيد لها:

هـي مـن سـيد الجزيـرة ارهـاص (عـمـيـق)، بـسر هـذا الـولـيد
وهـي مـن شبـلـه جـهـاد (وتـنـسـيق) لـيمـشي الـولـيد عـبـر الحدود
لـيس تـبـقـى عـلى الـزمـان قـيـود حـين يـبـغـي الأحـرار كسر الـقـيـود
حـين يـمـشـون للوصـيد فـيـنـهـار أمـام الأحـرار كـل وصـيد

فسلام عليك أيها اليوم الأغر، من كل نفس تهفو إلى الوحدة، ومن كل قلب ظامئ إلى ورود ينابيعها الثرة الصافية، وسلام عليك من كل حر، ليس يخشى غير حياة العبيد. ويختتم القصيدة بصورة مجسمة جميلة ليومنا الوطني، الذي بدأنا فيه بغرس بذور الوحدة في بلادنا. انه حقل (زرعنا) فيه مبادئنا وأحلامنا وآمالنا، ولم نزرعه عبثًا، ولكن لنجني ما زرعنا، يوم يحين الحصاد.

ومن خلال هذه الصورة الحية التي نلمح فيها نمو الزرع وتطاول الأغصان، يومًا بعد يوم استطاع الشاعر أن يؤكد إيماننا بالوحدة الكبرى المنتظره التي بدأناها نحن هنا (من بلاد التوحيد)، وان يحمل كلانا مسؤوليته في المحافظة على هذه البذور التي بدأت تنمو وتنتشر:

أيها الحقــل مـا زرعـنـاك إلا.. رغـبـة في جـنـاك يـوم الحصـيد

ومن جزيرتنا العربية العتيدة، ينتقل بنا الشاعر الكبير إلى (البسفور) في تركيا، ونحن لا نزال نعيش في صور (الوحدة الكبرى) وآمالها الشامخة العريضة، ولنعبر بهذه الوحدة الحدود الضيقة لجزيرتنا العربية، إلى آفاق أبعد وأرحب، فشاعر يحمل الروح العالية التي يحملها الأستاذ الكبير، يدرك - ولا ريب - ان الوحدة الحقيقية المثمرة، هي الوحدة التي تجمع المسلمين، وتوحد كيانهم، في كل بلاد الإسلام وليست الوحدة العربية وحدها، ولذلك لم يتحدث عن جمال تركيا وروعة البسفور، ولكنه لمس الروابط العميقة البعيدة الغور، التي تربط تركيا بنا وتربطنا بها، والصلات العريقة التي تجعل من تركيا بكل تاريخها وأمجادها ومفاتنها جزءًا من خارطة العالم الإسلامي. فهو لم يكد يبدأ القصيدة، مأخوذًا بسحر الطبيعة ومجالي الجمال، حتى تبدت له الرحاب الخضر قفارًا جرداء، ولم يكد يتطلع إلى

الجنات التي مازالت ترفل في النضر من الحسن والفتنة وفي النضيد، حتى لمح الإسلام وهو يوشك أن يوأد على صعيدها المتهلهل:

هذي الرحاب الخضر.. كيف غدت على الأيام بيد؟

ظلت نضارتها حديثًا، في القديم.. وفي الجديد

لكنما الإسلام أوشك أن يكون بها الوئيد

وهو يقول (أوشك) لأنه يعرف ان الإسلام دين الخلود، وأن من سمَّاه بالعميد:

ما زعزع الإسلام.. ولكن زعزع الجيل الجديد

وأبى عليه إيمانه بدينه وبأبناء هذا الدين، إلا أن يلتمس لمصطفى كمال ـ عميد تركيا الحديثة ـ المعاذير:

ما كان لولا حكمة الأقدار.. يبدئ أو يعيد

لو انه لم يَذعْ للإلحاد.. كان هو الرشيد

فهلا كان يشيد لأخراه كما شاد لدنياه؟! واستدرك فقال: لقد مضى هذا العميد ولكن العقائد لن تزيغ ولم تبيد، ثم قال: إن هذا العميد كالملاك الذي يصبح شيطانًا مريدًا حين يتنمر. وكالسحاب الذي يهطل بالخصب والخير، ثم يفلح بالجليد. فلقد أدى العديد من الأيادي لبلاده ولكنه استرق بها العدد الكبير أيضًا.. وتحدث بعد ذلك عن استبداده وجبروته، واختتم هذه المقطوعة بهذا البيت الجميل:

ما استبعد الأحرار... إلا من تزعم بالعبيد

وتطلع الشاعر يمنة ويسرة، فقد تأرج شذا الإسلام، وملأ جوانحه، ومرت مواكب التاريخ أمام عينيه، تحمل عبق الشهداء وبطولة الفاتحين، ومواقف سلاطينها وملوكها، في الذود عن الإسلام ورفع رايته، والدفاع عن حوضه، ليكون للشاعر هو أيضًا شرف الدعوة إلى الله:

يا جيرة البسفور.. يا فخر الفيالقِ والبنود
يا راية الإسلام.. تخفق في السهول وفي النجود
يا صيحة دوت.. فحطَّمتِ الحواجز والقيود
يا أمةً دانت لها الدنيا.. ونحن من الشهود

ثم يقول لهم:

من طور الإسلام.. هل يرضى لحاضره الجمود؟
العرب والأتراك.. كانوا كالمخافر.. للحدود
ما بينهم نسب يفوق جداه انساب الجدود

ثم يتحدث إلى راية التوحيد فيقول لها: كم وحدت من شتى الجهود، فوشائج العقيدة أقوى من وشائج النسب، ورايتك هي التي تخفق فيتواثب تحتها الأنصار كالفهود، لا يبالون النحوس من السعود، وهم أخوة في الله من قبل أن يولدوا فالإسلام لم يفرق بين الناس مهما اختلفت ألوانهم:

فمتى نعود إلى الوئام.. ونتقي شر الصدود؟
وتعود للإسلام عزته.. كمنصرم العهود؟

ويختتم القصيدة بدعوة حارَّة مخلصة، للتضامن الإسلامي والوحدة الإسلامية الشاملة:

هذي السدود أقامها الشيطان.. فاخترقوا السدود

ومن الطبيعي وشاعرنا الكبير يحمل هذه الروح العالية، ويؤمن بوحدة العالم الإسلامي، أن يحيي المؤتمر الإسلامي الذي عقد بمكة المكرمة في الخامس عشر من ذي الحجة ١٤٨٤هـ، وأن نشعر بكل كلمة في قصيدته وهي تتضوع بالطيب، وتتألق بالفرحة، ويبدأ القصيدة بستة أبيات حلوة، يحيي فيها هذا الوطن العظيم مهبط الوحي ومشرق النور ومنبع الرسالة، يحيي فيها هجير الوطن وظلاله، وماءه وسرابه، والروض والبلبل، والبيد والصخور والرمال، في بيتين منهما فقط، ويختص بالأربعة الباقية ظباء الوطن اللاتي

يسلبن عقل المتيم ويثرن أحلامه وتصوراته اللاتي يبدين زينتهن دون تبرج، ولكنهن فوق مستوى الشبهات:

لو يُشْتَرَيْن.. لجاد كل مغامر لينالهن.. بروحه.. وبماله
لكنهن نفائس.. ما تُقْتَنى إلا إذا أفضى الهوى لرحاله

و(أفضى الهوى لرحاله) كناية لطيفة عن الروابط الشرعية، التي تتيح للمحب أن يسعد بحبيبه، ثم يتحدث عن مفاخر الوطن وأمجاده: هذا الوطن الذي إذا افتخرت العروبة بأمجادها فإنما تعنيه، والذي شأى الأمم وبزها، ويقول له:

عزَّت بك الأحساب قبل محمد وأعزَّك الإسلام بعد كماله
في الجاهلية كنت فخر رجالها ورأى بك الإسلام فخر رجاله

وبعد أن تحدث عن معطيات الهدى والخير والحرية، التي منحتها بلادنا للكون – حسب تعبيره قال:

يا موطن الحسب الرفيع.. وموطن العز المنيع.. ببأسه وخلاله
يا من أضاء الكون نور محمد في أرضه.. فسما به وبآله

أخذ يشيد بصحابة محمد صلى الله عليه وسلم وأبطال الإسلام، وبخلال المروءة والنجدة والشهامة والشورى والتسامح التي عرفوا بها في التاريخ، ثم التفت إلى الوفود التي حضرت إلى المؤتمر، وعلى ملامح وجوهها المشرقة المتهللة، عزائم أولئك الأبطال الميامين، تلك الوفود التي هزتها صيحة أشبال العرين فجاءت إليه، ولبت دعوته وتجمعت من كل مكان، حيث بدت النذر المخيفة تهدد بالويل والثبور.

ولا عجب فليس لموطن يحميه أبناؤه الأحرار، أن يتعثر في قيوده، فقد انبثق الضياء من هنا يا مواطن الأحرار فاغمر به الثغور والسهول والجبال:

ناديتهم.. فأتوا اليك فقل لهم كونوا بني الإسلام أسد دحاله

كونوا له كما يرجو فإنكم أنتم اليوم أمله المرتجى، ونحن في المقدمة دائمًا لحماية هذا الدين، وكل موحد منا يصونه قبل أن يصون أولاده وفلذات

كبده. فنسبة العقيدة أكرم على المرء من نسب الدم ومن أواصر البشرة المشتركة.

فلقد شاد محمد صلى الله عليه وسلم هذا البناء، ورفع أركانه بكلتا يديه، فلماذا لا نسنده ونشده وليس من حوله الآن إلا من يغتبط بزلزلته وانهياره؟ أجل ولكننا:

سنشد منه بقوة.. ونذودهم فالشر.. كل الشر في استفحاله
ولقد سعدت وقد رأيت بموطني نور النبوة، مشرقًا بجماله
فأجابني الصيد الذين تجمعوا هو.. في مقالته.. وفي أفعاله

وكم تمنيت لو انتهت القصيدة بهذا البيت، فهو أقوى وأروع ختام، لأن قوله بعد ذلك:

وإذا أراد المرء كسب قضية فالفوز أول ما يمر بباله

عفا على الكثير من الانفعالات الحيَّة، التي خلفها المقطع السابق، فما دام البعث المرجى قد انبثق، فقد أصبح الموضوع أكثر من قضية، تحتاج إلى إيحاءات النجاح والفوز، لتأخذ طريقها المرسوم.

ونعود من المؤتمر الإسلامي في أم القرى، إلى رحاب طيبة الطيبة، لنستمع إلى الشاعر وهو يجرد من نفسه إنسانًا يخاطبه ويبثه شكواه:

قل للنبي محمد إن جئته في المسجد النبوي.. في أقداسه
والصاحبان بجنبه وعليهما من نوره ألق ومن نبراسه

ويحفه الصيد للغطاريف الذين ينتمون للمجد في حياتهم ومماتهم، والذين مشوا إلى الغزوات، كما يمشون إلى الأعراس:

قل للرسول بأننا في محنة نكراء تستهدي بغير قياسه
قدحت بها الشَّررَ المبيد عصابة كانت من الإسلام شر أناسه

فتنكروا للدين الحنيف، وتستروا خلف العروبة، وثارت ثائرة الشاعر على هذه العصبة أو العصابة فصاح فيهم:

يا ويحكم إن العروبة قد زكت بالدين.. وهي تعد من حراسه

فهي التي أقامت صروحه، ونشرته في الآفاق، وحملته إلى أرجاء المعمورة، ولكنها لم تسد إلا به، ولولاه لضلت في المهامه، فهما قرينان لا يمكن أن ينفصلا. ويستمر الشاعر الكبير يناقش ويجادل، ويقدم الحجج، والبراهين تلو البراهين، ليكشف أعداء الإسلام الذين يتسترون بدعوة العروبة وهي منهم براء، حتى إذا انتهى من (مرافعته) التفت إلى حيث يقف أبناء العروبة المخلصون وهالة الجلال تحفهم وتحيط بهم وقال لهم:

قولوا لكل مخادع متربص　　　بكيانكم.. متحفز لمساسه

يعمل في الخفاء، لهدم جدارنا ودك أسسه، قولوا له لا تستخف بمعشر يضعون كل شيء في موضعه الصحيح، ويكافئون كل عامل بما يستحق، وأنتم أيها الاخوة، لا تتركوا الإسلام في يد كل غاشم أو ماجن يرفع الشعار باسم العروبة، وهو يعمل لهدمها وتحطيمها.

أما أنت أيها الروض المدل بحسنه، والمستعز بورده وبأسه، فلن تضيرك مكائد هذه العصبة التي استخدمها الشيطان في تحقيق مآربه وأغراضه، فأين الثعلب من الأسد؟ (والظبي من النسناس)؟.. ويختتم القصيدة بقوله:

إنا لنأمل أن يثوب لرشده　　　من ضل منا.. بعد طول شماسه
ولرب ضر كان بعض سهاده　　　يشفي لواعجنا كبعض نعاسه
جمح الجواد وحين أتعبه السرى　　　نجحت يد الترويض في إسلاسه
ليس الذي يطوي على إيقانه　　　قلبًا.. كمن يطوي على إيجاسه

ثم نأتي إلى القصيدة الأخيرة في قسم (عروبة وإسلام) وهي قصيدة (حرة ثارت)، وحرة ثارت قصة فتاة أبصرت شاعرنا الكبير وهو ينطلق في حديثه كانطلاق الحمم، ورفاقه (النشامى) يلتفون حواليه مرهفين السمع لأحاديثه البارعة الرائعة، فسألته وهي خجلى عن الأسباب التي دفعت قومها إلى ما هم فيه من فوضى وتناحر وعبودية وخلاف:

من كبار نصبوه مأتما..　　　وصغار رقصوا في المأتم
يا لنا من أمة قد شقيت..　　　ببنيها.. دون كل الأمم
كل يوم تَبْتَني صنمًا..　　　ثم تشقى - ويلها - بالصنم

ثم قالت له: أية نار هيجتها في الضرم أيها اللهب من أرواحنا؟ وانطلقت تهدد الذين كانوا رجمًا مسلطة على الأمة، بأن يصلوا سعير الرجم، ثم التفت إلى أخوتنا من أبناء الشعب العربي الذين ارتضوا بالعبودية، وصبروا على الخسف والهوان وقالت لهم:

كيف ترضون وأنتم عربٌ ... من دعاة السوء قطع الرحم
برأوا المجرم ثم اتهموا ... أبرياء الناس شر التهم

هؤلاء المنحرفون الذين يقضي الهوى في شرعهم، أن تكون الرأس مكان القدم، وان يستوي العلية والسفلة في القيمة والمنزلة، وسواء لديهم ان ضمنوا الولاية والتأييد، الصفوة والحثالة من الناس.

واعجب الشاعر بوطنيتها وعروبتها وأخلاقها فحيًا فيها هذه الروح، وأشاد بثورتها على القيد الذي تستطيع الأنامل الرخيصة أن تكسره أحيانًا، وقال لها:

يجب ألا يستسلم الأحرار، ما دمت أنت اعجزت الأعداء أن تستلمي، وقال لها إن المعركة تشعل نارها، شفرة السيف وحد القلم، ثم قال:

للثرى الغالي لأمجاد الألى ... ركزوا الأعلام فوق الأنجم
ولنا نحن، فما يغلو الفدا ... يا فتاتي، تحت ظل العلم
ما الذي نخشاه أو ما نرتجي ... حينما نحياهُ حياة الرمم؟
ان هذا قسمي ما انثنى ... دون حقي، إن هذا قسمي

وفي قصيدة (لبنان) من قصائد (أمم وشعوب) امتزجت مظاهر البطولة بمفاتن الجمال، وأشاد الشاعر بدور لبنان في الحفاظ على اللغة العربية وبالطبيعة اللبنانية الساحرة. ونلمح شاعرنا الفنان في بداية القصيدة وهو يقف مشدوهًا أمام خمائل لبنان وجداولها. لقد عرف الجداول من قبل وعرف الخمائل. ولكن الشيء الذي يراه هنا يخالف كل ما رآه من قبل وعرفه:

لبنان ما هذي الخمائل؟ ... لبنان ما هذي الجداول؟

ان جمال هذا البيت ـ في رأيي يعود إلى انه يمثل إنسانًا شده، وزاغ بصره، ووقف مذهولًا يتساءل عن كنه ما يرى ويشاهد. وبعد أربعة أبيات

استعرض فيها ألوان الحسن التي ملأت بالأحلام كل السهول والجبال، انتقل إلى الشاطئ المجنون الذي يزخر (بالأوانس والحلائل) وهي نظرة جنسية ثاقبة، وحديث عن الصراع العنيف الذي يعتلج في صدره، وهو على الشاطئ، وعن الرجل الذي تلعب به المرأة كيف تشاء حين تلهو وتعبث. ويقول:

إني ليفتنني العذاب فما أفر إلى المعاقل
من كان عنصره اللهيب فليس تطفه المناهل

وينتقل إلى لبنان بلد الملاحم والأشاوس والفطاحل. فيبدأ بروائع الألحان التي لم توهب لغير أبنائه، ثم عن الكماة الذين لم ترعهم صلصلة السلاسل، ثم يعود إلى دور لبنان ـ كما قلنا ـ في الحفاظ على معالم الفصحى، ويشيد بما قدم أعلامه من درر تزين مفرقها ـ مفرق الفصحى ـ وتصون كيانها. واستأنف السبح مع مرائي الحسن والجمال، مع لبنان الذي لن يزول، لأنه قرين الخلود، والخلود لا يزول. ويقفز الشاعر في وثبة من وثبات الخيال ـ كما كان يعبر المغفور له الدكتور زكي مبارك ـ فيقول:

رنت السفوح إلى الجبال وهام تربك بالجنادل
الحسن يعشق بعضه بعضًا.. ويسخر بالعواذل
كم في الرياض الغن - يا لبنان - من فتنٍ مواثل
طابت بواكرها.. وطابت في خمائلها الأصائل
ما بين زقزقة الطيور.. وبين وشوشة الخمائل
والريح تعصف.. ثم تأذن للنسيم.. بأن يغازل
والسحب تنعشنا بطل.. ثم تدهمنا.. بوابل
وترى الضباب على الربوع.. كأنه أبهى الغلائل
وكأنما قمم الجبال تَوَشَّحت.. بيض الجدائل

صور حية، متحركة، وكأنها شريط سينمائي، ينقل لنا المشهد والصوت و.. الرائحة.. أيضًا، وتتسلل إلى الشاعر الكبير حتى وهو في فيضان العاطفة

والشعر، روح الفلسفة والتساؤل:

هل كنت تعرف ما احتويت ... فكنت تقتنص بالحبائل؟
أم انت عن دنيا الجمال ... تضج في مغناك غافل؟

وتنتهي القصيدة بـ:

ما أنت يا لبنان.. إلا ... الروح.. والدنيا هياكل

فيثب إلى الذاكرة ـ على اختلاف المنهج والطريقة ـ بيت إيليا أبو ماضي في قصيدة الشاعر في المساء:

فإن لبنان ليس طودًا ... ولا بلادًا لكن سماء

أما في (اليابان) فقد استحوذ على الشاعر، الإعجاب بهذا الشعب المتوثب الناهض، الذي استطاع بعد هزيمته في الحرب العالمية الثانية أن يستعيد مكانته، وأن ينافس بمصنوعاته إنتاج الدول التي سبقته في مضمار الحضارة والتقدم، وأشاد بهذه الأمة التي لم تفخر بمحتدها وماضيها وإنما بيومها الحاضر والتي يقول عنها:

علَّمت أهل الأرض ما مجدهم ... بأمسهِم لكنَّه بالغد
والفخر إن فاخرت أهل الحجى ... بالفكر، لا باللون والمولد

وبرر هزيمة اليابان، بأنها نتجت عن (معجزة جاء بها المعتدي)، وأنها بسبب القنبلة الذرية التي كانت لهم بالمرصاد دون أن يعلموا، ويشرف الشاعر على قمة إنسانية عالية، وهو يتحدث عن الذَّرة، وعن المصير الرهيب الذي ينتظر البشرية على يديها:

مبيدة يرهب من ينتهي ... منها، كما يرهب من يبتدي
هدية الفكر إلى عالم ... ضل عن الدرب، فما يهتدي
يبيد من اعدائه، جاهلًا ... بأنه يبحث عن مرقد

☆ ☆ ☆

هذا سلاح عجب للورى ... أضله العادي عن المقصد
الآمن الغافل يقضي به ... حصدًا، ومن قاتل لم يحصد

فلعل العالم يستفيد من الدرس، قبل أن تنهب به أعاصير الفناء، وبالرغم من أنه يقول لليابان بأنها لو كانت تعرف الذّرة، كما عرفها الغرب لما خضعت، فإنه يتجه إلى الأعماق الخيرة فيها، ويقول:

لعل روح الحرب قد أخمدت — فيك، وروح السلم لم تخمد

الحرب بعد اليوم، مجنونة — تفتك بالمصلح والمفسد

ويحييها في ختام القصيدة من جديد، ببيت رائع من أمثاله الثائرة:

ما تنطفي الشعلة في أمة — تحلم في اليوم، بمجد الغد

ومن اليابان ينتقل الشاعر المحلق إلى الجزيرة البريطانية، ليتحدث هذه المرة في بداية القصيدة عن الطبيعة وجمالها الساحر، حيث السهل على غير ما نعهده في نضراته، والروابي ازدانت بالتيجان والروض يشبه في بهجته وطيب زينته فردوس رضوان، أما الأزهار التي كانت تتألق بمختلف الألوان، فقد بدأ الشاعر يحصيها، ولكن النسيم البارد الريان داعبه فالهاه، وأثار به الذكريات والصبابات لأوطانه.

ثم يثور الشاعر الكبير، على مرائي العهر التي شاهدها في الجزيرة البريطانية، فليس الحسن المتحشم ـ كما يقول ـ كالحسن الذي يمرح وهو شبه عريان:

الناس لو برئوا من فسق أعينهم — لما تحكم فيهم كل شيطان

فقد كان يسمع عن الخلق السامي في بريطانيا، ولكنه ذهل حينما أبصر غير ما وصل إلى سمعه، ولو كان في جوار السين، لا جوار المانش، لما انكر ما رأى من مباذل العهر والفحش فقد رأى.. ورأى مما يطمع ويغوي:

لباسهن.. وما يبديه.. أطمعني — ومشيهن.. وما يمليه.. أغواني

حتى إن الشاعر قام ـ على ما يبدو ـ بتجربة استطلاع واستكشاف: (حييته)، ونتطلع في لهفة لنرى النتيجة، فالمفروض أننا سنرى الاستجابة السريعة من إحدى الغانيات، ولكن العجيب أن تكون النتيجة (فتوارى في غلالته).. ولكنه موقف غير مؤسف على أية حال، لأنها كانت

مجرد تجربة فقط:

وكنت أجفوه لو لبى وحياني.

وترك الحسان العاريات، أو شبه العاريات غير مأسوف عليهن و (أفضى الهوى لرحاله) مع الشاعر إلى الطبيعة وتناقضها الساحر هناك:

شتاؤكم قسوة هام الضباب بها ... وصيفكم رحمة.. طابت لهيمان
في وقدة الصيف أنفاس الربيع بها ... كأنما تتجلى روح نيسان

وليس من المستغرب والشاعر الكبير من أبناء بلادنا العزيزة ومن مكة المكرمة بالذات، حيث تلتهب الجبال والسفوح والوديان في فصل الصيف، وتبتسم أو تبدو وكأنها تبتسم قليلًا في بداية الشتاء، وفي الأسابيع القليلة التي نسميها بالربيع، ليس من المستغرب أن يقول:

لم يعرف الناس إلا في جزيرتكم ... طبيعة سحرت بالعاصف الحاني

ومن المفاتن الطبيعية في أجمل صورها، ينتقل الشاعر إلى المفاخر الحضارية، ويشيد بمزايا الطموح والذكاء في أبناء هذه الجزيرة القصية:

لم يعرف الناس إلا من مصانعكم ... أن البناء وسام المجد للباني
لولا العزيمة عشتم في جزيرتكم ... لحرث مزرعة أو صيد حيتان
لكنكم جبتمو الدنيا.. بهمتكم ... وسدتموها بدأب غير خوان
وما تزال بأيديكم.. بقيتها ... وما يزال لديكم بعض سلطان

ولكن إعجاب الشاعر ليس بالإعجاب الأعمى، الذي لا يبصر غير المحامد والمزايا، ولكنه إعجاب مبصر واعٍ. فهو برغم إشادته بجهود ودأب الشعب البريطاني، لم ينكص عن التنديد ببريطانيا وخديعتها ومراوغتها، وروحها الاستعمارية الخبيثة:

وثلة غيرها في القيد راسفة ... وسوف تكسره في هامة الجاني
لم تلق إلا على طول المدى جنفًا ... ولم تنل من هواكم غير خسران

☆ ☆ ☆

ألبستم الظلم أثوابا مموهة من المودة تخفي روح ثعبان

ويقول قبل هذا البيت:

لا تستثيروا من الأحرار نقمتهم فإنهم حمم في جوف بركان

ثم يلتفت إلى البقية الباقية من الشعوب الرازحة تحت وطاة الاستعمار البريطاني ليستثير كرامتهم وعزتهم:

خضوعكم أيها الأحرار منقصة ما يرتضيها ـ اختيازا ـ غير عبدان
لقد شقيتم به دهزا وليس لكم من خير نعماه إلاَّ شر حرمان
سبحان من غيَّر الدنيا وعلَّمها أن الكرامة والإقدام صنوان

ومن هذا الجو العاصف المليء بالنذر، المتفجر باللهب، ننتقل إلى قيثارة الحب والغزل، عند شاعرنا الكبير. وأولى هذه القصائد قصيدة (حبي). فدعونا نتعرف على خصائص الحب عند الشاعر.

في هذه القصيدة ثنائية عجيبة، لقلب متيم هائم، يترك قياده في يد من يحب: يسحقه، يحطمه، يعبث به، يتصرف به كما يشاء. ولكن هذه العبودية محدودة بفترة معينة من الزمن، إنها الفترة التي يحتفظ فيها حبيبه بنضرته وسحره وجماله، ولكن الويل له حينما يجتاز هذه المرحلة المتألقة من العمر، إنه سيتعرض لثورة عارمة تقذف به من حالق، وسيواجه من محبه، بأقسى ما يواجه الأحبة من غدر وعقوق وجفاء، ولا أملك غير العجب من هذا المحب المجنون في حبه، الذي يستمرئ الذلة والهجران والقسوة من حبيبه، ثم يقول له بكل صراحة: اصنع ما بدا لك، ما دمت تتحلى بالحسن والرواء، أما بعد ذلك فـ:

لا تؤمل مني الوفاء على الدهر فما ثم في الحياة وفاء
كيف ترجو ما لا تنيل كلانا في تحلية بالوفاء سواء؟
انما ميعة الشباب رداء فاغتنمها فقد يحول الرداء

وتأتي هذه (التصريحات) بعد أن قال له:

أم تراني متيمًا ذاهب اللب ؟!

إلى أن يقول:

لا تحاول فدتك نفسي اشفاقًا ... وحاول تبرمًا.. وجفولا

وقال له في المقطع السابق:

أنا أهواكَ فلأَعِش أمد العمر ... شجيًا، فَرُبَّ شَجْوٍ أفادا
فاستَبِحْ ما تشاء مني ودع لي ... في هواك الضنى ودع لي السهادا
واهتضمني فقد أراك إذا لم ... تهتضمني، أضعت في الرشادا
واعتسف فالحنو في منطق الحب ... فساد، وما أريد الفسادا
أتراني أنا الغَبِيَن؟! فزِدني ... باختياري غبنًا وزدني اضطهادا

وكل مقاطع القصيدة تؤكد هذا المعنى والاتجاه، ما عدا المقطع الذي يقول فيه:

أم تراني مغامراً ناهض الحب ... وديعاً ورامه جبارا
أن أكن ذلك المغامر فاحذرني ... فضعفي يزيدني استكبارا

ولست أشك في صدق هذا المقطع، وان ظهر لي انه مقحم بين بقية مقاطع القصيدة؛ لأنه إرهاص بالموقف الجديد الذي سيقفه الشاعر، بعد أن يصوح الغصن المخضوضر، ويغيض النبع الدفاق، ولكن القصيدة باتجاهها العاطفي المزدوج، تؤكد الثنائية التي سبق أن ألمعنا إليها، وفي بعض التساؤلات التي وردت فيها، إثبات لمفتاح شخصية الشاعر، التي قلنا عنه إنه: (نفس تبحث عن نورها). ولعل جذور هذه (السادية) ـ إذا صحت النظريات النفسية ـ تعود إلى وقت مبكر من طفولة الشاعر، وإلى ظروف معينة عاشها وهو لا يزال صغير السن، غض الإهاب.

وفي القصيدة الثانية (بين الكرامة والحسن) نبصر الشاعر وهو يقف على أطلال حسن قد ذهبت دولته، فتنمر وثار وأخذ يبصق عليه، ويقذفه بكل ما تصل إليه يده، ليس ذلك إلا لأن المسكين فَقَد حُسنه الأول ورواءه القديم:

يا من بسطوته استباح ... ومن بقسوته استحلا
أجهلت أقدار الرجال ... فسفتها عسفًا وذلا؟
هلا ارعويت وأنت تذبل ... وانتهيت وأنت تبلى؟!

.. هكذا، بعد ان قال له حينما كان يتشح بالصبا والجمال:

واهتضمني فقد أراك إذا لم تهتضمني أضعت في الرشادا

وبالرغم من معرفة الشاعر لهذه الحقيقة، فقد أخذ يعاتبه عتابًا مريرًا:

يا من لقيت على وفائي من هواه جوى ومطْلا
ومن استعز به الفؤاد فلم يعز به وذلا
ومن ابتسمت له فقطب واهتديت به، فضلا
ومن احتميت به فطوح وارتبطت به، فحلا

ويندد به في قسوة بالغة:

ما ثم في هذي الحياة ملاحة، إلا ستُبْلَى
ولّي الربيع، ولن يعود فلا تسلْني كيف ولّى؟
قد كنت تلهو بالفحول ولم تكُن في اللّهو فحْلا
أنا لو عرفت ندامة، تجديك.. لم اسمعك عذلا

مما يجعلنا نعتقد بأن هذا الموقف الجديد، كان مناورة من الشاعر حتى يتخلص من الحبيب الذي لم يعد فيه ما يغريه، ويشده إليه، بدليل انه نظم قصيدة أخرى على لسان الحبيبة تقول له فيها: (لست أنا الغادرة):

ما كنتَ غدّاراً ولكني لمحت عليك.. غدرا

وهو ما نكاد نجزم به،بعد ان لاحظ الشاعر، بداية الذبول على حبيبته، ولاحظ في نفس الوقت أنها أخذت تحوطه باهتمامها وحبها أكثر فأكثر نتيجة لشعورها العميق بأن شمسها بدأت تنحدر إلى المغيب، فشعر بالضيق والملال والرغبة في الهرب. وفي القصيدة ألوان من العاطفة النسائية المتدفقة، وتذكير بما كان بينها وبين حبيبها من صبوات وأسمار وأشواق.

ولعل مما عاتب به الشاعر حبيبته أو حبيبه حسب سياق القصيدة ناحية معينة هي:

قد كنت تلهو بالفحول ولم تكن في اللهو فحلا

فكان الجواب:

كم آهة لك عانقتها ... آهة.. بحشايَ حرَّى
ومدامع جمدت فسالت ... في الضلوع جوىً وجمرا
كانت ترقرقها المشاعر ... ثم تحبسهن.. قسرا
لا خشية من طُهرهن، ... فإنهن يذبن طُهْرا
بل خشية مما نحاذر ... أن يَذيع وأن يَضُرَّا
إن العفاف يقوم دون ... تحكم الشهوات عذرا
من كان عذريَّ الصبابة ... لم يضق بالنزر صدرا

وذكريات مثيرة على ضفاف (بردى)، تحاول أن تعيده إليها وإلى أحلامها، ليهدأ الحبيب الثائر الذي عصف بها وبحبها، وتخشى ـ كأنثى ـ أن يكون هذا السلاح لم يعد له مفعول، وتتشبث بأطياف الحب، وترتمي على بقاياه، تمسك بها قبل أن يجرفها التيار، في ضراعة وذلة ومسكنة:

وذكرت أن البدر... أروع ... في السنى وأشد بهرا
هل كنت تحسبني أغار ... عليك.. أن أَخبَبْتَ بدرا؟
والروض أندى في العبير ... فلست أطيب منه نشرا
والروض أنضر في الربيع ... فأين حسني منه نضرا؟
والظبي يفتن بالتثني ... إنْ تلفت واسبطرا
لا، لستُ ما دمتَ الجحود ... المستهين عليك غيري

وتقول له:

قلبي ـ ودع عنك الجمال ـ ... أجلّ في الميزان قدرا

وتعود مرة أخرى تحاول أن توحي إليه بأنه لا يزال يحبها:

لو كنت أعرفك الخؤون ... كفرت بالأحياء كفرا
كن لي.. كما أنا لا شريك ... فما أطيق الشرب سؤرا

وفي إطار هذه المزاج الفني الظامئ للجمال، المتعطش للفتنة، نستطيع أن نفسر وجود هذا العدد الكبير من (الحبيبات) في حياة الشاعر، وعدم

استقرار عاطفته على حبيبة معينة، نستطيع أن نميزها عن بقية بنات حواء بصفات مستقلة، أو بمزايا خاصة. وفي قصيدة (نهد ورعد)، نتلمس أحد الشواهد على هذا المزاج المستوعب لكافة ضروب الحسن وألوان الجمال. وهي قصيدة نظمها في لبنان، يناقش فيها عددًا من المواضيع، ويستطرد في الموضوع الواحد حتى لينسى أو ننسى نحن الموضوع الأساسي للتجربة الشعرية عنده. يبدأها بالحديث عن عجبه من الظبي النفور الذي يطيح بالليث الهصور، ويرسم بعض الصور الجميلة لهذه السلطة الجبارة، ثم يخاطب هذا الظبي ـ فيما يبدو ـ فيقول:

يا ربة الروح الشفيف ... وربة الجسد الطهور

أنت الروض بكل ما فيه من نفح العطور، وأفواف الربيع وألحان الطيور. ويقول بعد ذلك:

لا تعجبي إنا نراك ... جبلت من أرج ونور
فلأنت أروع في السنا ... منها، وأضوع في العبير
العطر أنت أريجه ... والنور أنت له سفور

ويدير ظهره ـ دون استئذان ـ من هذا النور المتجسد، والأرج المتضوع في صورة حسناء ليناقش قضايا الجمال مع مجموعة من البدور الأخرى، التي لا يطيب العيش إلا بها، ليتساءل عن بواعث الفتنة والسحر والنضرة، هل هي الشفاه؟ أم العيون؟ أم القدود؟ أم الخصور؟ تلك النعم التي تطالعنا بها الحياة فما نخشى المصير.

ويعود فيقول إنه لو كان أسير هذا الجمال لما طمع في الفكاك؟ ويثير الشاعر بعض القضايا الفكرية و (يسرح) معها:

قد أرتضي القَيْد الصغير ... لأحطم القيد الكبير
حريتي في أن أسير ... فما يكبلني المسير
فلقد نذوب من الظلال ... وما نذوب من الحرور
ما شقوة الأكواخ إلا ... من رفاهية القصور!

وتثور ثائرة الشاعر فيضرب بعصاه يمنة ويسرة، ونحاول أن نعرف الهدف الحقيقي لثورته تلك، ولكننا ونحن في قلب البركان، لا نسمع أو نرى إلّا العصا وهي تضرب هنا وهناك:

يا خمرة شَقِيَتْ بها.. أرواحنا أبد الدهور
ولّى النشاط - بشربها.. عنا وحاق بنا الفتور
عصروك من دمنا.. فبئس شرابنا هذا العصير

ما هي هذه الخمرة؟ هل هي الجنس؟ هل هي الحب؟ هل هي المدنية؟ أم أنها الجمال؟

(١) قالوا لنا هذا الطهور.. فكيف دنسنا الطهور
(٢) ان الفضيلة حين تُمْتَهَنُ الكرامة.. كالفجور
(٣) ليس الكفور هو المدافع إنما الباغي الكفور
(٤) ويح النفوس من الغرور.. إذا تملَّكها الغرور

ولكن بقية الأبيات تندد بالطيش والتأله والنفور والغرور، بالنسبة للحسن والجمال، ثم يكتشف غبار المعركة، فنجد أنفسنا على مواقع معركة جديدة، معركة وطنية فيما يبدو لي:

ويح الصقور من البغاث إذا تجبرت الصقور
يتربصون بها الدوائر والدوائر قد تدور

فقد يكون الردى في نسيم الصبا، والمتعة والشفاء في الزعزع النكباء.. وقد تتحول الأراضي الخصبة مع الأيام إلى قفار جرداء، ولكنه:

ليس المخافت في الطلاب كصاحب الصوت الجهير
ثم إنا لنخشى.. إنا لنخشى.. العقم حين يكون رائدنا الحصور

وتستغرق أوصاف هذا الرائد الحصور الذي (لا ينجب) ستة أبيات تبدأ بعدها صرخات الاستثارة:

إن الصبور على الهوان.. بداره.. بئس الصبور
قد يخطئ الموت الجسور.. ويدرك الموت الحذور
ما دام في الموت الحياة.. فما الذي يخشى الجسور
ان الذي بذر الشرور.. لمنا.. تسمم بالشرور

وندرك بعد لأي، أن موقع المعركة لبنان، وأن هدفها هو الاستعمار الغاشم الذي حمل إلينا مع ما حمل من شرور وآثام، والانحلال والتفسخ والحرية الزائفة، وحينما أفرغ الشاعر شحنته الوطنية المدمرة، على مخلفات الاستعمار وبقاياه في بلادنا، عاد إلى موضوعه الرئيسي عن حرية المرأة ورأيه في هذه الحرية يتفق مع رأيي إلى أبعد الحدود. وقد قارن بينها في حفاظها على كرامتها، وبين انطلاقها في طريقها الجديد، الذي يحفل بالمزالق والمخاطر:

إن الإناث إذا كرمن.. يقدن للمجد الذكور

فلقد كن بالأمس، وقبل أن يبرزن اليوم ـ كن ربات الخدور، فعفن الخدور لأنها هي الجمود في رأيهن. وثار الشاعر من جديد:

أفنحن نرضى.. أن نكون ـ على رجولتنا ـ الجسور
كلا.. فما نحن الجسور.. ولن نهادن في العبور
إن الكرامة.. حين تغضب سوف تقتلع الجذور
ولرب من ضحك العشي.. بكى إذا شهد البكور!

وأضع أكثر من علامة استفهام، وأنا أقرأ ختام القصيدة:

قل للبدور.. ولو غضبن.. بأننا عفنا البدور
هذي القلوب الخافقات يحبهن.. غدت صخور

ولماذا؟ كان المفروض أن تكون الإجابة: لأنني لا أستطيع الصبر على هذا الوضع المقلوب.. ولكن الشاعر يقول إن الوطن الغالي هو الذي دعا هذه القلوب فاستجابت للحضور. ووطنية الشاعر العظيم وعروبته وإسلامه ـ كما سبق أن أكدنا ـ قضية لا تحتاج إلى جدال.

ونعيش، لحسن الحظ مع إحدى قصائد الشاعر القديمة نسبيًا.. فيما

أعتقد ـ هي قصيدة (اذكريني). وهذه القصيدة نفحة من نفحات العاطفة العبقة المترنحة، لا يواجهنا فيها الأستاذ الشاعر بالمنطق أو الحكمة، ولكنه ينطلق فيها مع مشاعره وأحلامه وخيالاته:

أذكريني كلما الليل سجا ... واذكريني كلما الصبح استنار
إنني ألقاك في جنح الدجى ... مثلما ألقاك في ضوء النهار

ونحس بصدق الإحساس وهو يقول:

إنني ألقاك في نفح الندى ... مثلما ألقاك في لفح الهجير
ولقد يطربني منك الصدى ... ولقد يسكرني منك العبير

وحين يقول:

أنت دنياي فلو أقصيتني ... عنك أرضتني سمادير الخيال

وإن كنا نلتقي بلمحات من (السادية) في هذه القصيدة الناعمة الحلوة، وردت مع أبيات سحبت عليها عذوبتها الآسرة، حتى جعلتها موقفًا طبيعيًا من مواقف القلب البشري:

أنت دنياي فما عدت أريد ... غير ما تلهمني تلك العيون
وشجوني ليس لي عنها محيد ... فأنا أقتات من هذي الشجون

☆ ☆ ☆

كيف أشكوها وقد كان الجوى ... هو فردوسي ولو خضت اللهيب؟

وإن كان يقول لها بعد ذلك:

لست أهواك جمالًا عاتيًا ... يلتقي الفردوس فيه بالسعير
انني أهواك لحنًا ساجيًا ... وشذى يملأ روحي بالعبير

وما أروع الشاعر الكبير حين يقول:

رب ذكرى حفلت بالمتع ... أو أسالت بمآسيها المآقي
إنها ـ في حالتيها ـ مطمعي ... منك.. حتى يكتب الله التلاقي
دمر الحب حياة الماجنين ... وبني أمجاد من صانوا حماه
أنت. لو أنك يومًا تفخرين ... كان من فخرك. قلبي ورضاه

وأحيل القارئ إلى الديوان، ليقرأ هذه القصيدة الممتعة هناك، قبل أن يطول بنا التعليق والاستعراض ونسابق الزمن، بضع سنوات إلى الأمام، لنلتقي بإحدى شوامخه الرائعة: (المركب الوعر) مع تلك الحسناء التي يقول لها:

فلا تَبْطري بالحسن. يارب غادة   تَمَنَّتْ مشيبي بعد فوت شبابي!

إنها حسناء تحجبت عنه بألف حجاب، فخلفت قلبه رهن الف عذاب. حتى لقد أغراه حجابها الذي طلب منها أن ترفعه، بهتك حجابه، ووقف يطرق الأبواب، التي أدمى بنانه منها وخز حراب ؛ ولكن هذه الحسناء التي أبطرها الحسن، وتمنعت عنه، عادت فألقت بين قدميه وهو سائر على الطريق بوردة، وليس من المعقول ان يطأها بقدمه وإن أصلته صاحبتها العذاب، فتناولها وعليها بقية من تراب، حتى ارتوى من حسنها، وما عليه من التراب، إنه استروح فيها عبق حبيبته ورياها، وليس يضيرها التراب، وقد أمسكت بها حسناؤه فترة من الوقت، إنه يرحب حتى بالسيف: حتى بالردى، ما دام من يد الحبيب.

ولكن هذا التصرف بعث الغصة والشكوك في نفسه، فهو رجل صريح يكره التستر والتصنع حتى في الحب، وتأبى كرامته أن يكون ملك يديها، تدنيه حين تشاء، وتجتويه حين تريد:

لئن حسبت هذا، فما أكذب المنى   عليها، وأشقاها بصدق حسابي

ولكنها كانت أكثر حنانًا ورحمة، فقد اتاه (غلام)يتستر في دجى الليل، يسائل عنه جيرته وصحابه، إلى أن رآه بعد أن استدل عليه، فأبرقت عيونه بنظرات خاصة، ودون أن يتكلم أخرج من تحت ثيابه رسالة، ما أن سلمها إليه، حتى فر كبرق أو ومض شهاب، وكانت رسالة نسائية معطرة، أذاب شذاها كل حكمته ورصانته، وأذهب نقمته وعتابه، وكان تصرفها عجبًا في كلتا حالتيها من الوصل والقطعية، حتى إنه ليشتهي حينما يبصرها كل يوم، أن يحظى بيوم لا يراها فيه، لينعم بالحرمان وما فيه من مواجد وأشواق، ويمر أحيانًا العام الكامل دون أن يلتقيا فيكون هذا العام، عام الخسران والهلاك. ويزدهي الشاعر المرموق بانتصاراته في دنيا الحب

والصبابة، بالرغم من الهالة التي تملأ رأسه من الشيب، فقد ركب عباب البحر حتى ألفه، ولكن خضم الحب الذي خاضه، كان أعمق وأوسع من البحر، حتى إنه أعجزه خوضه، وسار الحب في ركابه، بعد أن تمنع وتأبى عليه، فهو لا يرضى بغير اللباب، وليس كالمستضعفين الذين يستجدون القشور... إلى آخر الصور الجميلة التي حفلت بها القصيدة. وفي (زجاجة العطر) صورة أخرى للحسناء، وقد قدمتها إليه وهي خجلى: كأن العطر شيء قليل..

ومن أبلغ الأبيات:

كنا نظن الجنس هذا بلا عقل. فأخطانا. وكنت الدليل

فهي من إحدى النظرات العميقة، إلى حقيقة إمكانات الجنس الآخر ـ كما يقولون ـ والواقع إنني شقيت كثيراً بهذا الرأي، وكتبت في أكثر من مناسبة، عن الفروق الواسعة التي تجعل من الإجحاف مقارنة المرأة بالرجل في أي ميدان من ميادين المعرفة والثقافة والخدمة الإنسانية، وتلقيت رسائل كثيرة يؤيد معظمها هذه الفكرة. والطريف أن كل الرسائل المعارضة، وصلتني من بنات حواء، اللواتي يعتقدن بأنهن يتساوين مع الرجال في كل شيء. وقد كان الشاعر الكبير من أنصار الفكرة التي أشرت إليها، بل إنه كان متطرفًا إلى أبعد حد، كما يبدو من قوله (كنا نظن الجنس هذا ـ بلا عقل).. ولو عرفت حواء أن قيمتها الحقيقية في أن تقف عند حدود القدرات الطبيعية التي وهبت لها، وحرصت على أن تؤديها كما يجب لضمنت لنفسها الهدوء والراحة والاستقرار.

بقي أن أشير إلى أن الشاعر احتفظ بهذه الزجاجة في مكتبه، ثم نزع قلبه من صدره، وقال له: اطفئ غليلك من عطرها، ثم استدرك وقال: لا بل بما نالني من فضلها بعد الشقاء الطويل:

ضمخته بالعطر حتى انتشى وعز بالحب وكان الذليل

وإنه خاف أن يتضمخ به، فيعرف الحاسد حقيقة ما حدث، أو ينشق الناس شذاه فلا يسلم من القال والقيل. وقصيدة (كلير) من القصائد التي

أحببتها وأعجبت بها إلى حد كبير، فهي من أروع شعر الديوان، بل إنها من أجمل الشعر الغنائي، في أدب العربية.

ونكتفي هنا بالمقطع الأول منها، راجين أن يجد القارئ فيها، زادًا لروحه وعاطفته أي زاد:

كلير لولاك ما همنا بمؤتلق ... من الوجوه ولا حال من الصور
ولا اغتربنا فما نرتد من سفر ... إلا ونحن من الذكرى على سفر
ما نستريح ولا نقضي لبانتنا ... ففيم نطوي الدجى طيا بلا ضجر
تبارك الحسن نرضى من خلائقه ... بالصفو، مثل رضانا منه بالكدر
إذا وردنا فإن الورد غايتنا ... وإن صدرنا، فما نشكو من الصدر

اننا نشعر على نغمات هذه الموسيقى الهادئة الصافية، بالقلب الذي يتمزق في صمت، والعينين اللتين تتطلعان في نهم متعب متهالك، والروح التي تتوجع في شجن وتئن في هدوء واستسلام، وبالصرخات التي لا تكاد ترتفع حتى ترتد إلى دموع وآهات. وما أروعه حين يقول:

كلير عشت بلا حب ولا أمل ... كالقفر عاش بلا ماء ولا شجر
أنا اليتيم ـ وما تحصى عشيرته ـ ... لكنني بينهم عود بلا وتر
كالدوح من حوله الأشجار مثمرة ... ويشتهي ـ دون جدوى ـ نعمة الثمر
يكاد يحسبني من ليس يعرفني ... من التبلد تمثالًا من الحجر

ومن هذه الرائعة ننتقل إلى رائعة أخرى، استوحاها أيضًا من خارج الحدود، وفي الواقع إنني لم آسف على شيء كما أسفت على عدم وضع تاريخ النظم على كل قصيدة من قصائد الديوان، ولو وضع على كل قصيدة تاريخ نظمها ومكانه، لاستطعنا ان نسبر أغوار شاعرنا الكبير، وأن نتحدث حديث اليقين لا حديث الظن، فتاريخ النشر ـ فيما اعتقد ـ ليس يكفي في هذا المجال، وهو معرض للتقديم والتأخير على أية حال، وإلا فمن هي (كلير) التي تعرف عليها وهو في خريف العمر، وغنّاها تلك الأغنية العذبة؟ هل هي صاحبته التي زار أسرتها في حي مايفير بإنجلترا؟ لقد نشرت قصيدة (كلير) في ٨٤/٩/١٠ ونشرت قصيدة حي مايفير قبلها

بسنتين تقريبًا، هل هما عن إنسانة واحدة؟ إن قصيدة (كلير) تشير، إلى أنها نظمت بعد أن تفرقت السبل بين الفتاة وشاعرها:

قد كنت قبل رحيلي عنه في جذل ... فصرت بعد رحيلي عنه في سقر

وفي القصيدتين حب روحي، عميق، شفاف، غير أن قصيدة حي مايفير، فيها محاولات فذة للإغراء وإثارة الإعجاب:

لا تحفلوا بالدمى واحفلن بي بشرا ... من الأعاجيب ألحاني وتصويري
كأنني هالة للنور.. تعصمه ... من ظلمة الليل أو دهم الأعاصير
شدت بشعري الصحارى وهي مجدبة ... فأخصبت وارتوت قبل النواعير

وفيها أوصاف في غاية الروعة:

اغن تحسبه من فرط رقته ... طيفًا تلفع فيه العطر بالنور
رأيته فتبدت لي مخائله ... كأنها أفق في عين مبهور

هكذا مخائله، لا ملامحه، لأنه كان يرنو إليها بعيني مبهور يتطلع إلى الافق، وهذا من الأعاجيب، وكان يرنو إلى هذا الحسن الفذ النادر:

بألف باصرة من كل جارحة ... أبصرته مثل موسى في حمى الطور

وكما يعتقد المخمور ـ عادة ـ بأنه في غاية الصحو، ولكن الناس هم السكارى، يقول شاعرنا الكبير:

وكنت في الحب مخموزا بمظهره ... وإنما اليوم حبي غير مخمور
بكل صحوي وتبصيري شغفت به ... وقد جزاني على صحوي وتبصيري

بينما نلمح في القصيدة الأخرى، الشعور بالضعف والشيخوخة واليأس:

صبوت والشيب ينهاني.. فيفجعه ... أني غدوت بلا سمع ولا بصر
لم أعصه غير أني كنت أسمعه ... كأنما هو إغراء من القدر
كلير غاض نميري بعد ما رويت ... من عذبه فتيات البدو والحضر

☆ ☆ ☆

كلير ما أضيع الباكي على دنف ... لاه.. وما أهون العاني على كبر
ربيع باهلة أزكى بنضرته ... من الخريف الذي يأتيك من مضر!

والبيت الأخير يذكرنا بالبيت الذي جاء في قصيدته: (قدر ورجل):

رب رومـــي تــديـــن لــه مــهــج الــسـادات مــن مــضره

وهي ـ مع الأسف ـ من القصائد التي نظمها بعد ان (قلمت أظفاره) (وعدا الدهر على أنيابه)، فقد قال فيها:

نــالــنــي مــنــه عــلى كــبــر مــا يــنــال المــرء مــن كــبــره

وهذا ما يجعلني أذكر الشاعر، بأن تاريخنا الأدبي يطالبه، بأن ينشر كل شعره. فهناك حلقات كثيرة مفقودة من قصة عواطفه ومشاعره، نتجت عن عدم نشره لكل شعره العاطفي. فهذا الديوان الذي نقرأه اليوم لا يضم غير القليل مما نظم، بل إنه ـ في اعتقادي ـ لا يضم غير القصائد التي نظمها في السنين الخمس أو الست الأخيرة.

نعود إلى قصيدة (كلير) فنقول إنها لم تحفل بالأوصاف الحسية أو المعنوية، لكنها كانت توجعًا وشكوى ومناجاة، وكانت بالفعل دليل شيخوخة عاطفية، جعلته يقنع بالذكريات وحدها:

كــلــير إن فــرقــت مــا بيننــا سـبــل فــسوف يجمعنــا مــستعذب الــذكــر

وليس ذلك بمستغرب، لأنه:

مــاذا يــريــد هــوى يــطــوي شبــيــبــتــه مــن الــشــبــيــبــة إلَّا قــسوة الــعــبــر؟

شــتــان مــا بين ذاوي الــعــمــر محتــضر وبين نــضر فــتــى غــير مختــضر

وصدق الشاعر الكبير، فهذا هو منطق المرأة:

ربــيــع بــاهــلــة أزكــى بــنــضرتــه مــن الخريــف الــذي يــأتــيك مــن مــضر

ويا ويلتاه، لأولئك الذين يحسون بحاجتهم إلى التزود من ينابيع الجمال، ويحسون في نفس الوقت بأن القافلة قد فاتتهم، وأنه لم يعد لهم أمل في اللقاء، الا على مرابع الذكريات.

ولولا ما نعرف عن غيرة صاحب الديوان، وعروبته، وإسلامه، وعذريته في الحب، وتركيزه على هذه النواحي في أكثر من قصيدة، لقلنا إن القصيدة الآتية: (مذبح الحرية)، لون آخر من نتائج تقدم السن، والشعور

بالانحطاط الجسدي، وإن بدأت بملامح من فورة الشباب وعنفوانه العارم، وذلك حينما رآها الشاعر ـ رأى الأنثى المتبرجة شبه العارية ـ فغض بصره وهو خائب محزون، لأن الذي كان يحمله على التطلع واللهفة، هو الفتن المخبوءة عن العيون، ولكن الفتنة العصماء حينما تتكشف تفقد أسرارها، وتفقد أسلحتها الجميلة. ثم انتقل الشاعر إلى الموضوع الأساسي للقصيدة، فتحدث بلهجة الأب الحاني الشفوق، حينما (ينصح) ابنته الطائشة (المخفوفة) فيقول لها: لو تبصرين اليوم، الغد المفجع الذي ينتظرك، لرأت عيناك وجه المستقبل المرهوب الذي تنحدرين إليه، ويقول:

صوني عفافك، رب تفريط به ... يلقيك في حمأ الهوى المسنون
تتخبطين به، فما من مسعف ... لك حينما يلقيك وسط أتون

وسوف تتحملين وحدك كل التبعات، ويتنكر لك النئب بعد أن يذهب بالأسلاب، ويلقي عليك وحدك مسؤولية ما حدث.

ويدعوها إلى أن تسير على النهج القويم، وألا تخفض رأسها لأولئك العابثين الذين يتعرضون للحرمات في سبيل اقتناص فرائسهم، ويحتجون بانك أنت وأشباهك قد أثرت لهفتهم وجنونهم، وإنه لولا تبرجك لما طمع فيك، بدليل أنه لم يتعرض لشقيقتك المصونة التي تحافظ على تقاها وعفافها، ويقول:

فتجملي لكن بدون خلاعة ... وتحرري لكن بدون مجون

وتمسكي بتقاليدنا الحميدة، فقد منحتك الحرية المضمونة الأهداف، وينتظر الشاعر في مثل هذا الموقف النبيل أن يرمي بالرجعية، وبأنه يهذي بدعوتها قبل اقتراب منونه، ولكن من يدري:

فلعلني متحرر، ولعلهم ... ظلموا التحرر حينما اتهموني

ويؤكد لها الشاعر بعد ذلك، أنه لا يرجو من نوالها إلّا ما يرجوه شادي الطير فوق الغصون ولذلك فإنه يقول:

لك في البكور براعتي وملامحي ... ولك الغداة ربابتي ولحوني

وبذلك تنتهي القصيدة بالومضات الشعرية المتدفقة، كما بدأت بها، ولكن

هذا الإحساس العميق، المتكرر بالشيخوخة، يعمل عمله في نفس الشاعر، فيقف حيث وقف به السن مع الحب ومع الحسان، فيرسم لنا بريشته الساحرة المبدعة هذا الموقف الجديد، في قصيدة: (الحب الأخير) وهي قصة فتاة أحبها بروح الشيوخ، الشيوخ الذين يزداد تمسكهم بالحياة كلما شعروا بالتحولات الجديدة التي طرأت على كيانهم:

رآها فلم يملك فؤادا ولا لبا   كأن الذي من قبلها لم يكن حبا

وهو بالرغم من انه يعرف ان في الحسن مصرعه، فإنه إذا ما الحسن ألقى شباكه، سار إليها جائعًا يلقط الحب، ويستمرئ المصرع العذب.

رآها، وانهمرت الذكريات الحلوة، حينما كان الحسان يتلهفن عليه، فإذا لاح في الدرب تطلعن نحوه، ويسرن خلفه حين يسير. رآها وقد عاد بعد أن كان ينتهب الهوى، وهو يرتضي التعلة بالوعد، ويرتضي منها التأبي حينما تتأبى.

رآها بعد أن:

تخاضع من بعد الترفع واستوى   مهيضًا، فلا سلْماً أطاق ولا حَرْبا

تقول له في سطوة الحسن كلما   أتاها: لقد أذْلَلْتَ في عِزّه الشيبا

وأين منه الرشد وقد عصبت عينيه بسحرها وجمالها؟ انه يغضي في استسلام وخضوع، فهذا مصيره بعد أن كان يصبي الحسان، دون أن ينجرف في حبه وصبابته.

ويتذكر ماضيه بكل غزواته، وانتصاراته، ويقارن ما هو فيه الآن بذلك الماضي، ويتصورها وهي تعرف مشاعره وأحاسيه، ولكنها تستهر به، وتستمر في لهوها البريء وهي تتصور أنها لم تعرف حقيقة شاعرنا الكبير:

فهل هي تدري، إن خلف غرورها   فواجع، لو تدري بها امتلأت رعبا

ويهتف بها:

أطلي عليه من سمائك إنه   فؤاد تود الشهب.. لو عشق الشهبا

له ريشة يعنو لها الخلد لو جرت   على صخرة صماء.. انبتت العشبا

أبيحي لها هذي المفاتن إنها   إذا لامستها.. لم تعد للبلى نهبا

ولكنها استعصت عليه، فازدادت أشواقه ومواجده.. فقال لها:

لقد كان ذنبي في هواكِ مضاعفًا ... فقد صِرت من هذا الهوى أعشقُ الذنْبا
إذا لم تكن ربًا لقلبك لم تجد ... له غير من يُشْقي خوالجه، ربًّا

وحدثت المعجزة، فجاءت إليه بعد الصدود: مهيضة، تسحب خطاها، ولكن هذه التجربة الأخيرة في ميادين الحب، كفكفت من غلوائه، وأعادته إلى رشده، وزادته شعورًا بشيخوخته، بالاضافة إلى أنه هو نفسه، بدأ يحس باليأس يملأ جوانحه وعاف المدامة والصحب:

سلَوْتُ وقد شاخت أحاسيس نابضٍ ... فلست أحس اليوم من نبضه وجْبا
ولو أنني أقوى عليه.. لخفته ... وآثرت من أهواله البعد لا القربا

فصرخ بها في يأس وأسى:

ذريني، ذري هذا الحطام فإنه ... يكاد لطول الكرب يستعذب الكربا
أمامك من دنياك ما ترتجينه ... لعقباك، لكني غدوت بلا عقبى

وهكذا تنتهي هذه المجموعة أجمل نهاية، فتلك هي نهاية الحي والأحياء، غير أنني أعود فأرجو أن يعمل الشاعر على نشر بقية قصائدة التي تتحدث عن غزواته السابقة وتصفها، ليستطيع الناقد أن يستكمل حلقات الدراسة بالنسبة لشعره في الغزل والنسيب، كما أنني أشير هنا إلى أنني أعلل أو أفسر وجود أكثر من حبيبة لدى شاعرنا الكبير، بما سبق ان ذكرته، من أن مفتاح شخصيته، هو: (نفس تبحث عن نورها)، فهو موكل بالحسن يتبعه حيث سار، لأنه طلعة يبحث عن المثل العليا في الحب والفلسفة والجمال، وإنسان يتمتع بهذا المزاج الفني، يعيش عادة كربان السفينة، لا يطيب له المقام في شاطئ، حتى ينصب أشرعته للاقلاع إلى شاطئ آخر.

نأتي بعد ذلك إلى القصائد التي عنونها باسم (في موكب الحياة) وهي قصائد كان من الممكن أن تدرج مع مثيلاتها من القصائد المعنونة باسم (من أغوار النفس) ففيها حيرة وغموض وفلسفة وتساؤلات.

أولى هذه القصائد، قصيدة (جحيم النفس) وهي قصيدة في غاية العمق

وبعد الغور، إنها سبحة من سبحات الخيال، وانطلاقة من انطلاقات الفكر. ورحلة تشبه رحلة دانتي أو أبي العلاء المعري، ولكنها تصور حالة واحدة من حالات النفس، التي تثقلها آثامها، ويتململ ضميرها تحت كابوس الإثم والرجس. قصة إنسان أخذ طريقه إلى الجحيم، وهو يشعر بالعزة والخيلاء فتاريخه حافل بالمخازي والشرور والمعاصي، وشيطانه نفسه اعترف له بأنه موهوب في الشر، متغلغل في أغوار الخطايا، واستقبل في الجحيم، استقبال الأبطال الفاتحين، وأخذ إبليس والشياطين و (سكان الجحيم) ـ إذا صح التعبير ـ يضجون بحمده والثناء عليه، ورأى هناك فتاته وهي تصلى صنوف العذاب، فقال لها: لا تثوري فانت السبب في كل الآثام التي اقترفها والقاع الذي انحدرت إليه، ولكن المشاعر الإنسانية تغلبت عليه، بعد أن كان يندد بفتاته وبما صنعت، وخاصة بعد أن أدرك الهوة السحيقة التي هوى إليها، ورابطة العذاب الساحق، والخزي الأليم، التي ربطت بينهما في الجحيم.

فقال لها:

لا تخافي.. فقد أعود وإياك طهورين بالعذاب الأليم

وخلال جولاته في الجحيم، أبصر منظرًا عجيبًا، فلقد كان إبليس يتحدث إلى أعوانه وأتباعه والمخدوعين به، ولكي يعزيهم ويخفف من مصابهم المؤلم:

قال:

قال إن الفردوس قد أجدب اليوم.. فما فيه من ولي حميم
ولقد جاءني رسول من الجنة يشكو إليّ شكوى العديم
سوف أسقيهمو الغمام.. وأهديهم رخاء من ناعمات النسيم

قال هذا، ثم ماذا؟ صورة من أروع الصور في الواقع، صورة من يسقى الغمام، ويهدي الرخاء من ناعمات النسيم، وهو يتلظى في دركات الجحيم.

قال هذا وصد عن وجهه الدامي شواظًا أهدته ريح السموم

وهو موقف مضحك بالفعل، ولذلك قال الشاعر:

فتعجبت للهراءِ، وقهقهت فولّى، وقال: أنت خصيمي.

وتغير موقف الشاعر بعد ذلك، فتطهرت نفسه من الإثم والحقد والرجس وقال لها:

لا تخافي فقد تبدلت حتى خفت لا أن ألوم بل ان تلومي
وتطهرت باللهيب من الرجس فأبصرت كعبتي، وحطيمي
لن تقيمي مثلي هنا إن تحولت إلى منهج الهدى، لن تقيمي

فبكت، وأخذت تتغلب مثله على نوازع الإثم والضلال، واتجها معًا إلى السمو، سائرين في الطريق المستقيم، ويسدل الستار على هذه القصة الفلسفية الرائعة، ليعلن لنا الشاعر بعد أن انتهت، ان هذا الجحيم هو جحيم النفس، أو ما نسميه بالضمير:

أيها النفس بين جنبيك نار تتلظى، تفوق نار الجحيم
فارحميني من الضريم، فإني لم أذق في اللظى كهذا الضريم

وفي (عذاب الحيرة) ما في (نفس تبحث عن نورها) من تساؤل وتطلع وفلسفة، ولكنه في عذاب الحيرة يحدق في أعماق ذاته، ويسائل نفسه ويناقشها، بينما نبصره في القصيدة الأخرى وهو يتحدث إلى النجوم والظلام والروض والعاصف والشاطئ والبلبل والشمس، ويبدأ حديثه مع نفسه بهذا السؤال:

لِمَ لَسْتُ أقنع في الحياة بكل أوطار الحياة؟
لِمَ حين تمنحني الهبَات.. أضيقُ ذرعًا بالهبَات؟
ويشوقني الحرمان! ثم أضيق بالحرمان! من كلفني بذاتي؟
ويحي فما أشكو سوى... أني أعيش، بلا ثبات

فهو يكره القديم ويتطلع دائمًا إلى الجديد، فإذا تحقق له ركض إلى هدف جديد، وكلاهما يشقيه فليس يرضى بالجحيم ولا بالنعيم. كما انه يحن شوقًا إلى الحميد من الأمور، كما يحن إلى الذميم منها، ويتساءل:

ماذا أريد؟ فقد برمت بما أريد.. ولا أريدُ؟
إني لأهدِمُ.. ثم أبْنِي.. ثم أهدم من جديد
وأرى الحصى درًا.. فانظم منه كالعِقْد النضيد

ويقول انه: لو سامه دهره العذاب لما اشتكى منه، ما دام يتلوه (الثواب) ولكن على أن يكون لكل منهما فترة معينة، لأن الرتابة تدفعه إلى الملال، والملال يسوقه للهلاك، وهو مع ذلك لم ينعم بالشباب ولا بالمشيب، ويقول لنفسه:

لا تنشدي عوني.. فما أقوى عليه.. ولا الام
ولقد أعاني النقص.. لكني أخاف من التمام
يا ويل من ركب الغمام.. اذا تمرغ في الرغام

وفي القصيدة جبرية واضحة، ودعوة ـ في ختامها ـ إلى الرضا بالأمر الواقع:

فإذا سخطت فإنه.. قدز يسير كما يشاء
وإذا رضيتِ.. فقد يكون رضاكِ، قنطرة النجاء

والقصيدة في مجموعها، تذكرنا بقصيدة (الطلاسم) لإيليا أبي ماضي، مع الفارق بين القصيدتين في الاستيعاب والشمول وتعدد الصور والنسق الذي تنتهي به كل من القصيدتين. وفي قصيدة (الأفعى) نعيش مع حسناء (ماردة) استنفدت شبابه وفتوته، وهو أسير فتنتها الطاغية المدمرة:

هي أنثى لكنها تُفزِع الليلَ.. فتجري أَغْلاشه للصباحِ
صارخاتٍ رعبًا.. وقد أرخت الشعر وألقت عنها رقيقَ الوشاح

صورة (سريالية) عجيبة، بل إن القصيدة في بعض تشبيهاتها، من هذا المذهب الذي يعتمد على انطباعات اللاشعور الكامنة في أعماق الأعماق، فهناك مثلًا:

نظَرَتْ فامتلأتْ رعبًا.. فقالت كيف يخشى الرجال أنثى ضعيفة؟
أنتِ أنثى؟! أجل ولكنك الهول أرانا دنيا الحسان المخيفة

والبيت الذي يقول:

ألف شمس تضيء من وجهك الساطع.. لكنها شُموسُ احتراق

لقد حاول أن يتخلص من إسارها، وأن يثور عليها، وأخذ يستعيد غزواته

الماضية، وانتصاراته في دنيا الغرام، ليستمد منها الشجاعة على فكاك قيوده، ولكن:

ما الذي كاده.. فما ينشد اليوم سلوًا.. ولا يطيق بعادا؟

هذه حية، ويعرفها الناس هلوكًا، تمزق الأكبادا
نفثت فيه سمها.. فغدا الواله ما ينبغي الجديد الخلوبا
أي سم هذا؟ فقد كان قلبًا طالما كاد في هواه القلوبا

ويرفع يديه العانيتين ليهددها ويقول لها: أيتها الحية الرقطاء، هذا صريع ليس كمن تعرفين، فقد خر بعد أن أخاف الحروب:

فاحذريه اذا استفاق وشقي.. عندما يستفيق، منك الجيوبا

ولكن الذي حدث مع الأسف:

واستفاق المخمور من بعد أن أدبر عنه شبابه وفتونه
وتوارت عنه.. ويا رب عانٍ.. مثله، أنقذته منها منونه
ما الذي تبتغيه منه.. وقد ضاع.. ولم يبق منه إلّا شجونه
وتسامَغن.. من شقين.. فأشفقن.. ففاضت لذكرهن عيونه

وبجانب هذه (الأفعى) التي استنفدت شبابه وفتونه، وذهب ضحيتها حسناء أخرى ذهبت هي ضحيته، حسناء (حائرة):

كانت متيمة بالشعر تحسبه من السماء، وأن الشاعر الملَكُ
وأنه لو أراد الليل متشحاً بالنور، طاوعه في ذلك الحَلَكُ
يدور عالمنا الأرضي في فلك ويستقل به في أوجه، فلك

هجرت زوجها وأبناءها، لتلتقي به، لتعيش في أفقه السامي الرفيع. وقالوا لها وهي تدنو من حبائله: إياك لا تسقطي، فلم تصدق واسترسلت ضحكًا منهم:

لقد رأت انها تقضي به نُسُكاً وأين مما ترى أهواؤنا النسك؟

وجاءها الشاعر المفتون، وهو يحسبها كبقية الحسان اللواتي عرفهن، فصدمت باتجاهاته وصدم باتجاهاتها، فأجهشت، فبدأ الحزن على محياه

وأخذ يتساءل:

أهذه بشر؟! أم انني حجز؟ أم في الكيانين سر لست أعلمه؟

فلروحه مطالبها، كما ان لجسمه مطالبه، وكان من الطبيعي ان تكون قصتهما:

قلبان ما اجتمعا إلا ليفترقا فالماس ليس كمثل الفحم منجمه

وهناك قصيدته الرائعة: (قدر ورجل) إنه يفلسف فيها تهالكه على المتعة، وسباقه خلف مفاتن الجمال، ويلقي كل المسؤوليات على القدر و(النصيب):

لست أشكو انه قدري ما يفر المرء من قدره
ظمئت روحي، فاوردها ما تعاف الروح من كدره

ويرسم بريشته الساحرة، مجموعة من الصور الرائعة:

يتثنى من لدونته كتثني الغصن من ثمره
مال فاستعجلت ضمته وثناني لين مهتصرة
خلته والراح تصرعه وتزيح الستر عن غُرره
كوكبًا يهوي فيحضنه خافق يلتاع من سقره

وفيها يقول:

رب رومي تدين له مهج السادات من مضره
فتنة تغويك عارية وتريك السحر في أُزُرِهْ
نالني منه.. على كبرِ ما ينال المرء من كبره
شد ما ترضيك صحوته ولقد يرضيك في هَذَرِه
خيرُ ما في الحسن تَفتَمة من خُمَيَّاه ومن وتره

وقصيدة (جدار الظلام) تذكرنا بقصيدة الشاعر (غربة الروح)، ولكنها تختلف عنها في بعض القضايا التي تناقشها:

من حياتي الأخرى.. رجعت إلى الأرض.. فالفيت كل شيء غريبًا

ومضى يتساءل عن الأسباب التي جعلته يشعر بأن كل شيء غريب عليه

لأنه رجع من عالم الطهر يستنكر عالم الفجور؟ اذن أتراه لو خلد في هذه الدنيا فسيرتاب بالتقى والعفاف؟ ثم: ماذا يشتكي من عالم العهر إذا ساعده على نيل ما يحب، وما دام الظلام سينيله مناه، فإنه سيستمرئه دون شك. وفكرة العقاب هي التي تخيف، وحيث لا إثم، فليس هناك تثريب، وهو مثل الألوف في هذه الأرض، الذين لا يمنعهم عن ارتكاب المعاصي، غير خوفهم من العقاب أو طمعهم في الثواب.. فإذا أمنوا من العقاب ولم يكن لديهم ما يرجونه، فليسوا غير عبيد للشهوة واللؤم والأنانية، لذلك:

ليس فضل النفوس أن تنبذ.. الشر.. إذا كان طبعها يجتويه

ليس فضل النفوس ان تحضن الخير.. إذا كان طبعها يشتهيه

إنما فضلها.. إذا راضت الطبع فأجدى.. ولم يعد بالسفيه

وقال: إنه يشتهي عالمًا:

يفعل الخير.. عارفًا أنه الخير.. فما يبتغي جزاء وغنما

ويرى الشر حين يخطر في النفس.. افعوانًا يجيش، يقطر سما

ولكن الأرض ــ مع الأسف ــ ليست كما يشتهي ويريد، فهي ترى السلم في توقد الحرب، وليس فيها من الملائك الا نفر سامه الشياطين ظلمًا ولذلك يقول:

أنا فيها مضيع كلما شئت بناء يرده الدهر، هدما

ويعود إلى الحديث في هذه القصيدة، على النمط الذي سار عليه في قصيدة (غربة الروح) ولكنه هذه المرة يقول:

لست أشكو من الضياع، فقد.. ضعت.. وما يشتكي الضياعَ الضعيف

كان لي تالد يتوق.. فأرداه من الهون.. ما اتقاه الطريف

رب غي يهدي الأثيم إلى المجد ورشد يضل منه الشريف

ونسري معه في قصيدة (الساري والليل). والنور يظهر له تارة ويغيب أخرى. والظلماء تحسبها جدارًا إذا حملقت فيها، وكلها شكوى من الزمان ومن أبنائه:

وبـقـيـتُ أخْـبـط مـا أرى في هـذه الـظـلـمـاء فَـجْـرا

لـكـأنَّهـا قـبـر، ولـكـنـي أحـس بهوله وبـمـا اسرا

أسري بـه وأجـر رجـلي مـن عـنـاء الـسـير جـرا

فـتـخـيـفـني الـغـيـلان لـكـنـي أعـود لهن قـسرا

والـفـتـهـن، وقـد تـرى في عـسرة الأيـام يـسرا

مـا خـيـفـتـي؟ كـلا، فـقـد عـاشرتها في الليـل دهـرا

عـاشـرتها، فـوجـدتها أنـقـى مـن الإنـسـان سرا

أنـقـى، ولـوا الجوع، كـانـت فـوقـنـا نـبـلًا وطـهـرا

ولكنه يتمرد على الليل والظلام ويصرخ:

أ أظـل أخـبـط فـيه عـمـري سـاء هـذا الـعـمـر عـمـرا

لم ألـق نـجـمًـا فـيه يهديـنـي الـسرى، لم ألـق بـدرا

فهل أرى الروض الأنيق غدا وأنشـــق عطـــره؟ وأرى الغدير وقد تدفق؟ والغصون وهي تميل سكرى؟ والبلابل وهي تسكب الألحان خمرًا في الأرواح:

وأرى الـرفـاق الـغـر ـ بـعـد الـنـأى ـ والـزمـن الأغـرا؟

أم انني سأظل سطرًا في سفر الليل، أسري به كالطيف الذي ينشد قبرًا من الفيافي السود؟ ولكن الأمل يعود فيسري في جوانحه:

وأنـا الـذي نـوري سـيـغـمـر هـذه الآفـاق غـمـرا

فـأنير للأجـيـال، حـاضرهـا، ومـقـبـلـهـا، الـمـمـرا

وليس ذلك من المستحيلات:

فـلـرب عـصـفـور.. يـعـود بـقـسـوة الأيـام نـسرا

ولـرب مـرهـوب يـعـود بـكـرة الأيـام.. ذكـرى

وفي قصيدة (هنري) يفتتح شاعرنا الكبير موضوعه بتساؤلات ذكية:

ما الذي خطه الزمان على وجهك، من نقمة ومن بأساء فغدا ساهمًا ـ وان

شعت الحكمة منه ـ على دياجي الشقاء؟

وينطلق في تساؤلاته الممتعة:

أفهذا السهوم ضرب من الطبع وإلَّا ضرب من الإعياء؟
أم بصيص من الذكاء تداريه ليخفى بلمحة من غباء؟
حرت في وجهك العجيب، فقد شمت وضوحًا به وراء الخفاء
فيه ما ترهب النفوس، وما ترغب من جفوة ومن تأساء
فهو كالدهر مظلم ومضيء بدجاه، بفجره الوضاء

ويساعد الشاعر مزاجه المتفلسف، ولماحيته المستوعبة، على المضي في نقاش طويل عريض، حول الطبائع البشرية، ودوافع السلوك، ونشعر بأننا نقرأ تحقيقًا صحفيًا، يدور بين علمين من أعلام الفكر والفلسفة وعلم الاجتماع، يتحدث فيه احدهما إلى الآخر، وقبل أن يجيب رفيقه، على سؤاله، يندفع فيعدد الأسباب التي تنتج عن هذا التصرف أو ذاك، ثم يعود السؤال وتعود الإجابة، وتتعدد أوجه المقارنة، على حالتيها في الاتفاق والاختلاف، ويعزيه فيما أصابته به الايام، بعد ان طحنته بين شقيها، خلال العدد العديد من السنين. ويقول له:

إن تكن قوة الشباب تَخَطَّتْكَ.. ففي الشيب حكمةُ الحكماء
سوف نمضي إلى الفناء. فستعذب.. بعد الحياة.. ورد الفناء

ويقول له:

كيف نخشى من الفناء؟! وما في العيش من راحة.. ولا نعماء
رب حي يهفو به الفكر للموت.. فتأبى الحياةُ كل الإباء

☆ ☆ ☆

قد بكينا الموتى ورب حياة.. هي أولى منا بهذا البكاء

وسخر من الخلود وقال إن اسطورة الخلود ملهاة حباها الخيال للشعراء:

وسيطوي الزمان ما أبدع الفكر.. ويلهو بلامع الأسماء
وسياتي من الجديد، بما يهدم.. ما كان قبله من بناء
هذه سنة التطور في الكون.. استوت في بداية وانتهاء

ولكنه في نهاية القصيدة يعود فيقول:

سوف نمضي.. وليس يبقى سوى الذكر.. مثيراً لنقمة أو رضاء.

ولست أدري هل بقاء الذكر هو الخلود، أم أن الخلود شيء آخر؟ وفي قصيدة (سخرية الحياة) صوفية على نهج جبران وأبو ماضي.. وغاندي، فقد قالت له الروضة والبلبل، والسندس المخضر والجدول، في مجلس أنس تجري به الراح، مثلما يجري المنهل بالسلسبيل الغذب، و:

يديرها بين الندامى فتى كأنه الغادة.. أو أجمل
يسقي بعينيه، وأكوابه فنحنُ من كِلتيها، نثمل
والنَّايُ ما اغذَبَ ألْحانه يطْرب من آخرها الأول

والبدر بالرغم من أنه في أوجه العالي.. فقد كان بسحره، وكأنما ينزل ما بين هذه الباقة اللطيفة، قالوا له وهو ساهم، سابح في دنياه: أهذا الذي تراه هنا هو الحياة بمتعها ومباهجها أم القفر والصخور التي تهتم بها؟ فقال لهم الشاعر: بل أنني ههنا، مغترب أشعر بانني في غير منزلي، وراحت الحسناء تجادله وتقول له: يا ويلتاه ألم تزل مسترسلًا في غيك، وجربت معه بعض أسلحة الأنوثة التي تعرف تاثيرها على شاعرنا الكبير، ولأول وهلة، فقد نجحت المناورة فما أفتك الحسن حين يفزع، أو حين يغضب:

ما أفْتَك الحُسْن إذا رعته أو انتَ أنكرت الذي يفعل

وقالت له: هل أنت ـ أيها المفتري ـ لا يذهلك الحسن حين تتطلع إليه.. لقد تجلت فينا قدرة الخالق المصور، الذي وهبنا من عطاياه الجسام ولم يبخل، كما بخلت أنت عن الاعتراف بهذه العطايا.. هل أنت أعمى أم مجنون؟ وهل أنت هازل أو جاد فيما تقوله..؟ وقامت بحركة تكتيكية صغيرة من حركات الحسان، وبالرغم من أن المناورة نجحت أيضًا، فقد قاوم الشاعر أيضًا:

لا تَنْشِدي يا فتنتي مقتلًا … فليس عندي للهوى مقتل
لَمْ يَبق إلا نَفس.. ذابل … ومهجةٌ.. ضاق بها الهيكل

وأخذ يعدد لها الأسباب التي حملته على أن يزهد في الدنيا وفي أهلها، ويستوي عنده فيها القصر والكوخ. وحياة العزلة المتوحشة، والحياة الاجتماعية الحافلة:

زهدت فيما اصطرعوا حوله … فليس لي في كبسه، مأمل
وأصبحَ القلب خواء، فما … يرغب من دُنْياه أو يوجل

ويبدو أن تجاربه مع الحياة والأحياء هي التي حببت إليه العيش على صورة الروضة الحالية، التي تعيش في جهل مطبق، عن الصراع الدائر حولها، أو الجدول، الذي ينطلق في مجراه حيث أتيح له الانطلاق، بين الرياض المونقة، أو الصخور الصم:

يَغبطني الناس، ولو حملوا … من شقوتي المعشار، لم يحملوا
ما هذه الدنيا سوى معقل … فكيفَ لا يرهبنا المعقل؟
تركتُ فيها الشيف من خيفتي … منه.. وأغراني به.. المغزل

ويقول الشاعر في ختام القصيدة:

أنا الذي هبت جنوبٌ على … آماله.. ثم تلت شمال
فاقتلعتها، فهو من بعدها … يعيش وهو الثاكل، الأرمل

وأسجل البيت الأخير، وأنا أشعر بالألم والأسى. فقد تعودنا الإنسانية الرفيعة، والمحبة الشاملة من شاعرنا الكبير، ولكنه في هذه القصيدة، كان ساخطًا على الجنس البشري بأكمله:

لو أن حكمي، في الورى نافذ … لم يبق صلب فيه أو مهبل

أمنية عنيفة، يتمناها الشاعر ويتوق إلى تحقيقها، ويحدثنا عنها بكل صراحة، وبدون مواربة أو لف أو دوران، ويضع النقاط على الحروف والأسماء على مسمياتها، دون أن يلجأ حتى إلى الكناية في هذا الموقف الساخط الذي يقفه من البشر.

ويطرح القضية نفسها، بصورة جديدة، في قصيدة (العجز والقدرة). فقد كان في مجلس من مجالس المتعة، (التي بلغت آخر حدودها في الإمتاع والانبساط) وحينما رفض الكاس قال له نديمه:

إن عفت كأسك في العشيّ فهاتها ... لمتيم يصبو إلى نفحاتها

واستنكر عليه، أن يحضر مثل هذه المجالس، ثم يزهد في لذة تطويه من لذاتها، وتطلع الشاعر حواليه، حيث:

ثملَ الغُلام بها، ونام بجنبه ... شيخٌ يُتَمْتِم لاهيًا، بفتاتها

وحيث ولى الرشاد، وتبذل الجمال، أخذ يقول لصاحبه: لقد نلت من دنياي كل ما أريد، وعشت كل الغيد، حيث:

لا فرق بين الغيد عند مغامرٍ ... وقف الحياة على هوى ظَبَيَاتها

وصنعت، وصنعت، ولكن ماذا كانت النتيجة؟

وصحوت ما أجد الشباب ولا الهوى ... إلا بقايا العُمْر في غمراتها

ثم انتقل إلى الحياة السابقة التي كان يحياها، وكيف مضى بشهيها القدر، وأبقى فضلاتها للورى:

ماذا نريد من الحياة؟ وهذه ... حسناتها، تفضي إلى سوءاتها

لا تأمنَّن لها ولا لصِلاتها ... فلرُبّ حرمانٍ أتى بصِلاتها

ومرت فترة سكون، كالسكون الذي يسبق العاصفة، ثم انفجرت إحدى الحسان لتقول في ثورة:

لزهدتَ من عجز، ورب زهادةٍ ... سخطت على اللّذات بعد فواتها

ويقول الشاعر: لا تغضبي، فأنا راهب اضطرته الحياة إلى النسك، لأنه لم يجد منها غير ما يؤذيه. لقد كنت أجهل جاهل حين أضعت قوى الشباب العارمة، ولم يبق لي غير هذه القطرات التي ارتشفها وغدوت الآن أعلم عالم في حكمة، أضعتها، وهويت من شرفاتها:

أصغي الي فإنما هي آهةٌ ... قد أرْسَلتْها النفس من آهاتها

ويحذرها من كر الغداة ومر العشي، حينما تجري فتلوي من قوى الأسد،

وتنتقص من فتون المهاة.. وذلك هو المصير المؤلم الذي يحس به الشعراء ورحم الله أبا نواس، حيث يقول في أبياته المعروفة:

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم — وأسمت سرح اللهو حيث أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه — فإذا عصارة كل ذاك، أثام

وتلح فكرة العجز والقدرة، والعنفوان والهبوط على شاعرنا الكبير، بطريقة تثقل اللاشعور في أعماقه، فيلجأ إلى الطريقة التي يلجأ إليها ـ عادة ـ كلما أثقلته فكرة، أو جرحه إحساس.. طريقة التبرير. ونستمع إلى الشاعر في قصيدة (شباب ومشيب) وهو يناقش ببراعة المكاسب التي حصل عليها من هذا ومن ذاك، وبالرغم من أننا نلمس المرارة التي يغص بها ريقه خلال النقاش، وبالرغم من أنه يعود، (فيترحم) على أيام الشباب، وذكرياته وآثامه، فيقول:

لقد تمنى الناس ـ ويل الناس ـ لا بل ويله هو وحده.. تمنوا ما غيب في اللحد من شباب الأمس، وماذا في هذا الشباب مما يحمد؟ أفيه غير النصب المكري، وغير الوجد الذي أذابه، والجهاد المر الذي ضاق به جهده، دون أن يضمن النتائج، فقد يرجع بالنحس لا بالسعد، وكم شقي بالوصل كما شقي بالصد، وهو مع ذلك لم يفز لا بالجد ولا بالهزل، ولم يخصب لا بالراحة والكسل ولا بالجد.

ويقول: لقد شقي بشبابه، وشاهد العجب من أسوانه، وكان يذوق من لأوائه التنكيل والرهب، ولم يحس من ذكراه إلا الويل والحرب. ويقول: إن الشيب وقاه الكفران والريب، ووقاة اللهب الحارق بعد أن أطفأ هذا اللهب، فكيف يذم ما أشرق أو يمدح ما غرب؟

ويقول: إنه لا يمقت الضعف و (الخور) من الشيب ـ كما يقول:

أرى في الشيب ما يدفع — عني البغي والبطرا

وما أهفو إلى اللذات — أو استعذب السمرا

وما تدفعني القوة — أن أفترس البشرا

ولا تدفعني الغفلة أن لا أرهب القدرا

وبالاضافة إلى ذلك فهو لا ينكر أن الشيب قد بدد أوهامه، وصحح له بالحكمة أضغاث أحلامه، وأنضج بالخبرة وبالتجارب احكامه. وانه مع الشيب ارتفعت أعلام مجده، وتفجر سحر الكون من ينبوع إلهامه، وأطربت الأسماع أنغامه، ولكن مثل شاعرنا الكبير في حسه المرهف ومشاعره المضطرمة لا يمكن إلا أن يقول:

ولكني برغم المجد قد انكرت أيامي
يكاد المجد أن يخنق آهاتي.. وأنسامي
أعيش بذكريات الأمس أستروح آثامي
أراها.. رغم ما انكرت منها.. خير أعوامي

وهكذا ينتصر الشباب بعد طول النقاش، ويسحب باخطائه وضلالاته على كل ما جاءت به الشيخوخة من حكمة، ومن مفاخر وأمجاد.

وفي قصيدة (لا تخافي) لوحة جميلة لحسناء.

بكت عيناها.. لما رأت أن شعرها قد ابيض.. واستولت عليها المخاوف

وبعد أن يصف الشاعر كيف كانت، والتحولات التي طرأت على كيانها، ومخاوفها من المصير الذي ينتظرها، في صور جميلة، وأبيات قوية السبك، صافية الأديم، يقول:

كشفت لها رأسي، وقلت لها ارعوي فما هذه الأشجان إلا سفاسفُ
فهذا مشيبي، منذ عشرين حجة تداعبني منه الرعود القواصف
فما هزني منه الردى يوم محنتي ولا صرفتني عن هواي الصوارف

ويقول لها فيما يقول:

ولا تجزعي ما أنت إلا سلافة معتقة، تحنو عليها الشوارف

وهو تعليل لطيف، وان كان غير واقعي، فلا شك ان السلافة كلما عتقت زادت قيمتها ـ كما يقول العارفون ـ ، ولكن هل المرأة ـ مثلًا ـ كذلك؟..
لا، بالطبع.

ومن الظلم لحواء ان يضرب لها المثل بنفسه، فالمرأة دائمًا هي العنصر الأضعف والمطلوب، وحين تفقد عناصر الإثارة تفقد كل شيء بالنسبة لها كانثى، أما بقية الأبيات فقد خلت من عناصر المنطق العقلي، والمنطق الشعوري معًا، ستبقين ما كر الجديدان فتنة معربدة، وترتد عنك العاديات وتنطوي، على كمد منك السنون والزواحف.

كأن البلى أعطاه عهدًا بأنه — مصون، فما تدنو إليه المتالف

منطق لا تؤمن به حتى المرأة نفسها، مع الأسف..

ويأبى الشاعر الكبير، وقد عشنا معه هذه الفترة الطويلة، ونحن نتطلع إلى شعراته البيض، ونناقش معه ذكريات الشباب العابر، ومشاكل الشيخوخة الوافدة، يأبى إلا أن يمشي بنا خطوات على الطريق، لنزور معه مرقده الأخير، في (الوادي الظليل)، ويقدم الشاعر القصيدة بقوله: (بساط سندسي رائع، ما يدرك البصر مداه، تظله الأشجار، وتعانقه الغصون، وتوشيه الزهور، وتجري به الجداول، وتغرد البلابل، وتمرح الآرام، تبرجت فيه الطبيعة بأبهى حللها، فما تقع العين على أجمل ولا أروع ولا أبهى، ذلك هو الوادي الظليل الذي مر به الشاعر فتمنى ان يكون به مرقده الأخير)، ويشكو الشاعر في هذه القصيدة حظه في الحياة، والمتاعب التي واجهها:

ويا روض ضع لي من زهورك طاقة — بقبري... إذ ما استرهبتني المقابر
تضوع به عطرًا وتملأه سنى — مضيئًا.. فما تسطو عليه الدياجر
وضع لي به من عشبك النضر مفرشًا — تدور الحشايا حوله والستائر

☆ ☆ ☆

وسائده خضر تهش لها الرؤى — وتهفو إليها.. ما اجتلتها الخواطر
أراها فأنسى في الثرى أنه الردى — وينسى عفائي.. هيكلي المتناثر

ويقول: ما له لا ينسى وقد عاش خائفًا من الغاب، الذي تغشاه الوحوش الكواسر. فقد كان فريسة للجائعين، وكان في نفس الوقت يفترس ضحاياه كلما جاع، كما تفترسها الوحوش. ويقول: إنه لو خير لما اختار العودة إلى

الدنيا التي هانت المكارم على أهلها، ويقول:

ويسعدني اني بربعك آمن سعيد. فما تدنو إلى المخاطر
أنام فما أخشى الظلامة من غدي وأصحو، فما تقسو على المصائر
رفاقي على ما اشتهيه، بلابل ونبع، وروض حالم، وجآذر

☆ ☆ ☆

تمنيتهم أهلي وربعي، واننا قد اشتبكت أرواحنا والعناصر

ومن (الوادي الظليل) حيث تمنى الشاعر أن يكون مرقده الأخير.

ننتقل إلى قسم المراثي بالديوان وأولى هذه القصائد قصيدة (المقبرة الحانية). وليس من الضروري أن نرجع إلى تاريخ نشر كل من القصيدتين - وهو كل ما نملكه الآن - لنعرف أن القصيدة الأولى سبقت الثانية، وإن كنا نعتقد ان الفارق الزمني بينهما، ليس مجرد عام واحد، كما يتضح من تاريخ نشرهما، بل إنه أكثر من ذلك بكثير. فاتجاه القصيدتين مختلف إلى حد بعيد. وفي القصيدة الأولى مجرد أمنية، يتمناها الشاعر، كما تمناها الخيام من قبله،ولكن القصيدة الأخرى فيها إنسانية رفيعة، وتعاطف، وشعور جارف بالنهاية، وأعجب ما فيها ياء النسبة:

طال غدوي ورواحي إلى (مقبرتي) الوارفة الحانية

انها مقبرته هو، حيث يودع في كل يوم واحداً من جيرته الأدنين، ومن أهله وأصحابه، ويبلغ به الياس إلى درجة انه يتصور زيارته الأخيرة لها، وهو هادئ النفس، رابط الجاش:

فهل سيأتي بعضهم في غد إليك بي، في المرة الثانية؟
وَيُودِعوني فيك، في حفرة مظلمة، في لحظة، قاسية
أرقد فيها ما أبالي الورى ولا المنى، مشرقة، داجية
سيان في ظلمتها، مرقد وطّاه السَّقمُ، أو العافية

بينما يشعر بالفزع والهول، حينما يتصور انه سيحمل إليها، أحد أحبائه:

أم انني، يا ويلتي من غدي | آتي هنا، أحمل منهم فقيد
كنت له الدنيا كما كان لي | من قبل أن أصبح هذا الوحيد

ثم يتساءل:

مقبرتي، هل أنت لي روضة | فيحاء، أم أنت كهذا الجحيم؟

ويستدرك، فيقول:

لا. لست أشكو فيك حر الجوى | وفيك لي ألف ولي حميم
النفح والنضرة في صحبتي | لهم، وأَفْيائي وحلو النسيم

ثم يعود فيتساءل:

هل هم رميم في الثرى هامد | أم انني من بعدهم كالرميم؟

ويتحدث عن مآسيه وأشجانه وآلامه، لأن:

مآثم الدنيا، كأعراسها | في عقله الدامي وإحساسه
ايامه تركض، مذعورة | تسوقها، رهبة، آماسه
إلى الغد المجهول، في مَهْمَهٍ | الشوك فيه، خير أغراسه

ويعود فيقول (لمقبرته): إن الناس لجهلهم وغبائهم، يبكون موتاهم بينما الحي الذي تلهو به دنياه في الأرض، أجدر بالبكاء من هذا الذي في السماء، ولكن روح التساؤل تغلب عليه من جديد فيقول من هو الجدير بالبكاء منهما؟

أيهما إنّي لفي حيرة | تصرعني، تتركني في عماء؟
هل هو من يبقى بذاك الفناء؟ | أم هو من يفنى بهذا البقاء؟

غير ان الضعف يستبد به:

أيتها الأصداء.. إن الثرى | لو يَعْلَمُ النّاس لَصَدْرٌ حنون
لشد ما أهفو إلى مرقد | ترقد فيه كل هذي الشجون

وفي ختام القصيدة، تقول له الأصداء التي سرت إلى مسمعه في سكون الليل:

يا ناقمًا من عيشه والعيش حلم قصير:

أما ترى الناس سراع الخطى | لهذه التربة، هذا المصير

فبعضهم يخشى وروده، والبعض يستجير به، وكلهم على اختلاف أفكارهم، واتجاهاتهم، وسعادتهم، وشقائهم سيزورونه وهم لا يعلمون:

لسوف تلقانا، على غرة ... ولست تلقانا وانت البصير

ونمسك بانفاسنا اللاهثة، ونحن نهم بوثبة جديدة من وثبات الفكر الحي والشعور المتدفق:

غَمْضَةُ عَيْنٍ، يا لها فترةً ... وبعدَها، تُبصِر عيْنُ الضرير

وللشاعر أربع مرثيات: (١) (دموع وخلود) عن العقاد، (٢) (مصرع ورجل) عن الأستاذ محمد فدا، (٣) (الراحل الخالد) عن جلالة الملك محمد الخامس، (٤) (مجد الذكرى) عن الشيخ عبد الله السليمان وهي تعبر عن رأيه في عظمتهم وتفانيهم واخلاصهم، وترسم ما قدموا لأمتهم وبلادهم من جهد مشكور وعمل مثير وأيادٍ بيضاء، استحقوا بها الخلود.

آخر جولاتنا في الديوان، مع مجموعة من القصائد، عنونها الشاعر باسم (تأملات).. وأولى هذه القصائد قصيدة (الصاعدون)..،والصاعدون هم أولئك الذين قال الشاعر الكبير في شانهم:

الا رب شك يقود الفؤاد ... لإيمانه، ويقيه الجحود

صعدنا به فعرفنا الإله ... وباركنا، فحمدنا الصعود

وما كان سبحانه بالظلوم ... ولكنه، لا يريد الجمود

وهم الذين (يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض). وفي هذه القصيدة يقول لنا الشاعر انه تحير في كنه الجبال، وقد نامت الأرض من تحتها. وتساءل: أتستطيل من فن الله المبدع الذي نحتها، أم ان الغرور يدعوها إلى التشامخ والتعالي كالناس، وتساءل:

يحيرني صمتها كالقبور ... ومن قبل قد حرت في نعتها

وهل هو من طبعها؟ أم قضاء ... تحكَّمَ فيها وفي كبتها؟

كما تحير من سر البحار، وما هو ثاوٍ بجوفها، من عجائب لم يكتشفها الدجى ولم يعرف أسرارها النهار:

لقد صمَتت كل هذه البحار كصمت الجبال وصمت القفار

وجاء إلى الأرض فقال لها: هل أنت يا أم حياتك كحياة الناس، تصرفها الأقدار كيف تشاء، أم ان عنانها بيديك؟

ولكنها صمَتت مثلهن ويارُبَّ صمتِ كثيرِ المعان

وعاش مع النسر في الأجواء وغدا إلى وكره، فما كان يعرف من سره ومن جهره:

سوى انه آلة للقضاء فليست تجادل عن أمره

وان قوانين الطبيعة هي التي تحكمه وتسيره، ولم يكن النسر أو الأرض أو البحار أو الجبال هي وحدها التي تجهل السر ويمسك القضاء بعنانها، فلا شادي الطيور ولا الورد ولا الماء ولا الكرم ولا الخمرة ولا الشمس التي يعبدها الغافلون من دون الله، ولا الريح ولا القمر ولا النجم ولا الليل ولا الصبح ولا البرق ولا الرعد، لم تكن بالتي تعلم:

فما هنَّ إلا هباء يسير ويجهل أين هو الموقف

وفكرت لكنني ما اهتديت إلى فكرة في معاني الوجود وليس ذلك لشيء إلا، لأن السر قد أعيا العقول، وأعيا مصادر الأفكار ومواردها ويقول:

حياري، نعم نحن في حيرة تساوي الصحاة بها والرقود

وتنتهي القصيدة بأجمل ما يمكن أن تنتهي به:

الا رب شك يقود الفؤاد لإيمانه، ويقيه الجحود

وفي قصيدة (زفرات)، يتساءل:

أين أصحابي.. وأهلي.. ذهبوا للموت قبلي؟

وأنا المكدود من دنياي.. تبقيني، لثكلي

ويثور ثورة عارمة على الدنيا، فهي ليست غير دنيا خرافات وأوهام ودجل، وحزازات وأحقاد وختل، والإقبال في شرعتها مثل التولي، ومن راح بإنجاز منها، كمن راح بمطل، لأنهم أشباح أطماع تجازيهم ببخل. ويقول: ايه يا دنيًا الحقارات والتجني، كم تمنينا الهدى منك دون جدوى، وإن حالنا معك

على كل الوجوه مما يبعث الألم والحسرة. فأنت غانية لعوب، لا يمكن الركون إليك. ويقول: إن على الأرض قومًا يستحقون الرثاء، فقد حسدوا الموتى على الراحة، واستعدوا الفناء. ففي الأرض من البؤس ما يبكي السماء:

أفمجد العيش.. أن نلـ ـقى طعامًا، وكساء
ان مجد العيش.. أن نكـ ـسب، حمدًا وثناء

والأمجاد الحقيقية ليست فيما تعارف عليه الناس، فهي زور ورياء.. ولكن الأمجاد الحقيقية هي أن يسطع النور في الأرواح، وان تلقى الأغلال عن الأعناق، وان يمنع الظلم والعدوان، وان تكرم العقول المستنيرة، وان يعيش الفقير مع النعمى والرخاء. ويقول الشاعر لقومه: إنه ليس يحيا بينهم غير خيال عابر، فقد ضاق بالدنيا، وبحث عن هديه فلاقى الضلال، وحينما رأى المال وقد أغرى الرجال والنساء، ورأى المجد مجرد أوهام وأحلام:

قلت للمجد وللمال.. وقد مالا اختيالا
اغربا عني.. فما أعدل بالخلد الزّوالا

وفي قصيدة (ازدواج الشخصية) وهي إحدى الظواهر البارزة التي لاحظناها في الاتجاهات النفسية، لشاعرنا الكبير، نجد صورة جديدة للنفس التي تبحث عن نورها، فهي كما تقول مقدمة القصيدة: (هذه قصة نفس حائرة تفرقت أمامها السبل، فما تدري أيها تسلك وأيها تدع. وحينما حزمت أمرها على رأي فاختارت سبيلها رمى بها في متاهات مخيفة، لم تنج منها إلا وهي مثخنة بالجراح.. ولما سلكت السبيل المضاد لاقت منه شرًا مما لاقته من سبيلها الأول. فوقفت خائرة العزم دامية القدم، ترنو إلى السماء تارة وإلى الأرض أخرى فما تبصر إلّا عماء في عماء. والقصيدة في الواقع لا تحتاج إلى تحليل فهي واضحة تمامًا، وتمتاز بالمقابلة الفكرية والشعورية في كل بيت تقريبًا:

أيها النفس قد شقيت من البرا ء كما قد شقيت من أسقامي
ولقد قادني سلوى إلى اليأ س كما قادني إليه غرامي
ولقد حرت في اليقين فشككـ ـت فزادت من حيرتي أوهامي
ولقد رحت في الهدى أنشد النو ر فلاقيت. كالضلال. ظلامي

ويصرخ في نهاية القصيدة بأسى وحرقة:

أين مني سكينتي.. انصرم العمر وكلّت من السرى أقدامي

شد ما كنت أشتهي لذة الرا حة حتى سعدت بالآلام

وليس من المستغرب، وشاعرنا المفضال يتجه إلى الفلسفة في شعره، وبالمذهب المتشكك اللا أدري، ليس من المستغرب، ان يختص أبا العلاء المعري. بقصيدة خاصة.. ونحن نعرف انه اعتبر المعري والغزالي النماذج العليا، لما وصلت إليه الدعوة الإسلامية، والحضارة الإسلامية من مجد وسؤدد في دنيا القلم فقال:

ولقد أتت أقلامهم بعجائب من بعد.. تدحض فرية المغتاب

هل كالغزالي مفحمًا بتفلسف أو كالمعري معجزًا بسوابي؟

وفي القصيدة الأخيرة (رهين المحبسين) يشيد بأبي العلاء وببعض المزايا التي أعجب بها: ففي المقطع الأول أشاد بثورة أبي العلاء على الجور والطغيان:

هالك الظلم فانتضيت على الظلم حسامًا يروع الظلاما

لم يصغه الحديد، والصانع الماهر لكنه يصوغ الحماما

وقال له: ألم يكفك يا قاهر الطغاة، انهم صاروا حطامًا، وانهم وهم الالوف قد بادوا، بينما امتطيت وأنت فرد هام الخلود. وفي المقطع الثاني أشاد بالحرب التي أعلنها على الرياء والنفاق. وفي المقطع الثالث ندد بالخرافات التي شايعها العماية والجهل، وغذاها التدجيل:

صحت فيهم: ضللتمو أيها الحمقى، وكانت طقوسكم أوهاما

ارجعوا بالامور للعقل، فالعقل حكيم، يسدد الأحكاما

ايها العقل، يا دليلي إلى الخير، تباركت هاديًا وإماما

وأشار إلى تورعه عن إسالة الدم، وأكل ما فيه روح، وتبلغه بالقول، وإمساكه بأهداب العفاف والعصمة، ومجانبته للخمرة والندامى، وترفعه على مخالطة الناس، واختتم القصيدة بقوله:

أيها الساخر المشكك.. حطمت   بتشكيك اليقين العقاما
عرف العقل فيك عابده الفذ،   فنلت المثوبة - الالهاما

ولكن أرجو ألا ننسى مع ذلك، ان شاعرنا الكبير رغم إيمانه المطلق بالعقل، لا يزال يحمل بذور التشكك فقد عاد في قصيدة (الرحى والطحين) يحمل معوله ويهدم كل شيء حتى العقل نفسه، ويقول:

وأنا من بعد تفكيري، وتجربتي   وجدت العقل وهما

ولكن لنعد إلى القصيدة من أولها... ان المشكلة التي تشغل الشاعر هنا:

من ترانا؟ إجمادًا؟ أم وحوشًا؟ أم أنام؟

إنه يعيد إلينا بطريقته الخاصة،تبتل أبي العلاء وفلسفته في عدم ذبح الحيوان:

يا دمي المسفوك في الكبش.. الذي يطحن ضرسي
كيف لم أرحمك.. بل كيف تغذيت بنفسي؟

ويبدأ في شرح النظرية:

اكل الماكول من أصلي.. ومن فرعي.. وعرسي
من قبور النفر الماضين. من عشب وغرس
نبتا من هذه الأجساد.. من ظلمة رمس

فرعاها ذلك الكبش الذي أمسى طعامًا لنا، ولماذا؟ أفلم تنبت لحمه وعظامه لحوم وعظام آبائي وأبنائي؟.. فنحن قوت للثرى وللنبت وللدود، ولقد يقتات منًا الوحش والطير والهوام ولقد نقتات من بعضنا، دون ان نجفل من هذا الطعام:

كل ما في الكون.. للكون حياة واحترام
مَنْ تُرَانا ؟! أجمادًا ؟! أم وحوشاً ؟! أم أنام؟

وينتقل إلى العقل ليعصف به:

ثم يزدهي الإنسان بالعقل.. وهذا العقل أعمى

ما الذي في العقل غير المشاكل والمتاعب؟ وهو حين يحكم العقل يجد الكون متناقضًا كله إجحاف وظلم، ولكن إيمانه بالكون يجعله يقول: إنه من بعد تفكيره وتجريبه وجد العقل وهمًا، ووجد الإحساس والإدراك تنكيلًا وغرمًا بالإنسان المدرك الواعي.

أفبالعقل وبالحسن نعمنا؟! مثلما يزعم قوم.

إذن فإن الواقع الملموس مجرد وهم: وعلى رأي المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

قال شاعرنا يهتف من أعماقه:

أعطِني الجهل.. بما شئت.. فإن الجهل غنم

فالجهل نعمى يتوق إليها الشاعر الذي عاش نضو عذاب، كلما جد إلى النبع تلقاه السراب، وحينما لمح النور وأغراه بالمضي خلفه، واراه الحجاب، فهو لا يبصر معنى النور إلا في الضباب؟

ولقد أياسَه أنْ يعرف النَّاس.. وأن يعرف نفْسَهْ.

نضع يدنا علي برهان جديد، لمفتاح شخصية الشاعر، الذي قلنا انه (نفس تبحث عن نورها)، وعلى وجه الخصوص حينما يؤمن بشيء ـ كالعقل مثلًا ـ ثم يكفر به، ونجد هذه الظاهرة بارزة في أكثر قصائده الفكرية والوجدانية.

ونأتي إلى (خاتمة المطاف)، وهي تسير على النهج الذي درسناه في شعره، في أهدافها واتجاهاتها الفكرية والنفسية، وكأننا نقرأ فيها تقريرًا موجزًا عن رحلته الطويلة في عالم الحياة والأحياء:

تعبت من التجوال في غير طائل وإبتُ من الترحال من غير نائل

فما أنا بالرَّاضي بعيشة مانح ولا أنا بالراضي بعيشة سائل

لقد ذاق أفانين النعيم، فلم يجد فيها غير طعم واحد متشاكل، وجرب ألوانًا من الناس فتساوت عنده فضائلهم بأخزى الرزائل عندهم:

وقالوا بأن البؤس نعمة خالد فألفيت البؤس نقمة زائل
ورحت لأهلي أنشد العون عندهم فأرجعني نشدانهم غير آمل

فسيان في رأيه ـ إن سعى للعمل مع الناس، أو توارى خلفهم غير عامل، وإن ذمه الناس أو أثنوا عليه، وإن شرب من المهيع الآسن أو من المنبع العذب، وإنه إذا كان أول صاعد إلى العلياء، فإنه أول نازل عنها، فقد زهده فيها انتصار الخداع، واندحار الكفاح، وانحناء العقول المستنيرة، أمام الحظوظ، كما يقول:

ألا رب مجد قد تمناه باسل فخاب، ومجد ناله غير باسل
واكليل غارٍ فوق جبهة ظالمٍ وإكليل شوك فوقَ جبهةِ عادل
وكم من جدود فارغات تواثبت على صهواتٍ من عقولٍ حوافل

والقصيدة كلها تسير على هذا النهج الذي يحفل بالجبرية والإيمان بعدم جدوي، والسعى والعمل والكفاح. ومهما حاولنا هنا، أن نشيد بهذه المزايا ودورها في تغيير حظوظ البشر، فإن الواقع الأليم، يذكرنا دائمًا بأن المثل الشعبي الذي يقول: (درهم حظ خير من قنطار شجاعة).. كان من يوم أن وجد الإنسان على الأرض، ولا يزال حتى الآن، وسيظل ـ فيما نعتقد ـ إلى الأبد، هو القانون الذي تسير الحياة في ضوئه، وتتحرك حتى الآن في إطاره، ولذلك لا نملك إلا أن نقدر موقف الشاعر ونتعاطف معه، حين يقول:

وقال أصيحابي هلمَّ، فإننا سنرحل.. كلا إنني غيرُ راحل
فليس ارتحالي بالذي ينبت المنى بأرضي، فخصبي قد غدا مثل قاحلي
وما أنشدُ المثوى فرارًا من النوى فرب منيخ، حظه، حظ قافل
إذا شرب الصادي فلست بشارب وأن أكل الطاوي فلست بآكل
فقد يفتك الماء النمير بظامئ وقد يقتل المنهوم خير المآكل
وما أرتجي المحيا ولا أجتوي الردى فأمسي ويومي، كالغدِ المتحامل

وبمناسبة (أصيحابي) فقد قال الدكتور زكي مبارك وهو يتحدث عن قصيدة أبي فراس الحمداني (أراك عصي الدمع)، في كتابه (الموازنة بين الشعراء) ما معناه أن كلمة أصيحابي إذا لم تكن ضرورة الوزن هي التي ألجأته إليها،

فإن أبا فراس أشعر الشعراء، لاستعماله الدقيق لها.. وفي استطاعتي أن أقول نفس الكلام عن هذه الكلمة، بالنسبة لشاعرنا الكبير.

أما بعد:

فإننا ونحن على وشك إتمام هذه الدراسة، نرى من واجبنا أن نخلص منها إلى إبراز أهم مميزات هذا الديوان.

وأولى هذه الميزات هذا الاتجاه الفلسفي الذي ينبع في معظمه من مشاعره وأحاسيسه، ومن قلبه لا من عقله، والذي يكاد يسير في خط واحد، نستطيع أن نرجع إليه كل شعره، النابع من أعماق ذاته، ومن مكامن إحساسه، وهي ميزة لا نجدها إلا عند قلة نادرة من الشعراء.

وثاني هذه الميزات، الديباجية الصافية والبيان المشرق، والتعبير الأنيق، والبراعة في توليد المعاني، وتلوين الصور، وبعث الحياة والحركة فيها.

وثالثها الروح الإنسانية الشاملة، التي تُعنى بمشاكل الإنسان، كل إنسان. والتي تمتاز بما يسمي (روح العصر).. والطابع البارز فيها هو القلق، الذي نلمسه عند كبار الأدباء العالميين. فشعر السيد محمد حسن فقي بهذه الميزة الملحوظة فيه، يتجاوز النطاق المحلي المحدود، إلى النطاق العالمي الكبير، الذي لا يستطيع الوصول إليه إلا الشعراء الكبار، ذوو الثقافة الواسعة الشاملة، والموهبة الشعرية الفذة، والتجاوب الكامل مع التيارات الفكرية والفنية التي يصطبغ بها عصرنا الحديث.

والميزة الرابعة تجسيد المعاني والأفكار والمشاعر، وخلع الحياة المتوثبة النابضة، على الموجودات التي يلمسها الشاعر بريشته الملهمة، فتستحيل بين يديه مخلوقات حية، تبادله ويبادلها العواطف والأحاسيس يستوي في ذلك المظاهر الكونية، بالخلجات النفسية، بالرؤى العجيبة التي يقتضيها وهو في نشوة الإبداع.

وميزة خامسة تبدو وكأنها متفرعة عن الميزة السابقة، ولكنها تختلف عنها في اتجاهاتها الشعورية، هي تفاعله مع الطبيعة وتعايشه معها وإحساسه

العميق بالوحدة الكونية الشاملة، وبالروابط التي تربطه بها والتي يحس معها بانه جزء لا ينفصل عن الطبيعة بكل ما فيها من مظاهر الحياة، وبكل الموجودات والأحياء الذين تحفل بهم.

ولعل الإشارة بعد ذلك إلى الخيال الواسع عند شاعرنا الكبير كميزة مستقلة، لم يعد ذا موضوع، ولكننا مع ذلك نحب أن نؤكد عليه هنا كميزة تلفت النظر في كل القصائد التي قرأناها له، ابتداء من القصائد التي نشرت في كتاب (وحي الصحراء) إلى آخر ما يتحفنا به السيد من قصائد لا يزال يوالي نشرها ونحن نكتب هذه المقدمة.

والميزة السابعة التي تبدو بوضوح في كل شعره هي ما اصطلح النقاد القدامى على تسميته (بالحكمة)، وهي أبيات تلخص تجربة عاشها الشاعر وخرج منها برأي أو فكرة. وهي عادة تمثل تركيز كل مراحل التجربة في بؤرة واحدة، وأبرزها كنتيجة لما مر به وعاناه خلال هذه المراحل.

أما الميزة الثامنة فهي اعتماده على الاسلوب القصصي في شرح أفكاره والتعبير عن مشاعره، وهو أسلوب لا يلجا إليه غير الشعراء الموهوبين، الذين يعرفون كيف يستحوذون علي مشاعر قرائهم ويجتذبونهم، ويوحون إليهم بطريق غير مباشر، بآرائهم وأفكارهم.

وتاسع هذه الميزات إيمانه بالحياة رغم التجارب المريرة التي كابدها في حياته، والتي جعلته يسخط على الناس، ويتخوف منهم، ويحاول الابتعاد عنهم، وهو إيمان ينبع من مكامن الإنسانية في نفسه الطيبة الخيرة، وينير لــه الدياجي المدلهمة، التي يضرب في متاهاتها، وهو يبحث عن الحق والخير والجمال.

وتأتي بعد ذلك الميزة العاشرة، وهي نتيجة طبيعية لإيمانه الراسخ المتين. وهذه الميزة هي تماسكه الصلب وموقفه البطولي أمام خصوم القصيدة ومناوئيها، وحرصه على الدفاع عن تراث العروبة ومقدسات الإسلام، ومحاربته لكل المذاهب والنظريات التي تمس عقيدتنا وتحاول العبث بكياننا

وتجيء بعدها على الفور **الميزة الحادية عشرة** وهي نوازع الطهر والعفاف التي تسيطر عليه، رغم ما يبدو عليه أحيانًا من استرسال مع العاطفة وانطلاق مع دوافعها.

فإذا أضفنا إليها خمس ميزات أخرى هي:

(١) استطاعته تقمص الشخصية التي يتحدث عنها بدقة مذهلة، كما رأينا في قصيدته (مرآة الخريف) ـ مثلًا ـ (٢) واختياره للأوزان الشعرية التي تتناسب مع انفعالاته النفسية. (٣) ونفسه الشعري الطويل، الطويل. (٤) ووضعه للقوافي في مواضعها الطبيعية، دون قلق أو اضطراب. (٥) وايحاءه بالقافية من خلال سياق البيت: فإننا نخرج بست عشرة ميزة لم تجتمع كلها حتى اليوم في ديوان واحد من الدواوين التي طبعت لشعرائنا، بل إنها لم تجتمع كلها إلا لعدد قليل جدًا من الشعراء الذين نقرأ شعرهم بالعربية، وذلك مما يجعل من هذا الديوان، لوحة شرف نمسكها باعتزاز وفخر، ونباهي بها وبصاحبها الشاعر الكبير، الذي استطاع بأول مجموعة شعرية يصدرها، ان يخرج بشعرنا إلى الآفاق الرحبة الواسعة، آفاق العالم الكبير، غير المحدود.

بين يدي الديوان

لست أدري ما هي الانطباعة الأولى التي ترتسم في ذهن القارئ وهو يواجه أول ما يواجه اسم هذا الديوان الجميل (همسات قلب)؟..

كانت الانطباعة الأولى بالنسبة إليّ مزيجًا من الحيرة والتساؤل، ولكنني لم يكن لي بد من أن أخنق حيرتي هذه، وأن أترك نفسي تنساب هادئة حينًا، ثائرة حينًا آخر.. مغلغلة في آفاق تتلون أبعادها الشاسعة بمختلف الأضواء، وتشع بظلال وأشعة تكاد تجمع بين طياتها كل ألوان الطيف الشمسي.

ولن أتعجل النهاية.. ليتعرف القارئ الشواطيء التي رست عليها أفكاري بعد أن فرغت من قراءة الديوان، ولكنني أستطيع أن أقول: إنني شعرت بأن هذا العنوان يمثل بصورة دقيقة وإلى حد بعيد، مختلف اتجاهات الشاعر.

فقد كان من رأيي أن يسمى الديوان باسم (رؤوس لا تحنى) فهو ـ كما يبدو لي ـ التعبير الواقعي الدقيق لمزاج الشاعر النفسي، وحياته الصاخبة المتأججة، وثورته على كل ما يلمح فيه مظاهر الانحراف والضلال، حتى ولو كان من أقرب المقربين إليه.

ولكن الشاعر آثر أن يطلق على الديوان هذا الاسم، لأن الديوان في رأيه يضم قصائد لا تندرج تحت الاسم الذي اقترحته. وهي على أية حال.. وجهة نظر.

وقبل أن أتحدث عن أبرز السمات والملامح في هذا الديوان الجديد، لأستاذنا الشاعر الكبير الأستاذ محمد المجذوب، أود أن أشير إلى ما يمتاز به الشاعر من رحابة أفق وسعة اطلاع وباع طويل في مختلف فنون الأدب والثقافة. فله إنتاج ثرّ في القصص والتمثيليات والمسرحيات والدراسات الأدبية والدينية والاجتماعية والتربوية.. ولإنتاجه القصصي على وجه الخصوص مكانة مرموقة في أدبنا المعاصر، أشاد بها بعض كبار الأدباء والنقاد.

وميزة أخرى أود أن أركز عليها هذه الدراسة، وهي أن الملاحظ في أكثر

الأحيان، إن لم يكن دائمًا، انصراف الشعراء بعد ممارستهم لألوان الفنون الأدبية الأخرى عن قرض الشعر إلا فيما ندر.. بينما نجد شاعرنا الكبير لا يزال حتى الآن يواصل صياغة الشعر، ويجد فيه متنفسه وملاذه كلما ثارت أحاسيسه وهاجت مشاعره.

ولعل من الطريف هنا أن نذكر أن الشاعر أرسل إليّ قصيدتين جديدتين أثناء إعداد هذه الدراسة، طالبًا إضافتهما إلى الديوان.. ومن يدري، فقد يبعث بعدد آخر من القصائد قبل أن تنتهي هذه الدراسة، أو يضيف إلى الديوان ما يجدّ من إنتاجه الشعري قبل دفعه إلى المطبعة.

فإذا أضفنا إلى ذلك تشعب دراساته وأبحاثه وكثرة إنتاجه في مختلف فنون الثقافة والمعرفة، مع ما يضطلع به من مهام التدريس الجامعي، أدركنا الحيوية الدافقة التي يتمتع بها... وهي حيوية يفتقدها ـ مع الاسف ـ الكثيرون من الشبان الذين لم يتح لهم إلى جانب ذلك أن يعيشوا الحياة الحافلة.. المليئة بضروب الكفاح والجهاد المؤمن الصادق والدأب المتواصل المستمر، التي عاشها شاعرنا الكبير في سبيل الذود عن دينه وعقيدته، والدفاع عن وطنه الصغير (سورية) باعتباره جزءًا من وطنه الإسلامي الكبير، مع ما رافق هذا الكفاح من تعرض لصنوف الكيد والاضطهاد والحرمان، حتى لنسمعه يقول في قصيدته (جحود):

وحملت من جرائها كل محنة ... يطيش لها وعي الحليم من الرعب

فإن ينسها قومي فلي من شهودها ... بقايا جراح ما تزال على جنبي

وذلك ما يبرز لنا بوضوح إيمان الشاعر بضرورة مواكبة العمل للفكر بل التحامهما معًا، مما دفعه إلى خوض العديد من المعارك السياسية والفكرية في بلاده، وبخاصة المعارك التي استهدفت المساس بالدين والنيل منه، مما كان له أثره البالغ ـ كما رأينا ـ في حياة الشاعر الخاصة، وفي الظروف والملابسات التي مرت به وتركت ظلالها على كل آثاره الأدبية، حتى أصبح نتيجة لذلك في طليعة الأدباء المعاصرين الملتزمين، الذي يمثلون الخط الإسلامي في كفاحهم ضد قوى الشر والعدوان والظلام.

ومن خلال هذه النظرة نستطيع أن نفهم الدوافع التي حملته على النقد المر لخصوم مبادئه ومعتقداته ولخصومه الشخصيين، الذين سدوا أمامه طريق الحياة الهادئة المستقرة في وطنه وبين أهله، كما نستطيع من خلالها كذلك أن نتجاوز عما اتسم به هذا النقد من عنف وقسوة قد تبدوان لدى النظرة السطحية أقرب إلى التحامل والمبالغة في النكاية والتحقير.

مع الديوان:

كثيراً ما تذكرت وأنا أقرأ لشاعرنا الكبير قصائده في مختلف الأحداث الغربية والإسلامية كلمة الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الشعر ديوان العرب).. فشعر شاعرنا يكاد يكون سجلًا كاملًا للأحداث الشخصية والدولية التي عاشها وعاصرها، في فترة تعتبر من أهم وأخطر الفترات التاريخية، بالنسبة لأمتنا وبلادنا، لولا ضياع طائفة غير قليلة من هذا الإنتاج، بسبب ما تعرض له الشاعر من محن ومضايقات وحملات تفتيشية لم تقتصر نتائجها على فقدان شعره ـ كما علمت ـ بل تجاوزتها إلى ألوان إنتاجه الأخرى..

ولكننا رغمًا عن ذلك نستطيع أن نخرج من هذا الديوان وحده بصورة متكاملة عن حياة الشاعر الخاصة: أسرته وأبنائه والظروف التي مرت بهم، والمضايقات التي تعرضوا لها، بل وعواطفه نحوهم وأسمائهم وحياتهم الدراسية، إلى جانب الشهادات التي يعتز بها، والخصومات التي واجهها، وألوان الصراع السياسي والديني في حياته، وبعض (النوادر) الطريفة في قاعات الامتحان، وعلى مقاعد الدرس، وبين أسرة المستشفيات، ومشاعره الدينية العميقة وهو يصارع الموت والحياة.. إلى ما يتجاوز هذا الإطار الشخصي إلى العالم الكبير الممتد من حوله..

وتتلخص الاتجاهات العامة في شعره بهذه النقاط:

(١) إيمانه بوحدة الكيان الإسلامي مهما تناءت ديار المسلمين وتباعدت أقطارهم، حتى إنه ليشعر بأن مسقط رأسه (طرطوس) في سورية ليس

أدنى إلى قلبه من مدينتي فاس وتطوان بالمغرب العربي، رغم صلات الدم ووشائج العاطفة فيقول في (وطن الإسلام):

وليس طرطوس مهما لج بي دمها أدنى إلى القلب من فاس وتطوان

ذلك لأنه:

في كل قطر من الإسلام لي وطن هامت به النفس من قاص ومن دان

توزع القلب حب بين أربعة فكل دار بها قومي وخلاني

وليس ذلك إلا لأنها:

دنيا بناها لنا الهادي فأحكمها أعظم بأحمد من هادٍ ومن بان

وهو لذلك يركز على الاعتراف بالقيادة العظمى للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، ويرفض بإصرار كل سفاسف الأمجاد الزائفة والبطولات الجوفاء فيقول في (نشيد المؤمن):

ربنا إنا تخذنا قائدًا للمجد (طاها)

وأبينا.. ورفضنا غير رضوانك جاها

ولكنه حينما يلتقي بالقيادة الراشدة الحكيمة التي تتمثل في:

دنيا من المجد شد الدين بنيتها فالهدى من أسها والعزم والفكر

وبالجيل المؤمن الذي تعده الأقدار لحمل أمانة الدعوة إلى الله، ونشر رسالة الحق والخير والهدى.. الجيل الذي يقول عنه:

جيل الهداة الذي تهفو لمطلعهِ سوحُ الكفاح ويرنو نحوه القدر

جيل لآل سعودٍ فضلُ نشأته فهم رَعَوْه وهم آووا وهم نصروا

يتوثب من الفرحة ويطير من النشوة في القصيدة نفسها (دنيا ودين) عند زيارة جلالة الملك فيصل للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة:

لقاؤك العيد مقرونًا به الظفر فكيف أمنعه شعري وأعتذر!

أأخنق الود في صدري وقد سنحت له الظروف التي قد كنت أنتظر!

أجل.. كيف يستطيع ذلك وهو الشاعر المسلم الذي طالما عانى من الحكام

الذين يمسخ في بلادهم الناس دمى مسلوبة الحس لا تسمع ولا تبصر:

فما لهم تحت وطء البغي من عمل — سوى المناداة بالزور الذي أمروا
تبح أصواتهم في مدح قاتلهم — وكان أشهى لهم من ذاك لو قبروا
ويدعي أنهم جنوا به شغفا — وليس عندهم من ذلكم خبر

ويؤمن عن عقيدة واقتناع بأن أقوى دعائم الملك والسلطان هي أن تسوده وتوجهه روح السماء، روح الخير والهدى والتقوى والعفاف. ولذلك يسارع فيربط بين حاضر المدينة المنورة المشرق وماضيها العظيم فيقول: «إن الجامعة الإسلامية»

ردت إلى طيبة العظمى قيادتها — فكل صقع به من نفحها أثر
بالأمس سارت سراياها محررة — واليوم أنوارها في الأرض تنتشر

ويركز على وحدة الكيان الإسلامي باعتباره من أبرز مظاهر عقيدته الدينية:

فانظر إلى أمم الدنيا بساحتها — في وحدة لم يَشُبْ إيلافها كدر
أُخُوَّةٌ نسج الإسلامُ عروتها — فالعربُ في ظلها سيان والخزر

وكان من الطبيعي وهو الرجل الثائر المناضل أن تحرك فيه هذه الوحدة المتماسكة روح التضحية والكفاح فيهتف من أعماق قلبه:

يافيصل العرب والإسلام عشْ لهما — فيضًا من الأمل الريَّان يزدهر

فقد أدرك ببصيرته المستنيرة أن كل عناصر النصر والظفر تكمن في القيادة الإسلامية الرائعة التي التقى بها خلال هذه الزيارة الملكية الكريمة، وهي في حقيقتها قيادة راشدة حكيمة تستمد قوتها من الحب لا من الارهاب، ونشر دائب للعلم الصحيح، الذي يهذب الروح ويسمو بالعواطف، ويجعل من المؤمن قوة رهيبة لا تخضع لغير الله، ولا تأتمر بغير أمره، وعدالة شاملة يستوي عندها الغني والفقير والضعيف والقوي والسيد والمسود، ووحدة صادقة تجمع المسلمين كلهن على قلب رجل واحد... لذلك يعود الشاعر ليهتف من جديد:

فسر به نحو هام العز مقتحمًا — ذرى العظائم.. إن العز منتظر
لأنتَ قائدهُ المرجو نحو غد — مجنح.. لم يزل من سحره أثر

تهفو اليك قلوب العرب خافقة   والمؤمنين.. ويسمو نحوك البصر
يَقْفُون خطَوك في الجلّى على ثقةٍ   ويفتدونك بالأرواح لو قدروا

ويدرك الأهداف الكبيرة التي ترمي إليها دعوة التضامن الإسلامي التي انطلقت من هذه البلاد، والبشائر المتألقة التي تحملها إلى المسلمين.. كل المسلمين فيقول في (صوت التضامن):

ياتراث العز من خير الجدود   وبقايا النور في هذا الوجود
قد اتيناك لتجديد العهود   وتسابقنا لتحطيم القيود

وفي المقطع الرابع من هذا النشيد يقول:

مثلًا للحب كنا والتعاون   ثم صرنا للتجافي والتطاحن
فاستجيبي أمتي صوت التضامن   عاليًا يطْلقه الشعب السعودي

☆ ☆ ☆

من رحاب الوحي في البيت العتيق   وسنا طيبة والماضي العريقِ
قد طلعنا كتباشير الشروق   نتحدى بالهدى ليل الجحودِ

(٢) إيمانه برسالة المسلم في الحياة، وتأكيده على أن الإسلام هو المنقذ الوحيد للبشرية من كل ما تتخبط فيه من قلق وشرود وانحراف، وأن الجهاد الصادق المؤمن والكفاح الدائب المستمر فريضة إسلامية لا يمكن التخلي عنها بحال... فيقول في قصيدته الرائعة (ناقور القضاء) عن النكبة الأليمة التي حلت باللاجئين الفلسطينيين وهي - كما يقول - الدمعة اليتيمة التي سكبت على أولئك المساكين:

لا ألوم الاقدار مهما استحر الخطب أو أحدقت بنا الاخطار
نحن شئنا هذا المصير فلا غر   و إذا زُلزلت بنا الأمصار
حاش لله أن يُظن به الظلم   ويرقى لعدله الإنكار
قد دعانا إلى الكرامة والعز   فلم نستجب. فكان الصغار

ويقول عن اللاجئين:

هـؤلاء المـشردون، وقـد ضـاقـت صـدور الـورى بهم.. والـقـفـار
لـو درى الـكـون مـن هـم خـجـل الـكـون ومـاتـت في حـلـقـه الأعـذار
صـفـوة الخلـق مـن بـقـايـا المـيـامـين عـراة.. تـلـفـهـا الأطـمـار

ثم يتوهج النشيد الباكي بين شفتيه فيقول لسهام الأقدار:

فـانـشـقـي مـن لُهاثـهـم عـبـق الـفـتـح فـهـم مـن سـجـلـه أسـطـار
واخـشـعـي.. مـاتـريـن في الأوجـه الـكـبـر وإن غـال حـسـنـهـا الإعـسـار

والقضية في حقيقتها ليست غير صراع بين الكفر والإيمان:

إنـه الـكـفـر يـسـتـبـيـح حمى الايمان، لـو يـفـقـه الـغـواة الـصـغـار
انها نـكـسـة الـصـلـيـبـيـة الحـمـقـاء يـزجـي زحـوفـهـا الـفـجـار

وهو لذلك يرى في هذه النكبة عنوانًا لكتاب تحفة الأسرار إذ:

حملـت مـن غـد شرارتـه الأولى وبـاكـورة الـضرام الـشرار
لـو تجلـت للعـابـثـين خـفـايـا هـا لمـادت بـالـعـابـثـين الـديـار
دق نـاقـورهـا الـقـضـاء.. فـفـي كـل فـضـاء مـن رجـعـهـا إنـذار

وإذ وقفت بنا على مفرق التاريخ لانتفاضة صادقة مخلصة تعيد إلينا حقوقنا، أو لانتحار مخز في قبضة العار والهوان..

والويل لنا إن أسانا الاختيار. ويختتم رائعته هذه بالتأكيد على قيمة الإيمان:

وإذا الـشرق لم يـعـد يحمـى الإيـمـان لم يحمـه الـسـلاح المـعـار

فيؤكد ما صرخ به في وجوه الاغرار والمتآمرين:

وعـفـاء عـلـى الحـيـاة إذا مـا هُـزم الحق واسـتـبـيـح الـذمّـار
وإذا الأرض لم يـقـدهـا جـنـود الله أودي بـأمـنـهـا الاشـرار

وهي قصيدة بليغة ما أحوج المسلمين إلى قراءتها وتدبرها والاتعاظ بها!

ويقول في قصيدته التائية (عبر وعبرات):

ومن يقف آثار النبيين لم يَسَلْ على الشوك يمشي أم على الشفرات
ولن تستقر الارض يومًا بمؤمن وفوق ثراها موطىء لطغاة
ومن يعتصم بالله لم يُغضِ جفنه على الذل أو يُلِق القياد لعاتي

وفي قصيدته (رؤوس لا تحنى) يؤكد إيمانه بأعباء رسالة المسلم في الحياة وإصراره على القيام بها:

وهيهات تحنى أرؤس قد سما بها إلى الله في جوف الظلام التضرع!
بل نحن جند الله بعناه واشترى فلا هو يُعفينا ولا نحن نرجع

وعبر هذا المنطلق يؤكد في إصرار وحزم أن الهزائم المتلاحقة التي لحقت بأمتنا لم تكن هزيمة للمسلمين الحقيقيين، ولكن للمسوخ التي تنتسب إلى الإسلام عن طريق الوراثة. فيقول في قصيدته (فأر وأسد):

لا تقولوا: المسلمون انهزموا أمة المختار في حرز الصمد
إنما تلك مسوخ ورثت نسبة الإسلام عن أم وجد
فإذا هانوا لباغ فكما يعبث الفأر بتمثال الأسد

(٣) توجعه وشكاته لما وصل إليه المسلمون من انحدار وتخلف وهوان، وما يلاقيه الإسلام في بلاد المسلمين من كيد وإرهاب وتشويه، وتصويره البارع لمظاهر هذا الكيد الاثيم ومحاولات التحطيم، وهي النغمة التي تنتظم كل شعره بما فيه من (أراجيز) يعتمد الكثير منها على التراث الشعبي والقصص الدارجة. ولذلك سنكتفي من هذا كله بالإشارة إلى بعض الأبيات التي وردت في قصيدة (رؤوس لا تحنى):

فوا لهف قلبي للمساجد تشتكي ولا تجد القلب الذي يتوجع!
وكانت إذا الجبار مر بساحها أكب لجبار السموات يخشع
فباتت وللتصفيق في جنباتها دويّ تكاد الأرض منه تزعزع

أما تائيته التي أشرنا إليها والتي يعارض فيها (دعبلا) بعنوان (عبر وعبرات) ويضمن فيها بيته المشهور:

بنات زياد في القصور مصونة وآل رسول الله في الفلوات

فهي زفرة باكية آنستني وأنا أقرؤها قصيدة دعبل، ولم أتمالك فبكيت. وفيها

صور شعرية محلقة.. ولكن المجال لا يسمح مع الأسف بغير الإشارة العابرة إلى بعضها.. فمن أروع هذه الصور:

فواهاً على الإسلام تهوي صروحه ... بأيدي جناة من بنيه غماة
ويا لهفة الدنيا لدين محمد ... وقد بات مكشوفًا لكل أذاة
تخطفت الأرزاء أنصاره الأولى ... أضاء بهم مُخلَولك الظلمات
مضوا في شعاب الأرض بين مشرد ... تقاذفُه الاقدارُ دون رجاة
ومستشهد أودى به البغي شاكيًا ... إلى أعدل القاضين شر قضاة
ومحتجز في غيهب السجن شوهت ... معالمه المُثلى يد المثلات
تفنن جلادوه في العسف والأذى ... ولم يحن رأسًا أو يفه بشكاة
تراه على الأغلال شلْوًا ممزعاً ... يخيل للرائين بعض رفات
بنفسي وجوه أطفأ الجور بشرها ... وإن هي لم تبرح وجوه هداة
تنازعها لفح العذاب فأصبحت ... وليس بها إلا ذَماء حياة
لئن سُلِبتْ نور الحياة فلم تزل ... تنير سواد الليل بالصلوات

ولكنه على الرغم من كل هذه الفواجع لا يسمح لليأس بالعبور إلى قلبه، بل إننا لنشعر ببشائر الامل تتفجر في حناياه، وهو يتصور عقبى الطغاة والجبارين في الدار الآجلة، وعقبى المؤمنين المجاهدين في هذه العاجلة:

وقد يتأبى النصرُ حينًا على المنى ... ولكنه رغم التأخر آتي
ومهما يطل ضغط الظلام فخلفه ... بوارق فجر مشرق القسمات

وهكذا يتجلى إيمانه بحتمية الانتصار، انتصار الحق على الباطل، والخير على الشر، وإن تأخر بعض الوقت. ومن ظواهر هذا الإيمان قوله في (نشيد الفداء):

كفكفي الدمع واهتفي ... يا ابنة القدس للأسود
أوشك الليل يختفي ... وسنا فجرنا يعود

لأن المحنة أيقظت هاجعات العزائم، والجراحات أرهفتها لتحقيق العظائم، ويختتمها بقوله:

نحن للبأس والهدى قد خُلقنا وللخلود
كم رمتنا يد الردى ثم عدنا إلى الوجود

(٤) رهافة إحساسه الديني وارتباطه الوثيق بالله.. ولعل قصيدته (اللهيب المطهر) أروع نماذج الخشوع والتقوى والحنين إلى الله، فقد لامه ابنه غسان حينما بصر به يغالب الدموع في عينيه وهو يستمع إلى القرآن الكريم فأجابه:

هو الحب يا غسان يستبدل النهى جنونًا ويستخذى له الدمع عاصيًا
سبى قبلي العشاق جيدٌ ومقلةٌ فجُنُّوا وما لِيموا فكيف ملاميا!

وفي هذه القصيدة نفحة روحية عطرة وصوفية واعية تعتمد على دعائم راسخة من المفاهيم الإسلامية السليمة. أما قصيدته (سبحات في ظلال الكعبة المشرفة) فقد استهلها بهذه الروح الشفافة المتألقة:

سعيد أنا في ظِلالِ الحرَمْ فلا تسألوني بماذا؟ ولم؟
أحس بجسمي فوق الأثير وقد شف بل خف حتى انعدم
فلا عجب أن يموت البيان ويعيا بوصف رُؤَايَ القلم

واختتمها بنفس هذه الروح المتهللة:

وامضي وأمضي ولولا الأذان توالت رؤاي فلم تنفصم
فليت مواكبها لم تكف وأحلامها البيض لم تنصرم
ولكن حبيب نداء الصلاة ولا سيما في ظلال الحرم

والقصيدة كلها استعراض لأحداث التاريخ التي عبرت بالبيت المعظم، من بداية رحلة هاجر وإسماعيل إلى بعض فترات البعثة المحمدية الكريمة.

ولا عجب أن تكون (الأمنية الاخيرة) لشاعرنا الكبير أمد الله في حياته، وهو يحمل هذه المشاعر الدينية العميقة، حفرة صغيرة تضمه في (البقيع):

يامهبط الوحي كم لي في رحابك من نجوى أضاءت بنور الوحي مغتربي
قد كان قربك حلمًا لا يرى فغدا بنعمة الله مجلوًا بلا حجب
لم يبق في القلب إلا طيف أمنية وددت لو تشتري بالنفس والنشب
مثوى يضم رفاتي في (البقيع) إذا وافاني الأجل المقدور يهتف بي

وما أحلاها من أمنية!

(٥) اعتداده بنفسه واعتزازه بشعره وبالقيم الاخلاقية الرفيعة التي يؤمن بها ويدافع عنها. وذلك أمر طبيعي من أديب جندُ نفسه لخوض معركة الإصلاح بكل ما يؤهله لها من ثقافة واسعة، وتضحية بكل ما يملك في سبيل أمته وبلاده.

وقد جاء شعره أو أدبه كله على الأصح معبرًا بصدق وحرارة عن هذا الإحساس العامر بمواقفه المشرفة في خدمة وطنه، وبالأثر الكبير الذي استطاع أن يحدثه بشعره وباتجاهاته الفكرية والأدبية، حتى إنه ليقول في قصيدته (مريض) في مجال المقارنة بينه وبين أحد خصومه:

وما ذنب مثلي غير اني شاعر	تزول ويبقى للخلود كلامي
وذو أدب يهدي إلى الحق والعلا	ويصفع وجه المارق المتعامي
سرى في سماء الضاد إشعاع رحمة	ونفحة إيمان وبرء سقام
ففي كل ربع من مواطن يعرب	له أرج كالمزن في فم ظامي

ولا ينسى وهو يحيي الشاعر الكبير إيليا أبو ماضي، أثناء زيارته لدمشق، أن يذكره بأن ما لقيه إيليا من التكريم والحفاوة لم يكن مبعثه تقدير أدبه وشعره في بلادٍ لا تقدر الشعر والأدب، ولا تتيح للأدباء الحياة الكريمة التي تليق بهم، ولكن هذا التكريم نزوة من نزوات السياسة... يقول له في قصيدته.. (أضواء):

كرمت شعرك الشآم وإخوانك	في الشام بين طاوٍ وصادِ
يقتلون الحياة في فلوات	اليأس صفر اليدين من كل زاد.

ويختتم هذه القصيدة العصماء ببيت يفيض بالعز والشمم وبالألم والأسى:

والأولى كرموك لو قدروا الآ	داب ما كنت ضائعًا في بلادي

ويتكرر موقفه مع صديقه الشاعر عمر أبو ريشة، إذ أقيل من وفد اليونسكو بعد أن ألقى بحلب ميميته العصماء: «دفاع عن شعب»

أمتي هل لك بين الأمم	منبر للسيف أو للقلم؟

فيخفق قلب شاعرنا الكبير لما أصابه ويهتف به في «دفاع عن الشعب»:

شاعر الشهباء أرضيت العلى | فَلْيَثُرْ من شاء ولْينتقم
إن تفتك اليوم نعمى عرضت | فأنا المرء الذي لم ينعم
واعتبر بي فحياتي لم تزل | موضع العبرة للمستلهم
ضيقوا العيش بعينَيّ.. ولو | قدروا لم أرو بل لم أطعم
فكأني لم أكن من جندهم | أمس في قلب الرعيل المقدم
وكأني لم أذب شرخ الصبا | قطراتٍ في سبيل العلَم

والواقع أن هذه القصيدة ـ هي وأخوات لها في الديوان ـ تقف بشموخ وإباء إلى جانب الكثير من روائع الشعر العربي المعاصر لأدباء عرف عنهم تفرغهم لنظم الشعر وعدم ممارستهم لأي لون آخر من ألوان الأدب إلا فيما ندر..

بينما تتشعب جهود شاعرنا المجذوب بين العديد من الدراسات والبحوث ـ كما سبق أن ألمحنا ـ ولست أدري أي شاعر كنا سنحظى به لو أن هذه الطاقة الفنية المتدفقة انصرفت كلها إلى الشعر؟

أغلب الظن أننا كنا حظينا بشاعر من طراز فريد لا تجود به الأقدار إلا بين الفينة والفينة..

أما في مجال الاعتزاز بالقيم الخلقية، والتغلب على نزعات الأهواء، والإشادة بما يكابده (أولو العزم) من الهداة والمصلحين في سبيل تحقيق الذاتية المؤمنة.. وهي معارضة لأخرى من الاتجاه نفسه بعث بها شاعر الحب الإلهي المعاصر الأستاذ عمر الأميري من باكستان إلى إخوان له في سوريا، وفيها يصف معركة نفسية صاخبة نازلته فيها كل شياطين الفتنة، خلال أيام مباركات، قضى مثلها في عامه الماضي بمكة المكرمة في غمار العبادة والطهر. ومس لفح القصيدة الأميرية قلب شاعرنا المجذوب، فكتب إليه معارضته هذه يشد بها من عزمه، ويكرم تأبيه على دواعي السقوط..

فهذه النار المقدسة ـ بنظر الشاعر المجذوب ـ :

هـي سر الـكـفـاح في حـومـة الـدهـر، ومَجلَى عـزائـم الأحـرار
تـسامـى بهـا نـفـوس إلى الحق وتَهوِي أخـرى إلى الأغـوار

ويعرض الشاعر لملحمة الصراع الخالد بين الخير والشر، بين آدم وإبليس، وأسلحة الفريقين في هذه المعركة الضارية، والوجود الإنساني وقيمته الأصيلة في موازين الحق والفضيلة، وما يكابده ذوو النفوس المرهفة في سبيل تحقيق مثلهم العليا..

ويستشهد بيوسف عليه السلام في مجال التمرد على نداءات الهوى والثورة على صرخات الجسد، بوصفه الأسوة الكريمة لهم في اجتيازه محنة الاختبار التي ابتلي بها واستطاع بفضل الله التغلب عليها.. ثم يختتم إهاباته تلك بقوله:

فـاسـتـعـن بـالـتـقـى عـلى حـربـك الـنـفـس وقـل: أيها الـظـلـوم.. حـذار
إن قـلـبـنـا تـذوق الـحـب لله عـصـى عـلى الهوى الـغـرار
وجـفـونـا تـكـحـلـت بـسـنـا الـمـخـتـار لا تـشـتـهـي سـنـا الأقـمـار
ولـعـمـري لم يـدر قـط جمال الحق.. مـن هـام بـالجمـال الـمـعـار

لذلك لم يكن من الغريب، وشاعرنا يحمل هذه الروح المؤمنة الصادقة، أن يؤكد على ضرورة التمسك بتعاليم الإسلام والعمل بها إنها هي الأدلة أو الشواهد على حقيقة (الهوية) التي يحملها المسلم:

أتـزعـم يـا مـسـكـين أنـك مـسـلـم ولـيس عـلى الإسـلام مـنـك دلـيل!

هجرت كتاب الله.. وعفت بيوت الله.. وجافيت دنيا المؤمنين.. إلى أن يقول في «الدين الحق»:

تـوهمت أن الـديـن محض هـويـة وكـل كـلام بـعـدهـا.. فـفـضـول
وفـاتـك أن الـديـن عِـقْـدٌ مُـوَثَّـقٌ عـلـيه إلَـهُ الـعـالـمين.. وكـيـل

ولم يكن من الغريب أيضًا أن يقول في أهمية صلاة الجماعة: كم صديق يزجي إليك تعازيه إذا ما خسرت بعض النقود وتفوت الصلاة مثلي فلا أسمع فيها تعزية.. من ودود، وصلاة مع الجماعة أغلى في حسابي من كل ما في الوجود.

وربما كان شعوره بجحود بعض مواطنيه، وبعد الشقة بين الحياة التي يعيشها هو على تفوقه الفكري والنفسي، والحياة التي يعيشها (الأغبياء) من المحظوظين، هو الذي حمله على الجهر بهذه الصرخة الجريحة في (تناقض):

مثل هذا الغبي يعبث بالآلاف	والعبقري مثلي فقير
خان قومي رشادهم فسواء	عندهم ذو حصافة وبعير
إن شعبًا هذا التناقض فيه	لهو بالموت والهوان جدير

(٦) حبه العميق لأمته وبلاده، وحرصه على أن تنأى عن منزلقات الضلال وموارد الانحراف، وتأثره البالغ لما وصلت إليه من ذلة وهوان وصغار، مما دفعه إلى الثورة العارمة بكل هذه الموبقات ومحاربتها بشدة وقسوة، مما ساعد على تكثير خصومه وأعدائه، وفيهم من يملك الضر والنفع، واستطاع بالفعل أن يجعل حياته في بلده غير موطأة الأكناف، وذلك هو شأن المصلحين في كل أمة وجيل..

وإذا عرفنا أن اتجاهاته الاساسية منبثقة عن الإسلام ومفاهيمه ومعتقداته أدركنا أية محنة كان يعانيها، وأي نوع من الأسلحة كان يوجه إلى صدره ويحارب به.. وقد رأينا الصفحات السابقة بعض الألوان من هذا الاتجاه، عند حديثنا عن شكاته وتوجعه مما وصل إليه المسلمون من انحدار وتخلف وهوان.

ونضيف هنا أن الشاعر كان يؤمن بأنه لم يكن يحارب إلا لأنه مسلم، كما في قصيدته (مهزلة):

فما على مثلي من مأخذ	لكن ذنبي أنني مسلم

وفي قصيدة (رؤوس لا تحنى):

وكل خلاف بيننا فلأننا	وعيناه في ضوء الكتاب ولم تعوا

وحبه العميق لأمته وبلاده هو الذي أوحى إليه ببعض القصائد والمقطوعات في مواضيع قد تبدو أدنى إلى الوعظ والإرشاد منها إلى الموضوعات الشعرية،

التي يجيد فيها الشاعر ويتفوق ويسمو إلى درجة عالية في الإبداع.

وفي هذا المجال أشير بكل اعتزاز وتقدير إلى قصائده (هدنة لم تطل) و (هلال الجلاء) و (مهرجان الخلود) و (أين المصير؟) و (لكن حذار) وإلى رائعته التي نظمها في استقبال وفد سورية لدى عودته من باريس بعد عقد أول معاهدة للاستقلال وهي بعنوان (أيها الظافر).. وقد استهلها بقوله:

أقبل الفجر يا هزار ومن منك ومني بمتعة الفجر أحرى

وتبلغ أبياتها اثنين وثمانين. ولهذه القصيدة مكانة خاصة من نفسي، فقد قرأتها منذ سنين طويلة في مجلة الرسالة التي كان يصدرها المغفور له الأستاذ أحمد حسن الزيات، قرأتها وأنا تلميذ في المدرسة الابتدائية، وأعجبت بها من غير توجيه خارجي، وحفظت الكثير من أبياتها الجميلة، ولا تزال ذاكرتي تحتفظ بالكثير من أبياتها الآسرة.

ولقد فوجئت بها اليوم وأنا أقرأ ديوان شاعرنا الكبير، فلم أكن أعرف أن (أبا غسان) الذي نشرت القصيدة بتوقيعه في الرسالة هو صاحب هذا الديوان الحافل بالشعر الحي والقصائد الجياد.

ولقد هزتني هذه المفاجاة هزًا عنيفًا كما يهزك لقاء صديق عزيز عليك أثير لديك، افتقدته سنين طوالًا حتى قطعت الأمل في لقائه، وفجأة يظهر لك على غير انتظار فتهتز لروعة اللقاء، وتعود القهقرى بلمسة ساحرة إلى أيام الحداثة الأولى بكل ما فيها من بساطة وروعة وجمال.

ولم أكن أتوقع أن ألقى (أبا غسان) ولم يخطر ببالي أن (أظفر) بقصيدته (أيها الظافر) في ديوان يكون لي شرف تقديمه. وليست هذه القصيدة وحدها التي نشرت من قصائد شاعرنا بتوقيع مستعار. فإن من المؤسف أن كثيرًا من قصائده لم تنشر باسمه الصريح، مما تسبب عنه عدم حصوله بدرجة كافية على الشهرة الكبيرة التي يستحقها كشاعر ممتاز..

(٧) تمجيده للبطولة وإعجابه بمواقف الرجولة والكفاح.. وهو شعور طبيعي من شاعر حر مكافح يؤمن بالنضال ويرحب بتبعاته وأعبائه..

والقصيدة التي تتبادر إلى ذهني الآن هي قصيدته (برلين تحتضر) وذلك على أثر هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأخيرة:

تلك الحقيقة يابرلين أم حُلُمُ؟ قد جلَّ خطْبك أن يجري به قلمُ

أين الليوث الأولى صانوك من قدم!؟ هيهات لا الليث مرهوب ولا الأَجم

شادوا لعزك حرزًا من مهابتهم كمعقل الجن لم تحلم به الهمم

حتى إذا جاء وعد الله حيق به فعاد نهبًا مباحًا ذلك الحرم

وبعد أن يصور الكوارث التي حاقت بها خلال الحرب.. يقول:

وعزمك اليوم والآمال مدبرة تعهدة أمس والآمال تبتسم

فما أصابك من جبن ولا جزع لكنه قدر لله مصطلم

وما أروعه وهو يقول:

جَرَّعتِ أمسِ لظاها الكونَ باسمةً واليوم تَصْلَيْنَها والكونُ مُبْتَسِم

(٨) رهافة مشاعره وإحساسه البالغ بالحب والحنو والعطف على أبنائه وأحفاده، وحرصه على تسجيل عواطفه نحوهم ومواقفهم تجاهه، على طريقته التي لا يستطيع التخلص منها في نشدان الكمال المطلق لنفسه ولمن يحب، فتراه في قصيدته (جهنم الاحياء) يعاني أقسى ألوان التشاؤم واليأس والمرض النفسي والجسدي، لأنه لم يتمكن من توفير أسباب السعادة والهناءة التي يريد تحقيقها لأبنائه فيقول للطبيب:

فدع المراهم ليس جرحيَ بالذي تجد المراهمُ فيه أيَّ رجاء

أتطيق شغلي - ويك - عن غسان أو هيفاء أو غيداء أو عفراء!

فِلَذٌ من الكبد الذبيح نثرتها متلهياً بجهنم الأحياء

ولعل من الطريف أن نعرف أن الشاعر رغم حرصه الشديد على ضمان الرقابة الكاملة في الامتحانات التي انتدب للاشتراك في لجانها، فقد ثار ثورة شعواء على أبنائه جميعًا، وعلى لجنة الامتحان، واستبد به اليأس والتشاؤم حتى إنه ليقول:

رب جل المصاب وانهزم الصبر وكادت تخونني أعضائي
فهب الروحَ نفحةً من سنا الإيمان ترد عليّ بعض رجائي
ليس إلاه من عزاء إذا ما حجب الخطب طيف كل غراء

وذلك لأن ابنه غسان ـ أحب أبنائه إلى قلبه ـ أقصى عن الاختبار بتهمة مساعدته لأحد زملائه في مادة الجبر.. فيقول:

زعموا أنه أعان على (الجبر) كسيزا.. أشفى على الإعياء
فجزوه على الجميل بحكم دق حتى عن حكمة الحكماء
ولعمري ما كان ذلك إلا محض وهم جنى على الأبرياء

وإلى هنا.. والقضية معقولة.. ولكن منطق الابوة يتغلب على ما عداه فيهتف الشاعر باستنكار واحتجاج.

وهبوه حقًا فهل يقتل الحر إذا ما حنا على الضعفاء؟

تلك هي مشاعره الحانية المتدفقة والشمل موصول والأحبة على قيد الحياة.. فكيف بها إذن بإزاء كارثة على هذا المستوى من الفداحة والتمزيق؟. ذلك ما لا أستطيع استعراضه والحديث عنه، ولك الله ولي يا صديقي وأنت تقرأ قصيدته (رثاء قلب) في التفجع على حفيده منذر، أو قصيدته (وداع وذكريات):

على جناح المنى يا أم غسان في موكب من تسابيح ورضوان

(٩) تآلفه مع الطبيعة وانتشاؤه في هدوء واطمئنان بين أحضانها، وإحساسه بالانسجام الروحي مع ما تحفل به من الطيور المغردة والأعشاب المتموجة، والزهور الباسمة، والأشجار الباسقة، والينابيع المتدفقة.. ومن أروع قصائده (الطبيعية) إذا صح التعبير: (نجوى قبره) وهي تذكرنا بقصيدة (القبره) التي ترجمها الشاعر المبدع على محمود طه في كتابه (ألحان شاردة) عن الشاعر الإنجليزي شيلي، لولا أنها تختلف عنها في الاتجاه واللون النفسي المتميز بين الشاعرين.

ومن القصائد (الطبيعية) المحلقة: (رثاء غدير) وللغدير ـ هناك ـ معنى

أوسع مما نعرفه عن الغدران في بلادنا، فهو هناك يشبه الغابة المزدهرة التي تتخلف فيها المياه، وتستصلح أجزاء منها للزراعة المنظمة من حين لآخر.
وفي هذه القصيدة نحس بأن الشاعر قطعة حية نابضة من الطبيعة الحية النابضة.. ومن الأمانة للأدب والتاريخ أن نثبت هنا ـ بعد أن أشرنا إلى قصيدته (نجوى قبره) ـ رأي أديب كبير وشاعر من فحول العربية هو الأستاذ محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل) في هذه القصيدة، وفي غيرها من شعر أستاذنا المجذوب.. فقد قال: (إن من بين مقطعاته الغنية بالفكرة والإشارة والصورة، وقصائده الغنية بالقوة والنغم والوحدة والبيان، قصيدة رائعة مسرفة في روعتها استوقفتني طويلًا بجرسها الشجي ومعانيها الوجدانية الصافية) وبعد أن اقترح على القارئ قراءتها مثنى وثلاث ورباع بتطريب وتنغيم لأنها ـ كما يقول ـ: (كفيلة بنقله إلى وجود آخر كله جمال وموسيقى، وكله عذوبة ومحبة ورحمة) قال: (بيد أنني وايم الحق لم أقرأ قصيدة لمست نفسي كما لمستها هذه القصيدة، ولا أرضت فيّ نزعات الفن كما أرضتها هذه القصيدة.. لقد أشفق (أبو العلاء) على الطير وحاوره، غير أنه لم يوفق إلى هذه الموسيقى التي وفق إليها شاعرنا، ولا إلى هذا الحوار المنمنم، الذي جمع كل ما في النفس الإنسانية الشاعرة من حب ويأس وأحلام وآلام، حتى ليخيل إلي وأنا أقرأ هذه القصيدة أنني لا أقرأ شعرًا بل دموعًا، ولا أطالع كلمات على ورق بل أضع عيني على أكباد قريحة ملتاعة، ولا أفتح جفني على دنيا فيها الخير والشر والصلاح والفساد، بل على جنة الله وملائكته الذين صفت نفوسهم من الشر، وبرئت من الأذى وعمرت بالمحبة.. ذلك النوع الطريف الغريب من الأسى الذي لا أعرف بم أسميه ولا كيف أصفه.. ولكنه على كل حال أسى يأنس به القلب وتنعم به الروح، لأنه ينبعث عن الرحمة الواسعة في النفس الصافية المرهفة.. أحبت وحدبت على الناس فحملت أحزانهم وأحزانها وهي هانئة راضية، فلو شفيت جراح سريرتها لطوفت بالسماء والأرض تسأل عن جراح جديدة ينطق منها كل هذا الألم، بل كل هذا النغم..) ومن رأي الشاعر الكبير في زميله الشاعر الكبير أن شعره (يجمع الأسلوب القوي المتين، والخيال المجنح الذي

يشق الغيوم إلى النجوم، وجناحاه قوة ومران وجزالة وبيان).

وهي شهادة نعتز بها كل الاعتزاز، لأننا تعودنا في أكثر الأحيان إن لم يكن دائمًا أن تحول المنافسة بين الشعراء وبين كلمة الحق في زملائهم من الشعراء، وهي تدل دلالة صادقة على نبل النفس وكرم المحتد، وعلى مشاعر الحب والتقدير التي تتسامى على المنافسة الهوجاء والأثرة العمياء..

(١٠) والحديث عن الطبيعة يدفعنا إلى البحث عن رأيه في المرأة.. وللمرأة في شعره ألوان متعددة وصور مختلفة، في بعضها تتجلى مظاهر الحنان والحدب والإعزاز، وفي البعض الآخر النكاية والسخط والثورة، ولكن المقطوعة الصغيرة التي وضعها تحت عنوان (عقل وعقل) قد تلخص رأيه في ابنة حواء أدق تلخيص وذلك في قوله:

هذي الحياة عجائب لا تنتهي … أنَّى اتجهتَ بها رأيتَ عجيبًا
لكنني بين الخلائق لم أَجد … لخلائقِ النسوان قطُّ ضريبا
مُنِحَ الأنامُ العقلَ وهو مقوَّمٌ … وَمُنِحْنَهُ من أصله مقلوبا

وهو رأي تؤيده التجارب والاختبارات كل.. مع الأسف.

(١١) وأخيراً لا مفر من الإشارة إلى القصائد التي ترجمها الشاعر عن الانجليزية والفرنسية.. وهي قصائد في غاية الجودة والعذوبة، وتدل على قدرته الفائقة في تحسس مشاعر أصحابها والتعبير عنها بعفوية وصدق وجمال. وكم كنت أتمنى لو ساعدته الظروف على ترجمة الكثير من هذه القصائد، فهو من أقدر الشعراء على الترجمة الدقيقة الحية.

أما بعد:

فأخشى أن تكون هذه المقدمة قد طالت أكثر مما كنت أريد ولذلك أجدني مضطرًا إلى أن أشير بمنتهى الإيجاز إلى العناصر الأسلوبية عند شاعرنا الكبير وهي تتلخص فيما يلي:

١) الصدق في الإحساس.

٢) حرارة التعبير.

٣) اعتماده على الأسلوب القصصي والتمثيلي في التعبير عن مشاعره وأفكاره.

٤) بروز الرمزية الموضوعية بشكل واضح في قصيدته (القوس المنتحر) وفي عشرات القصائد والأراجيز.. وإن كنت لم أفهم بعد الطريقة التي انتحر بها القوس.. قوس النصر (الحديدي) حين:

أهاب بالريح يرجو عونها فحنت   عليه كالأم إذ تحنو على الولد
ولحظة.. ثم ألقى نفسه مزقًا   في أذرع الموت لا يلوي على أحد

٥) ممارسته الأسلـــوب التصويري كأداة فنية للتعبير عما يخالجه ويعتمل في نفسه.

٦) قدرته البارعة على رسم الصور الضاحكة أو الساخرة، حتى المواقف الجادة أحيانًا كقوله في قصيدته (أمير الضياء):

وماذا يضير غزاة النجوم   إذا لم نهبهم جواز السفر!

وقوله في قصيدة (نيرون):

نيرونُ!.. عرشُك لا تدغه، ولا تخف غضب الشعوبِ
أفتستقيل.. وبعضُ رومةَ لم تنله يدُ اللهيبِ!

وفي الديوان قصائد كثيرة على هذا المستوى الرائع والنسق العجيب يحملك فيها على أن تضحك من خصومه حين يرسمهم بطريقة فذة تستثير السخرية أو الشفقة والرثاء.

٧) حيويته الدافقة التي تتمثل في اعتماده الكثير من أساليب المدارس الحديثة في الشعر، رغم انتمائه أساسًا إلى المدرسة الكلاسيكية.. ومن هذه الأساليب، مايسمى بالشعر المرسل. وعلى الرغم من أن هذا الديوان لم يضم غير قصيدتين فقط من هذا الشعر إلا أن ذلك يكفي للتعبير عن الحيوية الدافقة التي تملأ كيان شاعرنا الكبير. وعن شعوره بضرورة ممارسته لكل ما يستجد من الأساليب الأدبية.

☆ ☆ ☆

وأخيراً، لقد اشتمل هذا الديوان على مختلف الاتجاهات الفكرية والأساليب الفنية، فهو دنيا تضج بمختلف أحاسيس الثورة والحنو، والصخب والهمس، والتعبير المباشر الصريح والإيماء الموحي، والشعر الذي يستمد وهجه من لهيب الواقع... والشعر الذي يعتمد على الرمز والتراث الشعبي.. والشعر الذي يقصف كالرعود.. والشعر الذي يهمس كالنسمة العطرة الخجلى.

فكان صورة صادقة لا لنفسية شاعرنا الكبير فحسب.. بل لقطاعات متعددة.. على امتداد بلادنا العربية المسلمة.. والعالم الكبير من حولنا!

فتحية من الأعماق لأستاذنا الشاعر الكبير الأستاذ محمد المجذوب، مع أصدق مشاعر الحب والإعجاب والتقدير.

الحلقة الأولى
مع الكاظمي والأنصاري

(١) من خير ما قدم أدباؤنا في عامنا الحالي هذا الكتاب الذي سنفرد له هذا الحديث ونعني به الكتاب (عبد المحسن الكاظمي)[1] للأستاذ عبد القدوس الأنصاري.

(٢) وأول ما نلاحظه هو الفتور الذي قوبلت به هذه الدراسة القيمة وذلك - في رأينا - شيء طبيعي لأن كتابنا في هذه الأيام ينقسمون إلى طائفتين، طائفة تتفادي شر النقد والمناقشة وما يجره ذلك من شد وجذب وغضب واستفزاز وكر وهجوم ودفاع، وحسبهم كتابة مقالات قصيرة أو طويلة تقوم على طرفة في قديم أو حادثة في الحديث أو تعليق ساخر أو تعقيب عابر.

أما الطائفة الثانية فهي في شغل شاغل بما يسمونه قضايا العصر كالوجودية واللا منتمي واللا معقول والرفض ومشكلات الجنس. وليس لنا اعتراض على اتجاهات هذه الطائفة ولا على ما تعالج من قضايا لولا أن بعض أفرادها ينصبون من أنفسهم اوصياء على الأدباء والمفكرين، ولا يسمحون لهم بالخروج عن الدائرة المحدودة التي تضطرب فيها طائفتهم فإن حاول أحد من أولئك المفكرين والأدباء أن يتمرد على هذه الوصاية، أو أن يتخطى نطاق تلك الدائرة ثاروا واتهموه (بالسلفية) والرجعية وضيق الأفق.

والعجيب أنهم لا ينظرون هذه النظرة حين يتصل الأمر بأوربا أو أمريكا فنحن نرى الأدباء والباحثين في أوروبا يدرسون شخصيات أدبية عاشت في عصر الحضارة اليونانية أو الرومانية، ويؤلفون عن كل شخصية فيها في كل عام كتابا أو أكثر.. ومع ذلك فلا تجد من يتهمهم بالجمود أو التحجر، بل إن كتبهم ودراساتهم تستقبل بكثير من العناية والحفاوة وقوة الاهتمام

(١) اربعة ايام مع شاعر العرب عبدالمحسن الكاظمي.
طبع في بيروت عام ١٩٦٩م وعدد صفحاته (١٣٦) صفحة، كما صدرت من طبعة عام ١٣٨٨هـ «دراسة».

ونضرب المثل بالشاعر الإنجليزي الكبير (وليم شكسبير)، فمع أنه قد مضى أكثر من ثلاثة قرون على وفاته، فلا ينقضي عام إلا وقد ظهر عدد من الكتب التي تتحدث عنه، ولم يقل أحد إن هؤلاء الباحثين منفصلون عن عصرهم، لا يتصلون بأحداثه ولا يعيشون قضاياه.

(٣) هذا الكتاب الذي أخرجه للناس الأستاذ عبد القدوس الانصاري عن شاعر العرب الكبير (عبد المحسن الكاظمي) كتاب قيم جاء في وقته المناسب. أما قيمته فنتحدث عنها بعد قليل، وأما أنه جاء في وقته المناسب فالواقع أننا نعيش فترة عصيبة تسيطر فيها علينا تيارات غريبة تهب علينا من هنا ومن هناك، فتشتت أذهاننا وتوزع انتباهنا وتوجهنا إلى البحث في أمور شكلية وثانوية تستنفد وقتنا وجهدنا لنخرج منها في النهاية بحصيلة تافهة تشبه السراب.

وكتاب الأنصاري عن الكاظمي صرخة مخلصة تنطلق في هذا الوقت لتحذر القافلة من أخطار الطريق وهداة القافلة من الأصوات الخادعة والندوات المضللة.

واختيار عبد المحسن الكاظمي موضوعًا لكتاب الانصاري اختيار موفق سواء كان عن قصد أم كان عن مصادفة لا دخل لأحد فيها. لان الكاظمي يقف بشعره دليلا حيا على فساد ما قيل من دفاع عن الشعر الحر وسط ما يثار من ضجة حول هذه القضية.

ومهما قيل من دفاع عن هذا اللون الدخيل من الشعر فهناك حقيقة ستظل قائمة وهي أن اللجوء إلى هذا النوع من الشعر ليس دافعه الأصالة والقوة ولكن اشياء أخرى لا تتصل بالقوة ولا بالأصالة من قريب أو بعيد. وهو اتجاه ينسجم مع اتجاهات مماثلة تدعو إلى تجاهل اللغة وإهمال قواعدها وعدم إرهاق النفس دراستها وفهم أصولها والتعرف على أسرارها. فتلك تفاهات وحماقات لا تتفق وعصر السرعة في القرن العشرين.

فالكاظمي يضرب بشعره المثل الحي على ما تستطيعه الفحولة والأصالة والقوة من قدرة قادرة وامتياز وتفوق فهو لا ينظم الشعر ولكنه يرتجله.

وهو لا يرتجل البيتين أو الثلاثة أو المقطوعة القصيرة في مناسبات متباعدة؟

الكاظمي لا يفعل ذلك ولكنه يرتجل القصائد الطويلة التي لا تقف أبياتها عند رقم العشرات، ولكنها تمتد إلى المئات من الأبيات وهذا لا يحدث في فترات متباعدة أو مناسبات معروفة محددة ولكنه يحدث في كل وقت وكل حين.

وكما يغرد البلبل الشادي كلما وجد إلى الشدو دافعا، فكذلك كان الكاظمي - رحمه الله - كان الكاظمي بلبلا حسن الإنشاد، مصقول العبارة، جيد الصياغة، سليم الوزن، مطمئن القافية، متوهج العاطفة والرأي، متوثب الشعور.

وليس لي أي فضل في أطلاق لقب (بلبل) على الكاظمي. فقد سبق الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي أن اطلق هذا اللقب على الكاظمي في قصيدته التي رثاه بها فقال:

يا بلبل الشعراء ما لك صامتا من بعد تغريد بصوتك مشجن

(٤) ولكن الكاظمي مع ذلك كان سيء الحظ في حياته وبعد مماته. فقد قضى حياته فقيرا غريبا ضائعا. ولم يحظ أدبه وشعره بأي عناية بعد وفاته. ومع أن كثيرا من الشعراء ممن لا يفوقونه قوة وأصالة وعبقرية وابداعا قد وجدوا بعد وفاته من عُني بدراستهم والكتابة عنهم وتحليل أدبهم. فقد أبى الحظ على الكاظمي إلا أن يكون في غمار المنسيين، لا يكاد يحس به ناقد أو يشعر به أديب. وليدرك القارئ ما لازم الكاظمي من سوء الطالع نذكر له أنه بالرغم من مرور أكثر من ثلاثين عاما على وفاته فإن شعره لم يجمع بعد. كما أنه لم يؤلف عنه إلا كتاب واحد (الكاظمي شاعر العرب) لمؤلفه (عبد الرحيم محمد علي) وهو كتاب لم يطلع عليه صاحب الإعلام الذي ترجم للكاظمي ترجمة موجزة كما لم يطلع عليه الأستاذ الأنصاري.

وقد ضن عليه الأستاذ الأنصاري فلم يسمح له من وقته بأكثر من أربعة أيام.

الحلقة الثانية(*)

مع الكاظمي والأنصاري

(٥) أرجو أن يأذن لي الأستاذ الكبير مؤلف الكتاب أن أقف قليلًا عند عنوان الكتاب. وأن يغفر لي ما قد يكون في هذه الوقفة من تطفل وسخف من وجهة تخالف وجهة نظري. فأنا مقتنع بأهمية هذه الوقفة وأن كانت وقفة لا تتعدي دائرة التساؤل وتنحصر أهمية هذه الوقفة في أن الأستاذ الانصاري من طراز خاص يعرف أهمية الكلمة ويحرص على أن يكون لكلماته وعباراته مدلولها الدقيق المحدد.

وعنوان الكتاب (أربعة أيام مع شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي) وقد وضع هذا العنوان تحت كلمتي (حصاد العيد) وأحب أن اتساءل عن الغرض من هذا العنوان أو هذين العنوانين إن جاز هذا التعبير. أحب أن اتساءل عن الغرض من كلمتي (حصاد العيد) وقد عرض المؤلف في مقدمة القصيدة التي كتبها تحت عنوان (تجديد عهد قديم) إلى سبب كتابة هذا العنوان فأشار إلى إعجابه القديم بالكاظمي وإلى أنه لم يقتن ديوانه ثم ذكر أنه (في الليلة السابقة لليلة عيد الفطر المبارك لعامنا الحالي ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م هيأ لي أن أقتني نسخة من ديوانه الثاني (مجموعة أشعاره الثانية) التي جمعها ورتبها ونشرها وحققها حكمة الجاروجي قنصل المملكة العراقية بالأسكندرية سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٥٨م فقد اشتريت هذه المجموعة المجلدة من مكتبة متواضعة في (سوق الندي) بجدة، وكانت مغبرة الورق والإهاب، فنفضت عنها الغبار ونظفتها فاغرتني وأزمعت من ذلك الوقت أن اجعل هذه المجموعة (جليسي) و (انيسي) طيلة أيام عيد الفطر الأربعة، ولو وقف المؤلف عند هذا الحد لوضح لنا سبب هذه التسمية ولكن المؤلف لا يقف عند هذا الحد بل يتجاوز إلى القول (ولكني لم اكتف بهذا الديوان فتريثت

(☆) نشرت في جريدة المدينة المنورة يوم الثلاثاء ١٨/١٢/١٣٨٩هـ العدد (١٧٩٤).

في نشر هذه الدراسة حتى تسنى لي أن اطلع على أغلب أشعاره) ويقول المؤلف: (كما تسنى لي أن اطلع على مقال لابنة الكاظمي الدكتورة (رباب) عن والدها في مجلة الكتاب فأفدت منها ما نقلته وما استنتجته وأخيرا في رحلتي إلى لبنان وسوريا ذهبت إلى المكتبة الظاهرية فاطلعت علي مجموعة ديوان الكاظمي الأولى وأضفت دراسته إلى موضوعات الكتاب كما اطلعني الشيخ هاشم دفتردار على مجموعة صغيرة من قصائد الشاعر الكاظمي طبعت بمصر سنة ١٩١٩م فأفدت منها أيضا) ويختم المؤلف مقدمته بقوله: (وهكذا برزت هذه الدراسة تحوي سمات سائر المراجع المذكورة آنفا).

ومعني هذا الكلام أن المؤلف يقرر بوضوح أنه لم يكتف بأيام العيد الأربعة في دراسته للشاعر الكبير، بل وجد نفسه مضطرا إلى أن يواصل دراسته عن الشاعر فترة امتدت عدة شهور، وما دام الأمر كذلك كيف نستطيع التوفيق بين هذه الحقائق التي سجلها المؤلف في مقدمته وبين هذا العنوان الجانبي للكتاب؟

وأحب أن يأذن لي المؤلف في أن استطرد وإن كان استطرادًا لا يتعدى دائرة هذا العنوان الجانبي..

فأنا أحب أن افترض وجود توافق بين عنوان الكتاب الجانبي وبين الحقيقة والواقع. أحب أن افترض أن المؤلف قد درس الكاظمي وأعد دراسته عنه في أيام العيد الأربعة، وأنه لم يحتج بعد ذلك إلى مراجعة أو تعديل وأنه قدم دراسته إلى المطبعة في صبيحة اليوم الخامس.. أحب أن افترض أن ذلك قد وقع فعلا، ثم أحب أن أتساءل: هل من الضروري أن يكتب المؤلف هذا العنوان الجانبي على غلاف كتابه؟ ثم ما أهمية تسجيل هذا العنوان؟؟.

هل أراد المؤلف الكبير أن يذكر الناس بأن أيامه كلها في خدمة الثقافة والمعرفة بما في ذلك أيام الأعياد؟؟ أنا أستبعد أن يقصد المؤلف هذا المعنى فرواد الثقافة وأعلام المعرفة ـ والأستاذ الأنصاري واحد منهم ـ هم دائما وأبدا في خدمة الفكر لا يفرقون بين صباح ومساء، ولا بين نهار وليل، ولا بين صيف وشتاء، ولا بين الأعياد وغيرها من الأيام. بل إنهم ليجدون في أيام الأعياد وأمثالها من أيام الراحة والاستجمام فرصا ثمينة للقراءة

والدراسة والبحث.

لا أتصور أن هذا مراد المؤلف الكبير، فما مراده أذن؟ ذلك شيء لا أدريه ولم أستطع الوصول إليه.

وما قلته عن العنوان الجانبي يمكن أن يقال عن العنوان الرئيسي. وأضيف إليه تساؤلاً صغيراً علي أساس الافتراض الذي ذكرته هناك. وتساؤلي هذا: لماذا يضن الأستاذ الأنصاري على شاعر العرب الكبير باكثر من أربعة أيام؟ ولماذا يحاول المؤلف أن يحصر نفسه في نطاق هذه الأيام الأربعة؟ وكان في إمكانه أن يعطي الكاظمي من وقته الكثير، وهو أهل لذلك.

هل يريد أن يعطي المثل على قدرته الفائقة على تقديم عمل أدبي متكامل في هذه الفترة الوجيزة التي لا تكفي لقراءة متفحصة واعية؟

أم يريد أن يقدم عذره لمن يجد في كتابه ما يستدعي الدرس والملاحظة وإعادة النظر بأن الفترة التي ألف فيها كتابه كانت فترة قصيرة لا تسمح بأن يظهر كتابه في صورة أكمل من الصورة التي ظهر بها؟

غير أن جميع هذه التساؤلات تصبح غير ذات موضوع حين نتذكر أن المؤلف قرر في مقدمة كتابه بصراحة ـ يحمد عليها ـ أن دراسته لم تقتصر على أيام العيد الأربعة وإنما تجاوزتها كثيراً. فلا يبقى أمامنا إلا تساؤل أخير هو:

ما دام الأمر ما ذكر المؤلف في مقدمته فما سر حرصه على كتابة عنوانين على غلاف كتابه لا يعبران عن الحقيقة بل إنهما يخالفان ما ورد في المقدمة؟

ذلك تساؤل جوابه عند المؤلف الجليل.

(٦) وأحب أن انتقل إلى نقطة أخرى أن أعبر للأستاذ الجليل عن صادق اعتزازي بمودته وأن دافعي إلى تناول كتابه بالدرس والمناقشة يعود إلى أن كتابه ذو صلة بموضوعات كتبت فيها منذ قريب، ولعل هذا السبب الأخير يشفع لي عند المؤلفين الكرام الذين أفضلوا علي بإهداء مؤلفاتهم منذ مدة، وكان من حقهم أن أتحدث عن هذه المؤلفات قبل كتاب الأنصاري. وبالمناسبة فإن الأستاذ الأنصاري لم يهدني كتابه، وإنما أهداه لي صديق أديب من أسرتنا الأدبية الصغيرة. يعرف اهتمامي بموضوعات عرض لها الأنصاري في كتابه فللصديق الأديب موفور شكري.

الحلقة الثالثة

مع الكاظمي والأنصاري

(٧) قسم المؤلف كتابه إلى فصول قصار بلغت أربعة وعشرين فصلا في (١٣٦) صفحة. وقد اهدى المؤلف كتابه (إلى شداة الأدب الرفيع والشعر العربي المشرق وإلى هواتهما اقدم هذه الدراسة المتواضعة) وليس لي تعليق بالنسبة للإهداء إلا على كلمات ثلاث هي (الرفيع) و (المشرق) ثم (المتواضعة).

ويهدف المؤلف بكلمتيه (الرفيع والمشرق) إلى أن يلوح بعصاه في وجه شداة الأدب (الهزيل الهابط) والشعر (المتحلل المكسوف) وإلى دعاتهم وأنصارهم وهذان النوعان من الأدب والشعر يكادان يسيطران على السوق فيفسدان الأذواق ويبلبلان الأفهام. ويعبثان بالمقاييس. وما أحوجنا إلى من يقف لينبه الضالين ويرشد المنحرفين ويذكر المتسابقين والأفعات. ما احوجنا في هذه الظروف إلى من يمسك عصا التحذير ليصحح الأوهام ويشحذ الافهام، ويصقل العقول.

والأستاذ الأنصاري جدير بالإكبار والتقدير لإيمانه برسالته وثباته على مبدئه. أما الكلمة الثالثة (المتواضعة) التي وصف المؤلف بها دراسته فربما كانت صادقة في وصف هذه الدراسة التي قدمها الأستاذ الأنصاري إذا قيست بالدراسات العظيمة التي قدمت عن شعراء آخرين، أما إذا نظرنا إليها على اعتبار أنها صرخة مخلصة كما اوضحنا ذلك من قبل. وعلى اعتبار أنها من أولى الدراسات التي قدمت عن شاعر العرب الكبير، إذا نظرنا إليها في ضوء هذا الاعتبار فهي ـ والحق يقال ـ دراسة متكاملة عن الشاعر (تعطي ملامح «واضحة» ومميزة عن شاعريته وعن حياته وبيئته التي عاش فيها) هذا شيء ليس بالقليل على أي حال.

(٨) قلت إن كتاب الأنصاري (من) أولى الدراسات التي قدمت عن شاعر العرب الكبير الكاظمي.وهي حقيقة لا شك فيها، ولكنها لم تكن هكذا في خاطري عندما كتبت السطور الأولى من هذه المقالة فقد كنت اتصور شيئا

آخر كنت اتصور أن دراسة الأستاذ الأنصاري عن الكاظمي هي (الاولى) من نوعها، وكنت اعتزم أن أشير إلى ذلك وأن أضيفها إلى (أوليات) الأستاذ الأنصاري التي يعرفها قراء كتبه التي صدرت في الخمسينيات من هذا القرن الهجري كنت اتصور ذلك ثم بدا لي أن اراجع بعض المصادر، فإذا بي اعثر في كتاب (الشعر العربي المعاصر) للأستاذ أنور الجندي على كتاب يعتمد عليه الجندي في كتابه عن الكاظمي واسم الكتاب هو (الكاظمي شاعر العرب) ومن طريف ما يذكر أن الأستاذ الجندي نسب الكتاب إلى مؤلف دعاه (عبد الرحيم علي) وكرر ذلك ثلاث مرات في صفحتين متقابلتين، ولكنه عندما وصل إلى صفحة المراجع سجل اسم الكتاب صحيحا وهو (الكاظمي شاعر العرب) أما بالنسبة لمؤلفه فقد سجله (مصطفى علي). وأنا ارجح هذه التسمية الأخيرة لان مصطفي علي كاتب عراقي، وقد اصدر كتابين عن الشاعر العراقي (معروف الرصافي).

ومعني هذا أن الأستاذ الأنصاري مسبوق إلى تاليف كتابه عن الكاظمي وبذلك لم يكن في الإمكان احتساب كتاب الأستاذ الانصاري من أولياته في هذا المجال. وإن كان سيحتفظ بمركزه كواحد من أوائل الكتب التي ألفت عن الكاظمي. لعل في هذا الكلام تصحيحًا لوهم شبيه بوهمنا الذي اشرنا إليه، ونعني الوهم الذي وقع فيه الأستاذ الكبير محمد سعيد العامودي حين قرر في كلمته التي قرر بها كتاب الأستاذ الأنصاري في مجلة (رابطة العالم الإسلامي) الصادر في رمضان من عامنا الحالي[1] قرر الأستاذ الكبير أن الكاظمي (كاد أن يمر عليه النسيان، فلم تؤلف عنه سيرة ولم يظهر عنه أي كتاب ـ فيما نعلم ـ حتى الآن) وليت الأستاذ الكبير وقف عند هذا الحد من كلامه الذي تحفظ فيه ولكنه عاد مرة ثانية فقرر (أن هذا الكتاب عن الكاظمي لا نشك في أنه أول كتاب يصدر عن هذا الشاعر العراقي الكبير). وقد رأينا أنه فعلا ليس أول كتاب يكتب عن الكاظمي.

(٩) من فصول كتاب الأستاذ الأنصاري فصل بعنوان (شاعر العرب) وهو فصل لطيف تحدث فيه المؤلف الكبير عن ألقاب أطلقتها الصحافة علي

(١) شهر رمضان عام ١٣٨٩هـ.

بعض الأعلام من الشعراء والأدباء، ومنهم (شاعر العرب) الكاظمي. وهو فصل لطيف كما قلنا لا ينقص من لطافته ما يلاحظه القارئ الناقد من وجود إسراف في بعض الألقاب التي أوردها المؤلف منسوبة إلى بعض الشخصيات في بلادنا فقسم منها لم ينل من الشهرة ما يجعلها ألقابا مميزة كأنها جزء من اسم من أطلقت عليه أو مرادفة له فرأيت إذا قلت أمير الشعراء فلن يشك أحد في أنك تعني (شوقيا) وإذا نطقت بكلمة (شيخ العروبة) فلا مجال لأن ينصرف الذهن إلى علم من أعلام الفكر غير (أحمد زكي باشا) وإذا كتبت كلمة (الاخطل الصغير) فسيحضر في بال القارئ صورة الشاعر (بشارة الخوري) ولكن بعض ألقابنا المحلية التي ضربها المؤلف مثلا لم تصل إلى هذا المستوى.

أما القسم الثاني فألقاب مقترحة لم تحمل بعد على اعتراف جمهرة من الكتاب والمفكرين ورجال الصحافة لتصبح ألقابا يصح أن تضرب مثلا.

(١٠) يلاحظ ان في بعض فصول الكتاب تداخل كان بإمكان المؤلف أن يحول دون حدوثه وذلك بعمل تنسيق بينها، فهنا فصل عنوانه (شاعر العراق) وفصل آخر عنوانه (مؤلفات الشاعر) وفصل ثالث عنوانه (الكاظمي وشوقي) وفي كل فصل من هذه الفصول معلومات ذات صلة وثيقة بما ورد من معلومات في الفصلين الآخرين. فهي معلومات تكمل بعضها بعضا. فلو جمعها المؤلف في فصل واحد لكان ذلك أجدى وأنفع وأدعى إلى الاتساق والتواريخ ومثل ذلك يقال عن فصلين عنوان أحدهما (شاعر العرب) وعنوان الآخر (شاعر العراق).

ونفس ذلك يقال عن فصلين بعنوان (مقدمتان للديوان) و (مؤلفات الشاعر) وشبيه بذلك يقال عن فصلين عنون لهما المؤلف بعنوانين هما (شاعر العراق) و (ذكريات الوطن الأول).

ولا أظنني بحاجة إلى تبيان هذا النوع من التداخل ولا إلى تحديد الصلات القوية بين المعلومات التي أشير إليها. ويستطيع القارئ المتذوق المتمعن أن يدرك ذلك. ولعلي اعود إلى توضيح ذلك في فرصة آخرى.

الحلقة الرابعة
مع الكاظمي والأنصاري

(١١) أفرد المؤلف الكبير فصلًا في كتابه بعنوان (الكاظمي وشوقي)، وهو فصل عرض فيه المؤلف لما بين شوقي والكاظمي من علاقة الشعر بالمنافسة والعداء، وهو فصل قيم أوافق المؤلف الكبير على كل حرف ورد فيه. ولكنني أستأذن الأستاذ الأنصاري في أن أضيف إلى ما أورده في الفصل المذكور هذا الخبر الصغير أنقله من كتاب (حياة شوقي) لمؤلفه أحمد محفوظ، وهو لا ينقص شيئًا، ولكنه قد يضيف جديدًا يستحق التعليق سواء بالنسبة إلى خلق شوقي أو إلى العلاقة بين الشاعرين الكبيرين الكاظمي وشوقي.

يقول الأستاذ أحمد محفوظ (كان شوقي كريمًا في شبابه كما قرأت، ولكنني أدركته في كهولته، فكان أجنح إلى الحرص منه إلى الكرم. كان إذا كثر فقراؤه اعتذر إليهم وهو غاضب، فإذا انصرفوا ألتفت إلينا وقال: لو اعطيت كل إنسان لأصبحت شحاذًا مثل هؤلاء. ولكنه كان طيب النفس سمحًا إذا تحقق من نازلة نزلت بصديق أو محتاج.

بعث له مرة الشاعر العراقي المكفوف عبدالمحسن الكاظمي بكتاب يشكو فيه فقرًا ومرضًا طرحه على الفراش، فبعث إلى وأراني الخطاب وسألني أن أتحقق أمر الكاظمي ومكان صدقه من هذا الكتاب وبين لي موضع منزله في العباسية فاجبته: أني سأذهب إليه وأكشف لك حاله. وكنت امرأ كسولا، وبيت الكاظمي بعيد فقلت لنفسي وما عليك أن تشهد شهادة زور لأديب شيخ كنا نعلم فقره.فذهبت أتلكأ في مشارب القهوات ساعتين ثم عدت إليه، ووصفت من مرض الشيخ وحاجته ما استثار كامن رحمته فبعث إليه مع كاتبه قدرًا طيبًا من المال).

(١٢) من فصول الكتاب فصل قصير جدًا عنوانه (قضت الصبابة)، ويذكر المؤلف في هذا الفصل أن (للكاظمي قصيدة دالية.. وقد هنا بها الشاعر

محمود باشا سامي البارودي بالعيد بعد أن تخلى عن الوزارة) ثم يذكر المؤلف منها خمسة أبيات ويعلق على ما فيها (من انسجام وطلاوة ودقة وصف أو رقة مدح ....).

ولم أفهم ـ مع الأسف الشديد ـ الهدف من الفصل الذي لم تتجاوز سطوره الستة. ولقد كنت أوثر أن يكون عنوان هذا الفصل (الكاظمي بين شعراء عصره) يتحدث فيه المؤلف الكبير حديثًا يحدد مكانة الكاظمي بين معاصريه من الشعراء، وإن لم يكن ذلك فلا أقل من أن يكون عنوان الفصل (الكاظمي وشعراء عصره) وفي هذا العنوان مجال خصب للحديث عن روابط الكاظمي بشعراء عصره، ولا سيما شعراء مصر، وهو حديث يشد انتباه القارئ العادي ويروق الادباء والمثقفين. ذلك ما كنت أوثره وهو الاجدر بعلامتنا الأنصاري. أما هذا الفصل الناشز الذي يقف وحده هكذا فأنا في حيرة من أمره، واعتقد أن ذلك رأي المتذوقين الباحثين. وخاصة إذا لاحظنا أن المؤلف عاد مرة اخرى فأورد بعض أبيات قصيدة الكاظمي في مدح البارودي واثنى عليها وعلق عليها تعليقا مستطابا في الفصل الذي كتب تحت عنوان (من ميميات الكاظمي وفخرياته) بل إن المؤلف أورد هنا أحد عشر بيتا من قصيدة المدح من ضمنها خمسة الأبيات التي أوردها في فصل (قضت الصبابة).

(١٣) في تعليق كتبه المؤلف على بيت من شعر الكاظمي ورد فيه اسم (رباب ونزار) وهما أبنان للشاعر في صفحة (٩٧) من كتابه يقول (انبأني الدكتور محسن جمال الدين أن حكمت الجاورجي ناشر الديوان الثاني للكاظمي هو زوج ابنة الكاظمي (رباب) وكانت شاعرة ومن شعرها:

أدبي لدى الأيام جري ... وجريرتي في الدهر علمي

وقد ذكر الدكتور محسن جمال الدين شاعرية رباب وأورد البيت المذكور في المحاضرة التي ألقاها على طلبة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية).

ويبدو أن الأستاذ الأنصاري يرمي بتعليقه هذا إلى الرد على كاتب هذه المقالات إذ سبق لي أن شككت في شاعرية رباب في مقالي الثاني الذي نشرته

بجريدة «المدينة» في عددها الصادر في ٩٨/٣/٢٨، وقد علقت في المقالين على كتابه (العراق في الشعر العربي والمهجري للدكتور محسن جمال الدين) وقلت في ذلك المقال (نعود إلى رباب الكاظمي العراقية وأحب أن اسأل أديبنا الكبير: هل يؤمن بشاعرية رباب العراقية؟ وهل يستطيع أن يثبت لها شعرًا؟ أنا لا أريد بهذا السؤال أن أعود لأناقش شاعرية رباب العراق. وقد قرأت لها قصيدة في مجلة (ابولو) التي كان يصدرها أبو شادي وهي قصيدة متماسكة من أرقى الشعر وأجوده ومطلعها (أدبي لدي الأيام جري......).

فقد قرأتها أيام كنت طالبا في الجامعة، وقد ظلت عالقة بذهني ما يقرب من عشرين عاما حتى كان الصيف الماضي وأتيح لي زيارة بغداد، فكان من اهتماماتي أن أعرف شيئا عن رباب، وأن أتلمس الطريق لديوانها وأشعارها وسألت عددا من الادباء والمثقفين عنها ففوجئت بأنهم لا يعرفون عنها شيئا. وبعد بحث طويل علمت أنها تعمل طبيبة أسنان في مستشفى الطفل ببغداد، وأنه لا علاقة لها بالشعر أو الأدب، ولم أر داعيا بعد ذلك للبحث عنها.وإن كانت هذه النتائج أثارت في نفسي تساؤلا ظل يلح علي وهو: كيف نعلل انصراف شاعرة لها ذلك الشعر العالي الرصين، وأخذت أعيد النظر في قصيدتها (اليتيمة) فلاحظت أن المعاني الواردة في القصيدة لا تنسجم وأفكار فتاة ناشئة في مقتبل العمر، وأصبحت هذه الملاحظة شكًا يلاحقني كلما ذكرت الكاظمي وابنة الكاظمي، وكانت ليلة الثلاثاء من الاسبوع الماضي هي التي وضعت حدا لهذه الشكوك فقد أضافت أسرة الوادي المبارك علامة العراق الكبير الأستاذ محمد بهجت الأثري وكانت امسية شعرية استمعت فيها الأسرة إلى روائع من الشعر الرفيع انشدها العلامة الأثري، وكلها من شعره وقد انتهزت فرصة عند ما جاء دور الأسئلة فسألته عن رباب الكاظمي، فقال إنها تعمل طبيبة أسنان في بغداد. فسألته عن شاعريتها فضحك طويلا ثم قال: فقد سألني منذ وقت قريب أحدهم هذا السؤال فأجبته بأنه قد مضى على وفاة الكاظمي أربع وثلاثون سنة لو نظمت رباب في كل سنة بيتا لأصبح لها الآن قصيدة في أربعة وثلاثين بيتا

ولكنها مع الأسف لا تستطيع أن تنظم بيتا واحداً.

وقال الأستاذ الاثري إن الشاعر لا يستطيع أن ينقطع تماما عن الشعر. صحيح أنه قد يتوقف فترة تطول أو تقصر، ولكنه سيجد نفسه ينظم أحيانا بصورة لا شعورية. وضرب المثل بنفسه فقال إنه مشغول بأبحاث لغوية ودراسات تتطلب تفكيراً وجهداً، ومع ذلك فإنه يجد نفسه قد تركت ما هي فيه لتكتب شعرا. كل الظواهر تشير إلى أنه لا باعث له فقد يكون شعرا غزليًا أو شعرا وصفيا.

وقلت للاستاذ الأثري ولكنني قرأت في مجلة (ابولو) وأنشدته بعض أبياتها وهي منسوبة إلى رباب فضحك وقال: لقد كنت في سنة ١٩٣١ بالقاهرة وسعيت إلى لقاء الشاعر الكاظمي في بيته، فوجدته يقرأ قصيدة منشورة في جريدة يومية وعلامات الغضب.والاستياء بادية علي وجهه، وعلمت أن السبب هو كثرة الاخطاء المطبعية. يقول العلامة الأثري: كانت قصيدة دالية طويلة تبلغ المائة والسبعين من الأبيات، كما كانت من أقوى ما قرأت وقد دهشت لأن الكاظمي كان ينسب القصيدة لابنته مع أن ابنته باعترافه في الثانية عشرة من عمرها عند نشر القصيدة، كما أن شواهد الحال كانت تؤكد أن القصيدة له.فكلام العلامة الأثري ـ حفظه الله ـ قاطع الدلالة على أن رباب أو الدكتورة رباب الكاظمي لا تتصل بالشعر من قريب أو بعيد وأن العلاقة الوحيدة التي تربطها بالشعر هي أبوها الشاعر العظيم الذي أراد أن يجعل من أبنته شاعرة بالقوة لا بالفعل).

هذا ما قلته في العدد الصادر من جريدة «المدينة» في ٢٨ ربيع الاول عام ١٣٨٩، وكنت أود أن يولي الأستاذ الأنصاري اهتمامه بهذه القضية فيدرسها ويخصص لها فصلا من كتابه وهو قطعا سيصل إلى إحدى نتيجتين أما أن يتفق معي فيما ذهبت إليه من أنكار الشعر والشاعرية على رباب أبنة الشاعر. وأما أن يتوصل إلى أدلة ثابتة تدحض الرأي الذي توصلت إليه وتحدثت عنه ويكون بذلك قد خدم الحقيقة وأضاف جديدا إلى كتابه. وأما أن يكتفي بنقل كلام الدكتور محسن جمال الدين لأثبات شاعرية رباب وكأنها قضية مسلمة فذلك أمر لا يقدم ولا يؤخر.

الحلقة الخامسة
(مع الكاظمي والأنصاري)

(١٤) أشرنا في الحلقة السابقة إلى ما أورده الأستاذ من أن الشاعر تحدث عن ابنيه رباب ونزار في بيت من قصائده، وكان ذلك مثار تعليق المؤلف الفاضل بالصورة التي أشرنا إليها وبذكرها أن المؤلف أغفل الحديث عن نزار في كتابه، فلم نعرف عنه قليلا ولا كثيرا مع أن الحديث عن نزار بن الشاعر في رأينا ـ أهمية خاصة لا يحسن السكوت عليها لأنها أحدى العوامل الجوهرية التي تركت آثارها العميقة في نفس الشاعر وحياته نعني بذلك أن الشاعر عبدالمحسن الكاظمي كان محبا لولديه، حفيا بهما ولا شك في أنه كان يعقد أكبر الأمال على نزار فهو ولده الذكر الوحيد وكان يرجو أن يكون له قرة عين، وأن يصبح في مقبلات الأيام عضداً له ونصيرًا وخليفة، وكان وجوده يخفف كثيراً من المتاعب التي تعرض لها الشاعر، غير أن القدر لم يمهله طويلًا فودع الحياة الفانية وكان فقده صدمة لأبيه هزته هزًا عنيفًا وعصفت بحياته وضاعفت من متاعبه وآلامه وطبعت في نفسه آثارًا عميقة لازمته طول حياته رحمه الله وغفر له.

(١٥) والحديث عن المؤثرات التي تركت آثارها العميقة في نفس شاعر العرب يذكرني بقضية أخرى لم يعرض لها الأستاذ الأنصاري، وكانت من العوامل الجوهرية في (عصر) الكاظمي. ذلك الموضوع الذي أفرد له المؤلف فصلًا من كتابه ونعني به الفصل الذي عنوانه (اندماج الكاظمي في مصر) وهو أحد الفصول القليلة الطويلة في كتابة لقد آثار هذا (التمصر) الذي وصل إلى درجة التفاني حتى لقد أصبح مصريًا أكثر من المصريين أثار هذا التمصر دهشة مؤلفنا الكبير وذهب يتلمس له الأسباب فرأى مرة أن زواجه من مصرية سبب هذا التمصر، ورأى مرة أخرى إنها أسباب مادية أو مصلحة دفعته إليها (غربة الدار) و (فقدان مورد رزق ثابت) وهذا صحيح ولكن ما هو السبب الرئيسي الذي حوَّل مشاعره هذا التحول العجيب عن وطنه الأول

إلى درجة أنّا. (رأيناه يهمل كل الإهمال ذكر بني وطنه ـ العراق ـ واستقلالهم وكفاحهم لنيل هذا الاستقلال فلم يذكر أحداً من زعمائهم ولا من أعلامهم ولا من علمائهم ولا من أدبائهم لقد استغنى عن ذكرهم كل الاستغناء بذكر إضرابهم في مصر).

أما هذه القضية التي نشير إليها فهي أن الكاظمي كان قد هاجر من العراق نتيجة مالاقاه من مضايقات بسبب اتصاله بالسيد جمال الدين الأفغاني، فسافر إلى الخليج العربي وإيران ثم إلى الهند ومنها رجع إلى مصر، ويبدو أنه لم يكن ينوي الإقامة بها إلى آخر حياته، ولكنه كان ينتظر تحسين الأحوال بالعراق. وقد حدث ذلك في عام ١٩٢١ حيث قامت الدولة العراقية ومنذ قيامها وجهت دعوة إلى كل العراقيين البارزين، ولكنها تجاهلت الكاظمي فلم تدعه إلى العودة إلى بلاده فأحنقه ذلك وأثار سخطه ورأى أنه لا مناص له من البقاء في مصر فمنها يستطيع أن يسمع صوته أبناء الأمة العربية.

فهذا التجاهل من دولة العراق جعله يولي وجهه شطر مصر، ويقابل التجاهل بالتجاهل والإهمال بالإهمال والإعراض بالإعراض، ولعله رأى أن تفانيه في مصر هو (خير) عقاب يسلطه على رجال وطنه الأول.. فكل بيت يقوله في الثناء على مصر أو على سعد زغلول هو في نظره همزة ولمزة لمن في العراق وكأنه يقول لهم في كل وقت وآن (يامن هناك إني هنا).

وقد ضاعف من إيمانه بمصر تلك الحفاوة الأدبية الرائعة التي قوبل بها. فقد استقبلته الهيئات الأدبية استقبالاً بالغ الحماسة والحفاوة ووصفه بعض أدبائها على رأس شعراء مصر وقال عنه البارودي أنه أمة وحدة).

كما لقى من عناية الشيخ محمد عبده وهو من أحب ما أثلج صدره وأبهى فؤداه وبرغم ما تعرض له من قسوة وفقر بعد وفاة الأستاذ بايام فقد أصر على البقاء في مصر لأن عزة نفسه أبت عليه أن يعود إلى وطن لا كرامة له فيه.

يقول جميل صدقي الزهاوي في رثاء عبد المحسن الكاظمي:

الكاظمي قد اعتنى ببلاده وبلاده بحياته لم تعتن

وهو بذلك يشير إلى أن الكاظمي قد اعتنى ببلاده فغنى لها وأشاد بها، ولكن بلاده لم تهتم به ولم تعتن بحياته، فأغفلته ولم تدعه ولم تهيىء له المكان اللائق به.

(١٦) لقد أثني الكاظمي على سعد زغلول وألبسه من حلل الثناء وبرود المديح ما سيظل باقيا إلى ما شاء الله حتى لقد نظم فيه طائفة من القصائد الطوال سمّاها المعلقات، وطبعت مرتين طبعها مرة الأستاذ الجليل خليل الدين الزركلي في مطبعته العربية، وطبعها مرة اخرى محمد الدين الخطيب في مطبعته السلفية. وفي مقدمة طبعة (خير الدين الزركلي) كتب الأستاذ الزركلي مقدمة غير طويلة للمعلقات وصف فيها الكاظمي بانه (مجدد دولة الشعر ورافع لواء الأدب) ولقبه فيها بلقب (أمير البيان) وكما لقبه في الغلاف شاعر العرب الأكبر وحجة الأدب الأشهر، فهنا لقبان جديدان يضافان إلى لقبيه اللذين ذكرهما المؤلف في كتابه.

ليس هذا غرضًا من الإشارة إلى ما بين سعد والكاظمي، ولكنني أود أن أعبر عن دهشتي لموقف سعد من الكاظمي، فرغم الثناء العاطر الذي أضفاه الكاظمي على سعد، ورغم أن الزركلي أشار في مقدمته إلى أن (الكاظمي معجب بسعد أعجابا متأصلا متسلسلا يتصل بالإمام أستاذ سعد فالافغاني أستاذ الامام).

ذلك أضف إليه آيات سعد في مواقفه تعرف منها سر تغني الكاظمي بزغلول وبلوغه في وصفه عناية ما تحاوله النعوت وتقصر عنه الكلم.

ومن ذلك يدرك المدرك سر عصيان الكاظمي طبيبه كل يوم وهو يتقلب على سرير المرض ـ شفاه الله وعافاه ـ والطبيب ينذره ويحذره من أن يفكر أو يقول شعرا فإن أطاعه فإنما يطيعه إلى حد لا يبلغ سعدا. وأما سعد فلا شيء يحول دون تفكير الكاظمي فيه وارتجاله القصائد في الترحيب به قادما وتوديعه مغتربا وتكريمه نائيا أو دانيا.

يقول الزركلي: (وها نحن أولا نرى الكاظمي يحرص على أن يرفع لدولة

الرئيس الزعيم بضع قصائد مما قال فيه على أن تكون هديته إلى الأمة المصرية وزعيمها الأعظم. وأن في بقاء أكثرها محفوظا في صدد الكاظمي يقول الشعر إلى اليوم لم يقل في نادٍ، ولم يطرق سمع من قيلت فيه، ولم ينشر في صحيفة لدليلا على أن الكاظمي يقول الشعر في سعد حبا لسعد رتغنيا بأعمال سعد وأن سعدا يمدح الكاظمي لحقيق).

رغم كل هذا فقد عاني الكاظمي الفقر والعوز والفاقة والحاجة منذ أن مات الأستاذ الإمام الذي ينعم بعطفة أكثر من خمسة أعوام، ولم ير سعد في أعمال الكاظمي ما يستحق الرفد والعون والمكافاة.فتركه يعاني آلام الحاجة وقسوة الظروف، ولم يجد عليه إلا براتب لا يكاد يسد الرمق من خزانة الأوقاف، وكان في إمكانه لو أراد ـ أن يجعله يعيش في يسر وخفض عيش وبحبوحة من الرزق. ولكن سعدا لم يستطع أن يتجرد من تلك النزعة التي أشار إليها الأستاذ الأنصاري في فصل (اندماج الكاظمي في مصر) والتي تحدثنا عنها بكثير من التفصيل في جريدة «المدينة» قبل عامين. وهكذا ضاع الكاظمي بين هنا وهناك بين مصر والعراق.

(١٧) ومن الطريف أن حكومة وطنه الأول تنبهت بعد عشر سنين من وفاته إلى أن الواجب يفرض عليها أن تكرم شاعرها (فشيدت له ضريحا لائقا في مقبرة الإمام في القاهرة ونقلت إليها رفاته في حفل كبير)

وهكذا صدق على الكاظمي قول زميله الشاعر العربي:

لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

ليت ما أنفق على ضريحه قدم له في حياته، فما جدوي هذا الضريح أو ليته أنفق على طبع أشعاره التي لا تزال مبعثرة في بطون الصحف.

(١٨) أريد هنا أن أوجه الانظار إلى عقد مقارنة بين موقف شوقي وموقف سعد تجاه الكاظمي وهي مقارنة لا أشك في أنها سترجح كفة شوقي إذا وضعنا في الاعتبار ظروف كل منهما. فموقف شوقي ـ كما أوضحه المؤلف في كتابه ـ موقف المنافسة والحفاظ على المكانة، وهو موقف لا يناقض ما

في النفس البشرية من عوامل الضعف التي لا يكاد يسلم منها أحد من بني آدم وإذا كان بعض الادباء قد نظر إلى قضية التنافس بين شوقي والكاظمي نظرة مثالية فلام شوقي على موقفه لوما شديدا ووصف مواقفه (بالمواقف الكفرية باخوة الأدب والعروبة) وغاب عنه أن شوقي إنسان قبل كل شيء فيه ما في الإنسان من ضعف وخوف وجاذبية أرضية.

أقول إذا كان بعض الأدباء قد فعل ذلك فلماذا سكتوا عن موقف سعد من الكاظمي؟ وليس بينهما عامل التنافس أو المزاحمة، بل إن الكاظمي أخلص الحب لسعد إخلاصا نادر المثال، ووقف منه موقف المنافح عن زعامته وعن مبادئه، حتى ليخيل إلى أن ما نظمه الكاظمي وحده في تمجيد سعد يعادل ما نظمه جميع شعراء مصر في هذا المجال، بل يزيد هو شعر من النسق العالي. بل الغريب أن موقفه من سعد لم يتغير حتى بعد وفاته فظل على وفائه له.

أقول لماذا سكتوا عن موقف سعد وكان في إمكانه أن يحمي الكاظمي من أن يحتاج لشوقي أو لغيره من الناس وبماذا نصف موقفه من شاعره الكبير الذي جند فَنَّهُ العظيم وشاعريته الثرة لخدمته.

ليس هذا دفاعا عن شوقي ولكنه دعوة إلى الوقوف والتأمل في موقف وموقف ورجل ورجل.. وسبحان مقسم الحظوظ والارزاق.

(١٩) هذه خواطر وملاحظات خطرت ببالي وأنا اقرأ كتاب الأستاذ الأنصاري والكتاب بعد كل ذلك كتاب قيم حفي كثيرا من الأفكار السامية، والنظرات الصائبة، والنقدات النافذة، والملاحظات الدقيقة، وقد تصدى المؤلف ـ مشكورا ـ لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة كما القى الضوء على كثير من القضايا الأدبية والسياسية والفكرية.

وتفنيد بعض الدعاوي المغرضة ودحض بعض الشبهات المضللة. وأحب أن ألفت النظر هنا بوجه خاص إلى الفصل الرائع الذي كتبه المؤلف تحت عنوان (تحية الدستور العثماني) فهو فصل جدير بأن يقرأه شبابنا ليعرفوا

حقيقة بعض المفاهيم المضللة التي سيطرت ـ ولا تزال تسيطر ـ على أذهان الكثرة الكاثرة من المثقفين حتى أنها أوشكت أن تصبح من الحقائق الثابتة نتيجة تلك الحملات المضللة التي تعاونت عليها كل قوى الشر والبغي والباطل، وتركزت فيها كل سموم الحاقدين والشانئين والأعداء.

(٢٠) إن كتاب الأستاذ الأنصاري عن الكاظمي رغم صغر حجمه يعطي فكرة واضحة عن هذا الشاعر العظيم، ويربط بين شعره وعصره ربطا محكما حتى يلمس المرء أن الكاظمي يعيش بيننا يدعو أمتنا ويحيى جهادها ويهيب بشبابنا ويغني لأوطاننا ويهتف بأمجادنا ويستنهض عزائمنا فإذا استطاع هذا الكتاب ـ وذلك ما نرجوه ـ حسبة مزية أن يعبر أمامنا الطريق إلى الشعر العربي الأصيل وشعر الكاظمي في مقدمته فقد وصل إلى أقصى درجات النجاح، واستحق مؤلفه الشكر الخالص العاطر والإعجاب المتجدد.

لقاء.. كل أسبوع

- ١ - (★)

الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ، صديق أديب يمتاز بنشاطه ودأبه ووفرة إنتاجه. ويعتبر من الأدباء العصاميين الذين كونوا انفسهم عن طريق القراءة والاطلاع. ويمتاز بصبره العجيب ودأبه الذي لا يتطرق إليه كلل أو ملل. وربما كانت حياة الأستاذ عبد السلام الادبية خير مثال على أن الموهبة وحدها ليست شيئًا إذا صاحبها الكسل والفتور، وإن المثابرة والمران والصبر هي كل شيء تحقق المستحيل وتصنع الاعاجيب. لا اريد أن اعقد مقارنة بين الأستاذ عبد السلام وأنداده من الأدباء والشعراء الذين عاشوا في بيئته، وفي ظروف لا تختلف كثيرا عن ظروفه، فانا أخشى أن تثير هذه المقارنة سلسلة من المعارك أكون هدفها ـ والعياذ بالله ـ وقديما قال الشاعر:

ومكائد السفهاء واقعة بهم   وعداوة الشعراء بئس المقتني

وحسبي أن اشيد بنشاط الأستاذ عبد السلام، وأن اذكر أن كتب الأستاذ لم تلق حتى الآن ما هي جديرة به من نقد وتعليق رغم كثرتها، بل إن كتبه ومؤلفاته لم تلق أي عناية على الإطلاق من النقاد رغم كثرتها وتنوعها باستثناء كلمات قصيرة تكتبها بعض الصحف والمجلات في بضع سطور وهي أشبه بالإعلان.

ولعل ذلك عائد إلى أن المؤلف لا يهدي كتبه للبارزين من الكتاب والنقاد حتى يضطرهم إلى الكتابة عن مؤلفاته، وربما كان الباعث على ذلك هو ثقته بنفسه ثقة لا تقف عند حد أو خوفه من هؤلاء الكتاب والنقاد، على أن أمرا جديرا بأن نشير إليه هو الطريقة التي يعتمد عليها المؤلف في نشر مؤلفاته. فجميع أدبائنا يتحدثون في لهفة وحسرة عن عدم امكانيتهم نشر

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٣/٢٠هـ ـ ١٩٦٢/٨/٢٠م العدد ١٢٦

مؤلفاتهم المخطوطة بسبب ما يتطلبه النشر من أعباء مادية لا يقدرون عليها، وكثير من هؤلاء الأدباء يحتلون مراكز مرموقة في الدولة أو في الأسواق التجارية. وأخونا عبد السلام من أقل الأدباء إمكانات مادية، ولا نتصور أن كتبه تلقى من الرواج والذيوع ما يمكنه من تسديد نفقات الطبع. فكيف استطاع التغلب علي هذه العقبة؟ وهل يتفضل فيدل (إخوانه) من الأدباء الشعراء على هذا السر الخطير أم أن ذلك من الأسرار التي لا ينبغي أن تذاع؟.

وآخر ما أصدره الأستاذ عبدالسلام هو كتابه (المدينة المنورة في التاريخ) ويعتبر ثاني كتاب له في التاريخ، إذ سبق أن صدر له كتاب تاريخي باسم (ثورة الجزيرة) لم أقرأه بعد، وأرجو أن أعود له في مناسبة قريبة بالنقد والتعليق.

ولعل كتابه الأخير هو أسعد كتبه حظًا. فقد انبرى له بالنقد الأستاذ الصديق محمد عامر الرميح، وأن نقده لم يعجب الأستاذ عبد السلام كما يبدو من الرد الذي كتبه وفيه همز ولمز وغمز.

وسنحاول أن نستعرض هذا الكتاب الذي تفضل بإهدائه إلينا صديقنا الشاب الالمعي النابه (ع. ع. م) فله خالص الشكر والثناء

لقاء.. كل أسبوع
ـ ٢ ـ (★)

(المدينة المنورة في التاريخ)، هذا هو الاسم الذي اختاره الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ لمؤلفه عن المدينة، وهو اسم ضخم حقيقة أثار في نفسي عندما سمعت بالاسم كثيرا من الاغتباط والابتهاج، وتصورت أن المؤلف الفاضل قد عكف على عمله فأخرج لنا سفرا في عدد من المجلدات تحدث فيه عن تاريخ المدينة منذ عرفها التاريخ إلى اليوم حديثا علميا مركزا.

ذلك كان تصوري عندما سمعت اسم الكتاب، ولما وصل الكتاب إلى يدي دهشت لصغر حجم الكتاب، ولكنني قلت لعل المؤلف قرر اصدار كتابه في عدد من الاجزاء ليتسنى له طبعه وللناس اقتناؤه، ولكنني وجدت أن المؤلف لم يشر إلى أن كتابه هذا هو الجزء الاول، ولم أجد في نهاية الكتاب ما يؤيد هذا الظن. فقلت لعل المؤلف قد أغفل ما حفلت به الكتب المشهورة المتداولة، وتعرض لفترات لم تعرض لها هذه الكتب، وزاد من يقيني أن المؤلف لم يكتف بهذا الاسم الضخم الذي اطلقه علي كتابه، بل وضع في الغلاف الثاني تحت الاسم كلمتي (دراسة شاملة). وهاتان كلمتان كبيرتان لهما معانٍ كثيرة في أذهان العلماء والدارسين ورجال البحث، ولذلك أنهيت قراءة الكتاب والكتابة عنه وأخذت في الإرجاء والمماطلة. وأخيراً عزمت على القراءة خاصة وقد لامني صديقي (ع. ع . م) على تقصيري في الكتابة عن كتب عبد السلام. فما الذي وجده في كتابه (المدينة المنورة في التاريخ)؟

(١) لم يعجبني غلاف الكتاب. فطريقة تصميمه وطريقة البطاقات التي (استخف دمها) المؤلف الفاضل لم ترقني، ويظهر أن المؤلف سمَّى كتابه (المدينة المنورة) ثم خطر له أن يضيف كلمة (في التاريخ)، فصنع لها

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٣/٢٧هـ ـ ١٩٦٢/٨/٢٧م العدد ١٢٧

(اكليشة) ووضعها تحت المدينة المنورة، فأصبح التلفيق فيها واضحًا. هذا احتمال. وهناك احتمال آخر لا اريد أن اذكره، فقد يثير ثائرة الأديب الصديق الشاعر. ومن رأي العبرة في غيرة فليعتبر.

أما اختيار صورة القبة والمئذنة فهو اختيار موفق، وهو أقرب ما يتبادر إلى الذهن، ولكن الألوان التي صبغت بها القبة والمئذنة اضعفت كثيراً من الأثر الذي يحدثه هذا الأمر الذي يؤثر في قلوب المسلمين، وكم يكون هذا الرمز جميلًا ورائعًا حين يُنقل إلى القراء في صورته الحقيقة.. مئذنة بيضاء وقبة خضراء نعم، كم يكون جميلا كما صنع ناشر كتاب آثار المدينة المنورة في طبعته الثانية.

أما الغلاف الثاني فهو غلاف جميل، فيه بساطة وفيه ذوق من غير تلوين ولا اصباغ.

(٢) مقدمة الكتاب كتبها الأستاذ (جسين فريد محمد)، وهو شخصية غير معروفة في الأوساط الأدبية، ولا أذكر أنني قرأت له في مجلة أو صحيفة، ولا سمعت باسمه في مجمع أو محفل.. وكل ما عرفته عنه بعد قراءة المقدمة هو أنه ولد زوج الأستاذ المؤلف كما اشار المؤلف نفسه في الفصل الذي كتبه عن ترجمة حياته أن كاتب المقدمة (موظف الآن باشكاتب في مصلحة المناجم والوقود بالدقي).

ومن أجل ذلك لم افهم الغرض من أن يقوم بكتابة مقدمة لكتاب عن تاريخ المدينة. ربما جاز لصهر المؤلف أن يحدثنا عن رأيه في الأستاذ عبد السلام كزوج وكرب أسرة. وعن رأيه في صلاته بالناس وعلاقته الاجتماعية بهم. أما أن يحدثنا عن أدب الأستاذ، وعن شعره، وعن اشياء أخرى لها أقوى صلة بالفكر فذلك أمر فيه نظر كما يقولون. كأن يحدثنا عن كتاب (المدينة المنورة في التاريخ) فيقول (ولا أطيل فإن لهذا الكتاب القيم مكانته الجليلة في المكتبة العربية كأثر خالد متجدد مع الأيام).

وكلام كهذا عندما يصدر عن عالم له مكانته المرموقة في دنيا الثقافة يصبح

له شأن، ولكنه عندما يصدر عن رجل كالأستاذ حسين يصبح نوعًا من المبالغة التي قد لا يتقبلها الناس بقبول حسن.

وكأن يقول عن الأستاذ عبد السلام (فالأستاذ عبد السلام من قادة الفكر في القطر الحجازي، بل ويعتبر اليوم من طليعة الانطلاقة الأدبية في المدينة المنورة).. ويقول (قد عرفته الصحافة العربية والأوساط الأدبية أديبا واعيا قوميًا ورائداً من رواد التجديد والإخلاص للرسالة التي حمل مشعلها ويعيش من أجلها).

وهذا الكلام لا نعتقد أن أحدا من أدباء المملكة وشعرائها يجرؤ على أن يقوله عن نفسه أو عن زميل له.

ولا اريد أن أواصل التعليق على هذه المقدمة، ولكنني كنت أوثر أن يكتب المؤلف هذه المقدمة أو أن يكل أمرها إلى بعض البارزين من إخوانه واصدقائه على أن شيطانًا خبيثا بجانبي يهمس في أذني بأن هناك تشابها في الاسلوب بين المقدمة وبين الفصل الذي عنوانه (حياة المؤلف)، ويريد هذا الخبيث أن يسترسل في عقد مقارنة بين ما كتب هنا ولكنني رفضت الاسترسال معه وقررت إيقافه عند حده.

لقاء.. كل أسبوع
- ٣ - (*)

(٣) المنهج الذي سلكه مؤلف (المدينة المنورة في التاريخ) منهج يستدعي البحث والمناقشة. فقد قسم المؤلف كتابه إلى أثني عشر موضوعًا وتسعة من هذه الموضوعات تصلح فعلا لأن تكون أساسًا لبحث عن (المدينة المنورة في التاريخ)، وسنعود إلى هذه الموضوعات بعد قليل. أما الموضوعات الثلاثة فهي خارجة عن نطاق البحث، وكان المنهج العلمي يقضي باستبعادها استبعادا كليا.وهذه الموضوعات هي (قبس من السيرة الشريفة)، و (من بناة النهضة في الحجاز)، و (مناسك الحج والزيارة)، وقد استغرق الحديث عن هذه الموضوعات الثلاثة ربع الكتاب، وهو قدر ليس باليسير حبذا لو استغل في التوسع فيما عرض له المؤلف من موضوعات أخرى، ولا نعتقد أن المؤلف سيطالبنا بما يثبت خروج هذه الموضوعات الثلاثة عن منهج الكتاب. فللسيرة الشريفة كتب غير هذا الكتاب، وقد أشار المؤلف إشارة يسيرة في ختام الفصل الأول إلى بداية العلاقة بين سكان المدينة ونبينا عليه أفضل الصلاة والتسليم، وهي إشارة كافية. وكان يستطيع التوسع قليلا في الموضوع إذا رغب. أما الفصل الذي كتبه بعنوان (من بناة النهضة في الحجاز) فالأمر فيه واضح لا يحتاج إلى بيان. وربما كان لهذا الفصل موضع في كتاب آخر مثل كتاب (ثورة الجزيرة) مثلا. أما (مناسك الحج والزيارة) فهو فصل يصلح أن يكون في كتاب من هذه الكتب الخفيفة التي تعطي الحجاج فكرة سريعة عن أهم معالم المدينة (ومزاراتها). أما بالنسبة لكتاب تاريخي يتسم بطابع الدراسة والبحث فإن منهج البحث العلمي لا يقر إضافته إليه.

ولعل المؤلف قصد بإضافته هذا الفصل إلى كتابه أن يغري الحجاج والزائرين

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٤/٤هـ - ١٩٦٢م العدد (١٢٨)

بشراء كتابه، وفي ذلك ما فيه من نشر كتابه ورواجه. وهي حجة ليست وجيهة على أي حال.

(٤) ونحب أن نقفز إلى آخر الكتاب ثم نعود لاستعراض باقي الفصول. نحب أن نتحدث عن المصادر التي رجع إليها المؤلف الفاضل، وقد دهشنا عندما قرأنا أن المؤلف لم يرجع في كتابه أو بعبارة أخرى أن أهم ما رجع إليه المؤلف من مصادر أربعة مصادر ذات أهمية علمية وتاريخية ثم بعض اعداد من مجلة المنهل. وكنا ننتظر أن يرجع المؤلف إلى عشرات المراجع وخاصة وهو يقوم بإعداد (دراسة شاملة) عن المدينة المنورة (في التاريخ) ولا نشك في أن المؤلف عندما فكر في تأليف هذا الكتاب كان يرجو أن يقدم للقراء جديدا من المعلومات عن هذه البلدة المقدسة الذي يكن لها المسلمون أعظم الحب لمكانتها الدينية والتاريخية لا أن ينقل لهم ما هو مشهور ومعروف من معلومات مسطرة في الكتب التاريخية المتداولة، وهذا بطبيعة الحال كان يقتضي من المؤلف أن يبذل كثيرا من الجهد، وأن يرجع إلى مئات المؤلفات المطبوعة والمخطوطة فربما عثر على جملة في كتاب أو فكرة من الافكار أو اسم من الأسماء تفتح له آفاقا جديدة، وربما دفعته إلى أن يحقق انتصارات علمية في ميدان التاريخ لا يستهان بها. ولكن يبدو أن المؤلف اراد أن يسلك الطريق الواضح لا أن يتكبد مشاق السير في طريق مليء بالعثرات والأحجار. ومن الغريب أن المؤلف كتب فصلا في كتابه ضمنه أسماء (مؤلفات عن المدينة المنورة)، وهو فصل صاحب فيه التوفيق المؤلف واغتبطت له ـ علم الله ـ أشد الاغتباط وليس لي من ملاحظة على هذا الفصل إلا أن المؤلف لم يستقصِ كل ما كتب عن المدينة من مؤلفات مخطوطة ومطبوعة، ولو فعل لوضع لبنات في تاريخ المدينة، ولقدم خدمات لا تُنسي للدارسين والباحثين. كما أن المؤلف اكتفى بذكر أسماء الكتب ومؤلفيها، ولو استطاع أن يعطي القارئ فكرة واسعة عن كل كتاب من حيث إنه مخطوط أو مطبوع، وهل هو موجود أو مفقود وفي أي المكتبات إذا كان مخطوطًا، وكم عدد صفحات الكتاب وفي أي مكان طبع إذا كان مطبوعًا وفي أي سنة وكذلك الحال بالنسبة للمؤلفين إنه لو فعل ذلك لكان

قدم خدمات علمية لا تنكر. بل لو لم يفعل إلا هذا لكان له بذلك فخر وأي فخر.

علي أن المؤلف قد وضع أساسًا طيبًا للفكرة التي تحدث عنها وعسى أن يعود إليها المؤلف فيكمل نقصها، أو لعل أحد المؤلفين يتفرغ لإنجاز هذا الموضوع النبيل.

لقاء.. كل أسبوع
- ٤ - (*)

(٥) المعلومات التي أوردها المؤلف الفاضل في الفصول (بداية التكوين) و (أسماؤها ومكانتها) و (معالمها ومآثرها) و (بيوت الله جل شأنه) و(أضواء على التاريخ) معلومات قيمة، وقد أحسن المؤلف في جمعها وتنسيقها وإن كان الملاحظ أنه لا جديد في هذه المعلومات، ولعل من أسباب ذلك أن المؤلف قد اقتصر على عدد قليل من المصادر.

كما أحسن المؤلف في حديثه عن المكتبات الهامة في المدينة، وإن كان حديثًا موجزًا للغاية، وحبذا لو عقد فصلًا خاصًا للمكتبات حدثنا فيه حديثًا مفصلًا عن مكتبات المدينة وأوضاعها، وأعطانا فكرة واضحة عن محتويات كل مكتبة، وعن أهم الذخائر بكل مكتبة، وعن تاريخ إنشاء كل مكتبة، والظروف التي مرت بها. على ألا يقتصر على ماذكر من المكتبات. فهناك عدد كبير من المكتبات في المدينة في أشد الحاجة إلى من يلقي عليها الضوء.

ولو كتب المؤلف هذا الفصل لكان حسنة ضخمة إلى جانب الحسنة التي أسداها المؤلف بكتابة فصل (مؤلفات عن المدينة).

وقد أعطانا المؤلف فكرة عن أسماء بعض أمراء المدينة، ولو حرص مع ذلك أن يستنطق التاريخ عن الحالة الاجتماعية والعلمية التي مرت بها المدينة ثم قدم لنا ولو فكرة موجزة عن ذلك لكان قد حقق انتصارات علمية ذات شأن تجعل لكتابه (مكانة جليلة في المكتبة العربية كاثر خالد).

(٦) كتب المؤلف فصلًا بعنوان (من أحداث المدينة وأعلامها) وبعض ما كتب في هذا الفصل كان من الممكن إدراجه في الفصل السابق (أضواء على التاريخ).

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٥/٩هـ الموافق ١٩٦٢/١٠/٨م العدد (١٣٤)

ويبقى بعد ذلك ما كتبه المؤلف عن (الشعر في الجاهلية) وهو موضوع قد يرى بعض النقاد أنه أحق بأن يكتب في كتاب عن (التاريخ الأدبي)، ولكننا لا نرى مانعًا من أن يكون في كتاب المؤلف كما صنع بعض المؤلفين كالمستشرق الألماني (كارل بروكلمان) في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية)، ولا عيب في هذا الفصل إلا أنه فصل قصير لم يورد المؤلف فيه إلا أبياتًا قليلة.

كما أشار المؤلف عند حديثه عن وقعة الحرة إلى فئة (النخاولة)، وكم كنا نود أن يقوم بتحقيق هذه القصة تحقيقًا علميًا، ولو فعل ذلك لعد من مكاسبه العلمية الكبيرة.

وقد أعطانا المؤلف فكرة موجزة عن سيرة عدد من أعلام المدينة على توالي القرون، ومن حق هؤلاء الأعلام وغيرهم من أبناء المدينة أن يفرد لهم كتاب خاص، ولعل أحد المثقفين الأفاضل يضطلع بهذه المهمة فيترجم لجميع الأعلام البارزين ترجمة موسعة. وحسب المؤلف الفاضل أنه وضع في كتابه نواة طيبة لمن يجد في نفسه القدرة على القيام بهذا العمل الجليل.

وقد كتب المؤلف ترجمة لحياته. وكتابة ترجمة الإنسان بقلمه فكرة قديمة حديثة.. فقد كان بعض علمائنا الأعلام يترجمون حياتهم، ونذكر منهم العلامة ابن خلدون.

كما أن كثيراً من عظماء أوروبا وأمريكا يفعلون ذلك، ولكنني كنت أوثر أن يؤخر المؤلف ترجمته فهو لا يزال في مقتبل العمر، ونشر هذه الترجمة في هذا الوقت قد يحمل محملًا سيئًا.

أما وقد نشر المؤلف ترجمة حياته، فإن التعليق عليها يتلخص في أننا لاحظنا أن هذه الترجمة كتبت بكثير من الصدق، وإن كان يشوبها غير قليل من الفخر والاعتداد بالنفس، وليتها سلمت من ذلك. ولكنني أحب أن أذكر الشاعر المؤلف بقول الشاعر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض الناس بالنعم

لقاء.. كل أسبوع
- ٥ - (★)

(٧) أما الفصل الذي كتبه المؤلف عن (المدينة في العصر الحديث) فلا نريد أن نعرض له بالتعليق؛ لأننا نعتقد أنه فصل يجب أن يعاد كتابته. فمما لا شك فيه أن هناك كثيراً مما ينبغي أن يقال في هذا الصدد، ولا يضير المؤلف أن يستعين ببعض من يثق بهم من ذوي الرأي وأصحاب الاختصاص، ولن يطعن ذلك إطلاقًا في كفاءته أو مقدرته. ونستطيع أن نقول بكل ثقة أن عنوان هذا الفصل يصلح أن يكون اسمًا لكتاب كامل يتوفر على إخراجه المؤلف الفاضل أو غيره من الشباب المثقف.

(٨) وقد حدثت بعض الاخطاء في مواضع مختلفة من الكتاب نحب أ ن نشير إليها وهي كما يلي:

أ ـ ورد في الصفحة ١٠٧ أن اسم قاتل حمزة سيد الشهداء وعم النبي صلى الله عليه وسلم هو (وحش) والصواب أنه (وحشي) بياء في آخر الكلمة. والذي دفعنا إلى هذا التصحيح أن كلمة (وحش) تكررت مرتين في سطرين متصلين. لو لا ذلك لاعتبرناه خطأ مطبعيا، كما أن المؤلف لم يشر إلى تصويب هذا الخطأ في صفحة (الخطأ والصواب).

ب ـ في الحاشية التي كتبها المؤلف في صفحة (١١١) عن جبلي سلع والصماد قال عنهما إنهما (جبلان بالمدينة) كما قال عن (العريض) (وادٍ معروف). والمنهج العلمي لا يؤيد هذا الشرح، إذ كان على المؤلف أن يحدد بالضبط مكان الجبلين، ولا يكتفي بهذا التعريف الذي يشبه التنكير، وأنا أؤكد لصديقي المؤلف أنني حتى هذه اللحظة لا أعرف أين يقع جبل (الصماد). وكثيرا ما سببت هذه الجمل الغامضة متاعب للقارئين والمؤلفين، فكثير من المعاجم تشرح بعض أسماء الأماكن والجبال والوديان وغيرها فيقول (جبل

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٥/٢٣هـ الموافق ١٩٦٢/١٠/٢٢م العدد (١٣٩)

مشهور) و (وادٍ معروف) وهي تريد أن الناس المعاصرين للمؤلف يعرفون الوادي ويشتهر عندهم الجبل، ولكن بمرور الزمان وتغير الظروف والاحوال ينسى الناس الوادي والجبل، وربما سموهما باسم جديد، ويأتي أحد المؤلفين والباحثين فلا يستطيع أن يهتدي إلى موقع الجبل ومكان الوادي، بل يظل في حيرة شديدة. ولو أن المؤلفين الافاضل حددوا المواقع وعينوا الأماكن لوفروا على من يأتي بعدهم كثيرا من الجهد وغير قليل من الوقت.

جـ ـ تحدث المؤلف عن موقعة كربلاء وقال إن الذي والي العراق ليزيد هو عبد الله بن زياد والصواب كما يعرف المؤلف أنه (عبيد الله بن زياد بتصغير عبد).

د ـ جاء في صفحة ١١٧ أن الذي ولي الخلافة بعد يزيد هو ابنه علي بن يزيد وهذا يغاير الواقع التاريخي الثابت. فالذي تولى الخلافة بعد يزيد هو ابنه معاوية الثاني. وكان رجلا عالما رضي الخلق ولذلك أعتذر عن القيام بأعباء الخلافة بعد أن امضى فيها ثلاثة أشهر.

ولم يمر بنا من أبناء البيت الأموي أي رجل تسمى باسم علي. فعلي هو اسم خصمهم الاول كرم الله وجهه.

هـ ـ تحدث المؤلف عن زلزال (حدث بالمدينة ليلة الاربعاء ٣ جمادى الثانية سنة ٤٥٦هـ) وقال (ثم ظهرت نار الحرة المعروفة قريبا من أمكنة قبائل قريظة، وسالت عن الجبال رؤي ضوؤها في مكة) ولنا علي هذا الكلام ملاحظتان (الأولى) أن المؤلف وصف نار الحرة بأنها (معروفة)، وهذا وصف غير كافٍ، فليته اعطى القارئ تفصيلات أكثر عن هذا الموضوع الهام. ولم يكتف بهذه العبارة المبهمة.

(والثانية) أن المؤلف قال في ثقة وبساطة أن هذه النار (رؤي ضوؤها في مكة) وكنا نود أن يمحص المؤلف هذه القضية تمحيصًا علميًا دقيقًا ليطمئن إلى إمكانية حدوث الأمر أو عدم إمكانيته.. والمسافة بين المكان الذي وقع فيه هذا الحريق البركاني وبين مكة مسافة من الطول بحيث يجعل الإنسان يشك كثيرا في حقيقة الرؤية. وخاصة إذا عرفنا كثرة الجبال التي تقوم علي طول الطريق، وما تمتاز به من طول وارتفاع. ولقد ضرب العرب المثل في

حدة النظر وبعده بزرقاء اليمامة، وزعموا أنها كانت ترى مسيرة ثلاثة أيام ومع ذلك فقد استبعد بعض الباحثين القدامى هذه القدرة، واعتبروها نوعًا من المبالغة. بل لقد اعتبرها بعضهم خرافة. وجاء الباحثون المحدثون فاكدوا نظرة الباحثين القدامى واعتمدوا علي عدد من الادلة العلمية ليس أقواها كروية الأرض.

و ـ أثناء حديث المؤلف عن المدارس الأهلية ورد اسم مدرسة (دار الحديث) التي نسبها إلى مؤسس مدرسة التهذيب. ومدرسة دار الحديث تتبع الآن سماحة المفتي الاكبر. أما المدرسة الأخرى فهي معطلة.

ز ـ في ترجمة المؤلف لنفسه وردت عبارة (بينما يشتغل جسمي بالحماء) والحمى ـ أجارنا الله منها ـ تكتب بالقصر لا بالمد، وهي لا تمد إلا للضرورة الشعرية. ولعل المؤلف يذكر الحديث الشريف (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).

(٩) هذه بعض الملاحظات التي عرضت لنا أثناء قراءة الكتاب، وأرجو أن نعود له بالدرس في فرصة أوسع لنوفيه حقه من البحث والتعليق.

ونرى من واجبنا أن نشد على يد المؤلف، وأن نحمد له حيويته ونشاطه وصبره الطويل، وأن نؤكد له أننا ننظر لجهوده الادبية والعلمية والفنية نظرة تقدير وإكبار، ونحن على ثقة وإيمان بأن صديقنا الأستاذ عبد السلام ـ وقد قطع هذه المرحلة القصيرة من حياته الطويلة إن شاء الله وحقق منها كسبا طيبا في دنيا الثقافة والأدب ـ سيحقق انتصارات طيبة، وسيكون من العوامل التي تنقل أدبنا من حال إلى أحوال متى ما واصل العمل في صبر وحماس وإيمان.

ولسنا في حاجة أن نذكره بالبديهية التي تقول إن الذي يعمل هو الذي يخطىء وإن الخطأ طريق الصواب.

ومرة أخرى نحيي صديقنا الأديب، ونرجو له مزيداً من النشاط وكثيراً من التوفيق..

مع الأستاذ القرشي في كتابه الجديد:

أنا والناس(*)

الأستاذ حسن عبد الله القرشي صديق أثير عندي، عزيز علي نفسي، أضمر له أصدق الحب والوفاء. وقد بدأت صداقتنا منذ عهد الصبا، ولم تزدها الأيام إلا قوة ووثوقًا. ولم يعكر صفوها ما يعكر الصداقات من تنافس على شهرة، أو حرص على مكسب مادي، أو رغبة في الاستئثار بأي لون من طيبات الحياة.

فصداقتنا لون مثال في دنيا الصداقات، وربما عاد الفضل في هذه الصداقة وفي نموها ووقوفها في وجه العواصف والأعاصير إلى صديقي الأستاذ حسن. وقد قلت ربما لأني تعودت الاحتراس في التعبير سواء أكان في مجال الأدب أم في مجال العمل الوظيفي. فكثيراً ما تخلق التعابير القاطعة في كلا المجالين المتاعب ولا تقتصر على من قيلت له، بل تمتد إلى من صدرت عنه. ولن أضرب هنا الامثلة رغم وفرتها لكنني أريد الحديث عن صديقي حسن.

وأعود إلى كلمة (ربما) فأنا أشعر أنها لا تمثل الصدق الكامل؛ لأن الفضل في بقاء صداقتنا وفي توثقها يعود في الدرجة الأولي إلى صديقي وحده.

ولست أدري لماذا يُصِرَّ هذا (الاحتراس) على ملاحقتي. فقد تخلصت من ربما لا أجد أمامي كلمة أخرى تلك هي (في الدرجة الأولى).

والواقع أن الفضل يعود إلى صديقي وحده من غير استثناء أو احتراس. فأنا بطبعي الخجول ونفسيتي المنطوية ونظرتي التشاؤمية وفطرتي القلقة أنفر من المجتمعات، ولا أسكن بسهولة إلى من لا أعرف. ولكن الأستاذ حسن بدماثة خلقه ورقة طبعه وكرم نفسه ولطف حديثه وجيشان نفسه وحيوية

(☆) نشر هذا المقال في جريدة المدينة المنورة في يوم الخميس. شوال ١٣٨٥هـ العدد (٥٥٠).

تفكيره يفرض شخصيته على كل من يلقاه وخاصة أولئك النين يتمتعون باثارة من علم أو فضل من ثقافة.

وإذا كان أسلافنا من الادباء أكدوا قرابة الاديب بالاديب، وضربوا المثل بفرحة الأديب بالأديب، فإن خير ما يمثل ذلك في عصرنا الحاضر الأستاذ القرشي. فهو يلقاك بقلب مشرق ونفس منفتحة وفرحة غامرة، كأنك أخوه أو أقرب الناس إليه.

وإنك لتشعر بان هذه الفرحة تسري إلى نفسك، وتمتد إلى عروقك لأنها صادرة من حميم القلب فلا تكلف فيها ولا ادعاء ولا رياء ولا تمويه. وقديما قالوا وللقلب علي القلب دليل حين يلقاه.

وليست هذه الصفات التي تحدثت عنها مواهب فطرية لا يد له فيها، فالواقع أن بعضها ـ وأوشكت أقول كلها ـ من صنع نفسه إن جاز هذا التعبير. فمن أبرز صفات صديقنا أنه عصامي استطاع بجهده وكده وصبره وعزيمته أن يصقل مواهبه، وأن يشق طريقه، وأن يتخطى ما فيه من أشواك وصخور وعقبات. ولا يتسع المجال هنا للحديث المفصل عن هذه العصامية. وحسبي أن أذكر مثلا واحدا يغني عن عشرات الأمثلة، وهو تصميمه على الحصول على أعلى مؤهلات دراسية رسمية ونجاحه في ذلك نجاحا يستثير الإعجاب.

وأرجو أن أكون واضحا أنني لا أهدف من وراء وصف نجاحه بأنه يستثير الإعجاب بأن ثقافته العلمية كانت دون مستوى الدراسة الجامعية. فالحقيقة أن ثقافته كانت أوسع من ذلك بكثير، ولكنني هدفت إلى أن أوضح مدى قدرته على تطويع نفسه وإلزامها بالخضوع لهذا المنهج الدراسي المحدود، ورغم مشاغله وأعبائه، ورغم ما تعوده من حرية مطلقة في اختيار ما يروقه من ألوان الثقافة بعيدا عن كل قيد مهما يكن لونه أو نوعه.

ومن المؤكد أنه لم يكن بحاجة إلى شهادة رسمية بالنسبة لعمله ومستقبله الوظيفي، ولا بالنسبة لثقافته، ولكنه رأى أن الشهادات مظهر أصبح

ضروريا، ثم إن فيه إلجاما لبعض الفاقين الذين يتشدقون بالشهادات ويحاولون التفريق بين الحاصلين عليها وغيرهم، ضاربين صفحا عن أي اعتبار آخر.

ويبدو أن صديقنا عانى كثيرا من هؤلاء، ولذلك حرص بعد أن حصل على هذه الشهادات على أن يذكرهم دائما بأن هذا النوع من السلاح أصبح في يده. فهو يسجل في كل كتاب من كتبه بانه حصل على الليسانس مع مرتبة الشرف.

ومع حبي لصديقي القرشي واعتزازي بصداقته، فإنني لا أوافقه على خطته هذه التي إلتزمها منذ مدة. فإن الحاصلين على هذه الشهادات كثيرون. أما النابغون النابهون الذين أثروا أدبنا ووضعوا لبنات في صرح تراثنا الفكري وحاولوا أن يخرجوا بأدبنا من نطاقه المحلى الضيق إلى مجالات خارجية واسعة فهم أقل من القليل. وبعضهم أو أكثرهم إن لم يكن جميعهم من أولئك الذين كونوا أنفسهم معتمدين على سواعدهم وجهودهم الخاصة.

وحسن عبد الله القرشي الكاتب الشاعر الباحث القاص أكبر بكثير من دنيا الواقع، وفي ميدان العمل الأدبي مِنْ حسن عبد الله القرشي حامل شهادة الليسانس في الأدب مع مرتبة الشرف.

هذا حديث يبدو في ظاهره أنه شخصي، وربما وقع في روع بعض القراء أنه نوع من المجاملة الشخصية تقارض الثناء. ويهمني أن أصحح هذا الوضع، وأن أزيل اللبس من أذهان القراء. فهذا الحديث شخصي إذا نظرت إليه نظرة عابرة، أما إذا أمعنت النظر فيه فستجد أنه أعمق من ذلك.

فالحديث عن فرد عادي من الناس حديث شخصي، ولكن الحديث عن أديب أو شاعر أو عبقري في العلم والأدب والفن والحكم والمال. حديث يسمو علي المستوي الشخصي لأن عبقرية العبقري ليس ملكًا لنفسه أو لأسرته، ولكنه مِلْك لامته وقد يصبح ملكا للإنسانية جمعاء.

هذا من جهة.. ومن جهة ثانية فإن من الواجب أن نصحح مفهومًا آخر، وهو أن الصديق الأديب لا يجوز له أن يتحدث عن صديقه الأديب، لأن

حديثه لن يتخطى دائرة المجاملة والمحاباة، وفي هذا أسراف كبير وتجن غير معقول. فحديث الصديق عن صديقه ـ إذا اتسم بالصدق ـ يلقي أضواء على شخصيته الأدبية، ويفسر اتجاهاته الفطرية، ويوضح ما قد يكون فيها من تناقص أو غموض.

ويذكرني هذا الحديث بصفة أخرى من صفات القرشي الاديب.. ذلكم هو حرصه علي لقاء الأدباء والتعرف عليهم والجلوس إليهم، وله في ذلك حيوية عجيبة وحرص جدير بالتسجيل. والواقع أن لقاء الادباء لون من المتع الروحية النادرة. فأحاديثهم في كثير من الأحيان قطع من الشهد المصفى. كما أن هذه الاحاديث تكشف عن نواحٍ من أخلاقهم وسلوكهم. وأذكر أنني لقيت صديقي القرشي في القاهرة، وكنت أدرس بها فصحبته إلى زيارة الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ سيد قطب في حلوان، ومن المعروف أن الأستاذ سيد من الأدباء الذين يتدفقون بلاغة وأدبا وفنا. فأسلوبه يمتاز بالقوة والأصالة والتدافع كانه البحر الثجاج. ذهبنا لزيارة الكاتب الكبير وفي ذهني أنني سأرى رجلا ضخم الجسم جهوري الصوت فصيح اللسان رائع البيان، واستقبلنا رجل خطر ببالي كل خاطر إلا أن يكون سيد قطب. فقد كان رجلا ضئيل الجسم صغير الحجم يكاد يذوب رقة وحياء. وقد ظهر أنه هو سيد قطب. وقلت لنفسي الرجل بمخبره لا بمظهره. وجلس يتحدث إلينا فإذا الفارق كبير بين الصورة والحقيقة. فصوته خفي رغم ما فيه من حماسة، والكلمات تتعثر أحيانا بين شفتيه. كانه عائد لتوه من أمريكا وقد استغرق أكثر الجلسة في الحديث عنه، وأخبرنا أنه سيؤلف كتابا عنوانه (أمريكا التي رأيت) وقد نشر ثلاث مقالات تحت هذا العنوان في مجلة الرسالة ولم يظهر شيء آخر حول هذا الموضوع.

واذكر كذلك أنني كنت أسير بصحبة صديقي القرشي، وكان معنا الكاتب والشاعر والناقد المعروف الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي صاحب كتاب (الشعر العربي المعاصر في ضوء النقد الحديث) وكان حديث عهد بالصدور في تلك الايام. كنا نسير في ميدان قصر النيل، ومرت أمامنا عربة

تحمل كمية من أعواد قصب السكر، وإذا بالأستاذ السحرتي ينفتل من بيننا يوقف العربة ويشتري ثلاثة أعواد طوال، ويختص نفسه بواحد منها ويعطي كل واحد منا عودا. وكان منظرا طريفًا جدًا. فقد كان أول واحد منا يحمل عود القصب ويقضم منه بين الفينة والفينة بعد أن يزيل القشرة الخارجية، ثم يمص ما قضم ويرمي بالحثالة في الشوارع النظيفة،كان يتخلل عملية الامتصاص هذه أحاديث عن الأدب والفن والنقد.

هذه الصفات التي أطلت في الحديث عنها يستطيع القارئ أن يجد آثارها واضحة في كتابه الذي نتحدث عنه.

ونبدأ بعنوان الكتاب (أنا والناس)[1]، وهو عنوان طريف وسليم من الناحية اللغوية.. ولو طاوع الأستاذ نفسه لسمّى كتابه (الناس وأنا) تجاوبا مع طبيعته التي تؤثر التواضع، حتى تكاد تبخس نفسه الكثير من حقها. اقرأ موضوعه (حديث نفسي) فستجده يقول (سألت نفسي يوما أن القافلة تسير وهي تسير حثيثا، ولكني هل اساير هذه القافلة؟ وهل أنا مندفع معها أو مبطئ في سيري أم متخلف؟ حساب النفس عادة عسير، ولكني كثيرا ما أحاول أن أكبح جماح نفسي وأن أمسك بلجامها، وإن كانت بدورها شموسا نفورا. ولطالما تفلت من يدي لجامها وجمحت بي بعيدا عما أحب وأريد؟

وهي في تساؤلي لها هذه المرة لم تكن منصفة معي كل الإنصاف، بل كانت ممالئة لي إذ أخبرتني أنني أسير مع القافلة ولكنني من فريق المبطئين.

وقولي أنها ما لأتني لأن اعتقادي الثابت أنني متخلف كثيرًا في السير. وسواء أكانت لهذا التخلف مبرراته أم لم تكن فهو تخلف بلا شك افتقد فيه العذير والشفيع، وأرجو مخلصًا أن تزول مبرراته وأن تتلاشى أسبابه حتى أستطيع أن أشعر أنني أساير القافلة حقًا سيرًا لا أقول إنه موازن لسرعتها واندفاعها، ولكنه على الأقل غير مبطىء عنها كل البطء..)

وهذا النص ليس بحاجة إلى تحليل أو تعليق في تبيان ما يتمتع به الصديق

(١) مجموعة مقالاته ضمها هذا الكتاب - طبع في بيروت عام ١٩٦٥م - (١٧٤) صفحة.

الأديب من فضيلة التواضع. قلت لو أن الأستاذ القرشي طاوع نفسه لسمَّى كتابه (الناس وأنا)، ولكنه لم يطاوع نفسه لأن هذه الرغبة اصطدمت برغبة أخرى هي حب الأستاذ الأديب للغته حبًا تسرب إلى شغاف قلبه، فهو حريص على سلامتها مؤمن بخصوبتها واثق من مرونتها وقدرتها على مسايرة الحضارة، وهو لا يطيق أن يسمع خطيبًا في حفلة أو مذيعًا في إذاعة يخطيء في قواعدها أو ينحرف عن أصولها أو يعبث في ألفاظها. ويبدو لي في بعض الأحيان أن نفسه تحدثه بأن يقوم من مقعده ليدق رأس ذلك الخطيب أو يلوي عنق ذلك المذيع لو وجد إليه سبيلًا.

وعنوان الكتاب ينطبق على ما تضمنه من فصول. وفصول الكتاب أو موضوعاته إذا شئت الدقة في التعبير تمتاز بميزات ثلاث:

(١) سهولة الأسلوب وسلامته ونقاؤه. فأنت لا تجد في قراءته جهدًا أو رهقًا، ولكنك لن تجد فيه كذلك نبوا في التعبير أو اضطرابًا في الألفاظ أو خروجًا عن قواعد اللغة.

(٢) روح التفاؤل تسيطر على كل كلمة في الكتاب، وهي روح بناءة تحتاج إليها المجتمعات النامية لتدفعها إلى الأمام عن طريق بعث الثقة في النفوس والتهوين من شتى العقبات التي تعترض الطريق. وتزويد أفراد المجتمع بشحنات من القوة والعزم والصبر والثبات. وسأكتفي بمثال واحد أنقله من موضوع عنوانه «من عوامل الرقي» يقول الكاتب (إن مما يشد ازرنا أن نكون متفائلين دائمًا واثقين من مستقبلنا ودورنا الحضاري وأن نمزق عن وجوهنا أقنعة التشاؤم والبعيض فالتفاؤل أجدى لنا وأعون على السير الحثيث في دروب النهضة والعمران).

(٣) حب الكاتب لمجتمعه وحرصه على رفعته وإيمانه بأمته. تجد كل ذلك واضحًا وضوحًا لا مزيد عليه في كل جملة من جمل الكتاب.

وهو يبدأ بنفسه فيعالج مرضًا خطيرًا هو مرض الحقد، وتجد تجربة لطيفة في موضوعه (وداعًا أيها الحقد) ومعالجة النفس لا تعني أنها قاصرة عليها

بل إن معناها أوسع من ذلك، فهو دعوة إلى معالجة هذا المرض الخطير الذي يهدد المجتمعات الإنسانية حتى استفحل واستشرى.

ثم يبدأ بمعالجة الأفراد وتجد مثالاً لذلك الموضوع الذي عنوانه (صداقة) وينتقل إلى المعالجة الجماعية كما تجد ذلك في كثير من فصول الكتاب.

قرأت جميع فصول الكتاب ووجدتني لأول مرة أتفق مع مؤلف اتفاقًا يكاد يكون تامًا، وأنا أقول يكاد لأنني أخالف الصديق الأديب في فكرتين من أفكاره.

أولاهما اقتناعه بمنطق صديقه الذي جعل هوايته جمع المال، وتحدث عنه في موضوعه (أحسن هواية). فهل يعتقد الصديق أن جمع المال (ولو بالطرق المشروعة) هو أحسن هواية، وتصور لو انصرف الناس جميعًا إلى هذه الهواية العجيبة فماذا يكون الحال؟

ثم ألا يجد الصديق الأديب تناقضًا في إيمانه بهذه الهواية إذا وضع بجانبها أفكاره المثالية الأخرى، أو إذا قرأ قوله، (حرر النفس لا تكن عبد مال ومتاع) (ذلك المال والمكاسب طرًا لاتساوي تنكيس هامة حر).

أما الفكرة الثانية التي أخالف فيها الصديق الأديب فهي التي تحدث عنها تحت عنوان (الأدب والرجولة) ويبدو لي أن الصديق الأديب نظر إلى الموضوع بعين المصلح ولم ينظر للموضوع بعين الأديب الدارس، وإلا لو أردنا أن نطبق نظريته على الأدباء في جميع اللغات على أساس أن نستبعد أدب كل أديب لا يتصف بالصفات التي أوردها الأستاذ الأديب فكم من تلك الآداب سيبقى للإنسانية؟ أغلب الظن أنه لن يبقى لها شيء يذكر. ولا أتصور أن الصديق يجهل ذلك، ولكنه كان ينظر للموضوع نظرة المصلح لا نظرة الباحث.

وشكرًا للصديق الأديب وألف تحية،،،

مقدمة

الصديق الشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن سليمان رفة، غني عن التعريف، بما له من شهرة مستفيضة، ودور بارز في الحركة الأدبية الحديثة بمدينتنا الطيبة.

فقد أسهم ولا يزال يسهم بشكل ملحوظ في مختلف الأنشطة: الفكرية والاجتماعية والأدبية، وكان له أثره الملموس في الكثير منها.

وهو من الأدباء الذين بنوا صرحهم الثقافي بجدية، وعزيمة، وإصرار.. وكان له من ظروفه الاقتصادية والصحية أيضًا ما ساعده على مواصلة الطلب ومتابعة الدرس.. فكثيرون هم أولئك الذي حالت أوضاعهم الصحية أو الاقتصادية بينهم وبين المثابرة الجادة على تلقي العلم والجلوس إلى حلقاته والاستماع إلى كبار العلماء والأدباء، فكانت حصيلتهم العلمية ـ رغم ما بذلوا من جهود وأنفقوا من طاقات ـ لا تؤهلهم لمركز الأستاذية في الفن أو الفنون التي كانوا يتطلعون إلى التفوق فيها.

وهذا ـ بالطبع ـ لا يشكل القاعدة التي لا تقبل النقض. فهناك الكثيرون من الذين استطاعوا التغلب على هذه العقبات، ولكنهم لم ينبغوا ـ في الواقع ـ إلا أنهم بنوا صرحهم الثقافي على أسس قوية.. راسخة.

فقد كان لشاعرنا الرفة علاقاته الحميمة بعدد كبير من علماء المدينة المنورة وأدبائها المرموقين، وكانت له معهم مساجلات تشهد بتفوقه وبراعته.

والمدينة المنورة من أعجب بلاد الدنيا في صقل العواطف وتنمية المواهب. فلها من جوها الروحي المتألق، وطبيعتها الجميلة الخلابة، وتراثها العلمي والأدبي العريق ما يرتفع بأبنائها الموهوبين ـ أصحاب الطبيعة الفنية السليمة، الصادقة ـ إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه أرباب المواهب في كل مجالات العلم والأدب والفن.

ولقد تحدث بعض من زار هذه البلدة الطيبة قبل بضعة قرون، فقال إنه لم

يكن يخلو بيت من بيوتها، من قيثارة شعرية تغرد أجمل الألحان.. ولعلها.. لم تكن بعيدة عن هذا الواقع حين تفتحت أعيننا نحن ـ أبناء جيل الخمسينيات ـ على أفاقها المتألقة..

ولكن وسائل التسلية التي اكتسحت العالم كله بعد اختراع أجهزة المذياع والأسطوانات الصوتية، والتسجيل ثم التلفزة، هي التي عملت على فتح قنوات جديدة، لتصريف الطاقات الفنية في أحيان كثيرة، ولإشباعها وإروائها في أحيان أخرى.

أما الجيل الذي نشأ فيه الأستاذ الرفة فقد كانت الوسيلة الوحيدة فيه للتسلية والترفيه، هي مذاكرة العلم، ومساجلة الشعر، وتطارح الأفكار والآراء. فكانت بالنسبة له ولزملائه زادًا لا ينفد، ومعينًا لا ينضب للعلم والمعرفة، وصقالًا ممتازًا لموهبته الشعرية المتفتحة.

وكان الأستاذ الرفة في بيئته الأولى، سواء في مجتمعه الكبير ـ المدينة المنورة ـ أو في أسرته ما هذب مشاعره وسما بخلقه وعواطفه وأحاسيسه، وارتفع بها عن المنافسات المريضة، التي ينحدر إليها بعض الناس، فكان منذ عمل في ميادين التجارة والاقتصاد، أو في ميدان الأعمال الرسمية مديرًا لمكتب فرع وزارة الإعلام بالمدينة المنورة لسنين طويلة يعمل بكل ما يملك من طاقات في سبيل العمل الذي يقوم به، والهدف الذي يسعى إلى تحقيقه.

وهذا الديوان الذي يقدمه النادي اليوم كان من المفروض أن يرى النور قبل بضعة أعوام، ولكن مشاغل الأستاذ الرفة، والتزاماته التي لا تكاد تنتهي، لم تتح له الفرصة لإعداده للنشر إلا منذ عامين فقط، وحين بدأت الإجراءات التي تتخذ عادة لإصداره ضمن منشورات النادي فُقِدَ لِسَبَبٍ غامض مجهول، وعلى يد أعز الناس وأقربهم إلى الأستاذ الرفة، وأحرصهم على صدور الديوان، مما اضطر صديقنا الشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن رفة إلى البدء من جديد في تصيد الأوقات والفرص على ندرتها لإعادة نسخه من جديد حتى تحقق ذلك ولله الحمد والشكر.

هذا الديوان: (جداول وينابيع) هو باكورة إنتاج الأستاذ الرفة.. ولكننا نظلمه

حين نطلق على ديوانه هذه الكلمة الغامضة: كلمة باكورة. لأنها تطلق عادة لتبرير ما يواجه به الإنتاج من ترحيب.. أما ما يطالعنا به هذا الديوان من تعبير بليغ، وعاطفة جياشة، وأداء صادق وتمكن من فنون القول فإنه يحملها على اعتبار كلمة: (باكورة) كلمة غير دقيقة وغير منصفة.

ففي هذا الديوان ـ كما قلت ـ شعر غزير متدفق، تحس فيه بقوة الأسر، وعمق العاطفة وتوهج المشاعر.. وهو من الدواوين القليلة التي تعبر عن حياة الشاعر الخاصة، وعن حياة المجتمع الذي يعيش فيه، من مشاعر إسلامية صادقة تعبر عن إيمان الشاعر بوحدة العالم الإسلامي، وأهمية التضامن ـ فكرة ومبدأ وأسلوبًا ـ في توثيق هذه الوحدة، وتحقيق الأمة المسلمة الواحدة..

كما أن هذا الديوان من الدواوين القليلة التي يحس القارئ وهو يستروح نسماتها العطرة ويستجلي مفاتنها الرائعة، أنه لشاعر من المدينة المنورة، يعيش في هذا العصر، الذي عادت فيه بلادنا العزيزة الرشيدة، إلى تسنم المكانة الجديرة بها في قيادة البشرية، وحمل راية العزة والمجد والفخار.

فمرحبًا بشاعرنا الأستاذ عبد الرحمن سليمان الرفة، وبديوانه الجميل: (جداول وينابيع) بكل ما فيه من قيم رائعة، ومشاعر صادقة، واعتزاز بدينه وأمته وبلاده، ومواكبة للأحداث التي تعيشها أمتنا الإسلامية الواحدة على تنائي الديار، وتباعد الأقطار. مرحبًا بالأستاذ الرفة، طالبًا في حلقات العلم بالمسجد النبوي الشريف، وشابًا عصاميًا طلعة، يخطط لمستقبله الأدبي بعزيمة وصدق وإيمان، وشاعرًا له منابر الشعر، الأدب في طيبة الطيبة، وزميلًا واسع الثقافة، مستنير البصيرة شاعري الكلمة والروح والإحساس، كان لدعمه الصادق بكل طاقاته وإمكاناته لأسرة الوادي المبارك، ثم لنادي المدينة المنورة الأدبي، ما حقق لهما الكثير من الأهداف.

مرحبًا به شاعرًا تعتز به دنيا الشعر والأدب في كل بلاد العروبة والإسلام.

وإلى اللقاء بإذن الله مع ديوانه القادم: (انطلاقة مارد) مع أصدق الحب وأخلص التقدير.

لقاء.. كل أسبوع
- ٢ - (*)

أما الكتاب فاسمه (شيوخ الأدب الحديث). وأما مؤلفه فهو الكاتب المصري (حبيب الزحلاوي).

من رأي المؤلف:

١ ـ إن سلامة موسى (عاش فمات وماتت معه كتبه ومؤلفاته ولحدوا جميعًا في عالم النسيان).

٢ ـ أن أكثر كتبه جميعها (من التعليقات التي كان ينشرها في الصحف السيارة).

٣ ـ أن كل كتبه (قد لا تعين المؤرخ للأدب الحديث إلا قليلًا، ولا تظهر من مناقب كاتبها ومثالبه ومحاسنه ومساويه إلا الأقل؛ لأنها كتبت في الأصل للصحيفة اليومية تلبية لنداء السرعة أو السانحة الطارئة والخاطرة المفاجئة).

٤ ـ (أما الذي لابد للمؤرخ منه ولا محيد البتة عنه فهو الرجوع إلى المجلة الحديثة التي كان يصدرها، وقد كانت وسيلته الوحيدة للتعبير عن رأيه الخاص والإفصاح عن سريرته وطوية نفسه. إن بين دفتي كل عدد من أعداد المجلة الجديدة صفحة في إطار مزخرف يلفت النظر فيها حملة غير بريئة بل خبيثة شريرة بأسلوب خلو من اللين بل ناري مسموم وبروح بعيدة عن الحب والسلام بل بروح حقد وكراهية مصهورة في بوتقة صدره المغلول صبها لعنات رجيمة على العرب وعلى تاريخ العرب وعلى آداب العرب).

٥ ـ أما مقالاته في الصحف فقد كان رؤساء تحريرها يزيلون عنها (الشطط ويحدون من الدعاوى المغرضة والدعايات التي تلابسها الشكوك).

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٩/٣هـ الموافق ١٩٦٣/١/١٦م العدد (١٥١)

٦ ـ سلامة موسى كاتب (سخَّر قلمه لكل حزب سياسي ولكل صاحب صحيفة من أي لون في الحكومة أو داعية إلى منهب من المذاهب الاجتماعية).

٧ ـ كتب سلامه موسى (في الاشتراكية ونظرية التطور وحرية الفكر والثورات ولكنها كانت كتابة (لمام) خطاف من مصادر تُعنى فقط بالخبر العلمي أو الأدبي يزود به الصحافة السيارة أو (الطيارة).

٨ ـ سلامة موسى (من أوائل الداعين إلى التخلص من اللغة الفصحى، لأنها لغة العرب لا لغة المصريين، وإلى التحلل من قواعد الرفع والنصب والخفض، وإلى الكتابة باللغة (العمومية) كما نتكلمها، وإلى نبذ الأساليب البلاغية والاقتصار على الأسلوب (التلغرافي).

٩ ـ كان صوت سلامة موسى (أعلى الأصوات وأقواها في الاتجاه إلى الغرب ونبذ هذا الشرق الموبوء بالكتب الصفراء والرؤوس المعممة).

١٠ ـ كان سلامة موسى أحد الأقلام التي استأجرها المهندس الاستعماري الانجليزي سير وليم ولكوكس (وسخَّرها للكتابة بالعامية الدارجة واللهجة الإقليمية. وقد سبق لهذا الاستعماري الأشر طبع الأناجيل الأربعة باللهجة العامية، وهي متداولة اليوم بين أبناء الطائفة القبطية بمصر فقط.

ومن الذرائع التي تذرع بها ولكوكس إلى تعميم اللهجة العامية ونشرها بين أبناء الطائفة، أن استعان بالأستاذين سلامة موسى وناصيف المنقبادي على وضع تسابيح وأدعية وابتهالات وتضرعات يتضرع أبناء الطائفة بها إلى الله. وقد وضع أبونا سلامة كما قال لي زميله ناصيف المنقبادي الأدعية التالية وهذا بعضها:

«يارب أنت الوابور وحنا العربيات، جرنا بقدرتك الإلهية إلى ملكوت السماء»

«يارب أنت الحنفية وحنا الجرادل املأنا من نعمتك» وإلى أمثال هذه الأدعية التي يناقر بها القبطي الأرثوذكسي أخاه القبطي البروتستانتي أو يتندر ويتفكه.

١١ ـ كانت الصحافة المصرية حزبية في مطلق معنى الحزبية إما وفدية وإما معادية للوفد، غير أن سياسة دار الهلال كانت قائمة على التشيع للحكومة

القائمة تشيعًا ضيقًا لا يغضب الحكومة ولا يغضب الشعب.

جاء إسماعيل صدقي ـ رئيسًا للوزارة ـ يحكم البلد بالحديد والنار، وهو الذي أصدر أمره إلى البوليس بإطلاق الرصاص على عمال الترسانة، فقُتل وجُرح منهم عدد كبير، وهو الذي بقي إلى أواخر أيامه يدعونا إلى الاعتراف بحكومة إسرائيل وإلى عقد صلح مع إليهود.

ارتأت دار الهلال إصدار عدد خاص عن سعد زغلول، وإصدار عدد خاص عن سعد في مثل ذاك الموقف الحرج معناه تأييد سياسة الوفد، فبينما كانت إدارة تحرير دار الهلال منهمكة في تحضير مواد العدد وتوزيعها على المحررين ومنهم سلامة موسى أرسل هذا الوطني الشعبي الغيور أرسل سلامة موسى رسالة إلى أحمد كامل وكيل وزارة الداخلية يطلعه على نية أصحاب دار الهلال ويقول له إن الأستاذ العقاد كاتب الوفد سينشر مقالًا في ذات العدد الخاص، وأن نشر عدد من صحيفة الدنيا المصورة معناه إلهاب صدور الشعب بالحقد على الوزارة وإشعال النار الوطنية من جديد.

عرف الأستاذ أميل زيدان أمر هذه الرسالة، وكبر عليه أن يكون بين محرري صحفه جاسوس ينقل أخبار الدار إلى الخارج فطرده، ولكن على طريقة إميل وشكري زيدان الهادئة.

جن جنون سلامة موسى وفقد اتزانه وراح يضرب يمنة ويسرة.. ولم يضرب الذيدانيين فقد أعطياه أجره كاملًا فليضرب إذا السوريين واللبنانيين خدام الاستعمار، ولم يترك نقيصه لم يلصقها بالشوام خصوصًا من كان منهم لاجئًا سياسيًا أو هاربًا من أحكام المستعمرين أو عائدًا من ميدان الثورة.

لم تنزل صحافة دار الهلال إلى مستوى سلامة موسى ولم تنحدر إلى الهوة التي انحدر إليها هذا المخلوق العجيب، بل استعانت عليه برجلين ورمته بكارثتين. الأول هو أحمد كامل وكيل وزارة الداخلية الذي زودها برسائل من سلامة موسى كان يبعثها إلى وزارة الداخلية طافحة بأسرار سياسات أصحاب الصحف ورؤساء تحريرها.

والثاني هو الأستاذ محمود كامل المحامي، الذي كال لسلامة موسى الصاع صاعين بنوع من كلام سلامة موسى يساويه على القد معني ومبنى، ونشر صورا زنكوغرافية لتلك الرسائل التي تؤكد جاسوسيته ضد الشعب وأحرار الفكر وقد نشرت جميع صحف دار الهلال صور تلك الرسائل لمدة طويلة.

هل جرؤ سلامة موسى على دحض كلمة واحدة أو واقعة واحدة أو كتاب من هاتيك الرسائل التي كان يتقاضى أجرها من المصروفات السرية؟ هل كف عن الاتصال السري بمدير الأمن العام؟ هل عف عن الوشاية حتى بسعد زغلول وهو في المنفى وبمن جاء بعد سعد..؟

إن تاريخ اتصاله بمدير الأمن العام قديم جدًا تؤكده كتبه التي نشرتها دار الأخبار، ولم يجرؤ الوطني الغيور سلامة موسى الجاسوس إلا على السكوت المطلق.

هذا هو سلامة موسى الكاتب العبقري المتحرر، تلقى عليه الأضواء فإذا به سلامة موسى الكاتب المأجور الخائن المتعصب الجاسوس التافه الخطاف.

والآن، ما رأي كتابنا الأفاضل الذين احتفلوا بسلامه موسى وأوصلوه إلى عنان السماء؟ ما رأيهم في القزم الذي تخيلوه عملاقًا، وفي الصعلوك الذي حسبوه عظيمًا، وفي الوضيع الذي توهموه شريفًا.. نعم ما رأيهم؟

وبقي بعد ذلك أن نطلع على ما كتبه سلامة موسى في (المجلة الجديدة) ففيها ـ كما أخبرنا الأستاذ حبيب ـ كان ينطلق على سجيته، كان ينطلق من غير ضابط مدفوعًا بحقده علي الإسلام وبثورته على العرب وبغضه لهم.

ونرجو أن تهيىء لنا الظروف الحصول على هذه المجلة لنعد دراسة عن سلامة موسى، وعن مجلته ولا شك أنها ستكون دراسة طريفة عن هذه الشخصية المضطربة التي تقطر سما وحقدًا.

والسلام على من اتبع الهدى ،،،،

☆ ☆ ☆

حول قصيدة

الإخوة القراء ولابد ـ قد لاحظوا أن النادي ـ وللمرة الأولى ـ اختار الطريقة الحديثة، لنشر هذه الرائعة الجديدة، لزميلنا الشاعر الأستاذ محمد هاشم رشيد[1].

فلبعض الإخوة في النادي ـ وأنا منهم ـ رأي معروف في شعر التفعيلة، ومن اللافت للنظر أن يقوم النادي رغمًا عن ذلك بهذه المغامرة.

وأود أن أسارع فأؤكد، أن هذه القصيدة ليست من شعر التفعيلة. فهي من بحر الرمل، وذات أشطر متساوية. وقد نشرت في طبعتها الأولى على الطريقة الخليلية. بل إن أحد الأصدقاء من أعضاء النادي كان قد استمع إليها قبل أن تنشر، فاهتز للمطلع:

موعد الحب دعانا للقاء

فالتقينا.. وعلى أهدابنا

موعد للشوق في عرس الضياء

حمل النجوى إلى أحبابنا

وتبادر إلى ذهنه ـ والشاعر يرددها على النحو التالي:

موعد الحب، دعانا

للقاء

فالتقينا

وعلى أهدابنا

موعد للشوق في عرس الضياء

حمل النجوى

إلى أحبابنا

---

(١) منشور ضمن كتاب «الأعمال الشعرية الكاملة» للشاعر صفحة (٤٥٣) من إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي.

تبادر إلى ذهنه، أن القصيدة من شعر التفعيلة، فتحمس لها، ورحب بها، ثم قال وهو يستمع إلى المقطع الثاني: لا ليست كما توقعت، ليتها استمرت على النسق الأول.. وهو الأستاذ عبد الرحيم أبو بكر.. يرحمه الله.

وهذه اللفتة، هي التي أوحت إلينا بفكرة نشرها على هذه الطريقة. وبالرغم من أن ذلك لا يمنحها جواز المرور للدخول إلى رحاب الشعر الحديث، كما يفهمه أصحابه. لأن له أسسه وقوانينه.

وتوزيع كلمات البيت أو الشطر، على سطور متعددة، مجرد تغيير شكلي لايقدم ولا يؤخر.. ولكنها (مغامرة) أستاذنا صديقنا الرشيد في القيام بها، لأنه الوحيد الذي سيتحمل كل نتائجها مهما كان لونها، ومهما كانت أبعادها.

ولم يتردد في الموافقة. لإيمانه بأن ذلك لا يفقدها طابعها الأساسي، ولأن لديه. من الناحية الأخرى ـ عددًا من قصائد التفعيلة، ستنشر - بإذن الله - في أحد دواوينه القادمة.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو:

أي الطريقتين أمتع وأروع؟ طريقة الشطر أم طريقة السطر؟

ومن البديهي أن تختلف الآراء، ولكن الذي لا يختلف عليه أحد، هو أن القارئ المرهف الحس، المتذوق للشعر، سيقرأ القصيدة على نحو قريب، من الطريقة التي نشرت بها هنا.

فالجملة الشعرية ليست ذات قالب جامد محدد.. ولكنها تخضع للإيقاع وللموسيقى الداخلية، وللشحنة العاطفية المتموجة، وشعر التفعيلة حين ينطلق من هذا المفهوم، بدافع من القدرة، والرغبة في التنويع، وبحرص كامل على أهم عناصر الشعر. عنصر الموسيقى.. يجد أكثر من مبرر لقبوله، وللاستمتاع به، وللدفاع عنه لدى الكثير من النقاد.

ومن أجل ذلك قمنا بهذه (المغامرة) ـ إذا صح التعبير.. فكل ما نهدف إليه، هو أن نتيح الفرصة، للمقارنة بين الطريقتين، ولإثارة النقاش الهادف، حول قصيدة واحدة، يتفق على الإعجاب بها ـ فيما أعتقد ـ أصحاب

المدرسة القديمة، والحديثة، على السواء.

والسؤال الثاني الذي يطرح نفسه أيضًا:

هل تعتبر هذه القصيدة من شعر المناسبات؟

وستختلف الإجابة بالطبع.. ولكن الذي لا يختلف عليه أحد، هو أنها نمط خاص من الشعر.

ففي هذه القصيدة، يرتبط الحاضر بالماضي، ويتعانق الخيال بالواقع، تحتدم العاطفة إلى درجة التوهج، وتزول الفواصل المصطعنة بين الخليج والمحيط، ونعيش في ظلال المئذنة، بين مواكب الفتوح، ومهرجانات النصر، وتطلعات المستقبل، ونشعر بأعباء الرسالة، التي انطلقت بها أمتنا، لإنقاذ البشرية، وحماية البشر، من الانهيار، والتمزق، والضياع بوحي من عقيدتنا، ومبادئنا، وتراثنا العريق.

وفي هذه القصيدة، تتدفق الصور الرائعة، كما تتدفق الجداول، والروافد من كل مكان.. لا لينطلق كل منها في مجرى منفرد، مستقل. بل لتنطلق كلها نحو هدف واحد، وعبر مجرى محدد.

فنجد أنفسنا في نهاية المطاف، أمام لوحة فنية واحدة. غنية بالألوان، مترعة بالتفاصيل الدقيقة، المعبرة.

وهذه هي إحدى الظواهر التي يتسم بها شعر الأستاذ محمد هاشم رشيد ـ لأنه يمتلك إحدى الميزات النادرة التي لا تتوفر إلا لدى الشعراء الكبار حقًا، هي قدرته على أن يحيل أي موضوع، ولو لم يكن من الموضوعات الكبيرة فنيًا إلى موضوع كبير، وكبير جدًا، بطريقة تناوله وعرضه، وربطه بتراثنا وأمجادنا، وبتوظيفه لعشرات الصور الشعرية المترابطة بأسلوب ملحمي، يمتزج فيه الفكر بالوجدان، والعقل بالقلب، والحاضر بالماضي.

وفي شعره ـ بعامة ـ نكهة هذه البلاد، وروحها، وطموحاتها، وأحداثها الكبيرة.

وفي كل دواوينه التي أصدرها، لانحس بان في قصائده ما يسمونه بشعر المناسبات.. لأن هذا الشعر، يلتقي فيه الإيمان العميق، بالولاء الصادق إلى جانب الخيال الرفاف، والصور الرائعة، والتعبير المتدفق، الجميل، والتجديد الحقيقي في الشكل، والمضمون.

فهل مثل هذا الشعر، يمكن أن يعتبر من شعر المناسبات؟

إذا كان الأمر كذلك.. فيا ضيعة الشعر!.. لأن المناسبة ـ في تصوري ـ تعني التجربة بصورة ما.. وقد يكون الفرق بينهما عند النظرة الأولى، أن المناسبة قد تكون أقرب إلى المؤثر المادي، بينما تشمل التجربة المؤثرات المادية والعاطفية معًا.. وهو فارق غير دقيق، وبخاصة حين تكون (المناسبة) ذات جذور عميقة، تهز الوجدان، وتزلزل الأعماق، وحيث يستطيع الشاعر أن يتجاوز الحدث، أو الأحداث الماثلة، إلى ضمير الأمة، وتطلعاتها، وكيانها الحضاري المتميز، الضارب في أعماق التاريخ.

إضافة إلى أن الكثيرين من النقاد، لايرون أي فارق بين (التجربة) و (المناسبة).. لأنهما وجهان لعملة واحدة. ولأن الصورة، أو الفكرة، أو العاطفة، لابد أن تنبعث من مناسبة معينة، توهجت في وجدان الشاعر، ثم تدفقت من بين شفتيه، أو على لسان القلم.

☆ ☆ ☆

ولقد كنت أهدف من كتابة هذه الكلمة، إلى تحليل القصيدة وتقديم نماذج من صورها الرائعة. ووثباتها الإبداعية المحلقة، لولا إحساسي بأنني قد استرسلت في الحديث أكثر مما كنت أريد لذلك أستاذنك ـ ياصديقي القارئ ـ في أن أوجز الملامح العامة للصديق الأستاذ محمد هاشم رشيد ولشعره في النقاط التالية:

(١) قدرته على أن يحيل أي موضوع، ولو كان بعيداً عن مجال الشعر، إلى موضوع كبير بوسائل متعددة منها:

أ ـ الشحنة العاطفية المتدفقة.

ب ـ ربط المناسبة العابرة، بالتراث العريق، والأحداث التاريخية.

جـ ـ طريقة تناوله للموضوع.

د ـ الاعتماد على التصوير في التعبير عن عواطفه وأفكاره، مما يحيل قصائده، لوحات فنية ممتازة.

(٢) اتجاهاته الإسلامية الواضحة، منذ أول ديوان صدر له قبل سبعة وعشرين عامًا.

(٣) عدم انجرافه مع التيارات الفنية والفكرية الحديثة، رغم دراسته المستوعبة لها، وتعرفه على مختلف أبعادها وقيمها.

(٤) استفادته الكاملة من أحسن ما جاءت به المذاهب الحديثة، في أدائه الفني، وطريقته في التعبير مع محافظته على الأسس الأدبية الأصيلة في تراثنا.

(٥) تتضح في إصداراته الستة: (١) وراء السراب (٢) على دروب الشمس (٣) في ظلال السماء (٤)على ضفاف العقيق (٥) الجناحان الخافقان (٦) على أطلال إرم (وهي ملحمة شعرية ستصدر بعد شهرين بإذن الله). وبخاصة في ديوان: (في ظلال السماء) الروح الإسلامية بكل شفافيتها وعمقها، وإيمانها بالله.

كما أنها ـ في مجموعها ـ تمثل الإنسان المسلم، وهو يعتز بعقيدته، وتراثه، وأمته وبلاده، وزعمائها وقادتها الأفذاذ.

(٦) للشاعر كتب أخرى تحت الطبع، تسير على نفس الخط، دون أي انحراف أو شذوذ.

(٧) ديوانه: (في ظلال السماء) نفحات روحية لا مثيل لها، يتنقل فيها القارئ بين: مكة، والمدينة، وبدر، والرياض، وبين جبل النور، وجبل أحد، وجبال السراة، وحمام الحرم، ووميض البرق في نجد، ووادي العقيق.. ويحمله على أجنحة الخيال الرفاف، والتعبير البليغ، إلى عوالم لا حدود لها،

من الإبداع والروعة والجمال.. ويعتبر في أسلوبه وفنه البلاغي، واتجاهاته معلمًا من معالمنا الفنية والفكرية الحديثة.

(٨) حتى ديوانه: (على ضفاف العقيق) وهو نفحات وجدانيه خالصة، اختار مسرحه الشعري، على ضفاف هذا الوادي، بكل ما يمثله من تاريخ، وذكريات.. مما يؤكد تعلقه بالتراث واهتمامه به.

(٩) في شعره نكهة هذه البلاد: ببقاعها المقدسة، وسهولها الخضر، وصحاريها الشاسعة، وجبالها الشامخة، وسمائها الصافية.

(١٠) يحس القارئ لشعره ـ ولو لم يضع اسمه عليه ـ أنه يقرأ لشاعر سعودي يعيش في المدينة أو مكة أو الرياض. وهذا مبعث العجب بالفعل، وإن كان في الوقت نفسه، دليل الأصالة.

(١١) إبداعه في كل فنون الشعر بصورة تستحوذ على الإعجاب، وقدرته ـ كما سبق أن أشرت ـ على تحويل الموضوعات العادية إلى موضوعات شعرية رفيعة.

(١٢) أستطيع أن أقول ـ بكل ثقة ـ إنه شاعر عملاق، لا بالنسبة لعمود الشعر كما عرفه القدماء فحسب.. بل ووفق المقاييس الفنية الحديثة، حين نستبقى عناصر الإبداع الحقيقية.. فهو يجمع بين الأصالة والمعاصرة، بصورة يندر وجودها بين شعرائنا.

☆ ☆ ☆

وبعد:

فمازلت أتساءل يا صديقي القارئ:

أي الطريقتين أمتع وأروع؟ طريقة الشطر أم طريقة السطر؟ وأنت الوحيد الذي يملك الإجابة.

دورنا في الكفاح

نستطيع أن نقول في غير مواربة أو محاباة أو مجاملة إن كتاب (دورنا في الكفاح) هو كتاب السنة. وقد أحسن مؤلفه في إصداره في هذا الوقت بالذات، ووفق في ذلك توفيقًا كبيراً. فبلادنا تموج بتيارات مختلفة تدفع بشعبنا وأفراده إلى حياة أرقى ومستوى أفضل. ومن شأن هذه التيارات القوية العنيفة المتدافقة أن تخلق عقداً. وأن تخلف مشاكل وأن تحدث أنواعًا من البلبلة والاضطراب في الفهم والتفكير، وأن توجد مطالب ورغبات يصعب إجابتها أو تحقيقها، وربما دفعت إلى لون من الانحراف لا يرضي الدين القويم ولا الفطرة السليمة.

وهنا يظهر بوضوح دور العاملين المصلحين الذين يستطيعون بفراستهم القوية وبصيرتهم النفاذة وعقليتهم الواسعة وعلمهم الغزير أن يصلوا إلى مكمن الداء، وأن يعرفوا أسبابه وتطوراته ومضاعفاته - إن حدثت - ثم يضعون له العلاج اللازم الناجح والبلسم الشافي.

ومن أجل ذلك اعتبرنا هذا الكتاب كتاب السنة، فهو يعالج في رفق وحذق وبراعة طائفة من الأمراض الاجتماعية علاجًا يتسم بالفهم والعمق ويتسم أيضًا بالرغبة الصادقة في شفاء المرضى في أسرع وقت.

لأن كل واحد من هؤلاء المرضى عزيز على مؤلف الكتاب، لأنه جزء من أسرته الكبيرة. وكما يحول مرض فرد من أفراد الأسرة العادية دون أن تستمتع الأسرة كلها بحياتها كما يحب، وتنزعج الأسرة وتقلق حيث يشذ أحد أفرادها أو ينحرف، وكذلك نرى المؤلف في كتابه حريصًا على لم شعث أسرته الكبيرة مهتمًا لكل ما تتعرض له من متاعب وآلام وأوجاع، متلهفًا على أن يرتفع بمستواها وأن يحفظ كيانها سليمًا بعيداً عن كل ما يعوقها أو يعطل سيرها أو يضعف من شأنها، وهذه ميزة القلائل من المصلحين المخلصين.

ومع أن الكتاب أساسًا كان عبارة عن مقالات نشرت في أوقات متفرقة ومتباعدة أحيانًا، فإن القارئ الواعي لا يكاد يلمس انفصالًا أو تفككًا بين فصول الكتاب، ولولا بعض التواريخ وبعض الأسماء وبعض المقالات التي رأى المؤلف اضافتها إلى كتابه وهي لغيره، ولولا ذلك لكان كتاب المؤلف كتابًا متكاملًا مترابط الاجزاء. ومع هذا ـ فكما قلت ـ لا يكاد القارئ يلمس انفصالًا أو تفككا في أقسام الكتاب. فهناك روح واحد يسيطر على الكتاب من أول كلمة فيه إلى آخر كلمة، هي روح الرجل المؤمن بربه المعتز بدينه المحب لوطنه الواثق من نفسه، ومن أجل ذلك لاتجد جنوحًا أو اضطرابًا أو ترددًا. وهذا ميزة الرجل العالم الفاهم الذي يصور في كتاباته عن إيمان واقتناع ودراية.

على أن الكتاب يمتاز مع ذلك بميزتين كبيرتين أخريين هما الأسلوب والإيجاز. وأسلوب المؤلف في كتابه يمتاز بالنصوع والوضوح والجمال، فانت تقرؤه فلا تصطدم بكلمة نابية أو عبارة عليها سيماء الاضطراب أو النشاز فالمعاني محددة واضحة والأفكار مرتبة منطقيًا دقيقًا.

فالأسلوب في الكتاب سهل واضح يجري كانه الماء العذب في سهولة ويسر، وهو بذلك يغري القراء بجميع طبقاتهم على قراءة فصول الكتاب بنهم وشوق. فهو أسلوب لا يرتفع على مستوى الغالبية العظمى من القراء، ولكنه يعز على من رامه من المؤلفين والكتاب بسلاسته وجماله وأحكامه، فهو من ذلك النوع الذي سماه الاقدمون (بالسهل الممتنع) وحسبه ذلك مزية.

أما الإيجاز في الكتاب فهو من الأمور التي يجب أن لا يمر بها الناقد دون أن يعطيه حقه من الدرس والتعليق. فقد أوجز المؤلف في أكثر فصول كتابه وهو إيجاز مصدره ـ الفحولة والقوة.

والايجاز مطلب عسير على كثير من الكتاب لايقدر عليه غير قلة نادرة من المفكرين والكتاب. ولعل القراء يذكرون ذلك الزعيم الكبير الذي كتب لصديقه رسالة مطولة جدًا ثم ختمها بقوله (واعذرني على الإسهاب فليس عندي وقت للإيجاز).

وهو قول صحيح فإن في إمكان الكاتب أن يمسك القلم فيسطر عشرات الصفحات في وقت قصير، ولكن من أصعب الأشياء أن يختصر هذه الصفحات الكثيرة في صفحة واحدة أو صفحتين. فالإيجاز سمة من سمات الأدباء القادرين، وهو أشبه بحبة أو برشامة تجمع فيها كل العناصر اللازمة لتغذية الفرد، فيتناولها في سهولة ويسر فيفيد منها جسمه وتوفر عليه زمنًا طويلًا كان سيقضيه في الجلوس إلى مائدة طويلة عريضة، وربما شغله صنف عن بقية الأصناف ثم تنبه بعد فوات الوقت إلى أن هذا الصنف ليس ألذ الأصناف، وقد وفق المؤلف توفيقًا كبيراً في ضبط المعلومات الكثيرة في صفحة أو صفحتين وأتاح بذلك للقارى أن يستمتع بالقراءة وأن يهضم ما قرأ وأن يفيد منه.

وبالرغم من أن المؤلف شاب في أوج شبابه، وبالرغم من أن الحماس من مستلزمات الشباب، فإن حماس المؤلف لم يطغَ أبدًا على الحقائق العلمية، ولم يلونها بأي لون يخفيها أو يسترها أو يضعف من شأنها.

وليس معنى هذا أن المؤلف قد تخلى عن حماسته وهو يتحدث عن الموضوعات الحيوية الهامة التي تحدث عنها. كلا فإن الناقد يلمس بوضوح حماسة المؤلف ولكنها حماسة نابعة من حبه لقومه وإعزازه لشعبه ورغبته الصادقة في أن يخلصهم من أدرانهم، وأن يرتفع بهم إلى هناك إلى أعالي حيث الجمال والخير والسمو.

ومع ذلك فلم تطغَ هذه الحماسة على الحقائق، بل كان المؤلف يؤيد آراءه بالدليل والحجة والبرهان. ولم يعتمد على الاثارة والعبارات البراقة والأساليب الخادعة.

ولذلك فإن القارئ لا يكاد يختلف مع المؤلف في أفكاره التي عرضها، أو آرائه التي سجلها. والمؤلف قبل ذلك أو بعد ذلك متواضع أشد التواضع في كتابه، لا تحس أبدًا في أي عبارة من عباراته تعاظمًا بمركزه أو اعتزازه بأسرته أو ادلالًا بعلمه أو تعلمه، واقرأ هذه العبارات الرفيعة الكريمة التي تفيض نبلًا وتواضعًا وإخلاصًا يفتتح بها المؤلف كتابه.

(وهو ـ الكتاب ـ لا يعدو أن يكون (محاولة) صادقة للإسهام في بناء مجتمعنا والنهوض بمستواه.

في (كلمات مخلصة) أردت بها وجه الله وأداء بعض ديوني لأمتي ووطني ـ غير محترف ولا مفاخر ـ)

وتحية للمؤلف الكبير معالي الأستاذ الشيخ حسن بن عبد الله بن حسن آل الشيخ على ما اتحف به بلادنا من كتاب سيظل من الكتب التي نعتز بها، وسيكون له أثره الكبير ولا شك في تاريخ أمتنا بما حوى من جرعات قوية منبهة ستدفع عن أمتنا أمراض الكسل والتراخي والخمول والتواكل، وستحاول إنقاذها من براثن الأمراض الاجتماعية الأخرى.

ونرجو أن يكون هذا الكتاب الحلقة الأولى في سلسلة من الكتب القوية النافعة تشخص أمراضنا وتعالج أدواءنا وتزيل، ما قد يعترض طريقنا من عقبات في طريقنا إلى.. إلى الأمام.

تقديم(*)

لعل من أجمل اللحظات في حياة الأديب تلك التي يشهد فيها ميلاد أديب. وقد أتيح لي أن أشهد ميلاد هذا الأديب، الذي يسعدني أن أقدمه للناس في هذه الثمرة الأولى من ثماره التي ما أشك في أنها فاتحة خير لثمار متنوعة، ولن يطول الانتظار بالقراء.. فعندما يصل كتابه هذا لأيديهم يكون كتابه الثاني قد وصل إلى المطبعة أو أنه في طريقة إليها.

وإذا كان الشاعر العربي الكبير أبو تمام قد تحدث عن فرحة الأديب بالأديب لما بينهما من وشائج الحب وروابط الإخاء وما يجمعهما من تعلق بالمثل العليا والقيم السامية وإيمان بالخير والحق والجمال فإن فرحة الأديب بميلاد الأديب فرحة من نوع فريد لأنه يرى في هذا الميلاد دعمًا لرسالة الأدب وإخصابًا لشجرة الحب وإثراء لقدسية الكلمة.

لقد كان من حظي أن أشهد ميلاد هذا الأديب، وأن أتابع تدرجه في مراحله المختلفة، وأن ألمس عن كثب هذه الشرارة التي اندفعت إلى نفسه فعملت عملها في كيانه.. عنيت بها شرارة الحب والمعرفة وهي شرارة متى ما تمكنت من إنسان جعلته في شوق إلى المعرفة لا يهدأ ولا يستكين.

وهذا ماحدث بالنسبة لأديبنا الذي أقدمه إلى القراء، فقد تسلطت عليه هذه الشرارة المقدسة فجعلته في شوق إلى المعرفة لا يهدأ ولست أعني المعرفة في دنيا الكتب، ولكنني أعني المعرفة في شتى مجالاتها.. دنيا الكتب ودنيا الناس وذلك ما سيراه القراء حين يطلعون على فصول هذا الكتاب.

والأديب الحق هو الذي لا ينشغل بدنيا الكتب عن دنيا الناس، بل يعيش أحداث أمته يرقبها بعين واعية، وينفعل بما يسمع ويشاهد، ثم يصور كل ذلك بقلمه وبيانه.. يشخص الداء، ويقترح الدواء، ينشر الخير، ويحارب

(☆) لكتاب «حروف في الرماد» ـ مجموعة قصصية ـ ضمن إصدارات نادي المدينة المنورة الادبي للمؤلفة. محمد صالح البليهشي. ط (١) عام ١٤٠٢هـ و

التشاؤم، ويدعو إلى الحب والجمال والفضيلة.

وهذا الكتاب الذي أقدمه اليوم مجموعة مقالات كتبها المؤلف في فترات متفرقة، أو كما يقول المؤلف ـ في كلمة الإهداء : «إن هذه القصص بعض مما لهثت وراء جمعه.. من قصاصات الصحف والمجلات التي عشت معها وبها هذه التجربة.. وقد فقدت منها الشيء الكثير مع الأسف لأنني ما كنت أهتم بحفظ هذه القصص، ولا كنت أحفظ لها صورًا لدي.. كنت أعيش معها لحظة من اللحظات ثم تنتهي بما فيها.

وكنت لا أواصل الكتابة في هذا المجال بل ربما تمضي شهور وشهور ثم أعيش مع تجربة ما... أو تصور... أو اندفاع نحو هدف معين فأتحفز وأعاود الكتابة من جديد».

يقول المؤلف: «لقد كتبتها الآن بأسلوبها الذي سبق أن كتبت به أصلًا بلا تغيير. وقد كتبت الكثير منها في مرحلة يسميها علماء النفس مرحلة (المراهقة)».

لقد قلت إن هذا الكتاب مجموعة مقالات كتبها المؤلف في فترات متفرقة. أما المؤلف فيقول: إن هذه القصص بعض مما لهثت وراء جمعه. ففي رأي المؤلف أن ماحواه كتابه مجموعة من القصص، وبعض مما حواه كتابه تنطبق عليه شروط القصة القصيرة كما اصطلح على ذلك نقاد القصة.

ولكن بعضه الآخر لا يخضع لتلك الشروط. ومع ذلك فأنا مع المؤلف في اعتبار كل مافي الكتاب قصصًا، لأنني لا أويد إخضاع جميع كتّاب القصة القصيرة إخضاعًا تامًا لهذه القيود الصارمة التي أقرها النقاد، أو اصطلحوا عليها فلا ضير من أن يكون لكتّاب القصة قليل أو كثير من الحرية ما داموا قادرين على أن يصلوا بنا إلى الأهداف المطلوبة بعيدًا عن اشتراطات النقاد وقيودهم الصارمة.

وحسب القارئ أن يأخذ في قراءة هذه المجموعة التي تبدأ بقصة (مهاجر النبي) وتنتهي بقصة (الحصاد) ليجد نفسه مدفوعًا برغبة لا تقاوم في

قراءة قصة وراء أخرى حتى يأتي على آخرها.

وحسب الكاتب نجاحًا أن يفتح شهية القارئ، فيقبل على ماقدمه إليه برغبة ملحة وشوق كبير دون تفريق بين لون ولون وصنف وصنف. ومن الغريب أن ما تضمنته بعض القصص من معلومات لا جديد فيها، ومع ذلك فأنا واثق من أن القراء سيستمتعون بها كما استمتعت بها وسيجدون لها مذاقًا خاصًا.

وتلك ميزة يتمتع بها قلة نادرة من الكتاب، وذلك يذكرني بحديث أسبوعي أحب الاستماع إليه من إحدى المحطات الأوروبية، وكنت أسأل نفسي بعد الاستماع إلى هذا الحديث عما إذا كان قد أضاف جديدًا إلى معلوماتي، وكان الجواب في ٩٥ في المائة من الحالات بالنفي. ومع ذلك فأنا مشدود إليه حريص على ألا يفوتني.

والحديث عن هذه الميزة يجرني إلى الحديث عن أسلوب الكاتب في مجموعته القصصية وأسلوبه يمتاز بالعفوية والبساطة، وإن كان يتألق أحيانًا تألقًا ليس مصدره محاولة التجديد والرغبة في التنسيق، وإنما مصدره الانفعال ومالدى الكاتب من ثقافة لغوية وذخيرة بيانية لم يولهما الكاتب اهتمامه وعنايته في تلك السن التي كتب فيها المؤلف قصصه، وهي مرحلة المراهقة كما سبق أن أشرنا.

وقد حرص الكاتب على أن ينشر قصصه كما كتبها أول مرة دون أن يعمل فيها يد التجديد والتحسين والتنقيح، وحسنا فعل فهي قد نشرت في الصحف بهذه الصورة، ثم إن نشرها في كتاب بالشكل نفسه يعطي صورة حقيقية للمرحلة الأولى من حياة الكاتب ولذلك أهمية دون شك.

ومع أن ما احتوته هذه المجموعة من قصص لم يكتب في فترة واحدة، وإنما كتب في أزمان متفرقة وتحت ظروف متباينة، فإن القارئ الواعي الحصيف يشعر بأن هناك رباطًا يربطها جميعًا.. أو بتعبير أدق فإن هناك سلسلة مكونة من عدة حلقات تدور في إطارها هذه القصص.

وهذه الحلقات هي الصدق والحب والإيمان بالقيم، يلمس ذلك القارئ الحصيف الواعي، فلن يجد في هذه المجموعة تصنعًا أو افتعالًا وإنما هو الصدق يلف كل قصص هذه المجموعة، ومن المؤكد أن وراء هذا الصدق عنصرًا خلاقًا عنيت به عنصر الحب، وهو أمر واضح كل الوضوح سواء أكان ذلك في القصص التاريخية التي بدأ بها الكاتب مجموعته أم في القصص الاجتماعية التالية.

ولن أتحدث عن الحب وما يصنعه من أعاجيب. فحسبي أن أشير إلى ذلك في هذه المقدمة لأذكر الحقيقة وهي الإيمان بالقيم السامية وتمجيدها والحرص عليها والدفاع عنها والدعوة إليها وتعميقها في وجدان الناس ولا يتسع المجال للتفصيل والتطبيق والشرح.

وعلى أية حال فليست هذه المقدمة دراسة لقصص هذه المجموعة، ولكنها تسجيل للانطباع الذي خرجت به من قراءتها. ثم إنها قبل ذلك وبعد ذلك ترحيب بأديب شهدت مولده، وأعجبت بخطواته التي خطاها في عالم الفكر بثقة وإيمان. إنه الأخ والابن الأستاذ محمد صالح البليهشي.

وكل ما أرجوه في هذه المناسبة ألا تجني الصحافة على أدبه فكم لها من جنايات على الأدب والأدباء[1].

---

(١) حيث كان المؤلف مديرًا لمكتب جديرة الندوة بالمدينة المنورة، واحد المحررين بها وله صفحة بها تحت عنوان «المدينة المنورة» وقد ترك هذا العمل وتفرغ للبحث والتأليف.

رأي وكتاب
- ١، ٢، ٣ - (*)

يلاحظ المتتبع لأخبار النهضة الثقافية في بلادنا أن التأليف يسير بخطى بطيئة لا تتفق والنهضة العلمية الشاملة التي يلمسها الجميع، كما يلاحظ أن مؤلفاتنا رغم قلتها لا تلقى من الكتَّاب والنقاد ورجال الفكر ماهي جديرة به من عناية واهتمام، وحتى إذا ما لقي بعضها شيئًا من العناية فكثيراً ما تنحرف هذه العناية فتصبح نقمة على المؤلف، تبحث عن حياته الشخصية وتفتش عن معايبه ومثاليه في شخصه أو عائلته أو ظروفه الاجتماعية، وتترك الأثر الأدبي أو العلمي على الهامش.

هذه ظاهرة خطيرة سبق إلى الإشارة إليها نفر من كتابنا الأماثل، ومن واجب الأسرة الأدبية في هذا البلد أن تتعاون تعاونًا صادقًا للقضاء على هذه الظاهرة التي تهدد مستقبلنا الأدبي تهديداً لا يستهان به.

إن النقد الهادف البناء ضرورة لا غنى عنها، تصقل أدبنا وتشذب أشجاره، وتزيل ماقد يعلق به من طفيليات، وتساعده على النماء والازدهار. ولكن النقد إذا تجرد من الهدف والبناء يصبح شرا مستطيراً يهدد بالويل والثبور.

نسوق هذه المقدمة أمام هذه الملاحظات التي نكتبها عن (الكتاب الفضي لمجلة المنهل) ونلاحظ أن هذا الكتاب لم يلق من - أدبائنا العناية الجديرة به وأكثر صحفنا اكتفت بالإشارة إليه إشارة عابرة مع أن هذا الكتاب في الواقع جهد جبار حري بالبحث والدرس والمناقشة.

فهو أول كتاب فضي يصدر عن صحيفتنا. وهو بذلك يضيف إلى أوليات صاحب المنهل أولية جديدة، وهو جهد جدير بالتقدير بذل فيه صاحب المنهل الكثير من جهده وفكره ووقته حتى خرج بهذه الصورة الرائعة التي تسر الناظرين والقارئين.

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٠/٥/٣هـ الموافق ١٩٦٠/١٠/٢٣م العدد (٣٥)

ولقد كنت أوثر أن يكتب أحد الكتَّاب دراسة وافية عن صاحب المنهل وعن مؤلفاته وآثاره في هذه الحقبة من حياته الطويلة. فالرجل جدير بالتكريم وكتابة بحث كهذا فيه خدمة للبحث العلمي وفيه تكريم لرجل مكافح وليس يمنع من نشر هذا البحث في الكتاب الفضي ما قد يرد فيه من المديح لصاحب المنهل والثناء عليه، وقد سبق أن نشرت المجلة كثيراً من كلمات المدح وقصائد الثناء على صاحبها.

وقد وفق صاحب المنهل في تسمية مجلته فهي كاسمها منهل عذب نأمل أن يستمر دائمًا فائضًا بالنمير العذب.

وقد سارت المجلة سيرًا اختلف الناس فيه مابين مادح وقادح، ولكن الشيء الذي لاشك فيه هو أنها سارت على طريقة يمكن وصفها بالحزم والحرص وبعد النظر، وبذلك استطاعت أن تقطع طريقها دون أن تتعثر أو تتخلف.

احتفلت مجلة المنهل بمرور ربع قرن من الزمان على صدورها، فأصدرت هذا الكتاب الفضي. ولست أدري لماذا كنت أوثر أن يتحاشى صاحب المنهل كلمة (يوبيل) وقد ظننت أنه تحاشاها فعلًا عندما قرأت غلاف الكتاب، ولكنني عندما قلبت صفحاته وجدت أن الكلمة قد تكررت بشكل ملحوظ.

والكلمة أجنبية كما نعلم، وصاحب المنهل له قدم راسخة في اللغة، وله كتاب اسمه (اصلاحات في لغة الكتاب والأدب) ومن آثاره الطيبة تحويل كلمة جيزان إلى جازان، وإن كان بعض الناس يؤثر الكلمة الأولى لخفتها.

ربما كان ذلك من الأسباب التي دعتني إلى أن أوثر أن يتحاشى صاحب المنهل هذه الكلمة الأجنبية، بل كنت أتوقع أن يقدم لقراء العربية بدلها كلمة عربية صريحة النسب، فيكون بذلك قد أهدى لهم كتابه الفضي الضخم وأهدى لهم كلمة عربية تحل محل هذه الكلمة الدخيلة.

وأنا أعرف مقدمًا ما سيقوله البعض من أن هذه الكلمة قد ذاعت وتداولتها الألسن والأقلام والراديو، وأن اللغة العربية تحتوي على كثير من الكلمات الأعجمية، بل إن القرآن نفسه قد ورد في آياته كلمات غير عربية.

أنا أعرف ذلك وأكثر منه. ولكنني مع ذلك كنت أوثر أن يتحفنا صاحب المنهل بهدية قيمة تحل محل هذه الكلمة. ولا جدال في أن التساهل يجر إلى تساهل إلى أن يأتي يوم تصبح فيه الكلمات الأجنبية هي الغالبية العظمى في ألفاظ لغتنا الجميلة.

إن مهمة المجامع اللغوية هي تنقية اللغة العربية من الشوائب، وتعريب ما يمكن تعريبه، ونحت أو اشتقاق ألفاظ تقوم مقام الألفاظ الأجنبية. ولقد كانت هذه فرصة للمنهل حبذا لو اهتبلها فكسب بذلك نصرًا وقدم خدمة لا تنسى.

بعد كتابة ما تقدم اطلعنا على الكلمة المنشورة في الكتاب الفضي نقلًا عن جريدة «البلاد» للكاتب المعروف الأستاذ محمد عمر توفيق، وقد سبق إلى الملاحظة التي تحدثنا عنها في هذا الفصل.

- ٤ -

الأستاذ أحمد علي رائد من رواد التعليم في بلادنا، يمتاز بالحيوية والنشاط والثقافة الرفعية والأفق الواسع، ولم يكتف بخدمة الثقافة عن طريق العمل في حقل التعليم، بل ساهم ولا يزال يساهم في خدمتها عن طريق القلم والصحافة.

والأستاذ أحمد علي أحد الأربعة الكرام الذين تتكون منهم اللجنة التي أشرفت على إعداد الكتاب الفضي. وقد اضطلع بالاضافة إلى ذلك بكتابة بحث قيم عن (تطور المملكة في ٣٥ عامًا) وهو بحث مطول أشهد أنني أفدت منه كثيراً، مع أنني متخصص في التاريخ وأنني ألفت في التاريخ المدرسي أكثر من كتاب، ولعلي لا أظلم الحقيقة إذا قلت أنه أحسن بحث نشر في الكتاب الفضي، ولكن هذا لا يمنعني من أن أذكر أنني كنت أود لو أن كل عضو من أعضاء اللجنة وجميعهم من الأساتذة الأعلام قد اضطلع بكتابة بحث عن ناحية معينة، فيكتب أحدهم عن التطور السياسي للمملكة، ويكتب آخر عن التطور الاجتماعي، وهكذا على أن يترك للأستاذ أحمد علي كتابة بحث عن تطور المملكة العلمي وهو ميدانه أو جهة اختصاصه كما عبر.

ولقد شعر الأستاذ الكبير أحمد علي بعظم المسؤولية وبخطر البحث الذي يكتبه، فاشار في مقدمة بحثه إلى أنه سيجمع (من هنا وهناك بعض معلومات مبتورة تعطي الإنسان فكرة عامة عن شيء اسمه التطور) (وهو كعناوين لقصة طويلة).

ألا ليت أعضاء اللجنة فعلوا ما أشرنا إليه، أو ليت صاحب المنهل استعان ببعض المختصين من أدبائنا وعلمائنا في كتابة بحوث وافية عن تطور المملكة من نواحيها المختلفة، ولو في ضوء ما نشر بالمنهل عن هذا التطور وما أظن أن أحداً منهم يتخلف عن القيام بهذا الواجب.

- ٥ -

جميل من مجلة المنهل وهي المجلة الرزينة الرصينة أن تعنى بالرياضة فتفرد للحديث عشر صفحات من الكتاب الفضي.

وقد كتب الأستاذ محمد بن شاهين بحثًا مستفيضًا عن الرياضة، ولا تعليق لي على ما كتب.. فلا شك أن المعلومات الواردة في مقاله معلومات صحيحة، ولا شك في أنه استقاها من أوثق المصادر. وقد أعطانا فكرة واضحة عن تاريخ كرة القدم منذ أن دخلت إلى المملكة حتى اليوم، كما كان للصور التي نشرها الأثر الكبير في تدعيم ماورد في مقاله. وجهد الأستاذ واضح يشكر عليه.

وقد لفت نظري أن عنوان مقال الأستاذ هو (الرياضة في المملكة) ولكنني بعد أن انتهيت من قراءة المقال تبين لي أن الأستاذ الفاضل قصر حديثه على الرياضة في مكة وجدة، فلم يتحدث عن الرياضة في غيرهما. ويبدو لي حسب معلوماتي القليلة أن هناك بلادًا أخرى لها تاريخ في دنيا الرياضة أذكر منها المدينة المنورة.

ولها كما علمت ماضٍ في كرة القدم، وكان بها أكثر من نادٍ رياضي قبل عدة سنوات. أما الآن فنواديها تزيد عن أصابع اليد الواحدة.

ولا يكاد يخلو عدد من أعداد جريدة «المدينة» من أخبارها. ومع ذلك فلم يشر الأستاذ بأي كلمة لها. وهناك أيضًا المنطقة الشرقية، ويبدو أن للرياضة بها سوقًا لا يستهان به، وقد أشار إليها الأستاذ الفاضل إشارة عابرة حين أشار بكلمة مقتضبة إلى المسابقة الرياضية بين منتخب فرق المنطقة الشرقية وفرق المنطقة الغربية. وربما كان هناك بلاد أخرى بها نشاط رياضي لا أعرفه. حبذا لو تفضل الأستاذ فحدثنا عن الرياضة في بقية المملكة كما حدثنا عن الرياضة في مكة وجدة. وبذلك ينطبق العنوان تمامًا على المعلومات الواردة في المقال.

وملاحظة أخرى لماذا لم يشر الأستاذ الفاضل في مقاله إلى مجهودات وزارة المعارف، وخاصة تلك المجهودات التي خرجت عن نطاق المدارس إلى نطاق الملاعب العامة؟ والكل يذكر المباريات التي أقيمت في العام الماضي بين منتخب المدارس الثانوية في مكة وجدة والمدينة في المنطقة الغربية، وبين الرياض والقصيم والدمام في المنطقة الشرقية، ثم المباراة النهائية بين المدرستين الفائزتين من المنطقة الشرقية والمنطقة الغربية.

هذه ملاحظات عابرة لا تنقص أبدًا من أهمية المقال.

- ٦ -

نشر في العدد الفضي عدد من القصائد الرائعة الرصينة، وقد جاء نشرها في الوقت المناسب، فهي قصائد عربية تشتاقها الأذن لتجلو بها هذا الصدأ الذي ران على القلوب والاسماع من جراء هذا الغثاء الذي يصرون على أن يسموه شعرًا، ويمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون شعرًا.

وليس من غرضي أن أحلل هذه القصائد المختلفة، ولكنني أحببت أن ألفت النظر إليها وخاصة قصيدة الأستاذ محمد السنوسي. ولهذه القصيدة رائحة خاصة تبعث في النفس الأنس والسرور والنشوة. استمع إلى الشاعر يتقمص شخصية المنهل فيتحدث عن نفسه:

تلكمو غايتي وهذا طريقي ... أنا ماضٍ رغم الظلام العميق
هدفي واضح وإن كان دربي ... مفعمًا بالصعاب والتعويق
ويقيني هو اليقين وإن ضاقت ... حياتي وغص حلقي بريقي
وطريقي يا ليل يملؤه الأحرار ... قبلي وكل حر رفيقي
ملأ النور ناظري وقلبي ... وجرى في دمي وملء عروقي
فاعصفي يا رياح عصفًا جنونيا ... فلن تطفئي ضياء الشروق
لن يشل العثار عزمي ولا ... الإخفاق حزمي ولا القنوط وثوقي
أنا ماضٍ رغم الدياجير والأنواء ... والرعد واللظى والحريق
قدمي ثابت يوطده الإيمان ... بالله والنهى والحقوق
وفؤادي كشعلة النجم وهاج ... على السحب والدجى والبروق
كلما احلولكت عليه الدياجي ... وادلهمت سرى قوى البريق

☆ ☆ ☆

يا حياة النهى لك الله من دنـ ... ـيا حيوف ومن زمان عقوق
يا حياة النهى لك الله من فهـ ... ـم كثيف ومن غباء صفيق

يا حياة النهى لك الله لا تأ سى ولا تحفلي بغير الحقيقي
افأرضى تزلفا أن أرى الجهل وأرنو له بعين الصديق؟
وأدارى بلادة الحس والنفس رياء واحتفي بالنقيق
وأرى في مواقف الزيف والزور مسوقًا مع القطيع المسوق
أفأرضى لقيمتي أن أراها سلعة للشراء في كل سوق
وأنا المنهل الزلال (وانصاري) إلى الحق يرشفون رحيقي
منهل فجرت يد الله مجراه (بأم القرى) (ووادي العقيق)
جدولا من جداول الضاد فيا ضا ونبعاً من البيان العريق
منبري منبر العروبة والإسلام والشرق والهدى والسموق
ويراعى مجند في قوى البعث وركب النهوض والتحليق

☆ ☆ ☆

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الدفاع عن لغة القرآن دفاعًا مجيدًا قويًا يستثير الإعجاب ودفاع الشاعر جاء في وقته المناسب بعد أن استحكمت العجمة، وبعد أن أخذ الكتَّاب يميلون إلى السهولة، وينشرون أدبًا مهلهلا يعتمد على استثارة الغرائز:

استمع إلى الشاعر حيث يقول:

لغة لم تزل هي العصب الحسـ ـاس والوعي نابضًا في العروق
وترى حولها العروبة صفا من ضفاف الخليج حتى المضيق
لغة تهضم اللغات وتجري طلقا في جليلها والدقيق
طمَّ تيارها وعم فما غارت بغـ ـار ولا هوت بسحيق
هاتها في طرائق وأساليب كـ ـرام من الجديد العتيق
وارتفع بالشعور والفكر واحفظ آية الذوق في البيان الطليق
وتفنن مما تشاء من اللفظ رقيقًا مثل النسيم الرقيق
في شفيف من التراكيب رفاف وجزل من الكلام الوثيق
ودع الرث والغثاء وحاذر دعوات الفساد والتلفيق

إن للماء والكئوس زجاج رونقا غير رونق الإبريق
أنت لا ترتضي لجسمك إلا كل ثوب زاه ونسج رشيق
وتعاف الطعام إن قدم الطاهي طعامًا في غير صحن أنيق
أفترضى للفكر والفكر روح لغة كالقيئ بكل طريق

وهكذا نجد أمامنا شاعرًا فحلًا مستكمل الأداة وأنت تقرأ شعره، فلا تجد صعوبة ولا التواء في التعبير، كما لا تجد غثاثة أو ركاكة أو حشوا أوفضولا، فكل كلمة وضعت في مكانها اللائق بها وضعًا محكمًا.

فلا قلق ولا نبوء. وبذلك يعطينا الشاعر الدليل الحي على أن الدعاوي المزعومة من أن الشعر في قوالبه التقليدية يحول بين الشاعر وحرية التعبير هي دعاوى واهية لا تقوم على أساس.

- ٧ -

الأستاذ أحمد رضا حوحو أساس من الأسس القوية التي قام عليها المنهل، وهذه قضية ليست موضع شك أو جدال. فقد أشار إليها - الأستاذ الكبير - صاحب المنهل في يومياته الرائعة المصورة في الكتاب الفضي، كما أشار إليها في أكثر من موضع من الكتاب المذكور.

ولقد ساهم الأستاذ حوحو مساهمة قوية في خدمة الثقافة والفكر بهذه المملكة عن طريق التدريس، وعن طريق التاليف، وهي طريق الترجمة. وتلاميذه وأصدقاؤه الذين يعرفون فضله منتشرون في كل مكان، وكتبه ومقالاته ومؤلفاته يعرفها الادباء والعلماء.

ولقد كان من باب الوفاء أن ينشر المنهل في كتابه الفضي بحثًا أو دراسة عن حياته وتاريخه ومؤلفاته وأثره الفكري وخاصة وانه قد ودع هذه الحياة مستشهدًا في سبيل الحق والمبدأ القويم الذي آمن به ودفع حياته ثمنًا له.

ولقد علمت وأنا أقرأ الكتاب أن المنهل قد نشر فعلًا في أحد أعداده بمناسبة استشهاد الأستاذ حوحو في الجزائر، فليته أعاد نشر هذا المقال في الكتاب الفضي مع نبذة عن تاريخ حياته وهو أضعف الإيمان.

أما نشر بحث موضوعي مفصل يتفق وما أداه المذكور من خدمات لهذه الامة عامة ولمجلة المنهل خاصة. أنه لو فعل لضرب مثلًا رائعًا في التقدير والوفاء.

هذه بعض الخواطر التي عرضت لنا ونحن نتصفح الكتاب الفضي للمنهل، وقد حرصنا على تسجيلها بغية الإشادة بهذا العمل الضخم الذي برز إلى الناس رائعًا من حيث الشكل والموضوع، ومن حيث الطباعة والتنسيق والأفكار والاسلوب.

ولا ينقص من قيمته ما قد يكون فيه من مآخذ بسيطة. فالكمال لله وحده.

ونحن نتفق بعد هذا مع صاحب المنهل في أن الكتاب الفضي (يصلح أن

يوضع في مصاف المراجع والموسوعات بالنسبة لتاريخ المملكة العربية السعودية وتطوراتها المختلفة) (وأنه في شموله وضخامة حجمه وأناقة إخراجه بالألوان قد حقق أهدافه).

ونرجو أن تكون خواطرنا هذه دافعة إلى مواصلة البحث والدرس من هذا الكتاب، وألا يكتفي الكتّاب والصحفيون بالعبارات التقليدية التي تكتب عند صدور كتاب أو عمل أدبي أو ثقافي. ونرجو مرة أخرى أن تسنح لنا الفرصة لمعاودة تسجيل خواطر أخرى عن هذا العمل الكبير.

(ملحوظة)

كتب هذا المقال بعد صدور الكتاب الفضي بفترة قصيرة، ولكن مشاغل الكاتب وأسفاره كانت السبب في تأخير نشره حتى الآن فمعذرة.

كتاب جديد عن الرافعي ومي (٭)

هذا كتاب صدر منذ عام، وكان المأمول أن يُستقبل من الأدباء والنقاد استقبالا حافلا لأن موضوعه الحديث عن علمين بارزين من أعلام الأدب والثقافة والفكر في العصر الحديث، دخلا التاريخ الأدبي من أوسع أبوابه، وتركا في دنيا الأدب وعلم النقد آثارا عميقة وآثارا من الجدل والنقاش ما لا يزال يشغل الباحثين والنقاد ومؤرخي الأدب حتى الآن. ونعتقد أن الحديث عنهما سيتجدد إلى أمد طويل لا يمكن تحديده لأسباب ليس هذا المقال مجالا للحديث عنها.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن مؤلفه كاتب وطني. ومن واجبنا دائما أن نحتفل بكل مؤلف وطني احتفالا صادقا من إيماننا بقيمة الثقافة واعتزازنا بقدسية الكلمة. وكل كتاب يصدر في بلادنا ـ مهما كان نوعه ووزنه ـ لبنة تضاف إلى ما سبقه من لبنات نبني من مجموعها مجدنا الثقافي والحضاري وبذلك تثبت أصالتنا ونقاء معدننا وقدرتنا علي الافتنان والابتداع.

على أن عملية التأليف يجب أن يصحبها دائما عملية نقد وتمحيص وغربلة. وامتزاج العمليتين هو الذي يدفع بحركتنا الفكرية إلى الامام، ويساعد على تحسين الإنتاج وصقل المواهب. أما إذا سارت عملية التأليف وحدها فإن سيرها سيكون بطيئا، وأثرها سيبقى ضعيفا وأهدافها ستظل بعيدة.

ومع أهمية موضوع الكتاب ـ الذي نتحدث عنه ـ ووطنية مؤلفه فإنه قد استقبل استقبالا فاترا، بل إنه في الواقع لم يستقبل أي نوع من الاستقبال. فقد تسلل إلى مكتباتنا في تواضع واستحياء، واستقر على الرفوف في كل كسل وتراخٍ وإهمال.

ويرجع ذلك مع الأسف إلى ركود النقد الأدبي. ولا نعزو هذا الركود إلى افتقاد

(☆) نشر في جريدة المدينة للنورة في يوم الجمعة ١٣٨٨/١١/٢٧هـ العدد ١٤٨٧ .

النقاد ـ كما يردد الكثيرون ـ بقدر ما نعزوه إلى ضعف نفوسنا، وهو ضعف اشترك في تكوينه ـ إذا جاز هذا التعبير ـ عوامل مختلفة ويتصل بعضها بالوراثة، ويتعلق بعضها بأسلوب التربية، ويرتبط بعضها بالمناخ. وليس من همنا في هذا المقال أن ندخل في تفصيلات حول هذه العوامل، فحسبنا أن نصل إلى ما ترتب على اصطدام النقد بهذا الضعف من آثار سيئة علي النقد والأدب، فبدلا من أن يكون النقد وسيلة للصقل ودافعا للتجديد وعاملا من عوامل الشحذ ينتقل نتيجة لاصطدامه بهذا الضعف إلى نوع من الصراع الشخصي، أسلحته الطعن والتجريح ونهش الأعراض والتنابز بالألقاب والولوغ في الأعراض والتراشق بالأحجار أو بما هو شر من الأحجار والاصطياد في الماء العكر.

إنه اشبه بصراع الديكة، يتطاير فيه الريش وتتمزق فيه الجلود وتتناثر الدماء.

وإلى أن نستطيع معالجة هذا الضعف، سنظل نرسف في أغلاله، ولن تقوم لنا في دنيا النقد قائمة إلا يوم نؤمن الإيمان كله بقول شوقي:

في الرأي تضطغن العقول وليس تضطغن الصدور

وقوله:

اختلاف الرأي لا يفسد للود.. قضية

ونعود إلى كتاب (الرافعي ومي) فقبل أن يصدر الكتاب قرأت إعلانا في بعض صحفنا المحلية يبشر القراء بقرب صدور هذا الكتاب. وكان اسمه ـ كما ورد في الصحف ـ (الرافعي ومي ملاكان على الارض) وبعد ذلك بمدة لقيت المؤلف الفاضل فحدثني عن كتابه حديثا ضافيا. وذكر لي اسم الكتاب كما نشرت الصحف (الرافعي ومي ملاكان على الارض) وقد ظهر لي من حديث المؤلف أنه معتز بكتابه هذا، محتفل به أشد الاحتفال. وقد سرني ذلك. فإن اعتزاز الكاتب بواحد من مؤلفاته معناه أنه بذل في تأليفه مجهوداً غير عادي وأنه وصل فيه إلى تحقيق نتائج علمية كبيرة.

من أجل هذا وغيره مما ذكرت فيما سبق من أسباب كنت أترقب وصول الكتاب. ووصل الكتاب بعد شهور وتفضل مؤلفه الفاضل المفضال فاهدى إليَّ نسخة من كتابه. ومع حرصي الشديد على قراءة الكتاب وتقديمه للقراء فإنني لم أستطع أن أفعل ذلك قبل الآن.لأن نقد أي كتاب يتطلب القراءة الواعية الفاحصة المتانية.وهذه القراءة تستدعي التفكير والموازنة والرجوع إلى مصادر أخرى. وكل هذا يتطلب وقتًا وفراغ بال. وأين الوقت والإنسان يعيش وسط دوامة من المشاغل الخاصة والعامة؟ وأين لي فراغ البال والمرء منا يعيش في عصر يسيطر عليه القلق نتيجة لهذه التيارات المتضاربة والاتجاهات المتصارعة من تلك القوي الباغية التي لا تحترم الأديان ولا تقيم وزنا لكرامة الإنسان؟!

ولا أريد أن أطيل على القراء. فالحديث ذو شجون وحسبهم أن يعلموا أنني قرأت الكتاب، فماذا في الكتاب؟ وماذا عن المؤلف؟!

أما المؤلف فرجل عصامي ما في ذلك شك، تعرض في بداية حياته لمرض من هذه الامراض التي تعمل الإنسانية جاهدة على مكافحتها، فتوفق حينا وتخفق أحيانا. ومن المؤكد أن هذا المرض الذي اختار صاحبنا قد كوفح من قبل أسرته وبكل إمكاناتها، ولكنه كان ثقيل الوطأة فلم يترك صاحبنا إلا بعذ أن خلف أثارًا في أعصاب رجليه.

وكان المظنون أن تقف هذه العلة في طريق تقدمه، وأن تحول بينه وبين أن يكون عاملا في مجتمع متاثرا به مؤثرا فيه. شأن أمثاله من الذين تعرضوا لمثل ما تعرض له، ولكن صاحبنا كان يمتاز بقوة شكيمته ومضاء عزيمته وبعد همته، فسار في طريقه متحديا هذه العلة وعقابيلها، بل من يدري لعل هذه العلة هي التي اشعلت فيه روح الطموح والتطلع إلى أعلي.

ولا أدري ما الذي أخطر ببالي في هذه المناسبة.. رجلين أحدهما من هنا والآخر من هناك. ومؤلفنا الفاضل يرتبط بكلا الرجلين بنوع من الارتباط.

أما الذي من هنا فتربطه بالمؤلف رابطة الزمالة من جهة ورابطة الأدب من

جهة أخرى. فقد كانا زميلين للمؤلف في المدرسة الابتدائية وكان مثله متعلقا بالأدب. ولكن الزميلين يختلفان في بعض الأمور، فقد كان الزميل يمتاز على المؤلف بمميزات ثلاث:

الأولى: أنه اشتهر منذ أيام الدراسة الاولى بتعلقه بالأدب والشعر (لم يشتهر ذلك عن مؤلفنا إلا بعد أن تقدمت به السن نوعا) وكان اهتمامه بالكتب مضرب المثل، وأذكر أنه أهداني ـ وكلانا ـ كنا في المرحلة الابتدائية، وكنت في مدرسة غير المدرسة التي يدرس بها أذكر أنه أهداني كتابين أحدهما ديوان من دواوين أحمد زكي أبو شادي اسمه (الشفق الباكي) وهو ديوان من أضخم الدواوين التي في العصر الحديث، ولكنني فقدت هذا الديوان وفي أغلب الظن أن زميلنا الشاعر الأستاذ ماجد الحسيني، هو الذي استولى عليه ولم يرده سامحه الله. أما الكتاب الثاني فهو رباعيات الخيام ترجمة محمد السباعي، وهو محفوظ عندي وعبارات الإهداء مكتوبة بقلم الرصاص. والكتابة بقلم الرصاص ذكرتني بميزة رابعة من مميزات صديقنا الراحل.

وبمناسبة الكلام عن الإهداء أذكر أنني أحب الاحتفاظ بالكتب التي تصلني هدايا من أصدقائي، ولا أحب أن أفرط فيها مهما تكن الأسباب. والطريقة الوحيدة التي تمكن من طريق الحصول على كتاب من كتبي المذكورة هي الاستعارة ونسيان الإعادة أو تناسيها. وإن كنت في السنوات الأخيرة قد أصبحت أكثر حرصا في هذه الناحية عن ذي قبل. فالكتب المهداة إلى أصبحت الآن في حرز حريز.

ولا يقف الامر عند حد الاحتفاظ بالكتب التي اتلقاها هدية من أصدقائي، ولكني أحرص على الاحتفاظ بما يقع في يدي عن طريق الشراء من الكتب المهداة من المؤلفين أنفسهم إلى أصدقائهم أو من غير المؤلفين. ولدي مجموعة من هذه الكتب منها كتاب من مؤلفات المرحوم عباس محمود العقاد اهداه إلى صديق له وعلى الكتاب عبارات الإهداء واسم الشخص المهدى له وتوقيع العقاد وكل ذلك مكتوب بالحبر الأحمر بخط العقاد.

الثانية مما يمتاز زميل المؤلف هو نصحه في التعبير الأدبي وخاصة في الشعر، ومن المؤكد أن جمهرة القراء لا تعرف شيئا عن شاعريته، لأنه لم ينشر شعرا في بداية حياته، ثم آثر الانطواء على نفسه بعد أن تخطى مرحلة اليفاعة فلم يعرف عنه الناس قليلا ولا كثيرا، وبقيت قلة نادرة من أصدقائه الاقربين هي التي تعرف مدى نبوغه وتوهج شاعريته في تلك السن المبكرة.

ونذكر في تلك اللحظات الشاعر (الحائر) ماجد الحسيني، والشاعر المبدع الأستاذ محمد هاشم رشيد، والأستاذين الفاضلين الشيخ حامدعبد الحفيظ والسيد عبد السلام العمري. والأخيران تربطهما بشاعرنا صداقة قوية وكلاهما شاعر مقل، وقد حاولت منذ سنوات أن أستحثه واستثير عزيمته ليشارك في الإنتاج الأدبي ـ ولو بنشر شيء من إنتاجه الشعري القديم ـ ولكنه آثر الصمت وانزوى مكتفيا بالقراءة وبنقد ما ينشر الشعراء من شعر نقدا ينحصر في دائرة أصدقائه الذين ظلوا يلازمونه حتى انتقل إلى رحمة الله.

نسيت أن أذكر اسم زميل المؤلف، وهو الأستاذ المرحوم خالد رجب وقد انتقل إلى رحمة الله منذ عامين.

ارجو أن يكون واضحا أنني لا أكتب عن صديقي خالد مدفوعا بعاطفة الشفقة التي تسيطر على الأحياء حين يكتبون عمن سبقوهم إلى دار البقاء، وأنما أقرر حقيقة أؤمن بها. ولو سار خالد في طريقه الذي هياته للسير فيه مواهبه المتفتحة وذكاؤه الوقاد وذاكرته الواعية وشرهه الذي لا يقف عند حد القراءة والاطلاع. لو سار خالد في هذا الطريق لأنتج لنا أدبا عبقريا يستحق الخلود. ولكنه ـ مع كل أسف ـ لم يسر في ذلك الطريق، وإنما انحرف إلى طرق أخرى تحت ضغط عوامل ذاتية وعوامل اجتماعية.

واعتقد أن صديقي الأديب الكبير أحمد عبد الغفور عطار يعرف الكثير عن صديقي خالد، فقد كانت تربطهما رابطة الصداقة. واذكر أن الأستاذ العطار حدثني مرة عن خالد وقرأ عليَّ قصيدة من شعره تحمل لونا كريما من عواطفه نحو خالد، ولعلها منشورة في ديوانه (الهدي والثبات) وليس

الديوان تحت يدي الآن، ولو كان تحت يدي لراجعته فيه وأوضحت بعض ما يحتاج فيها من إيضاح.

الثالثة من مميزات صديقنا خالد. هي خفة روحه وهي هبة من الله لبعض خلقه لا تكتسب بالحيلة ولا تنال بالإرث كما يعبر الأستاذ الزيات. وقد أضفت عليه خفة روحه هذه ظلالا من اللطف والرقة والجاذبية، فهو في مجلس أصدقائه المحدث والشاعر والسامر والنديم، تسعفه قريحته إذا خانته ذاكرته.. وقلما تخون، وهو قبلة أنظار من في المجلس يجتذبهم بعبارته ويستهويهم بإشارته ويأسرهم بلباقته ويهزهم بإنشاده.

الرابعة من مميزات هذا الصديق بوهيميته. فقد كان يعيش عيشة لا تخضع لروابط ولا قيود، وكان يتصرف تصرفات فيها غير قليل من الغرابة والشذوذ. وكان لا يحفل بما يحفل به الناس. وكانت له فلسفة اشترك في تكوينها مزاجه النفسي وظروفه الاجتماعية وصفاته الجسمية وثقافته المكتبية.

الحلقة الثانية(*)

ذكرنا في الحلقة السابقة مميزات أربع يمتاز بها صديقنا خالد على زمليه الأستاذ عبد السلام. وخالد ـ كما قلت آنفا ـ هو أحد الرجلين اللذين خطرا بالي وأنا أتحدث عن بعض صفات المؤلف.

أما الثاني فلا تربطه بالمؤلف إلا رابطة الأدب. فمن المؤكد أن هذا الرجل قد لقي الله والمؤلف لم يتخط مرحلة الطفولة وقد عنيت الرافعي إحدى الشخصيتين اللتين يقوم عليهما كتاب المؤلف. ومن المعلوم أن الرافعي كان صاحب عاهة، فَقَدَ سمعه في الفترة الاولى من حياته. وكان ذلك نعمة على أدبه فقد وجهه ذلك الوجهة التي جعلت منه (القلم البليغ نابغة الأدب وحجة العرب) وإن كان ذلك كله لم يمنع أديبا كبيرا من معاصريه من استغلال عاهته استغلالا سيئًا وجعلها سبة له، فوصفه بأنه (المهذار الأصم).

ومما يذكر بهذه المناسبة أنني وبعض زملائي في المرحلة الثانوية بمكة كنا نصدر مجلات خطية، وقد ثارت بعض مجادلات أدبية تحولت إلى مناقشات شديدة ثم إلى معارك عنيفة وكان من خصومي في بعض هذه زميل كريم فقد حاسة السمع، فاستعرت عنوان الأستاذ العقاد (المهذار الأصم) وجعلته عنوانا لبعض مقالاتي في الرد علي الزميل الأديب الفاضل.

كما أن زميلا آخر كان من خصومي في هذه المعارك، كتب في مهاجمتي بعض مقالات تحت عنوان (إن البغاث بارضنا يستنسر) والمراد بالبغاث في هذا المجال هو كاتب هاته السطور، والمراد من كلمة (أرضنا) هي مكة المشرفة، والمعني بعد ذلك واضح لا يحتاج إلى بيان. وإذا قبلت هذه التصرفات من فتيان في مرحلة المراهقة اعتبرت نوعا من العبث الصبياني، فإن من الصعب قبولها من أديب كبير كالأستاذ العقاد في مهاجمة زميل له.

والأستاذ العقاد يعلم جيدا أن عاهة الصمم وغيرها من العاهات أمور لا يد

(☆) نشر في جريدة المدينة للنورة في يوم الجمعة الموافق ٤/١٢/١٣٨٨هـ العدد ١٤٩٣ .

فيها للمصابين بها، لأنه فوق إرادتهم.. ولو خيروا لما اختاروا ولو وجدوا سبيلًا للخلاص منها لولجوه. وقد عاش الرافعي طول حياته والأمل يراوده بأن يستعيد سمعه ولم يفقد هذا الأمل حتى توفاه الله.

فتعيير أصحاب العاهات بعاهاتهم عمل أقل ما يوصف أنه عمل غير لائق. صحيح أن الصورة التي ترسمها هاتان الكملتان (المهذار الأصم) صورة جميلة وطريفة، ولنتصور رجلًا مصابًا بالصمم لا تصل إليه كلمات الناس ولا تعليقاتهم وهو جالس يهذي بكلام لا أول له ولا آخر، وربما لمح كلمة على شفة أحد الجالسين ففهمها على غير حقيقتها، وبنى على فهمه الخاطىء تصورات لا تتفق مع الواقع، وانطلق يتحدث بكلام يثير دهشة الجالسين وتساؤلهم، وربما أثارت الارتسامات البارزة على وجوه الناس شكوكه وأوهامه، ففسرها تفسيرات لا تتفق مع الحقيقة في شيء فأخذ يخبط خبط عشواء كحاطب ليل.

فالصورة جميلة، ولكن مهما بلغ جمال الصورة فليس ذلك مبررًا كافيًا لتعيير الناس والإساءة إليهم. ولست بحاجة بعد هذا إلى القول بأن الرافعي قد انتصر لنفسه وكال الصاع للعقاد صاعين. كما أنني لست بحاجة إلى البحث عن البادي (الأظلم) فذلك أمر خارج عن موضوع بحثنا.

ونعود إلى الكتاب فنذكر أن مؤلفه الفاضل سمّاه (الرافعي ومي ملاكان على الأرض) وبهذه المناسبة نشرت الصحف عنه قبل صدوره. كما أن مؤلفه أخبرني بهذه التسمية وهو لا يزال تحت الطبع، ولكن الكتاب صدر بعد بتسمية مبتورة إذ حذف الشق الثاني من التسمية فأصبحت (الرافعي ومي) ولم أعرف لهذا التغيير سببا.

ويبدو أن المؤلف نفسه لا يعرف سبب هذا التغيير، فقد فوجىء كما فوجئت. ولعل (الدار) التي تولت طبع الكتاب ونشره هي التي ارتأت حذف الشق الثاني من الاسم. وقد خطر ببالي أنه ربما كان لتصميم الغلاف أثر في هذا التعديل، ولكنني استبعدت ذلك لأن تصميم الغلاف باي اسم ليس عملية صعبة وخاصة لدى هيئة تملك الكثير من الإمكانات الضخمة.

فهل لموضوع الكتاب أثر في هذا التغيير؟ وبعبارة أخرى: هل لاحظ المسؤولون عن شؤون النشر أن العلاقة بين (ملائكية) العنوان وموضوع الكتاب واهية وضعيفة إن لم تكن مقطوعة؟ ولذلك آثروا حذف هذا الجزء من العنوان؟ ذلك احتمال قوي في تصوري، إذ لم أجد في الكتاب أي أثر يربط مافيه بهذه الملائكية إلا إشارة عابرة وردت في المقدمة هي قول عن الرافعي ومي (كلاهما مؤمن سعى سعيه للحفاظ على بيئة الشرق العربي ومقدساته ولغته العربية الأم.. هو المسلم النقي الغيور.. وهي المسيحية القديسة الواعية).

وهذه الإشارة العابرة كانت تصلح في نظري لأن تكون موضوعًا لكتاب قيم عن الرافعي ومي، ولو حرص المؤلف على إدارة الحديث حول هذه الفكرة لأضاف إلى المكتبة العربية كتابًا يمتاز بالجدة والجودة، وإن كان ذلك يقتضي من المؤلف جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلًا.

والآن فلنقف قليلًا لنرى ماذا في الكتاب؟ وأول ما يسترعي الانتباه وهو معرفة السر في جمع المؤلف بين هاتين الشخصيتين، وقد أجاب المؤلف على هذا التساؤل في مقدمته قال «فقد يسأل سائل: لماذا تعمدت الجمع بين دراستين عن أديب العرب: الأستاذ مصطفى صادق الرافعي وعن الأديبة القديرة الآنسة ماري زيادة المعروفة باسم (مي)؟!

ما وجهة النظر الأساسية في دراستي عن كل منهما ليضمهما هذا الكتاب؟وهناك أكثر من سبب: فالرافعي ومي كل منهما له منهج وحده في الأسلوب الأدبي: هو في دولة الأدباء، وهي في درجة الأديبات.. وكلاهما مؤمن سعى سعيه للحفاظ على بيئة الشرق العربي ومقدساته ولغته العربية الأم. هو المسلم التقي الغيور، وهي المسيحية القديسة الواعية.

هناك العلاقة الروحية التي كانت بينهما، والعاطفة السامية التي ربطت قلبيهما من أول لقاء، فبادلته مي شعوره ولكن في تحفظ شديد، إذ كان وضعهما لا يسمح بأكثر من هذا الستار الذي ضربته هي حولها، حتى إن عاطفتها تعتبر الحلقة المفقودة في حياتها. ولكن هذا الحصار الذي رضي لها به الرافعي بالنسبة لغيره لم يكن يرضيه هو بالنسبة لنفسه، فكان أن

ثارت كبرياؤه وهجر الحي البهي، وظل قلبه معلقًا به لا يجد عنه مصرفا. وقد استوفينا ذلك في الحديث عن (حب الرافعي) من هذه الدراسة.

ولقد عاش الرافعي ومي في عصر مبكر وسابق لمثل عاطفتيهما أن تزدهر وتأتلف، وفي ذلك ينطوي سر مأساة (مي) وسر غضبة الرافعي وآلامه».

فقد اعتمد المؤلف في الجمع بين الرافعي ومي على أسس ثلاثة:

(١) أصالة كلٍ منهما في الأسلوب الأدبي.

(٢) الإيمان المسيطر على كل منهما، وسعيهما الحثيث للحفاظ على بيئة الشرق العربي ومقدساته.

(٣) العلاقة الروحية التي كانت بينهما.

والأساس الأول - في رأينا - أساس واهٍ ضعيف، فهناك كثير من الأدباء لهم مناهجهم الأدبية المستقلة.

والأساس الثاني يصلح الاعتماد عليه في الجمع بين الاديبين، ولكن المؤلف لم يول هذه الناحية اهتمامه، بل مر بها مرورًا خاطفا وكأنها لا تعنيه.

أما الأساس الثالث فهو أقوى الأسس الثلاثة، وهو الذي خطر ببالي عندما سمعت خبر تأليف هذا الكتاب، وقبل أن اطلع عليه أعتقد أن كل المثقفين قد خطر ببالهم ما خطر ببالي، وهم يسمعون عن كتاب يجمع بين الرافعي ومي. وقد تصورت عندما علمت خبر هذا الكتاب أن المؤلف الفاضل قد توصل إلى نتائج حاسمة في موضوع العلاقة الروحية بينهما، وأنه قد وقع على رسائل جديدة أو وثائق غير معروفة من قبل، وأنه جاءنا في كتابه بالقول الفاصل في قضية الحب بين الرافعي ومي.. هذه القضية التي اختلف فيها الأدباء والنقاد اختلافا كبيرا، ولم يستطع الوصول فيها إلى نتائج حاسمة أحد منهم حتى ولا أقرب المقربين من الرافعي ومي.

ولم أتصور أن كتابا يحمل أسم (الرافعي ومي ملاكان على الارض) سيبحث في غير هذه العلاقة التي شغلت النقاد فترة من الزمن. فهل صح ما تصورته؟

لنقفز إلى الفصل الذي كتبه المؤلف عن حب الرافعي، وإلى الفصل الذي كتبه عن حب مي علّنا نجد جديدًا في الموضوع.

لقد قــرأت الفصلين فوجــدت أن المؤلف لم يضف شيئًا جديدًا بل خرج بهذا التساؤل:

(أكانت هي تعني الرافعي ـ كما اعتقد هو ـ وكما كان يؤكد هو بأن مي تبادله حبه في صمت وفي خجل من المحيط الذي يكتنفها؟).

(قد يكون الرافعي هو هذا الذي كانت تناجيه في وحدتها،تكتب عن عذابها وأشواقها ليقرأ ويعرف، وقد يكون غيره عاشت تكتم خبره وتتألم به وتبحث عن طيف خيالاته في فراغها الكئيب).

وهكذا لم يخطُ المؤلف أي خطوة في هذه القضية، ولم يضف جديدًا، بل ولم يعتبر قضية الحب محورا هاما يدور عليه الكتاب، وما كتبه في الفصلين لا يخرج عما كتبه الأستاذ العريان، مع أن الأستاذ العريان قد توسع في هذا الموضوع وكتب فيه فصلًا ضافيًا، أما الأستاذ المؤلف فقد كتب كتابة مؤجزة وعابرة كأنها مجرد تكملة للكتاب.

وكان في وسع المؤلف أن يستعرض ما صدر من مؤلفات عن مي، وأن يدرس ما نشر مؤخرًا من رسائل خاصة كتبتها مي، وهي تلقي بعض الضوء على هذه القضية. ولكن المؤلف لم يعتمد إلا على كتاب حياة مي للأستاذ محمد عبد الغني حسن وأهمل الكتب الأخرى.

ونخلص من هذا الحديث إلى أن المؤلف لم يعتمد على الأسس التي أشار إليها في مقدمة الكتاب، وأن هذه الأسس إنما أتى بها كمبررات للجمع بين الرافعي ومي في كتاب، وإن حسّنا الظن قلنا إن المؤلف وضع خطة لكتابه عندما فكر في تأليفه، ولكنه عندما باشر عملية التأليف قابلته صعوبات لم يستطع أمامها أن يمضي في تحقيق خطته، فاهملها واكتفى بترجمة كلٍ من الأديبين ترجمة مستقلة، ثم تحدث عن الحب الذي قيل إنه ربط الرافعي بمي على أعتبار أنه هو الرابطة التي تربط بين الترجمتين، فلننظر إلى الترجمتين على هذا الأساس، أي على أساس أنهما ترجمتان منفصلتان.

الحلقة الثالثة(*)

يقع الكتاب في ١٥٤ صفحة، خص الرافعي منه بأربع وتسعين صفحة والباقي لمي، وكتب المؤلف اثني عشر فصلا عن الرافعي وسبعة عن مي، ولست بحاجة إلى استعراض هذه الفصول أو نقدها، ولكنني أستطيع أن أقرر أنني لم أضف جديدًا إلى معلوماتي عن الرافعي ومي بعد أن انتهيت من قراءة الكتاب، وسبب ذلك أن المؤلف اعتمد اعتمادًا كليًا على عدد من الكتب القليلة ذكرها في مقدمة كتابه. وخاصة كتاب حياة الرافعي للاستاذ محمد سعيد العريان، وحياة مي للاستاذ محمد عبد الغني حسن، وأنت لست بحاجة إلى جهد أو ذكاء لتدرك المدى البعيد الذي ذهب إليه المؤلف في اعتماده على هذين الكتابين، بل الأغرب من هذا أن المؤلف قد اعتمد في دراسة مي على كتاب للأستاذ محمد عبد الغني حسن (حياة مي) الصادر في سنة ١٩٦٣ عن مي باسم (مي أديبة الشرق والعروبة)، وهو كتاب وإن كان أساسه كتاب (حياة مي) إلا أن المؤلف عاد وأضاف إليه كثيراً من المعلومات التي توفرت لديه من عشر السنوات التي تلت صدور الكتاب، وهي معلومات هامة جعلت المؤلف نفسه يقول في خاتمة مقدمة كتابه (مي أديبة الشرق والعروبة) «وبعد فإن هذا الكتاب الجديد عن مي هو جديد فعلًا بما أضيفت إليه من زيادات كثيرة ومراجعات كثيرة، وبما وسعت فيه من أبواب جديدة استجابة لرأي ناقد وتوجيه موجهٍ، حتى لقد خرج بهذا عن أن يكون طبعة معادة».

وإذا كان الأستاذ المؤلف أغفل الرجوع إلى هذا الكتاب في طبعته الجديدة فإن من غير المقبول أن نطلبه بالعودة إلى ما كتب الأستاذ جميل جبر عن مي، ولا إلى محاضرات الدكتور منصور فهمي عن مي، ولا إلى ما نشر عن مي في مؤلفات وما طبع لها من رسائل خاصة قد تلقي أضواء كاشفة على ما

(*) نشر هذا المقال في جريدة المدينة المنورة يوم الجمعة الموافق ١٨/١٢/١٣٨٨ العدد ١٥٠٠ .

غمض من حياتها وآدابها واتجاهاتها.

وما ننكره هنا من أنّ غير المقبول هو في حقيقة الأمر الطبيعي والبديهي فكرة تدرس موضوعًا لشخصية فإن أول الأسس في هذا المجال هو أن تستقصي كل ما صدر من مؤلفات مطبوعة (وكنا نود أن نقول ومخطوطة أيضًا) ثم تقرأ كل هذه المؤلفات قراءة فاحصة. ومن شان هذه القراءة أن تفتح أمامك آفاقا جديدة، وربما وجدت فيها جوابًا للكثير مما في ذهنك من أسئلة حول هذا الموضوع، وربما هيات السبل أمامك للوصول إلى نتائج وأهداف لم تكن تتوقعها ولم تخطر لك على بال.

وإهمال المؤلف الفاضل الاستعانة بالمراجع ظاهرة تستلفت النظر، ويبدو أن فكرة خطرت بباله عن تاليف كتاب (أي كتاب) أو أقترح عليه بتأليف كتاب يطبع ضمن كتب المؤسسة التي قامت بطبع الكتاب ونشره، فقام بتنفيذ الفكرة أو الاقتراح دون أن يحفل باي شيء آخر.

مع أن المؤلف تعرض لرسائل الرافعي التي نشرها الأستاذ أبو رية بصورة عابرة في بعض فصول كتابه، فإنه لم يرها أهلا لأن تذكر ضمن مراجعه القليلة التي أوردها في مقدمة كتابه. ومع أن هذه الرسائل وما كتب حولها وخاصة ما كتبته الأديبة نعمات أحمد فؤاد تصلح موضوعًا لكتاب قيم عن الرافعي يجلو ما خفي من عبقريته ونبوغه وتصحح الأخطاء التي وقع فيها بعض من كتب عنه، فموضوع رسائل الرافعي موضوع رئيسي هام يصلح أن يكون موضوعا لرسالة أو كتاب عن الرافعي.

وليس هذا فحسب.. بل إن مجالات الكتابة عن الرافعي واسعة وخصبة. فهناك شعره وهو قدر غير يسير يصلح أن يكون موضوع دراسة مستفيضة لاسيما وأن شعره لم يحظ بالعناية الكافية من الدارسين والنقاد بالإضافة إلى بعد عهد الناس به. فلو عني المؤلف بتقديمه للناس في إطار من الدراسة الواعية والبحث الجاد لقدم جهدا مشكورا لا يُنسي.

وهناك معاركه الأدبية والنقدية. وهي معارك مهما قيل عنها فهي معارك قد

تركت آثارًا بعيدة المدى في الدراسات الأدبية والنقدية. وفي هذه المعارك مجال واسع للدارسين والباحثين. ومن الواضح أننا لا نعني بالحديث على كتابات الأستاذ العريان في هذا المجال. ولكننا نعني دراسة فيها معنى الاستقصاء والشمول، ودراسة لنصوص واستكناه ما غمض، واستيضاح ما خفي ومحاولة التعرف على شتي الاتجاهات ومختلف التيارات، وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة والوصول بعد كل هذا إلى نتائج تضاف إلى تراثنا الأدبي.

وهناك أيضا ناحية هامة كم كنا نود لو أن الصديق المفضال قد توجه وأولاها ما تستحق من عناية واهتمام، وهي ناحية جديرة بالعناية والدرس، ونعني بها ما ترك الرافعي من إنتاج أدبي لم ينشر أو نشر في صحف ومجلات بعد بها العهد، وأصبح من العسير المتعذر الحصول عليها أو الرجوع إليها.

ومن الغريب أن المؤلف الفاضل لم يشر إلا إلى كتاب (أسرار الأعجاز) ولا إلى الجزء الأخير من ديوان الرافعي مما لم ينشر في كتاب.

وقد اختصر المؤلف حديث الأستاذ العريان عن كتاب (أسرار الإعجاز) في حياة الرافعي، ولم يزد عليه إلا قوله (وإنا لنرجو مخلصين أن يظهر هذا الأثر من ديوان الرافعي وخاصة هذا الكنز الأدبي ـ أسرار الإعجاز ـ ولعل الله يوفقنا للبحث عنه وإخراجه من أضابير الظلام).

وكان المأمول أن يكون المؤلف الفاضل قد فعل ذلك لأن الأستاذ العريان قد تحدث عن هذا الكتاب قبل ثلاثين سنة وأثنى عليه أجمل الثناء.

ومع ذلك فإنه لم يصدر حتى الآن، ولم يحاول مؤلفنا الفاضل أن يتعرف على أسباب عدم طبعه. وكل ما فعله هو هذا الرجاء في أن يوفق للبحث عنه وإخراجه من أضابير الظلام، وكان في مكنته أن يبحث ويتصل بالرافعي وأصدقائه لمعرفة الأسباب التي حالت دون ظهور هذا الأثر النفيس. ومن المصادفات العجيبة أنني قرأت وأنا أكتب هذا خبرا في جريدة «البلاد» في عددها الصادر في ٣٠ ذي الحجة ١٣٨٧هـ جاء فيه ما يلي: أشار الأستاذ محمود أبو رية من أصدقاء مصطفى صادق في رسالة بعث بها إلى إحدى

الصحف أخيرا. أشار إلى أن للأستاذ الرافعي آثارًا كثيرة لم تنشر، وأن ذلك حوالي (٨٠) آية من القرآن أبان فيها أسرار إعجازها وكتابا بعنوان فصيح الكلام وهو يجمع ما ورد في الكتب المختلفة، وأكثر من مائة مقالة نشرها في الصحف والمجلات ولم يضمها كتاب بعد، ومنها (٦٧) مقالة كانت عنده هو بالذات ثم استعارها منه الرافعي ليضمها إلى كتابه (وحي القلم) إلا أنه لم يفعل.

ويشير هذا الخبر كما رأينا إلى وجود آثار كثيرة للرافعي لم تنشر، فكم يكون رائعا لو أولاها مؤلفنا الفاضل ما تستحق من اهتمام ودرس.. إذًا لقدم شيئا يستحق الإشادة والتنويه والإعجاب. ولكن مؤلفنا الفاضل - مع كل أسف - لم يحفل بأية ناحية من النواحي التي ذكرنا، وبذلك ليسلم من ذكر الكلام المعاد المكرور. ولكنه آثر سلوك الطريق المعبد المسلوك على ما فيه من رتابة وإملال على الطريق المبكر، علي ما فيها من روعة وجدة وجمال، وهكذا إن مجالات التاليف عن الرافعي وإنتاجه مجالات خصبة وواسعة ومتسعة. ومع ذلك فإنني أخشى أن أكون قد تجنيت على صديقي المؤلف الفاضل بهذه الملاحظات، ولعله لم يرد كتابة دراسة عميقة ذات منهج وهدف لأنه لو أراد ذلك لما خفيت عنه تلك الأصول التي تقوم عليها الدراسة الجادة العميقة، ولكنه أراد أن يقدم للقراء وجبة خفيفة تفيدهم وتوجه أنظارهم إلى شخصيتين لم تنالا مما تستحقان من عناية القراء. ونستطيع أن نقول إنهما أو أحدهما على الاقل لا يزال ضحية لظلم نتيجة لعوامل كثيرة، واعني بها شخصية الرافعي، ولعل المؤلف الفاضل جمع بين الرافعي ومي في مؤلف واحد بقصد اجتذاب القراء، فلو جعله قاصرًا علي الرافعي فإن من المحتمل جدا ألا يقرأ هذا الكتاب إلا عشاق أدب الرافعي، وليس هذا مراد المؤلف الكريم، ولكن مراده اجتذاب جمهور أكبر من القراء على اختلاف مشاربهم ولاسيما بين الشباب الناشئين.

ولكن المؤلف جمع بين الرافعي ومي فكسب بذلك قراء كثيرين فإن الصورة المشرقة في مقتبل حياتها ثم نهايتها الاليمة كل ذلك أضفى على مي كثيراً

من الظلال الرائعة والالوان الجذابة، وجعلها حبيبة إلى النفوس قريبة إلى القلوب. إذا كان هذا هو مراد المؤلف الفاضل، فمن المؤكد أنني تجنيت عليه، بل وأسرفت في التجني. وإن كان عذري أنني نظرت إلى الموضوع نظرة سامية فقد كنت اتطلع إلى أن أقرأ لباحث من وطني كتابًا على مستوى رفيع ولاسيما بعد ما رأيت من اعتزاز الأستاذ الصديق بمؤلفه هذا، فإذا كان هناك شيء من التجني - كثيراً أو قليلًا - فإن صديقي المؤلف يتحمل قسطًا من المسؤولية.

وعلى هذا فإن من الإنصاف أن نسجل للمؤلف عددًا من الحسنات:

وأولى هذه الحسنات هي تفكير المؤلف الفاضل في إخراج مؤلف عن الرافعي ومي، وهما أديبان مظلومان. أما الرافعي فقد تآمرت عليه قوى الشر محاولة اخفاء ذكره وإهمال أدبه وإنقاص قدره بتهمة الرجعية والجمود والتخلف وبحجة غموض تعبيره وخفاء صوره وصعوبة أسلوبه وبسبب إيمانه بالقرآن وتعصبه للعربية ودفاعه عن المأثور.

أما مي فقد جنى عليها جمالها، فهي ضحية هذا الجمال. شغل به معاصروها من الأدباء والشعراء سواء منهم رواد صالونها أم غيرهم، كما شغف بحبها غيرهم من الادباء والباحثين، فارتبط اسمها في أذهان الناس بجمالها الفتان، فلم يحفل الناس بثقافتها وآرائها الناضجة حفولهم بالحديث عن جمالها وغرام الأدباء بها وافتتانهم بفتنتها، وتنافسهم على اكتساب ودها حتى لو فكر باحث في تأليف دراسة موضوعها تأثير جمال مي في إنتاج أدباء عصرها لخرج بدراسة ضخمة نظرا لخصب الموضوع واتساع نواحيه.

فهذا الكتاب محاولة ناجحة لرفع الظلم عن هذين العلمين العظيمين، نرجو أن تتلوها محاولات أخرى، لأن كثافة الظلم - إن جاز هذا التعبير - الذي تعرض له الأديبان النابغان تتطلب كفاحًا طويلًا وجهادًا جبارًا لرفع هذا الأمر، وتخفيف حدة الظلم.

ومن حسنات المؤلف إعجابه الكبير بالشخصيتين اللتين يتحدث عنهما،

ولهذا الإعجاب آثاره الطيبة التي تجلت في طريقة الكتابة عنهما. والإعجاب أمثال هذه الحالة ضرورة لازمة تؤدي الهدف منها.

ومما يذكر للمؤلف من الحسنات اهتمامه وهو يتحدث عن الرافعي وعن مي بموضوع المرأة ورأيه في هذه الناحية رأي يتصف بالحكمة.

وحكمة المؤلف واعتداله بالنسبة لرأيه في المرأة يذكرني برأي مضاد، راي أمرأة في الرافعي يتصف بالجنوح والاضطراب وسوء الفهم، وهو رأي أشار إليه المؤلف الفاضل إشارة عابرة. فقد خطر لامرأة أن تكتب دراسة عن أدب الرافعي، ثم كتبت رسالة في حوالي المائة صفحة. وأنا لم أدهش لما ورد فيها من تخليط وجنوح فإن اضطراب الموازين في يد المرأة من الأمور المتوقعة. وقد قرأت منذ قريب أن أحد الاتحادات الرياضية أصدر قرارا بمنع النساء من التحكيم نظرا لما لوحظ من عدم استطاعتهن الاعتدال وضبط الموازين.

وهكذا عجزت المرأة حتى عن ضبط الموازين في الأمور المادية فما بالك بالأمور الفكرية؟!

ولذلك فإنني لم أدهش لما قرأته في كتاب المؤلفة الفاضلة، وإنما دهشت لإقدام امرأة على دراسة أدب الرافعي. على أن دهشتي زالت بعد قراءة الكتاب.

ومن حسنات المؤلف التي تذكر له أنه تنبه للسر. قال المؤلف الفاضل (في رسائل الرافعي تلك للأستاذ أبي رية فقرات تبين شكواه مما كان يعترضه ـ كغيره من البشر ـ من آلام جسمانية ومن متاعب الحياة ومن الإرهاق في أعماله الفكرية الضخمة. تلك الفقرات كانت المرجع الرئيسي لما جاء في كتاب ظهر سنة ١٩٥٣ باسم (دراسة في أدب الرافعي) لكاتبة اسرفت في تهجمها على الرافعي. لقد استرسلت تنقد الرافعي وفكره وبعض ألوان أدبه بطريقة لا يقرها عليها أديب أو ناقد نزيه).هذا ما قاله المؤلف الفاضل.

أما أنا فكنت ألمعت آنفًا بانني اقرها علي طريقتها، لأنها لا تملك غيرها حتى ولو حرصت، فما بالك إذا كانت دراستها تهدف إلى غاية غير كريمة. وهي

التي تنبه إليها المؤلف الفاضل حين قال بعد قوله السابق مباشرة: (وهذا الرجل الفذ ..الرافعي الإنسان المؤمن. هذا الذي لا يرضى للمرأة بتقاليد الانحدار والتبرج، والذي وقف حياته لتبصير الناس بأسرار لغتهم وإعجاز قرآنهم وآدابهم وسمو تقاليدهم وقوميتهم وأخلاقهم الشرقية البريئة).

هذه كلمة عابرة نقولها عن كتاب (دراسة في أدب الرافعي) للأديبة نعمات فؤاد، ولنا إليها عودة قريبة نطيل عندها الوقوف. ونحن نختم بها دراستنا عن كتاب زميلنا وصديقنا الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ، الذي نود أن نجعل مسك الختام عن كتابه تقديم خالص شكرنا له على تفضله بإهدائنا كتابه: (الرافعي ومي)[1].

(١) صدر في القاهرة عام ١٣٦٤هـ وصفحاته (١٥٤).

تقديم

هذه المجموعة الشعرية التي أكتب عنها اليوم، هي باقة ورد عطرة تقدم لجلالة الملك الخالد الباني، ترنم بها أصحابها في عيد أوبته الميمونة إلى أرض الوطن، أوبة السلامة والعافية والشفاء، وعقد من مشاعر المحبة المخلصة يطوقون بها جيده الأصيد الشماخ، علّهم يكونون بذلك قد استطاعوا التعبير عن بعض ما في نفوسهم من ولاء ووفاء لقائدهم العظيم، كفاء سهره من أجلهم، وبره بهم، وحدبه عليهم، ورعايته الأبوية لهم، فقد جاء في الحديث الشريف:

«من صنع فيكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»

ومع ذلك فقد اعترف الزميل الشاعر حسن صيرفي في أولى قصائد هذه المجموعة، أنه لن يستطيع أن يفي هذا الرجل، بل آل السعود البناة حقهم فقال:

آل السعود تقبلوا عذري هيهات يبلغ شاوكم شعري
رغم اقتناصي كل لؤلؤة لم يفترعها شاعر غيري
حاولت أسلك من جواهرها عقدًا يتيه بنادر الدر
والأمر أعظم من محاولتي فإذا عجزت تقبلوا عذري

هي ليست مديحًا زائفًا، ولا تزلفًا ولا رياء، بل هي تعبير عن نشوة الفرحة بعودة الوالد، وشفاء القائد، وأوبة الأمل الأخضر إلى النفوس الصادية دفاقًا بالحيوية، زاخرًا بالعنفوان، تلك العودة التي أطلقت ألسنتهم بالشكر والحمد لله تعالى، بقدر ما كان قد فجّر فيهم الغياب من عناصر الألم والحرقة المدثرة بالضراعة إلى الله أن يشفي القائد الغائب، ويعيده لأبناء شعبه المتطلع إليه في حب وحنين وشوق، يقول الزميل الشاعر الأستاذ محمد هاشم رشيد:

لك يارب حمدنا والثناء فلقد عاد سعدنا والهناء
عاد للعرب والمفاخر، والإسلام والمجد، مجدها الوضاء
عاد للشعب والد الشعب فجرا يتلاقى فيه السنا والسناء
والتقينا بخالد.. بالأب الحاني فزال الأسى وولّى الشقاء
فلك الحمد يا إله البرايا ولك الشكر ما تعالى الدعاء

ويعبر الدكتور محمد محمود خاطر عما عاناه هذا الشعب من حزن، وما قاساه من أسى في لحظات وداعه لمليكه أثناء المدة التي قضاها تحت العلاج فيقول:

عبر الليالي شجون بين أفئدة عند الوداع، ودمع العين يبديها
وخلف رحلته الأبصار خاشعة خوفًا على من إلى العليا يناديها
أرواحنا كلها دوى بصرختها دعاؤها فأصاب القوس باريها
واليوم عاد وقد غنت لعودته أرض الجزيرة من أعلى أقاصيها

وعن الشخصية الدينية التي عرف بها الناس راعى هذه الأمة يقول الشاعر عبد الحميد ربيع:

يا خالد الإيمان شدت صروحه بين المساجد إذ تضيء الساح
ويهيب داعي الله في جوف الدجى فيجيبه بين القلوب فلاح
وتهب أفواج الصلاح لموطن يرعاه بين العالمين صلاح
وإذا تجمعت القلوب على الهدى هيهات يخذلها هوى وجماح

وإنما الإخلاص يظهر في المواقف الحازبة والمواقف السارة، ولقد كانت أفئدة أبناء الشعب الأصيل حمائم تحوم حول موكب الملك خالد بن عبد العزيز، وأماني ترفرف على الأهداب المعقودة على الرجاء، الحالمة، بالجوانب المضيئة من الحياة، لم تغادره لحظة واحدة، منذ أقلته الطائرة إلى لندن في رحلة الاستشفاء إلى أن رجع لنا منها بحمد الله ملفعًا ثياب العافية والشفاء، إنها أفئدة أحبته بكل معاني الحب، وأخلصت له ودَّها وهواها، فصاغته نغمًا في لحن، وكلمة في أغنية، وحركة في رقص، وبيتًا في قصيدة، فلم يبق أحد في بادية أو حاضرة.. في مدرسة أو جامعة.. في مزرعة أو مصنع.. في شارع أو

بيت.. إلا وعبر بطريقة ما عن فرحته بالعودة الميمونة المباركة، فصفق الوقور، ورقص الكبير والصغير، وهتف الأساتذة والطلاب، وغنى العامل والفلاح، وأطنب الخطباء، وتغنى الشعراء، وهزج الناس في كل مكان، ورفع المصلون أيديهم لله حمداً، وسجدوا لله سجود الشاكرين.

ونادى المدينة المنورة الأدبي ـ وهو يضم النخبة الممتازة من الكتاب والشعراء في بلد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ـ كان لابد أن يكون في طليعة المحتفلين بهذه المناسبة السعيدة، لذلك فإنه لم يدع فرصة إلا اغتنمها لإبداء فرحته وإعلان بهجته.. اشترك في الحفل الكبير الذي أقامته إمارة منطقة المدينة المنورة بعدد من القصائد الشعرية، كما اشترك بعض أعضائه بقصائد شعرية أيضًا في الإذاعة والتلفزيون، وقدمت فرقة الأناشيد بالنادي مجموعة من الأناشيد الوطنية والترحيبية، ثم تبنى النادي فكرة إقامة مهرجان شعري مفتوح، دعا إليه جميع الشعراء، وحضره سعادة الشيخ سعد الناصر السديري وكيل الإمارة وكبار الشخصيات، واشترك فيه ثلاثون شاعرًا.

إننا عندما نقدم هذا الديوان[1] إلى قراء العربية، إنما نقدم ثروة من العواطف الجياشة الخالدة الباقية، ونسجل كذلك فترة من أجمل فترات هذا العصر الذهبي الذي نعيشه وتعيشه أمتنا، ونضيف إلى مكتبتنا رصيداً من الشعر النابض والأدب الحي.

على أن من واجبنا أن نتوجه بصادق الشكر وعظيم التقدير إلى صاحب السمو الملكي الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز أمير منطقة المدينة المنورة على رعايته الكاملة لكل مجال من مجالات النهضة في هذه المنطقة وخاصة ما يتصل منها بالعلم والثقافة وشؤون الفكر.

ولسوف نذكر دائمًا ما أضفاه ـ ولا يزال يضيفه ـ على نادينا من ألوان الرعاية منذ أن كان أسرة أدبية صغيرة تطلق على نفسها (أسرة وادي

---

(١) «ترانيم العودة» من إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي، يضم القصائد الشعرية التي القيت في المهرجان الشعري الكبير الذي اقامه القارئ في مساء يوم الاثنين الموافق ١٤/٥/١٣٩٧هـ قام بإعداده. فوزان الحجيلي، ناجي محمد حسن الانصاري.

العقيق المبارك)

ومن واجبنا كذلك أن نذكر بكثير من التقدير جهود الرئاسة العامة لرعاية الشباب، وعلى رأسها الأمير الشاب المثقف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الذي تبنى - مشكورًا - فكرة الأندية الأدبية، وقدم لها كل وسائل الدعم، وأولاها الكثير من عنايته حتى استطاعت أن تقوم بدورها في خدمة الأدب والثقافة والفكر.وأصبحت واجهة مشرقة من واجهات مملكتنا الحبيبة.

رأي... وكتاب(*)

ليس هذا الذي نتحدث عنه اليوم كتابا إذا نظرنا إليه في ضوء المقاييس المحدودة التي تعارف عليها جمهرة القراء.. ولكننا إذا نظرنا إليه بمنظار آخر، منظار المنفعة والإثارة والفائدة فسنجد أنه كتاب من الكتب الرائعة التي تستحق التعليق والإشادة. وهذا الذي نتحدث عنه مقالة نشرت في مجلة الرائد، أو إن شئت الدقة فهي مقابلة قام بها الصديق الأديب النابه أبو مدين مع أحد رجال الفكر في بريطانيا.

وأول ما يمكن أن يلاحظه الكاتب، وهو يقرأ ما دار في هذه المقابلة، هي فكرة المقابلة. وهي فكرة نيرة تدل على وعي صديقنا أبي مدين. فهي فرصة ـ ولا شك ـ عرف الصديق الأديب كيف يتبناها ليطلع على بني قومه بهذه الآراء الرائعة التي سنعرض لها في هذا المقال، كما أن الاسئلة التي قام الأستاذ أبو مدين بتوجيهها إلى الدكتور أمرس أسئلة دقيقة مركزة. وإذا كان الأستاذ قد أعدها قبل المقابلة بوقت كافٍ فنحن نشهد أنه قد أعدها إعدادًا موفقًا، أما إذا كانت من وحي الخاطر فهي تدل دلالة كافية على سرعة بديهة الأستاذ الصديق.

بقيت ملاحظتان عابرتان أولاهما أن الأستاذ أبا مدين لم يعطنا فكرة كافية عن الدكتور أمرس، ولا عن وظيفته في الجامعة، بل ولا حتى عن اسمه الكامل، ولا طريقة النطق به. فهو لم يشكل الاسم ولم يكتبه بالإنجليزية، وإن كانت بعض المعلومات الواردة في المقابلة تعطي القارئ بعض الجواب.

أما الملاحظة الثانية فهي الأسلوب الذي كتبت به المقابلة، وهو أسلوب بعيد عن الاسلوب المشرق الذي تعودنا أن نقرأ كتابات الأستاذ أبي مدين.ولسنا بحاجة إلى ضرب الأمثال فالأمر واضح لا يحتاج إلى تناظر، ولا إلى شك في أن للأستاذ عذره في هذه الظروف. على أنني كنت أوثر أن تكتب المقابلة

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٠/٥/٢٤هـ الموافق ١٩٦٠/١١/١٣م العدد (٣٨)

بأسلوب أنيق مشرق.

وكان السؤال الاول عن أسلوب التعليم في بريطانيا بصورة عامة. وقد أجاب الدكتور أمرس إجابة دقيقة واضحة صريحة، فقال إنه راقٍ ولكنه لم يصل إلى المستوى الذي نريده له.

ولم يحاول الدكتور أن يموه أو يغالط، بل قال الحقيقة كما هي، وكما يعتقدها، وكما ذكر بأن التعليم حتى سن الخامسة عشرة إجباري ولم تستطع أي دراسة من دول الشرق الأوسط أن تصل في تعليم أبنائها إلى هذا المستوى.

وقد أشار إلى توفر المدرسين عندما ذكر أن كل مدرس يشرف على تعليم ثلاثين من الطلاب، وهي نسبة ممتازة في نظر الكثيرين، ولكنها في نظره لم تكن كذلك. فهو يتوقع أن يهبط العدد إلى ١٣ تلميذا مستقبلا، وما من شك في أن المدرس الذي يعلم ثلاثة عشر من الطلاب أنجح في عمله من الذي يعلم أضعاف هذا العدد، ولم يفت الدكتور أن يشير إلى فكرة تربوية عظيمة تعمل الآن بريطانيا على تحقيقها. تلك هي أن يبدأ الطلاب في التخصص من السن الرابعة عشرة، وبذلك يخلص الطالب من عناء هضم كمية كبيرة من المواد المتنافرة التي يزخر بها البرنامج الدراسي، ويتفرغ للتخصص في مجموعة من العلوم لها علاقة ببعض. وقد حرص الدكتور أن تعمل مقارنة بين بريطانيا وأمريكا في هذا الصدد، فذكر أن التخصص في أمريكا يبدأ في الجامعة، ولذلك فالمستوى مضطرب هناك، والتخصص لا يسير على قواعد سليمة في سن مبكر.

وقد طلب الأستاذ أبو مدين من المفكر الإنجليزي أن يوازن بين بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية في الناحية العلمية والثقافية، وهو طلب في الصميم كما نري. والعجيب أن المفكر الإنجليزي انحرف في إجابته فلم يعقد موازنة بين بلده بريطانيا وبين غيرها من دول أوروبا، ولكنه آثر أن يوازن بين بريطانيا وأمريكا، ولعل المفكر الإنجليزي أراد أن يشعر صديقنا الكاتب الكبير أن بريطانيا لا توضع في درجة مع أية دولة أوروبية أنها أعظم منها

جميعا، وأنه إذا كان هناك مجال لمقارنة فيجب أن تكون بين بريطانيا وأمريكا، وقد خرج من هذه المقارنة بتفضيل بريطانيا على أمريكا.

على أننا نعتبر كل هذا كلامًا على الهامش. أما الامر الذي يجب أن نقف عنده طويلا فهو أنه لم يبق ـ في نظر المفكر الإنجليزي ـ من العز الماضي لبريطانيا إلا العلم، وهذا هو الذي تحتفظ به وتصدره إلى الخارج، وكان الدليل حاضرًا لديه فإنك لو نظرت إلى اليونسكو فإن الذي يملأ خاناتها العلمية هم الإنجليز، وهذا مجد كبير ترى كم تحتاج بلادنا من الوقت والجهد لتبلغه؟!

وقد تحدث المفكر الإنجليزي في جوابه على السؤال الثالث عن طائفة من النظريات التربوية التي يعرفها المزبون والمختصون في شؤون التربية، ولذلك فلن أعرض لها هنا بالتعليق، ولكنني ألفت إليها أنظار المدرسين ورجال التربية بل والآباء والأمهات. فهي نظريات لها الاثر الكبير الذي لا ينكر في تنشئة الطفل تنشئة صحيحة قوية.

أما السؤال الرابع فقد كان عن مدى تقدير المدرس في أوروبا وبريطانيا. وكعادة المفكر الإنجليزي تجاهل الشق الخاص باوروبا واكتفى بالإجابة على الشق الخاص بإنجلترا.

والحق أن إجابته تملأ السمع والقلب والشعور، فقد اعطانا فكرة واضحة عن التقدير العظيم الذي تلقاه المدرس من مواطنيه، وعن اعتزازه بعمله وعقد مقارنة بينه وبين جاره الثري، وذكر أن جاره لو استطاع أن يضحي بعشرة آلاف من الجنيهات ليحصل على صفته لما تأخر.

وهذا مستوى رفيع جدا يدل على مدي إيمان المعلم الإنجليزي بقيمة الرسالة التي يقوم بأدائها، وعلى تقدير الشعب للعلم والعلماء وحبه لهم واعتزازه بهم. ترى متى تصل بلادنا إلى هذا المستوى الرفيع إن بيننا وبين ذلك آمادًا وآمادًا.

وإنها لأمنية من الأماني القليلة أن أرى بلادي في هذا المستوى. فهل تتحقق

هذه الأمنية؟ أرجو ذلك.

وقد وجه الأستاذ أبو مدين للمفكر الإنجليزي سؤالاً عن سياسة التعليم في إنجلترا، وهو سؤال في منتهي الأهمية، ولكن من المؤسف حقا أن المدرس الإنجليزي اقتضب الإجابة، بل إنه في الحقيقة لم يجب إطلاقا، وكان بودنا أن يفعل. فمما لا شك فيه أن بريطانيا تسير في التعليم على سياسة خاصة تهدف إلى أغراض محدودة واضحة، ولسنا ندري لماذا أصر الأستاذ الإنجليزي على التهرب من الإجابة على هذا السؤال الدقيق.

ولا أريد أن أستمر في التعليق على جميع الاجوبة عن الأسئلة التي بلغ عددها ثمانية عشر سؤالاً. ولكنني أكتفي بالإشارة إلى بعض الأفكار التي وردت في هذه الإجابات. فقد حرص الكاتب على أن يعقد في كل مناسبة مقارنة بين بريطانيا وأمريكا كان يخرج من هذه المقارنة في كل مرة بتفضيل بريطانيا وتقدمها.

وليس من غرضنا الآن أن نحلل ذلك، وأن نبين حقيقته ودلالته وأهميته، ولكنا أحببنا أن نوجه أنظار القراء إلى ذلك.

وقد تحدث الكاتب الإنجليزي عن مقدمة ابن خلدون الباحث الاجتماعي العربي، ومن العجيب أن يذكر الكاتب أنه لا توجد ترجمة لها في الإنجليزية، ونحن نستغرب أن يغفل الإنجليز عن هذا الكنز النادر رغم كثرة مستشرقيهم، وكثرة اتصالهم بالتراث العربي والأمة العربية.

أما رأي الكاتب في ابن خلدون ومقدمته فنترك الحديث عنه والرد عليه إلى فرصة نأمل أن تكون قريبة.

وهناك أمر لفتت إجابات المفكر الإنجليزي نظري إليها، وذلك عندما كان يتحدث عن رسالته التي حصل بها على الدكتوراه وعن أبحاثه عن الحياة الاجتماعية لسكان برقة، فقد لاحظت مدى تقصيرنا في حق بلادنا العربية وأمتنا الحبيبة، فلم نقم باي دراسات لها، بل لقد عجزنا حتى عن ترجمة ماكتبه الاجانب عنا.

هذه ملاحظة أرجو أن تجد طريقها إلى عيون زملائنا الجامعيين وقلوبهم، وأن نسمع في القريب العاجل عن مؤلف يتحدث عن هذا الجزء من الوطن العربي أو ذاك، وعن ترجمة لما كتب الاوروبيون والامريكيون وغيرهم.

وبعد فلعل القراء قد آمنوا معي بأن هذا الذي تحدثت عنه كتاب يستحق الاشادة والتنوية، وأنه أفضل بكثير من هذه الكتب التي تغمر الأسواق وتسيطر علي عقول الشبان وقلوبهم، وتكاد تشغلهم عن أي شيء آخر لأنها كتب تقوم على تملق الغرائز وإثارتها.

ولعلهم آمنوا كذلك بأن عليهم أن يعودوا مرة أخرى إلى قراءة ما ورد في هذه المقابلة؛ لأنهم واجدون فيها معلومات قيمة، وأفكارًا نيرة، وحقائق كفيلة بأن تغير كثيرا من آرائنا واتجاهاتنا، وتدفعنا إلى أن نسير في أقصر طريق توصلنا إلى أهدافنا.

وتحية خالصة لصديقنا الكاتب الواعي رئيس التحرير، وشكرًا له على هذه الفرصة التي أتاحها لنا لنتحدث عن هذه الأفكار الخصبة، ودعاء له بدوام التوفيق واطراد النجاح.

تعليق: علق على هذا المقال رئيس تحرير مجلة الرائد الأستاذ عبدالفتاح أبو مدين في نفس العدد إذ كتب:

(١) الثناء الجميل المستطاب الذي خلعه على الأستاذ الكبير، لا استحق منه شيئًا.

وهذه المقابلة الصحفية، جاءت صدفة، وهي محاولة لا أكثر ولا أقل. أما اسم هذا الرجل فهو Peters Emres (بيترس امرس). واعتقد أني ذكرت عن عمله. وهو أنه يدرس علم ذكرت عن عمله. وهو أنه يدرس علم الاجتماع في جامعة مانشستر بانجلترا.

أما صوغ المقابلة بأسلوب شائق، فاعترف، بأن ذلك كان يجب أن يتم. والذي قدمته، عبارة عن رؤوس أقلام نقلًا عن الترجمة التي لا تبعد عن «الحرفية». وظروفي الحاضرة، وخشية من مضى وقت يبعد هذه المقابلة،

ولا سيما بالقياس إلى مذكرات من أيام الإجازة. لذلك دفعت بروؤس الأقلام إلى المطبعة واعتذرت في مقدمتها عن التقصير.

وإني أشكر لصديقي المفضال أدبه الجم، وفضله، وأؤكد له تقديري على لفتته الكريمة. ويسعدني أن أجد من يردني إلى أخطائي لاستفيد مما فات على أو قصرت فيه. وشكرًا لصديقي الغالي من الأعماق.

أبو مدين

رأي وكتاب(*)

رسالة رمضان

«رسالة رمضان» هذا هو اسم الكتاب كما سمَّاه مؤلفه، ولسنا ندري ما إذا كان يرمي بهذا الاسم إلى تبيان رسالة هذا الشهر المبارك في صقل عقول أبناء هذه الأمة الإسلامية وجسومها ووجدانها، وهي رسالة ضخمة تميز بها هذا الشهر المبارك في دنيا الإسلام.

لسنا ندري ما إذا كان هذا هو مقصد المؤلف من تسمية كتابه بهذا الاسم أم أنه يريد بكلمة رسالة ما يعنيه المؤلفون القدامى إذ يطلقونها علي الكتب الصغيرة ذات الموضوعات الواحدة.

أما الاسم الكامل كما كتبه المؤلف فهو (رسالة رمضان ـ كتاب حكم وأحكام - ودراسات علمية لركن من أركان الإسلام).

وليس هذا الكتاب هو أول بواكير المؤلف. فقد سبق أن أصدر كتابين قبل كتابه الذي نتحدث عنه تفضل مشكورًا بإهدائهما إليَّ كما فعل بالنسبة لكتابه الأخير، وإن كان قد ورد على غلاف كتابه (رسالة رمضان) أسماء أربعة من الكتب تحت عنوان (أسماء الكتب المطبوعة)، وربما كان الكتاب الرابع قد طبع ولكنه لم ينزل إلى السوق بعد.

ولعل الفرصة مواتية الآن للحديث عن هذه الكتب في هذا المقال، ولكنا نؤثر مع ذلك تأجيل الحديث عنها بصورة مفصلة إلى فرصة أخرى.

ومؤلف الكتاب ابن بار من أبناء جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، وتعتبر هذه الجمعية في نظر الحقيقة الوميض وسط الظلمات الفرنسية المتراكمة.

فلقد عرف الفرنسيون بعد الدراسة العميقة أنه لكي يفصلوا الجزائر عن أمة

(*) نشر بالعدد (٥٣) من مجلة الرائد في ١٢ من شهر رمضان ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١/٢/٢٧م الموافق ٨ من الحوت ١٣٣٩ ش الصفحة (٤).

العرب وعالم الإسلام، ولكي يقطعوا كل رابطة بينهما فلا بد أن يقضوا قضاء مبرما على الثقافة الإسلامية بمعناها الواسع، وبدأوا بتنفيذ خطتهم منذ أكثر من قرن من الزمن، وكادوا أن ينجحوا فيما دبروا.. لولا قيام هذه الجمعية المباركة التي أخذت تشعل الشموع الصغيرة هنا وهناك، واستطاعت أن تقف بها في وجه الأعاصير الهوج والعواصف السوداء.

وفي غفلة من الفرنسيين الحمقى، انقلب الوميض الذي لا يكاد يُري، والشموع الهزيلة الذابلة إلى نار تلتهم الأخضر واليابس وستلتهم الفرنسيين جميعا فلا تبقي منهم ولا تذر.

وعما قريب سيغمر النور الجزائر المسلمة، وسيعمها السلام.. ويومها سيعرف الناس تأثير جمعية العلماء المسلمين، وسيجعل التاريخ جهود ابن باديس وكفاح البشير الإبراهيمي ورفاقهما، وسيكتب الباحثون عن جريدة «البصائر» وأثرها، وسيدرس العلماء ما قدمه أبناء هذه الجمعية من تراث خالد في الشعر والنثر كان له أثره في إيقاظ الوعي وإثارة المشاعر وتبصير الجزائريين بطريق الخلاص.

والأستاذ أبو بكر جابر مؤلف هذا الكتاب الذي نتحدث عنه، والمقيم منذ عدة سنوات بالمدينة المنورة من أبناء هذه الجمعية الواعية. وقد أتيح لي أن ألقاه في الفترة الأولى من قدومه، فأعجبني فيه سماحة النفس وكرم الطبع ونبل الأخلاق، كما اعجبني فيه حبه للعلم ودأبه على التزود منه ورغبته الصادقة في أن يضيف كل يوم جديداً إلى معلوماته.. على أن هناك صفات أخرى من صفاته جديرة بالذكر وهي سعة أفقه وحرية رأيه ونشاطه في التأليف.

أما أسلوب المؤلف في كل مؤلفاته فهو أسلوب علمي لا التواء فيه ولا تعقيد، وربما كان لانشغاله بالصحافة مدة من الوقت أثر في ذلك، كما أن من الملاحظ أن المؤلف يحرص في كل ما يكتب على أن يحيط بموضوعه من جميع نواحيه، وسهولة الأسلوب مع الإحاطة بالموضوع هما ميزتا المؤلف الناجح، ولو خلت بعض مؤلفات الأستاذ من بعض الملاحظات لكانت في طليعة المؤلفات العلمية القيمة.

ولقد كتب المؤلف مقدمة لكتابه (رسالة رمضان) تحدث فيها عن أساليب الدعوة إلى الله، وذكر أن منها التأليف والطبع والنشر والمساعدة على ذلك، وأنه من أجل هذا الغرض كتب كتابه (رسالة رمضان) ووصفه فقال: (ورسالة رمضان هذه هي عبارة عن دراسة عامة شاملة لركن من أركان الإسلام صوم رمضان المعظم. دراسة علمية تتبع جزئيات هذه العبادة وكلياتها، فلا تغفل ناحية من نواحيها الحكمية والعلمية، بل تتناولها بأسلوب سهل وعبارة مبسطة واضحة تدركها العقول على تفاوتها، وتتناولها الافهام على اختلافها، بحيث يتصفحها المسلم ـ ومهما كانت ثقافته ـ فيعرف عن هذه العبادة ما ينبغي أن يعرفه كل مسلم عنها).

ويقول كذلك: (هذا وإني جريًا وراء الإصلاح الديني والروحي معًا قد سلكت في هذه الرسالة ما سلكته في وضع رسالة (الحج المبرور) قبلها، فجمعت فيها من كل مذهب أحسنه، ومن كل خبر أصدقه.. فكانت ـ بحمد الله ـ جامعة للأمة ومذاهبها، قاضية على الفرقة وأسبابها، ممثلة للحقيقة والصواب لهدي السنة والكتاب).

(كما فصلت فيها الاحكام تفصيلًا يسهل فهمها، ويرغب في حفظها مراعيًا في تلك الأحكام روح الإصلاح وسر العبادة، فذكرت لذلك عقب كل حكم دليله، وعقب كل مسألة حكمتها أو علتها كشفا عن أسرار العبادة وإظهارا لفوائدها).

وربما فهمت هذه المقدمة على اعتبار أنها لون من الإطراء لا يتفق وما ينبغي أن يكون عليه العلماء من تواضع ولكننا ـ ونحن نعرف الأستاذ المؤلف حق المعرفة ـ نفهمها فهما آخر، ونعتقد أن الدافع لها هو ثقة المؤلف فيما كتب ثقة مصدرها الجهد الكبير الذي بذله المؤلف في المراجعة والدرس وهو جهد واضح.. هذا سبب.

أما السبب الآخر فهو إخلاص المؤلف وحرصه على تجميع الأمة الإسلامية والتقريب بينها، وربما أيد هذا الفهم الخاتمة التي ختم بها المؤلف كتابه حيث يقول فيها: (هذا ولا يفوتني في هذه الخاتمة أن أنبه إلى أن ما عللت

به بعض المنهيات وما جعلته حكمة لبعض الواجبات لم يكن إلا من قبيل الرأي والاجتهاد. فقد أصيب في ذلك وقد أخطئ فإن أصبت فمن الله تعالى، وإن أخطأت فمن نفسي واستغفر الله. كما أنني لا أدَّعي العصمة في كل ما كتبته من أحكام الصيام ومسائله، بل إنني أعتقد أنني معرض للخطأ كغيري من سوى المعصومين، ولذا فعلى من رأى من الإخوان العالمين خطأ أن يصوبه أو فسادا أن يصلحه وأن لا يتحرج في ذلك.

وقد بدأ المؤلف كتابه ببحث عن (التشريع وأسراره ومن يحق له أن يشرع) وهو بحث وضعه المؤلف كمقدمة لكتابه (الحج المبرور) ويقع في تسع صفحات، ولا نريد أن نعرض لهذا البحث الآن بالتفصيل، ويكفي أن نشير إلى أن المؤلف قد اثبت طائفة من الاراء القيمة منها أن التشريع من حق الله وحده، وأن إصلاح أجسام البشر وأرواحهم متوقفة على تشريع الله، وأن من يستعيض عن شرع الله وقوانينه الإلهية بقوانين وضعية مجرم في حق نفسه وحق غيره، وجالب الشر والفساد وهو بحث قيم جدير بأن يقرأه القارئون بكثير من العناية والتدقيق، وربما عرضنا له في فرصة أخرى.

وبالرغم من أن اسم الكتاب هو (رسالة رمضان) فإن المؤلف لم يقتصر في حديثه على رمضان، بل تحدث عن الصوم بوجه عام في القديم والحديث، كما تحدث عن جمع الايام التي سن النبي صلى الله عليه وسلم صيامها.

وأول مباحث الكتاب عن الصوم وأحكامه وقد عرض المؤلف لمعنى الصوم لغة وأورد الأدلة من القرآن والشعر وكتب اللغة ثم ذكر معناه شرعا وأورد نبذة عن تاريخ الصوم لدي أمم العالم القديم ثم تاريخ فرضه على الأمة الإسلامية. وقد تحدث المؤلف عن فوائد الصوم الروحية والاجتماعية والصحية.

وعن فضائل الصيام وأقسامه المحرمة والواجبة والمكروهة والمفروضة وصيام التطوع وفصَّل القول في ذلك تفصيلا لا يدع مجالا لشك أو شبهة ثم انتقل الحديث عن رؤية الهلال ثم عن الكفارة وأنواعها وختم كتابه بأبحاث قيمة عن زكاة الفطر.

ولولا خوف الاطالة لتحدثنا عن كل موضوع من موضوعات الكتاب حديثا

تحليليا وحسبنا أن نذكر أن المؤلف استطاع فعلا أن يطابق بين عنوان الكتاب وموضوعاته.

وإن ما ورد في التخطيط الذي وضعه المؤلف لكتابه في المقدمة التي سبق أن نوهنا عنها صحيح إلى حد كبير على أن مزايا المؤلف ربطه بين القديم والحديث ربطا محكما يدل على تعمق وفهم ويدل على نجاح الأستاذ المؤلف كمدرس وواعظ. ونضرب لذلك مثلا أنه عندما عرض لرؤية الهلال وأورد الآراء المختلفة، لم يفته أن يشير إلى قضية تشغل بال الناس في وقتنا الحاضر تلك هي اختلاف البلاد الإسلامية في الصيام والافطار، وما يعده بعضهم من أن هناك منكرًا يجب إزالته وابدى أنه لا يري باسا ولا مانع من ذلك الاختلاف وأستند إلى بعض الأدلة الشرعية ثم قال: (إنه لا داعي لهذا التذمر والاسراف فيه أبدا فإنه لو تمسك أهل كل إقليم برؤيتهم فصام أهل المغرب أو افطروا وصام من في سوريا أو افطروا بناء على رؤيتهم غير ملتفتين إلى رؤية غيرهم لما زاد هذا الاختلاف الدين إلا متانة والعقيدة الإسلامية إلا رسوخًا وثبوتًا، ولعلم أهل الدنيا أننا أمة ثابتة لا تتهاون في أمر ديننا، ولا نتساهل في شأن الشريعة وأننا لا نخضع ديننا للمظاهر المادية ولا للتيارات العاطفية).

وهذا رأي مقبول وتعليل معقول وربط محكم بين الحديث والقديم. ومن مميزات المؤلف أنه يعرض كل الآراء في الموضوع الذي يتحدث عنه ثم يرجح الرأي الذي يختاره، ولكنه يميل إلى الرأي الأحوط دائما. فعندما عرض لموضوع استعمال الإبرة للصائم نهارا، وذكر أن هناك من يجيز ذلك مطلقا، ومن يحرمه مطلقا، وأن هناك فريقا ثالثا يفرق بين ما كان منها من العرق وما لم يكن قال (والذي آراه في الموضوع أن يعظم المسلم من شهر رمضان ما أعظم الله وأن يتحاشي كل ما فيه ريب، وأن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس، وأن ينفي من الشبهات ما يستبرئ به لدينه ما دام في سعة من أمره ولم تلجئه ضرورة، وإن الجأته الضرورة للتداوي بالإبرة بحيث لم يجد بدا من استعمالها فليستعمها، وما كان منها من العروق أو كان مخصصا للتغذية يقضي معه احتياطا، وما لم يكن للتغذية ولا في العروق

فلا حرج.. إن شاء الله تعالى ولا قضاء عليه احتياطًا ولا وجوبا).

والدارس لهذا الكتاب قل أن يعثر علي آراء تستدعي المناقشة وإعادة النظر، ولم نعثر إلا عن أمثلة قليلة جدا نذكر منها ما أورده المؤلف من أن إمام دار الهجرة مالك بن أنس كان يكره صيام الست من شوال، ولو وقف عند هذا الحد لقلنا ربما عثر مالك رحمه الله على نصوص دفعته إلى هذا القول، ولكن المؤلف ذكر علة ذلك بأنه (لما رأى من إقبال العوام على صيامها والتشدد في ذلك خاف أن يأتي على الناس زمان يعتقدون فيه أنها من رمضان فكره صيامها لذلك) ويبدو لي أن مالكا لا يقدم على مخالفة السنة من غير نص ثابت يعتمد عليه، ولو كان هذا التعليل صحيحا لكان من واجب مالك رحمه الله أن يقوم بإرشاد الناس واقناعهم بالسنة، وربما كانت الرواية ضعيفة أو غير معتمدة.

كما نذكر أن المؤلف عندما أورد سنة اتخاذ مؤذنين يختلف صوتهما للسحور والامساك علق في نهاية بحثه يقوله (أما ما يتخذه الناس اليوم في كثير من البلاد الإسلامية من رجل يضرب بطبل ويصيح طائفا بأبواب المنازل وهو يقول في صوت منكر (سحور سحور) فهو من باب البدع المنكرة التي يجب إبطالها وإحلال سنة المؤذنين محلها).

والتمسك بالسنة أمر يجب الحرص عليه ما في ذلك شك، وطريق استعمال الطبول قد لا تتفق وقدسية شهر الصوم، ولكن ما المانع من استعمال أي طريقة أخرى بالإضافة إلى الأذان ـ لإيقاظ الصائمين وخاصة بعد أن اتسعت المدن اتساعا كبيرا بحيث لم يعد في الإمكان الاستيقاظ على أصوات المؤذنين. وقد ثبت فعلا أن طائفة من الصائمين يفوتهم السحور نظرا لأنهم لم يسمعوا الأذان ولم يجدوا من يوقظهم في الوقت المناسب.

شكرا خالصا لصديقنا المؤلف الجليل على هديته القيمة وتحفته الرائعة التي أخرجها للناس ورمضان على الأبواب فجاءت في وقتها المناسب ودعاء خالصا لله أن يثيبه على ما بذل من جهد في خدمة الدين وأن يمنحه مزيدا من التوفيق..

رأي... وكتاب(*)

هذا كتاب صغير الحجم عظيم القيمة يقف في طليعة الدراسات العلمية المجدية في بلادنا. والحق أن مكتبتنا لا تزال قليلة الحظ حتى الآن من الدراسات العلمية الجادة، ولذا فمن حق هذا الكتاب أن يستقبله النقاد ورجال الفكر استقبالا حافلا، فيحللونه وينقدونه ويقربونه إلى جمهرة القراء. ولكن العجيب في الامر أن صحافتنا لم تهتم بهذا الكتاب الاهتمام الكافي على الرغم من أنه يعتبر المحاولة العلمية الأولى في بلادنا في موضوع نظرية الإسلام الاقتصادية، ويدل هذا ـ فيما نرى ـ على أن بلادنا ينقصها كثير من النقاد الواعين لشتى شؤون الثقافة.

والقاريء المتمعن لهذا الكتاب يدرك أن الأستاذ المؤلف جمع بين الثقافتين الدينية والعصرية، مما يحعل لكتابه قيمة خاصة تستدعي القراءة والدرس. فالجمع بين الثقافتين ميزة قل أن تتوفر ـ في أيامنا هذه ـ فيمن يمسكون القلم ويعالجون شؤون الفكر.

فبالرغم من أننا لم نقرأ لمؤلف هذا الكتاب قبل الآن، فإن أسلوبه قوي متين محكم مما يدل على تمرسه بصناعة القلم.

وقد قرأنا الكتاب من ألفه إلى يائه كما يقولون، ولاحظنا أن المؤلف لم يشر في نهاية الكتاب إلى مراجع كتابه. صحيح أن المؤلف أشار إلى بعض المراجع هذه في هوامش كتابه، ولكن ما من شك في أن المراجع التي ذكرت ليست هي كل ما استعان به المؤلف من مصادر، ولذكر المصادر أهمية لمن يرغبون في القيام بدراسات مماثلة، كما أنها ذات أهمية بالنسبة لمن يعرض للكتاب بالتحليل والنقد.

ولم يشر المؤلف إلا لمصدر واحد أو مصدرين من الكتب الحديثة، بينما

(☆) نشر بالعدد (٥٦) من مجلة الرائد. في يوم الاحد ٩ من شهر شوال ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١/٣/٢٦م.
٥ من شهر الحمل ١٣٣٩ ش الصفحة (٦).

المعروف أن بعض المؤلفين المعاصرين قد اهتموا بالناحية الاقتصادية في الإسلام، وظهرت لهم عدة دراسات ذات قيمة لا يستهان بها وربما كان المبرر هو أن المؤلف كان يبحث موضوعه من زاوية خاصة غير أن الرجوع إلى هذه الكتب الحديثة لا يخلو من فائدة، فهي لبنات قوية دون شك في هذا النوع من الدراسة ولن تخلو من فائدة للمؤلف في توسيع بحثه وتدعيم رأيه وربما كان فيها من الآراء ما يستدعي النقض أو النقد أو المناقشة أو التأييد، وأرجو ألَّا يعتبر المؤلف هذه الملاحظات من الملاحظات الشكلية التي أشار إليها في نهاية كتابه فهي في نظرنا ليست كذلك.

وسنحاول أن نرافق المؤلف في رحلة خاطفة مع كتابه، لعلّنا بذلك نقوم ببعض الواجب تجاه هذه المحاولة العلمية الناجحة التي لم تجد ما هي جديرة به من عناية.

والكتاب هو (نظرية الإسلام الاقتصادية) لمؤلفه الفاضل الأستاذ عبد الحميد أحمد أبو سليمان.

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة تحدث فيها عن قيمة التوحيد، وبيَّن الصلة بين الإنسان وربه، وأشار إلى أن هذه الصلة ضرورية لكي تستمد قوى الخير في الإنسان من الله العون والمساعدة في صراعها لنوازع الشر في النفس وفي المجتمع. وقال المؤلف (وعلى ذلك فإن التوحيد في الإسلام ضمان أو أساس للفرد والمجتمع، وهو أمر لا يمكن أن يترك للصدفة والظروف و المحاولات بل ينشأ عليه الفرد. بذلك يبقى للفرد وللمجتمع معنى الحياة ومعنى الوجود ولن ينال من الفرد والمجتمع أمر أكثر من فقد معنى الحياة ومعنى الوجود حتى ولا الموت نفسه).

وهذا الكلام نختلف فيه مع المؤلف الفاضل ولكنه ـ في الحقيقة ـ يحتاج إلى إيضاح أكثر وإلى الإكثار من ضرب الأمثلة حتى يتضح في ذهن القارئ العادي.

وحبذا لو تطرق المؤلف الفاضل إلى الفوارق بين التوحيد في الإسلام وفي غيره من الديانات وخاصة السماوية منها، فما من شك في أن تبيان هذه الفروق

عن طـريق المقارنـــة يضفي أهمية كبـــرى على الفكـــرة النبيلـــة التي عرض لها المؤلف.

وربما كانت هذه العبـرات بمثابة تخطيط للكتاب فالمؤلف يقول (إن هذه العجالة هي بحث في فلسفة ومبادئ نظريته القيمة والتبادل في الإسلام).

وقد كان المؤلف دقيقا حقا في تعبيره عندما وصف كتابه بأنه عجالة، وليته تمهل قليلا فترفق بالقراء الذين لا يملكون من قوة البصر وشدة الجلد ما يمكنهم من متابعة المؤلف.

وقد زوَّد المؤلف في مقدمة كتابه النتيجة التي وصل إليها في بحثه فقال:

(وفي ظني أن الإسلام نظام وفلسفة، فاقت كل ما تفتقت عنه قرائح البشر أيا كانت الأرض أو كان الزمان فعساي وفقت في البحث والكشف).

وليته أجل أعلان هذه النتيجة إلى آخر الكتاب بعد أن يكون قد قدم من الأدلة المنطقية ما يؤكد هذه النتيجة التي أوردها المؤلف موضع شك، بل هي في الواقع موضع إيمان تام عميق، ولكن من الوضوح بمكان أن المؤلف عندما يؤلف كتابه فهو يرمي إلى اقناع الأعداء والمنحرفين من شبابنا الذين اغراهم البريق والخداع والسراب الكاذب وخاصة عندما يعرض للمقارنة بين المذاهب الاقتصادية الحديثة والإسلام أو علي الأقل هذا ما يجب أن يحرص عليه المؤلف المسلم الداعية.

ولقد أحسن المؤلف الفاضل حين قال في مقدمته (إنني انتظر النقد والتوجيه والإرشاد والتصحيح والإنصاف من المخلصين والعلماء) وهذا يدل على تواضع نبيل يتصف به عادة المخلصون من العلماء الذين يهمهم في الدرجة الأولى خدمة الحقيقة.

ويقسم المؤلف كتابه إلى أجزاء ثلاثة: المبادئ والرسائل والتوزيع.

وقد تحدث عن (مبادىء العدالة كما حلم بها البشر) ووصل إلى هذه النتيجة (أن الإنسانية بقدر ما حققت من النجاح في ميادين الإنتاج والعدالة والرفاهية بقدر ما تعثرت في ميدان التوزيع بما يحقق أهدافها منه في نمو

الإنتاج والعدالة والمساواة والحرية. حتى لقد أصبح هذا التفاوت الذي نواجهه في هذين الميدانين يهدد وجود البشرية ذاتها).

وتحت عنوان (الإسلام وأماني البشر في المال والاقتصاد) قال (كان موقف الإسلام من تلك الأماني العذبة هو أنه تبناها ورفعها وجعل منها إطارا لاقتصاد المجتمع).

وانتقل إلى الحديث عن (أصول مبادىء وقواعد الإسلام في الاقتصاد) وهي في رأيه سبعة أصول قسم الحديث عنها إلى قسمين وعنون القسم الأول بعنوان (أصول مبادىء وقواعد العدالة الإسلامية الاقتصادية ـ في ظلال الفكر الحر) وتحدث عن كل أصل من هذه الأصول حديثا قيِّمًا يدل علي وعي وفهم ويدل قبل ذلك أو بعد ذلك على إيمان الإنسانية وبكرامة الإنسان وليس في مقدورنا ـ بسبب ضيق المجال ـ أن نستعرض آراء المؤلف المنبثة بين النظريات الفلسفية والاقتصادية التي أوردها في هذا الفصل ونكتفي بنقل بعض العبارات التي وردت في بحثه القيم يقول المؤلف الفاضل (إن الجميع جاءوا إلى الدنيا وما بيد أحدهم أرض ولا مال فلا يصح أن يدعي أحد حق تسخير الاخرين من أجله «متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»).

ويقول (إن الحقوق التي تحصلها الدولة أو المجتمع من دخول ومكاسب القادرين من أجل المحرومين هي حق لهم لا منة ولا كرم ممن يدفعونها. وهذا الحق أمر يختلف عن الصدقة والمكرمة التي يدفعها الفرد من حقوقه وصافي دخله طلبا منه المزيد من سعادة إخوانه الضعفاء والمحرومين. إن التضامن الاجتماعي في أصوله حقوق وواجبات لا منن ولا صدقات).

ويقول (وليس من حق الفرد الذي يرجع الفضل في وجوده وكسبه إلى المجتمع وعونه وتعاونه معهم له أن يتجاهل أو يتراخى في أمر بقاء وسلامة المجتمع وليس لهذا الفرد أن يتحكم في المجتمع فيبقي على هذا أو يترك ذلك للموت فالمجتمع كل لا ينفصل عن أي فرد من أفراده وعن حقوقهم في البقاء والعيش).

وهذه العبارات التي نقلناها تدل على إيمان المؤلف بما يقول وعلى الفهم الدقيق للعلاقة التي يجب أن تقوم بين الفرد ومجتمعه وهي كذلك عبارات قوية متماسكة ومع ذلك فالناقد يشعر بأن الأبحاث التي كتبها المؤلف في هذا الفصل يلفها شيء من الغموض ومن الواضح أن المؤلف يهمه أن يقرأه أكبر عدد من الناس ولذلك فقد كان من واجبه أن يبسط الموضوعات تبسيطا كبيرا لأنه قل أن يعثر على من لديه الوقت والبصر لقراءة موضوع أو فكرة عدد من المرات قراءة تمهل وإمعان وخاصة في هذا العصر الذري حيث تضاعفت المشاكل والمشاغل وحيث أصبح (الفرد) نهبا موزعا لعوامل مختلفة.

والذي لا مراء فيه هو أن الموضوعات التي بحثها المؤلف موضوعات ذات أهمية عظمى في حياة الناس، تهمهم وتشغل بالهم فالعمل والإنتاج وملكية الفرد والتضامن الاجتماعي والملكية العامة ونزع الملكية وإعادة توزيعها كلها موضوعات تمس حياة الناس وتشدهم إلى من يبحثها علميا أو نظريا. وقد بحثها مؤلفنا الفاضل بحثا جديا لا عبث فيه ولا تهريج، ولكن الأسلوب الذي كتبت به لا يشجع الاكثرية من القراء على الاستفادة من هذه الأبحاث والاستمتاع بها.

ولعل المؤلف الفاضل يعود إليها مرة أخرى فيضعها في مستوى القارئ العادي لتكون الفائدة أتم وأشمل، إلا إذا كان المؤلف إنما كتب كتابه لطائفة محدودة جدا من القراء ذوي الثقافة الواسعة ممن يهتمون بأمثال هذه الموضوعات عناية خاصة وذلك ما نستبعده.

وقد عاد المؤلف مرة أخرى ـ كما وعد ـ فتحدث عن (أصول مبادىء وقواعد الإسلام الاقتصادية في النصوص الإسلامية) فقدم لبحثه بكلمة قيمة عن موقف التشريع الإسلامي من جميع أمور الحياة، وربما كانت هذه الجملة تحوي خلاصة هذه المقدمة (إن الخير والعدالة هما المرشدان كلما تباينت المفاهيم واختلف الترتيب والتنسيق للنصوص أو تعدد) وهي تدل ـ في نظرنا ـ على ألمعية المؤلف ونفاذ بصيرته. وفيها فصل الخطاب لمن يريد أن

يتعنت أو يتمسك أو يغالط.

وفي هذه المقدمة ما يثير الانتباه إلى موضوع ذي أهمية كبرى في التشريع الإسلامي ذلك هو موضوع ترتيب الاحاديث النبوية لمعرفة السابق والمتقدم واللاحق والمتأخر.

ولست ادري ما إذا كان علماء الحديث قد قاموا بمحاولات من هذا النوع ولكنني أعتقد أن في الإمكان القيام بهذه الدراسة وأنا أعرف سلفا أنها دراسة شاقة مضنية وأنها تحتاج إلى جمهرة من العلماء يمتازون بالبصر والإخلاص وسعة الأفق.

وأنا أعرف سلفا كذلك أن بعض النصوص سيستحيل تحديد زمنها ولكن الذي لا شك فيه أن كثيرا من هذه النصوص سيمكن تحديد زمنها وفي ذلك كسب كبير للثقافة الإسلامية.

ومرة أخرى أعترف بأن هذا النوع من الدراسة يحتاج إلى جهود مضنية جبارة لا يقوى عليها إلا أولو العزم من العلماء.

ويختم المؤلف مقدمته بهذه الجملة الرائعة (ومما أثلج صدري أني رأيت جميع النصوص قد تألفت وتساندت وتكاملت في صورة عادلة جميلة لا تمثل تناقضا ولا تنافرا بل تمثل الخير الواضح والعدالة الشاملة).

وبنفس الترتيب الذي اتبعه المؤلف عند حديثه عن (أصول ومبادىء وقواعد العدالة الإسلامية الاقتصادية ـ في ظلال الفكر الحر) عاد فتحدث عن الاصول في النصوص الإسلامية، فهو يأتي بمجموعة من النصوص القرآنية والنبوية ثم يعقب عليها تعليقًا يربط فيه بين العنوان والنصوص. وقد صاحب التوفيق المؤلف في هذا الفصل، وكان أسلوبه واضحا مشرقا. ولا نريد أن نضرب أمثلة لذلك لأننا نحب للقارئ الفاضل أن يقرأ بنفسه هذا القسم من الكتاب، ونحن نؤكد له أنه سيشعر بمتعة روحية ونفسية عند قراءته.

ولم يغفل المؤلف عن تبيان ما قد يتراءى للقارئ من النظرة السطحية

العجلى من تناقض بين النصوص، ولذلك فقد أولى هذه الناحية عنايته فحلل النصوص تحليلا يشكر عليه، وبيَّن سماحة الإسلام وعمقه في تفهم نفسية البشر وحرصه على إسعاد الخلق ومعالجته للمشاكل التي اعترضت طريقه علاجا جذريا حاسما، ووصل إلى نتائج يقره عليها الباحث المنصف.

أما الباب الثاني فقد تحدث فيه المؤلف عن (الوسائل) وقد تحدث فيه عن الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية، وعن الأسس التي يقوم عليها كل نظام من هذه الأنظمة، وبين الفروق بينها، وأشار إلى ما فيها من ضعف وتهافت ثم مال إلى الحديث عن (تطور المجتمع بين الامس واليوم) وبين بوضوح النظام الإسلامي الذي كان مطبقا في صدر الإسلام في المدينة المنورة، ثم أخذ في الحديث عن مجتمع العصر الحديث، وإلى أوضاعه وظروفه التي تسيطر عليه، ووصل بعد رحلة طويلة إلى بحث (نظام وسائل تنفيذ فلسفة الإسلام) ثم إلى (أهم آثار ونتائج النظام الإسلامي). وقد وصل إلى نتائج قيمة تثبت تفوق النظام الإسلامي على الأنظمة الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية.

أما الفصل الثالث والأخير فهو (التوزيع). ولعل هذه العبارات تعطي القارئ فكرة موجزة عن هذا البحث العلمي الهادف. فالمؤلف يقول (إن مبتغى فلسفة الإسلام تحفظ على المجتمع حقوقه وعلى إرادته حريتها وانطلاقها وتحافظ أشد المحافظة على العلاقة بين الكسب والعمل، فلا يضيع حق لأحد) والحق أن المؤلف أحاط بموضوعه إحاطة شاملة، ونذكر كمثال لذلك حديثه عن (مكافأة أعمال الابتكار) استمع إلى المؤلف يقول (فالدولة عليها أن تقدم جميع الامكانيات المادية لكل من يبرز مقدرة وكفاءة على البحث العلمي دون النظر إلى الشهادات وحدها، كما أن على الدولة أن تكفل لهؤلاء حياة طيبة وعيشا مساعدا ليواصلوا بحوثهم حتى لا يحجم الباحث عن البحث لفقره أو لاستعصاء البحث وعدم الحصول منه على نتائج سريعة أو إيجابية).

ختم كتابه بخاتمة تحدث فيها عن الإسلام وعلاقته بالدولة وبالمجتمع، وعقد

مقارنة بين الإسلام والديانات الأخرى ووصل إلى هذه النتيجة (أن فلسفة الإسلام الاقتصادية لا تمثل جزءًا منفصلا عن بقية أجزاء الدين وتوجيهاته ولذلك فلا مناص أمام الباحث أن يوالي أبحاثه في علوم الشريعة الإسلامية لتحقيق المثل الكامل الذي يقضي على أي ثغرة ينفذ منها أعداؤه وأعداء دينه ليسلبوه مكاسبه وانتصاراته الباهرة).

وليت المؤلف الفاضل لم يغفل الحديث عن مدى تطبيق المبادىء التي أشار إليها في المجتمعات الإسلامية الحديثة، وإلى الأسباب التي حالت دون تطبيقها إن كانت لم تطبق ولم يكتف بالقول (وأما أساليب التنفيذ فلا شك أن للحالة القائمة في كل عصر أحكامه وضروراتها التي تجعل التطور السليم الطبيعي أمرا هاما في الانتقال من حال إلى حال.

وقد كان للإسلام في هذا المجال أجمل وأحكم التشريع حين جعل من الحب والتدرج وسائله في التطور إلى جادة التقدم والعدالة.

وختم هذه الخاتمة بقوله (إن ما أرجوه هو أن أكون قد وفقت إلى فتح باب الطريق أمام الفكر والبحث في الدين الإسلامي كجوهر لمستوى النفس للأمة العربية وكتراث نفيس ينطوي على خيرنا وتوفيقنا في فترة من الدهر نحن أحوج ما نكون فيها إلى معرفة حقيقة ذواتنا).

ومع احترامي العميق للجهد الكبير الذي بذله المؤلف في إعداد بحثه الذي نقدره كل التقدير ونعتز به كل الاعتزاز كمحاولة ناجحة في بحث هذا الموضوع، فإننا نري عبارته الأخيرة ما يصح أن يوصف بأنه نوع من الثقة التي تجاوزت الحد. فقد سبق المؤلف الفاضل بعدد طيب من المحاولات الناجحة في هذا الموضوع من الصعب اغفالها أو تجاهلها.

وان كان هذا الكتاب يعتبر لبنة قوية ـ ولا شك ـ في صرح الدراسات الاقتصادية الإسلامية يستحق عليه مؤلفه الشكر الجزيل والثناء الجم.

ولست ادري السبب الذي دعا المؤلف إلى أن يختم كتابه بعد هذه الخاتمة بكلمة مختصرة عن الزكاة، وكان من الممكن أن يتحدث عن هذا الركن

العظيم من أركان الإسلام في أكثر من موضع من كتابه.

وبعد.. فنشكر للاستاذ عبد الحميد أحمد أبو سليمان هديته القيمة، ونرجو له مزيداً من التوفيق ليواصل جهوده في تدعيم المكتبة الإسلامية بما ينقصها من كتب وأبحاث في الناحية الاقتصادية، ونرجو أن يجد كتابه من العنايــة والــرواج ما يحقــق النفع به وما يدفع بالمختصين من علمائنا وشبابنا الجامعي إلى خوض البحث في هذه الموضوعات القيمة وتقديم دراسات جدية واعية.

رأي... وكتاب(*)

لا أدري كيف سيقابل أدباء الشباب هذا الحديث، وأغلب الظن أن الكثرة الكاثرة منهم سينفضون رؤوسهم ويهزونها استخفافا به واستنكارا له، وحيًّا الله أديب العربية الكبير الدكتور طه حسين حين قال في مقاله الذي نشرته «الرائد» في عدد سابق (ولكن كثيرا من هؤلاء الأدباء يمنعهم الكسل أو القصور أو التقصير عن المضي في العلم بالحضارة إلى أقصى غاية يمكن أن يصل إليها الإنسان الذي يرفع نفسه من الجهل، فهم يكرهون القراءة لا للآداب الأجنبية وحدها، بل للتراث العربي نفسه.. هم لا يعرفون تراثهم العربي ولا يحسنون لغة هذا التراث.. متى يهدي الله أدباءنا من الشباب إلى أن يبتغوا الوسائل إلى تكوين شخصيتهم حقا باتقان العلم القديم والجديد معا)؟

وبعد فلندع الشباب وأدباءنا الشباب، ولندع القديم والجديد لنصل إلى موضوع الحديث وهو كتاب ألفه أستاذنا العلامة السيد قاسم الأندجاني، واسم المؤلف ليس مألوفا للقراء في دنيا الصحافة والتأليف، ولكن السيد قاسم ـ كما يجب أن يعرفه القراء وخاصة الطلاب منهم ـ معلم من طراز فريد. فهو في جهد متصل بين تثقيف نفسه وتعليم غيره، فما أن يفرغ من أداء عمله بالمدرسة حيث يعلم الناس، حتى يبدأ عمله في المنزل فيقرأ الساعات الطوال دون كلل أو ملل ثم ينثني إلى الكتابة فيواصل العمل في مشروعاته العلمية.

والأستاذ الاندجاني مثل طيب من الأمثلة الكريمة في دنيا العلم والعلماء، فهو يعيش عيشة بسيطة فيها الكثير من ترفع العلماء عن الصغائر، بل إنه لا يترخص حتى فيما يترخص فيه الناس عادة. عرض له موضوع يمسه من قريب ولو حل كما يحب لأزاح عن كاهله عبئا كبيرا وهو المثقل

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٠/٨/٦هـ الموافق ١٩٦١/١/٢٣م العدد (٤٨)

بالأعباء، وكان في إمكانه أن يصل إلى هذا الحل لو قبل أن يتزحزح قيد أنملة عن مبدئه الذي يسير فيه في هذه الحياة، ولكن أنّى يقبل وشعاره شعار القاضي الجرجاني القائل:

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من واتاهمو هان عندهم ومن اكرمته عزة النفس أكرما
ولو قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما
أ أشقى به غرسا وأجنيه ذلة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما

وترجع علاقتي بالأستاذ الأندجاني إلى عهد الطفولة. فقد كنت تلميذا في المدرسة الابتدائية، وكان هو مدرس القرآن للفصل الذي كنت أدرس به، ورغم مضي هذا الزمن الطويل فلا تزال صورة الأستاذ في نشاطه ووقاره وحماسه عالقة بذهني، كما لا تزال تلك القراءة المجودة ذات اللحن المميز واضحة في ذاكرتي، كأنني اسمعها اليوم بالرغم من أن علاقتي بالأستاذ الأندجاني لم تتجاوز العلاقة العادية بين التلميذ وأستاذه، إلا أنني كنت ولا أزال أكبر إخلاصه وعزة نفسه وحبه للعلم.

ومن مميزات أستاذنا الأندجاني عقيدته السلفية وإجادته لعدد من اللغات، ولهذه الإجادة أثرها - ولا شك - في اتساع علمه وغزارة مادته وإحاطته بالموضوعات التي يهتم بدراستها.

وقد علمت منذ عهد بعيد أن السيد الأندجاني متجه بكليته إلى كتاب يعرض فيه لتفسير القرآن، وهو محتفل بعلمه هذا أعظم الاحتفال، وكنت انتظر أن يخرج هذا التفسير أو أجزاؤه الأولى إلى عالم النشر بين آونة وأخرى إلى أن فوجئت بكتابه موضوع هذا الحديث.

ولقد سمّي المؤلف كتابه (المصباح في أصول الحديث)، وهي تسمية موفقة إلى حد كبير، وهو حقيقة مصباح عظيم وهاج يضيء سبيل طلاب المعرفة ورواد الحقيقة، كما أن طباعته كانت متقنة ومجودة، وعني المؤلف كدأبه في الدقة والعناية فصحح كل الأخطاء المطبعية التي وردت في الكتاب وأخرج بها

ثبتا يحتوي على عدد من الصفحات.

ويبدأ الكتاب بمقدمة لأحد العلماء الأجلاء، استعرض فيها الكتاب.. نقتطف منها هذه السطور (ولعل الحديث الشريف لم يحظ في عصرنا هذا بعناية ورعاية من المسلمين مثلما حظي بعناية ورعاية العلماء المدنيين. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول " ليعودن هذا الامر إلى المدينة كما بدأ منها، حتى لا يكون إيمانا إلا بها ولا يترك المدينة رجل رغبة عنها إلا ابدلها من هو خير منه وليسمعن أقوام بريف وعيش فيأتونه والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. ولا يصبر على لأواء المدينة أحدًا إلا كان له أجر مجاهد.

وفضيلة الشيخ قاسم بن عبد الجبار بن عبد الرحيم الأندجاني رحل من بلاده إلى المدينة طلبا لهذا الأجر العظيم، واشتغل بعلم الحديث وكان ثمرة هذه الدراسة الطويلة مؤلفنا هذا «المصباح في علم مصطلح الحديث» وهو في الحقيقة فريد في تنظيمه وتبويبه كما أنه ثمرة حياة طويلة في خدمة الحديث الشريف فقد كتبه بعد خبرة طويلة ودراسة عميقة).

وبعد أن استعرض كاتب المقدمة فضيلة الشيخ عبد الباقي على بعض فصول الكتاب قال (وقد سار الكتاب على هذا المنهج القويم وابتكر في عرضه طريقة جميلة ومنهجا سليما مما لا يدع صعوبة أمام الدارس الباحث أو الطالب المستفيد إلا ذللها وجعلها في متناول الجميع وقد فاق في العرض كل من سبقه وقد جمع من الأصول ما فاق به كتاب (تدريب الراوي) وإني لأنصح زملاءنا في كليات الشريعة في العالم الإسلامي الاستفادة منه وخاصة الدراسات العليا.

وعلى الجملة فهذا الكتاب الفريد نهج وحده ولا أعتقد أن كتابًا سبقه في جمع ما جمع وبحث كل ما بحث في كتاب واحد ومن هنا تظهر بوضوح قيمة هذا السفر الجليل الشأن العظيم القيمة في مادته وعلمه وتبويبه).

وبعد أن يأتي ببعض الامثلة المستقاة من الكتاب يقول في نهاية المقدمة

(وهكذا سار المؤلف في عرضه لمباحثه القيمة على هذا المنهاج وسلك في تعبيد سبيله تلك الطريق.. فما ترك من خفي إلا أوضحه ولا غامض إلا شرحه وفسره.

والكتاب يعتبر دائرة معارف في هذا العلم ومن هنا نستطيع أن نقول إن المؤلف قد قرأ كل ما كتب في هذا الفن وبعد أن عايشه في التدريس والبحث في المدينة كتب فكان زبدة ما كتب هذا السفر.

وأن الكتاب يشرف بشرف العلم الذي يتناوله ومن هنا نجد أن كتاب (المصباح) لا يستطيع الإنسان أن يقدر قيمته فقيمته فوق مستوي التقدير والكتاب فضلا عن هذا ثمرة حياة حافلة قضاها المؤلف في الدرس والبحث والتنقيب والتفتيش.

جزاه الله الجزاء الحسن عن السنة النبوية المطهرة وأمد في عمره حتى يتمتع المسلمون بهذه الثمرات اليانعة الدانية القطوف).

قرأت مقدمة الكتاب التي نقلت بعض سطورها هنا بعد أن قرأت الكتاب جميعه وتلك عادتي في قراءة كل كتاب وخاصة عندما تكون المقدمة بغير قلم مؤلف الكتاب وهدفي من ذلك أن أكون رأيي عن الكتاب بعيداً عن أي موثر خارجي وبعد ذلك اقرأ المقدمة لاعرف إلى أي حد يتفق معي كاتبها أو يختلف. واستطيع أن أقول في ضوء ذلك أنني اتفقت مع كاتب المقدمة فيما ذهب إليه فالكتاب دائرة معارف في فن أصول الحديث وهو كتاب فريد في تبويبه وتنظيمه ونهجه وعرضه بل هو مفخرة لبلادنا نستطيع أن نقدمه في اعتزاز وفخر.

وقد بدأ المؤلف كتابه بمقدمة قصيرة بدأ بحثا طيبا جامعا مانعا كما يقول كاتب المقدمة في نشأة علم الحديث يعطي القارئ فكرة واضحة عن نشأة هذا العلم وما مر به من أطوار انتهت بهذا العلم إلى الصفة التي نراها عليه الآن.

وانتقل المؤلف بعد ذلك لبقية مباحث الكتاب التي بلغت الثمانية والتسعين مبحثا تمتاز بالشمول والوضوح.

وبالرغم من أن أسلوب العلماء عادية فيه شيء من جفاف العبارة، حتى إن

كثيرا من الكتب العلمية لا يقوى على قراءتها إلا المتفرغون من الطلاب، ومع ذلك يعانون الكثير في استعاب عباراتها وفهمها. وبالرغم من ذلك فإن أسلوب الأستاذ الأندجاني أسلوب قوى ولكنه واضح فيه سلاسة وعذوبة وأشهد أنني قرأت كتابه في سهولة ويسر واستمتاع، وهذه ميزة تدل على أن المؤلف محيط بالعلم الذي يتحدث عنه، متمكن أعظم التمكن من موضوعه بارع كل البراعة في عرض مباحثه ومعالجتها بطريقة مبتكرة وهو لا يكتفي بعرض الموضوع والآراء المختلفة بل يقارن ويوازن ويرجح.

ولنعطي القارئ فكرة عن الكتاب ننقل له جزءًا من فصل عنوانه (المصحف والمحرف) يقول المؤلف (معرفة المصَحَّف والمحَرَّف مما تمس إليه حاجة المحدثين بل سائر العلماء أيضا محتاجون إليه فإنه من مزالق أقدام الفحول.

ومنشأ التسمية بالمصحف أن قوما كانوا قد أخذوا العلم عن الصحف ولم يأخذوه عن أفواه العلماء، وأنت خبير بأن الكتابة العربية قد كانت تكتب عهدا طويلا من غير إعجام للحروف، ولا عناية بالتفرقة بين المشتبه منها، فلهذا وقع هؤلاء في الخطأ عند القراءة فكانوا يسمون الصحفيين أي الذين يقرأون في الصحف ثم شاع هذا حتى اشتقوا منه فعلًا فقالوا صحف أي قرأ في الصحف ثم كثر ذلك على ألسنتهم فقالوا لمن أخطأ قد صحف أي فعل مثلما يفعل قراء الصحف).

وبعد أن حدد المؤلف معنى المصحف والمحرف وذكر أن كلًا من التصحيف والتحريف قد يكون في السند وقد يكون في المتن وقد يكون في السماع وقد يكون لفظًا وقد يكون معنى.

ثم أورد أمثلة لذلك فذكر بعضها للترويح عن نفوس القراء والكتاب الذين عانوا ولا يزالون يعانون الكثير من الطابعين ومن تصحيفاتهم وتحريفاتهم. يقول المؤلف (ومثال التصحيف في المتن ما وقع للإمام وكيع بن الجراح في حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يشققون الخطب تشقيق الشعر. فقد صحفه وكيع يشققون الحطب بالحاء المهملة بدل الخاء المعجمة مضمومة.

ومثال التصحيف في اللفظ ما وقع لعبدالله ابن لهيعة في حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجر في المسجد فقد صحفه فقال احتجم النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ومعنى احتجر اتخذ حجرة من حصير ونحوه.

ومثال التصحيف في المعنى والأليق أن لا يجعل هنا بل يجعل من قبيل الخطأ في الفهم ما وقع للإمام أبي موسى بن المثنى العنزي من قبيلة تسمى عنزة في حديث روي أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى إلى عنزة والعنزة هنا الحربة أو عصا كانت تنصب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فصلى إليها فلم يفهم ذلك الامام أبو موسى حتى روي عنه أنه قال: نحن قوم لنا شرف نحن من عنزة التي هي قبلة قد صلى النبي صلى الله عليه وسلم إلينا قال الحاكم في معرفة علوم الحديث: هذا النوع من التصحيفات من المتون قد زلق فيه جماعة من أئمة الحديث. سمعت أبا زكريا العنبري يقول سمعت أبي حَدَّثَ محمد بن يحيى بحديث على أنه كان رجلًا عنينًا ثم قال استغفر الله - إن الجواد قد يعثر - كان علي رجلًا عنينًا قال أبو عبدالله سمعت أحمد بن علي الذهلي يقول سمعت محمد بن عبدالقدوس المقرئ يقول قصدنا شيخنا لنسمع منه، وكان في كتابه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ادهنوا غبا فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهبوا عنا).

ولا أحب أن أنتهي من الحديث عن هذا الكتاب قبل أن أشير إلى نقطة هامة أثار انتباهي إليها ذلك الفصل الذي كتبه المؤلف بعنوان (تراجم - بعض المحدثين الذين تكلموا في فقه الحديث) أما هذه النقطة الهامة بل والخطيرة أيضا فهي قضية الحفظ والحفاظ، ويعرف المطلعون على تاريخ التربية عند العرب المسلمين أن تربية الطفل كانت تبدأ بتحفيظه القرآن ثم يحفظ طائفة صالحة من الأشعار، وكان لهذه الطريقة أثرها الذي لا ينكر في تثقيف الطلاب وفي صقل مواهبهم، وفي تهذيب أخلاقهم، وفي تعويد ألسنتهم على الفصاحة وأسماعهم الاساليب البليغة وكان من نتيجة هذا أن

صار العلماء ورجال الفكر على اختلافهم يجيدون لغة القرآن ويعتزون بالإسلام، وكنت تجد طبيبًا كابن سينا وعالمًا كالرازي أو جابر بن حيان يكتب بحوثًا علمية بليغة بأسلوب بليغ متقن لا عوج فيه ولا التواء ولا خطأ من الناحية اللغوية والنحوية.

والدراس للتاريخ الإسلامي يدهش لما يقرؤه من أخبار أولئك العلماء والأدباء الذين يحفظون ذلك القدر من الحديث أو الشعر يصل في دنيا الأرقام إلى مئات الألوف. وقد كان لذلك أثره في نقل تلك الثروة اللغوية الضخمة من الآباء إلى الأبناء حتى عصور التدوين، بل إن الرواد العرب في العصر الحديث كانوا يسيرون على هذه الطريقة. ولقد قرأت ترجمة أستاذ الجيل الأستاذ أحمد لطفي السيد في العدد الأخير من مجلة قافلة الزيت جاء فيها (ولطفي السيد عذب الحديث مرح الروح خفيف الظل، أديب تام الأدب يحفظ كمًا عظيمًا من متخير شعر العرب ومأثور أقوالهم إلى فقه في متن اللغة ورعاية لدقائقها).

وقد تنبه الأوروبيون وهم يدرسون تاريخ الإسلام بقصد القضاء على المسلمين، وتحطيم كل ما من شأنه أن يحول بينهم وبين الانحدار إلى هاوية ما لها من قرار.

تنبه الأوروبيون إلى خطورة الحفظ وحفظ القرآن بصورة خاصة، فقاموا بنشر فكرة خبيثة تدعو إلى محاربة الحفظ.. بحجة أنه يعوق الفهم ويعطل التفكير وانتشرت الفكرة انتشارًا غريبًا بين أوساط المسلمين وراجت في أذهان الناس رواجاً لا حد له واستطاعت بذلك أن تقضي على أساس التربية الإسلامية وترك الناس الحفظ وانصرفوا عنه بناء على هذه النظرية الخبيثة التي تحمل في طياتها أهدافًا سامة ضارة تلك هي إضعاف الأواصر التي تربط بين هذه الأمة الإسلامية وقرآنها المعجز صرفًا عن ثقافتها الإسلامية الأصيلة إلى ثقافات أخرى تصدر في الغالب من ينابيع ملوثة.

والغريب في الأمر أن خطورة هذه الفكرة لم تخف على بعض الرواد الكبار ولكنهم لم يجرؤوا على الجهر بمحاربتها حتى لا يتهموا بالرجعية والجمود.

وأذكر من هؤلاء الرواد أستاذنا المرحوم الدكتور زكي مبارك وقد تتلمذت عليه فترة من الوقت أيام كنت أطلب العلم في مصر أذكر أنه قد عرض في إحدى محاضراته لهذه المسالة وشجع طلابه على الحفظ من غير أن يشير إلى الجهات التي تحارب الفكرة بين المسلمين. وقد استشهد ببيت من الشعر هو:

احفظ تقل ما شئته   إن الكلام من الكلام

ولكن أستاذنا رحمه الله لم يشر إلى الفكرة فيما كتب من مؤلفات أو مقالات.

وقد كان من نتائج هذه النظرية أن أصبح الطلاب على اختلافهم يخافون من الحفظ ويتبرمون منه وتجد الطالب ضجرًا متذمرًا لأنه كلف بحفظ قصيدة تبلغ أبياتها العشر أو كلف بحفظ عدد قليل من الأحاديث.

لقد آن الوقت لأن نعيد النظر في هذا الموضوع وأن نعيد للحفظ مكانته وأن نحارب هذه النظرية الخطرة.. على أنني أحب أن أبادر فاوضح بأنني لا ادعو إلى الحفظ الببغائي ولكنني أدعو إلى الحفظ القائم على أساس من الفهم والعلم.

ولست أدري ما إذا كان المقام مناسبًا للإشارة بجهود وزارة المعارف في إنشاء عدد من مدارس تحفيظ القرآن تهيء الطلاب للشهادة الابتدائية وفي نفس الوقت تمكنهم من حفظ القرآن حفظًا جيداً مصحوبًا بالتجويد والإتقان وإن كان الإقبال على هذه المدارس لا يزال محدودًا حتى الآن. كما نشيد هنا بأفضال صاحب الجلالة الملك المعظم في تشجيع الشعب على حفظ القرآن بمنح كل حافظ ألفي ريال عربي وهذه مكرمة خالدة من مكارم جلالته.

وبعد فنحن نرجو أن يجد هذا الكتاب طريقه لا إلى كليات الشريعة في العالم الإسلامي فحسب كما نصح كاتب المقدمة بل إلى جميع مكتبات المدارس والجامعات والمكتبات الخاصة والعامة فهو مرجع قيم لا غنى عنه نستطيع أن نفاخر به وأن نضعه في طليعة الكتب الممتازة الصادرة في بلادنا.

إن صدور هذا الكتاب والجامعة الإسلامية في طريقها إلى الظهور لهو فال طيب جدير بأن نذكره ونشير إليه.

ويطيب لي في خاتمة هذا الكتاب أن اشكر للأستاذ الجليل قاسم الاندجاني هديته القيمة وتحفته الغالية وأن أرجو له التوفيق فيما يستقبل من أعمال تهدف إلى تدعيم الدين وخدمة المعرفة.

رأي.. وكتاب(*)

هذا كتاب فريد من الكتب الممتازة النادرة القليلة التي تستحق العناية والاشادة يظهر وسط هذا الطوفان الذي يندفع من بين فوهات المطابع فيغرق الناس ويلتهم أوقاتهم الثمينة بما يقدمه لهم من غثاء كثير وزبد لا يلبث أن يذهب جفاء وفقاقيع لا تحمل ريا ولا تطفئ عطشا.

والواقع أن المطبعة العربية أسرفت في إخراج كتب لا يخدم أكثرها العقل ولا يرضي حاجات الشعور وإنما تهدف إلى ارضاء جيوب الناشرين أولًا والغرائز الدنيا لدى الشباب والفتيات والمراهقين بعد ذلك. والمستوى الثقافي لدى الكثرة الكاثرة من القراء العرب ضعيف جدًا، ولا اعنى القراء في بلادنا فقط بل أعني القراء في بلاد العالم العربي.. على أن لهذا الحديث مجالا غير هذا المجال.

وهذا الكتاب الذي ساحدِّث القراء عنه يتصل بسبب إلى ما سبق أن أشرت إليه إشارة عابرة في مقال نشرته منذ حين عن الدعوة إلى أدب الفكرة هذا الأدب الذي يجب أن يلقى من عنايتنا واهتمامنا الكثير لنكون أبناءنا تكوينًا سليمًا بعيدا عن الضعف والانحلال والتفسخ وما إلى ذلك من عوامل تحول بين أمتنا وبين استعادة مجدها وتدفع بشبابنا إلى هاوية الشهوات وتشغلنا عن معالي الأمور لنتفرغ للسفاسف والدنايا وارضاء حاجات الجسد المادية.

ولا نريد أن نطيل القول عن أدب الفكرة والدعوة إليه لأننا سنعود إلى ذلك مرات ومرات. إنما نريد أن نحدث القراء عن هذا الكتاب.

ومؤلف هذا الكتاب أديب مسلم داعية له باع طويل في محاربة الالحاد ومكافحة موجاته وكان من الشموع القليلة التي وقفت وسط الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض ينير للتائهين والمخدوعين والحيارى سبيلهم بعد

(*) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٠/٧/٨هـ الموافق ١٩٦٠/١٢/٢٦م العدد (٤٤)

أن ضلوا السبيل وكانوا في طريقهم إلى الهاوية في تلك السنوات العجاف حين كانت (الموضة) السائدة هي الإلحاد والتظاهر به والتنصل من مجد العروبة ونور الإسلام.

وقد تجلى جهاده في نشر الكتب الإسلامية القديمة القيمة التي تشرح للناس حقائق الإسلام ومبادئ هذا الدين القويم شرحًا مبنيًا على الفهم والإيمان والاقتناع. كما تجلى في نشر المقالات والقصائد الصادرة عن قلوب مؤمنة ونفوس صادقة. وتجلى بصورة أوضح في مجلته التي حملت لواء الدعوة إلى الإسلام وايقاظ الضمير لدى المسلمين والملحدين. تلك هي مجلة «الفتح» وكانت كاسمها فتحا للعقول المغلقة والقلوب المظلمة وقد واصلت السير في طريقها رغم الأنواء والعواصف وكتبت فصلًا رائعًا في تاريخ الصحافة الهادفة الواعية المؤمنة.

ولا شك في أن القراء قد عرفوا أننا نرمي إلى الحديث عن صاحب مجلة «الفتح» الأستاذ محب الدين الخطيب.

وكتاب محب الدين (مع الرعيل الاول) هو مقصدنا في هذه المقالة وقد وفق الأستاذ في اختيار عنوان كتابه توفيقًا كبيراً؛ لأنه يعبر تعبيراً دقيقًا عما في الكتاب فقد رافق المؤلف الرعيل الأول من زعماء الإسلام وقادته ورجاله وعاش معهم بقلبه وروحه وتحدث الينا عنهم بعد ذلك حديثا يمتاز بالبساطة والصدق.. وليس هناك ما هو أحب إلى النفوس الطبيعية التي لم تدنسها الشهوات والاغراض من الصدق والبساطة.

وأسلوب مؤلف الكتاب أسلوب سهل بسيط قل أن تعثر فيه على كلمة غامضة تضطرك إلى الرجوع إلى المعاجم والقواميس أو جملة معقدة تضطرك إلى التفكير الطويل في فهم معناها.

والسهولة والبساطة هما الصفتان اللازمتان لأسلوب من يتصدى للدعوة واقناع الجماهير. وأسباب ذلك واضحة لا تحتاج إلى بيان.

ولم يكتب المؤلف مقدمة لكتابه تعطينا فكرة عن الكتاب وأهدافه وطريقة

تاليفه ولكننا نلمس من قراءة موضوعات الكتاب أنها موضوعات كتبت في أوقات متفرقة وربما متباعدة أيضًا. ولم تكتب ـ كما يبدو لنا ـ على أساس أنها فصول متماسكة متلاصقة في كتاب واحد وبالرغم من ذلك فالقارئ العادي لا يشعر بذلك لان روحا واحدا هو الذي سيطر على مقالات الكتاب من أول كلمة فيه إلى آخر كلمة.. هي روح الرجل العربي المسلم المؤمن بدينه المحب لنبيه المقدس لقرآنه المعتز بقومة المقدر لأمجادهم وتاريخهم وآثارهم، فهو كتاب واحد وان تفرقت مقالاته لانه يستقي من مصدر واحد ثر نظيف فياض.

وسنأخذ في استعراض بعض فصول الكتاب ليعرف القارئ مدى أهميته.. بدأ المؤلف كتابه بفصل نقله عن المؤرخ الهولندي المشهور (دوزي) من كتابه نظرات في تاريخ الإسلام وهو فصل ممتع تحدث فيه المستشرق العلامة (دوزي) عن الشعب العربي وعن صفاته واخلاقه وتحدث عن الدين الإسلامي الذي (قام يناوئ الوثنية الفارسية والمسيحية التي افسدتها الخرافات والبدع حاملًا إلى الناس توحيدًا خالصًا لم يلبث أن دان به الملايين من الناس. ثم تحدث عن ديانة العرب الأولى ووصفها بانها كانت واهية لا ترتكز على أساس متين وخلص من ذلك إلى افتراض انه كان من اليسير على العرب أن يقبلوا دينا آخر فيدينوا بالمسيحية أو إليهودية مثلا ثم يقرر أن هذا كلام صحيح ولكن إلى حد ما..

إن المسيحية انتشرت لهذا السبب نفسه في جهتين في الحبشة جنوبا وفي سوريا شمالا حيث لقيت شيئا من القبول. وقد انتشرت كذلك في مدينة نجران في وقت مبكر ودانت شبه جزيرة سيناء بالمسيحية كما تنصر عرب سوريا. على أن هذا النجاح لم يكن ـ في أي مكان تقريبا ـ الا مظهرا من المظاهر لا حقيقة من الحقائق.

أما في أواسط بلاد العرب وفي قلب جزيرتهم حيث نبتت جرثومة العربي القح وأرومته فلم تنجح الدعاية للدين المسيحي ولم تكن لترى إلَّا أثرا ضعيفا ان لم نقل معدوما ويفسر العلامة (دوزي) ذلك بقوله: (كانت المسيحية في ذلك الزمن ـ على وجه عام ـ بما تحويه من معجزات وبما فيها من عقيدة

التثليث وما يتصل بذلك من رب مصلوب قليلة الجاذبية بعيدة عن التأثير في نفس العربي الساخر الذكي) ويؤكد ذلك بذكر ما وقع للأساقفة من المنذر الثالث ملك الحيرة فيقول: (وآية ذلك ما نراه واضحا فيما حدث للاساقفة الذين سعوا إلى تنصير المنذر الثالث ملك الحيرة حوالي سنة ٣١٥ من الميلاد فإن المنذر ليصغى إلى ما يقوله الاساقفة بانتباه اذ دخل عليه احد قواده فأسرَّ إليه بضع كلمات ولم يكد ينتهي منها حتى بدت على اسارير الملك امارات الحزن العميق فتقدم إليه احد القساوسة يسأله ـ متأدبا متلطفا ـ عما اشجاه فأجابه الملك: يا له من خبر سيئ لقد أعلمني قائدي أن رئيس الملائكة قد مات فواحسرتاه عليه! فأجابه القسيس: هذا محال ايها الملك، فقد غشك من أخبرك بذلك، ان الملائكة خالدون ويستحيل عليهم الفناء. قال الملك: ـ أحق ما تقول!؟ وتريد مع ذلك ان تقنعني بان الله ذاته يموت؟!

ويخلص (دوزي) من ذلك إلى هذه النتيجة: (العربي رجل عملي مادي لا يُعنى بغير الحقائق حتى في شعره فهو لا يسبح في الخيال والوهم ولا يميل إلى الاخذ بتلك الألغاز والعميات الدينية التي يعتقد الإنسان في استيعابها على التخيل اكثر من اعتماده على التعقل..).

وبهذا ينتهي هذا الفصل الذي كتبه (دوزي) وهو فصل ممتع كتب بروح الإنصاف.. والمستشرق العلامة (دوزي) يميل إلى الانصاف في أكثر ما يكتب عن العرب والإسلام، وقد أحس المؤلف في بدء كتابه به لانه يعطي فكرة عن نظرة الأوروبيين إلى هذا الدين والفضل ما شهدت به الاعداء. ثم هو وسيلة إلى اقناع طائفة من الشباب لا يرضيهم الا ما ورد من الغرب. وبدأ المؤلف الفصل الثاني أو المقال الثاني ان شئت من كتابه وعنوانه «مولد الإنسانية» بكلمة الحكيم الفرنسي الشهير (جوستاف لوبون) ما عرف التاريخ حاكما أعدل ولا أرحم من العرب. وهذا المقال من أبدع ما قرأت ولو طاوعت نفسي لنقلته بأكمله إلى القراء ليستمتعوا بأمجادهم وليعرفوا تاريخهم على حقيقته وليعلموا أن دينهم الخالد سبق للدعوة إلى الإنسانية مفكري العصور الحديثة بعشرات القرون.

وليستمع القراء إلى قول المؤلف في التعليق على كلمة الحكيم الفرنسي السابقة. (وهذا الامتياز الذي تفرد به العرب في التاريخ ما لاحظه الحكيم الفرنسي وأعلنه للناس، إنما كان نفحة من رسالة الله التي اختار لها صفوة عباده وأكمل مخلوقاته محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه فكان يوم مولده يوم مولد العدل الذي كانت الإنسانية في انتظاره وبشيرا برحمة الله التي تعامل بها الناس للمرة الأولى في ظل الرسالة المحمدية.

فالمولد المحمدي لم يكن مولد إنسان وانما كان مولد إنسانية. وكانت الإنسانية قبل ذلك أمنية الخواص وكان التعامل بها محصورا بين أفراد ممتازين فلما أذن الله بمولد صاحب هذه الذكرى الخالدة على الدهر رفع بمولده مقام الإنسانية ونهض بمستواها إلى المرتبة التي كان يحلم بها الحكماء ويرونها مرامًا في الخيال فصارت الإنسانية عقيدة ودينا بعد ان كانت منية ووهمًا وقامت لها في الارض دولة تعد الصدق من دعائم دينها والحياء من شعب إيمانها والرحمة من أسلحة نضالها وإقامة الحق من شعائر مجتمعها وإماطة الأذى عن كل طريق خلقا إسلاميا يتخلق به كل من سار وراء هذا المتبوع الاعظم).

ويأتي المؤلف بعد ذلك بطائفة من اقوال المستشرقين والأوروبيين (كولز وجوته وكارليل) وغيرهم في إكبار الإسلام وتمجيد رسالته ووصف الانتصار الكاسح الذي أحرزه بسرعة تدهش العقول ثم يعلق عليها بقوله (وهذه الحضارة الإنسانية بل الإنسانية الممتازة التي ولدت بمولد الهادي الأعظم وانطوت عليها رسالته السامية وحققها بالتعامل بها من اتبعه من الصحابة والتابعين هي التي وقف في طريقها شارل مارتل) ثم يعلق على الأثر السيئ الذي أوجد، انتصار مارتل هذا في سير المدنية وما تعرضت له أوروبا من ألوان الهمجية نتيجة لهذا الانتصار وينقل طائفة من النصوص لبعض الكتاب والمفكرين الغربيين وتؤيد ما أورده ويختم تلك النصوص بنقل فقرة من رسالة (بعث بها الامبراطور غليوم إلى قريبه قيصر روسيا يوم ٩ نوفمبر ١٨٩٧ يصف له فيها شعوره عند زيارته بيت المقدس في ذلك الشهر

من تلك السنة حيث يقول: (ولما غادرت الأماكن المقدسة كنت أشعر بخجل من المسلمين وكنت أقول لنفسي في قرارة نفسي: لو لم يكن لي دين عند وصولي إلى القدس لكنت قد اعتنقت حتما الدين الإسلامي).

وبعد أن يعلق على ذلك تعليقا جميلا ينقل إلى القراء بعضا من حديث سمعه قبل نحو ربع قرن تحدث به مسلم انجليزي هو (العالم المحقق الجليل مستر مارماديوك بكتول في دار الشبان المسلمين عن الإسلام وقوته وضعف أهله) وهو حديث رائع قيم يحسن أن يرجع إليه القارئ هناك.

ويعلق المؤلف على هذا الحديث تعليقا طويلا نقتطف منه قوله: (ولو ان الله سبحانه لم يبعث رسوله بالإسلام قبل بضعة عشر قرنا لكانت حكمته العظمى ورحمته بالبشر جديرة بأن يحسن إليهم الآن برسالة الإسلام نفسها دون غيرها لما انطوت عليه من اعتدال ورفق ومعالجة عملية لجميع مشاكل المجتمع واقرارًا للأوضاع المألوفة لبني الإنسانية مع تهذيبها بإبقاء ما فيها من حق وخير وتجريدها من كل ما يتصل بأسباب الجور والحيف والضرر.

فالزمن الذي نحن فيه أنسب الازمان لقبول مبادئ الإسلام وأحكامه مطبقة على مشاكل العصر ومنظمة تنظيما يسهل على رجال التشريع وزعماء الشعوب وقادة الفكر الاستفادة منها في معالجة مشاكلهم لما انطوت عليه من حكمة ومصلحة وخير).

وكتب المؤلف فصلا قيما تحت عنوان (بيئة الإسلام الأولى) وهو فصل فيه أصالة وعمق استمع إلى المؤلف يقول (ومما يدلك على كرم معدن البيئة المعاصرة لظهور الإسلام في مكة أن الذين ماتوا على غير الإسلام من قريش كانوا قلة قليلة جدا يعرفهم علماء الانساب بأسمائهم...

ولا يعرف التاريخ نبيا من أنبياء الله ولا صاحب دعوة الى الحق والخير استجاب له من أمته رجال يستحقون أن يعدوا من أولياء الله الصادقين المجاهدين كما استجابت قريش والأنصار وسائر العرب للدعوة المحمدية وكان لكريم معدن هذه الأمة الأثر العظيم في هذا الامتياز الذي كان لبيئة

الإسلام الأولى).

وفي فصل رائع كتبه المؤلف تحت عنوان (المدرسة الإسلامية الأولى) ننقل للقراء عامة وطلاب المدارس خاصة هذه الأسطر القليلة التي تعطيهم فكرة عن مدى تقدير أسلافنا لشيوخهم وأساتذتهم، ومدى تقديرهم للعلم وعسى أن يجدوا في هذا ما يدعو إلى المقارنة بين نظرة أبنائنا لمدرسيهم ومعلميهم وبين نظرة أولئك الأسلاف العظام لشيوخهم ورجال العلم فيهم.

يقول المؤلف: (وكما كان الشيوخ يقدرون الأكفاء ممن سيحملون عنهم أمانات الله كان التلاميذ ينظرون إلى شيوخهم نظرة الصالحين في الأمم الخالية إلى أنبيائهم لوضع الأمانة من نفوس هؤلاء وهؤلاء.

علم سفيان الثوري بأن عالم أهل الشام الإمام عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي قادم إلى مكة فخرج منها سفيان يستقبل ضيفها الأوزاعي حتى لقيه بذي طوى فحل رسن بعير الإمام من القطار ووضعه على رقبته. فكان إذا مر بجماعة يشغلون الطريق قال: الطريق للشيخ. قال أبو حنيفة ما صليت منذ مات حماد بن مسلم الأشعري (وهو شيخه) الا استغفرت له مع والدي وما مددت رجلي نحو داره وإن بيني وبينها سبع سكك وإني لاستغفر لمن تعلمت منه أو علمني. وتلقى الإمام أحمد بن حنبل بعض (أمانات الإسلام وسنته عن محمد بن إدريس الشافعي مدة إقامته عندهم في العراق فلما استتب للشافعي المقام في مصر واختار الله له الموت فيها جعل الإمام أحمد يقول: ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له. وقال ستة أدعو لهم سحرا أحدهم الشافعي).

وتحدث المؤلف عن حلقات العلماء ووصفها بانها مجامع علمية وأورد بعض الأمثلة ثم علق عليها بهذه العبارات البليغة: (ومثل هذه الحلقات ـ التي استغنى عنها علماء زماننا! المقاهي والأندية ـ أفضل وأغزر إنتاجًا وأعلى في العلم مقاما من كل ما نعرفه من مجامع العلم الرسمية التي يتزاحم أهلها عليها ابتغاء ثواب الدنيا).

كما تحدث المؤلف عن شغف أسلافنا بالعلم وتوسعهم فيه فقال (ومع أن العمل كان من شروط العلم عندهم، فإن العلم لم تكن له عندهم حدود. كان طالب العلم منهم يساهم في مختلف ألوان العلم على قدر ما يأنس في همته من قدرة وفي مواهبه من كفاءة وطاقة. وهل على قدر ما يأنس في همته من قدرة وفي مواهبة من كفاءة وطاقة. وهل علم الذين يزورون قبر الإمام محمد بن إدريس الشافعي، أو يتعبدون على مذهبه في الفقه أنه كان من أحذق قريش في الرماية وكان يصيب من العشرة عشرة). ولقيه طلبة الطب في الفسطاط فوجدوا عنده من المعرفة في علومهم ما أطمعهم في أن يخصص لهم وقتا يأخذون فيه عنه علوم الطب، فاشار إلى الفقهاء وهم واقفون ينتظرونه في ظل الجدار من جامع عمرو بن العاص فقال: (وهل ترك لي هؤلاء من الوقت ما أتفرغ به لكم) فهذه صورة لما نحب أن يكون عليه أبناؤنا من شغف بالعلم وإكباب عليه ورغبة صادقة في الحصول على أكبر قدر من المعارف.

والى القراء صورة أخرى نقلها المؤلف وهي صورة رائعة حقا تبين بوضوح مدى إيمان أسلافنا بالعلم ومدى حرصهم عليه. يقول المؤلف: (قال إسماعيل بن يحيى المزني قيل للشافعي: ـ كيف شهوتك للعلم؟ قال أسمع بالحرف مما لم أسمعه فتود أعضائي أن لها أسماعا تنعم به مثلما تنعمت أذناي. قيل له: فكيف حرصك عليه؟ قال حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال. قيل له فكيف طلبك له؟ قال طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره. وكتب المؤلف فصلا قصيرا عنون له بعنوان (فساد اليهود في حكومة النبي صلى الله عليه وسلم) ننقله إلى القراء لانه يعطي فكرة عن خيبر البلد الذي يخيم عليه الفقر والمرض والحمى الذي قامت بعض الأقلام تدعو إلى العناية به.

ولأنه يشير إلى مرض اجتماعي أخذ ينتشر في مجتمعنا وكان منتشرا في مجتمع اليهود، وكيف كان المسلمون يقاومونه. يقول المؤلف: (روى الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث

عبدالله بن رواحة في كل عام إلى خيبر ليخرص غلتها ـ أي ليقدر ما تحمله من بلح فيجبي منهم حق الدولة ـ وكانت خيبر يومئذ من مدن الحجاز العامرة، وكانت تخرج عشرين الف مقاتل لكثرة سكانها وسعة عمرانها. فكانت عادة عبد الله بن رواحة أن يقدر في كل سنة ما يحمله نخل خيبر ثم يقول لأصحابه: إن مال الدولة يعادل كذا فإن اقتنعتم بعدالة تقديري دفعتم ما أقوله وإلّا فانا أرفع هذا المقدار عنكم ونحصي ثمر النخيل إحصاء دقيقا وأرضى لنفسي بما ينتج من هذا الإحصاء قل عما قدرته أم زاد عليه وبذلك لم يكونوا يستطيعون ان يغالطوه. وحاولوا مرة أن يفسدوا ذمته فجعلوا له حليا من حلي نسائهم وقالوا له ـ هذا لك وخفف عنا وتجاوز عن بعض ما تفرضه علينا. فقال لهم عبد الله بن رواحة: يا معشر اليهود إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ وما ذلك بحاملي على أن أحيف عليكم. وأما ما عرضتم عليّ من الرشوة فإنها السحت وإنا لا ناكلها. فقالوا له: ـ بهذا قامت السموات والأرض)

هذه هي خيبر في عهد النبي صلوات الله وسلامه عليه ونحن من حسن الحظ في مطلع نهضة مباركة ونامل أن نستطيع تحويل خيبر من مستنقع للأمراض والأوبئة الفتاكة إلى جنات تمكن مواطنينا هناك من أن يعيشوا عيشة كريمة وأن يقوموا بواجبهم في خدمة دينهم وأمتهم.

وبعد فقد قدمنا فيما سبق نماذج من هذا الكتاب القيم ولا نشك في أن الغالبية العظمى من القراء قد عرفت ما ينطوي عليه هذا الكتاب من كنوز غالية ثمينة من واجبنا أن ندرسها وأن نحرص عليها وأن نطلع عليها أبناءنا؛ لأنها سجل مفاخرنا وقد لاحظ القراء أن المؤلف لم يكتف بالحديث عن الموضوع الذي يتحدث عنه أو الشخصية التي يعرض لتاريخها بل كان يقوم بواجبه كداعية فيذكر المسلمين بواجبهم ويحرضهم على تفهم تاريخهم ويدعوهم في حرارة المؤمن الصادق إلى استعادة ذلك الماضي.. يقول بعد أن تحدث عن بعض معاني الهجرة في فصل بعنوان (من إلهامات الهجرة).

(نحن محتاجون اليوم ـ من معاني الهجرة وأهدافها وحكمتها ـ إلى ان نتخلى

في بيوتنا عن الآداب التي تخالف الإسلام، وأن نعيد الى هذه البيوت الصدق والصراحة والنبل والاستقامة والاعتدال والمحبة والتعاون على الخير. فالبيت الإسلامي وطن إسلامي بل هو دولة إسلامية.

وقبل أن أتبجح فأنتقد ما خرج عن دائرتي من بيئات لا يفيدها انتقادي شيئا. يجب عليَّ أن أبدأ بمملكتي التي هي بيتي فأهاجر أنا ومن فيه من الكذب الذي يكرهه الله ويلعن أهله في صريح كتابه ويجب أن أتخلي أنا وأهل بيتي من رذيلتي الإفراط والتفريط فنكون معتدلين في كل شيء؛ لأن الاعتدال ميزان الإسلام) ويقول في فصل تحت عنوان (وقفة عند ذكرى بدر)..

(إن رسالة الإسلام التي استمات في سبيلها أبطال بدر لا تحتاج إلى علماء ينشرونها بألسنتهم ولكنها تحتاج إلى شباب تهضمها أرواحهم وتمتزج بها نفوسهم وتنبض بها قلوبهم وتراها الأمم في أخلاق حملة أمانتها من شباب الإسلام وفي أعمالهم وتصرفاتهم).

هكذا فعل رجال بدر يوم خرجوا من جزيرتهم تحت ألوية الإسلام ليعرفوا الأمم بالإسلام لا بكتب يؤلفونها ولا بمحاضرات يلقونها ولا بالجدل والمراء والمناظرات ولكن بعرض الإسلام على الأمم عرضًا عمليًا يراه الناس في أخلاق هؤلاء المجاهدين وفي أحكامهم ومعاملاتهم وتصرفاتهم فكانت بذلك المعجزة التي يوشك أن تكون على أيدي شباب هذا الجيل من المسلمين اذا عادوا إلى مثل ما كان عليه أبطال بدر فضائل النفس وصدق الإيمان وصلابة العزم وكريم الخلق).

ويقول في فصل بعنوان (المدرسة الإسلامية الأولى): (ايها المسلمون إن آداب مدرستكم الأولى وتربيتها وسننها معطلة منذ أحد عشر قرنا فهل ينوي لتجديد هذه الدعوة وإحياء آداب هذه المدرسة وتربيتها شباب يخضر بهم عود الماضي فينفض بهم تراب الأنقاض عن ذلك التراث فيظهر للدنيا وتنبت في شرايين الأمة حيويته. الجواب عند الذين يحبون أن يكونوا من تلاميذ المدرسة الإسلامية الأولى خلفا لمن سلف من أوليائهم وأعتقد أنهم موجودون لان أمة محمد بخير).

وهكذا لو أردنا أن ننقل إلى القراء تعليقات الأستاذ المؤلف لملأنا صفحات وصفحات وحسبنا ما قدمنا في الدلالة على عمق تفكير المؤلف واتساع ثقافته وفي إيمانه العظيم برسالة الإسلام ونبي الإسلام.

والناقد الباحث لا يعثر إلا على نقاط قليلة في كتابه يخالف فيها المؤلف أو تكون موضعا للنقاش واختلاف وجهات النظر.

والناقد يلمح من كتابات المؤلف ميله إلى الأمويين ودولة بني أمية وهو ميل له مبرراته حين ننظر إلى هذه الدولة نظرتنا إلى دولة عربية لها في خدمة العروبة وتدعيمها قدم راسخة.

ولا نحب أن نعرض هنا لدفاع المؤلف عن معاوية بن أبي سفيان.. فهو صحابي كريم وان كان المؤرخون والباحثون لهم آراء في تصرفاته وخلافاته مع علي. ولئن نظر إلى مطالبته بالخلافة على أساس أنه اجتهاد يثاب عليه وإن أخطأ فان موقفه من بعض القضايا يستحق التفكير والتأمل الطويل.

ولكن حديثه عن يزيد كان حديثا مختصرا. مال فيه المؤلف إلى التحدث عن بعض الجوانب الطيبة في سيرة يزيد مغفلا ما عداها وكنا نؤثر أن يحدثنا حديثا طويلا عن تاريخه وعن الأحداث التي وقعت في عهده وعن موقفه منها وأثره فيها، وأن يناقش ما أورده المؤرخون الثقات من سيرة هذا الخليفة الأموي الذي كان له اثر بعيد في العالم الإسلامي رغم قصر مدته.

وبعد، فليت هذا الكتاب ياخذ طريقه إلى مكتبات المدارس بل ليته ياخذ طريقه إلى المدارس نفسها فيدخل ضمن مناهج المطالعة فإنه كنز قيم لا يستهان به.

رأي.. وكتاب(*)

وجه عربي سمح، بسطة في العلم والجسم، ألقاب علمية ضخمة، كرم يكاد يبلغ حد السرف مروءة ربما لا تجد لها نظيرًا، فصاحة تبهر السامعين، مثل رائع من الدقة والنظام، علم واسع عميق روح جميل بحق، دائرة معارف متنقلة. تلكم بعض صفات مؤلف الكتاب موضوع حديثنا اليوم وهي صفات عرفتها في المؤلف عن طريق المعاشرة والمخالطة والاتصال الشخصي. وقد اتيح لي أن أتتلمذ عليه في الجامعة عددًا من الأعوام فعرفت الكثير عنه وسعدت بالاتصال به وانعقدت بيني وبينه روابط من المودة لا تنفصم.

وكتابه الذي نقدمه للقراء جهد مشكور سد به مؤلفه نقصًا في المكتبة العربية ودفع به التهم التي حاول أن يلصقها المغرضون من الأجانب والأعداء بالأمة العربية.. حينما زعموا أن العناية برياضة الأجسام وصقلها بالألعاب المنظمة المختلفة إنما هي أثر من آثار الحضارة الغربية حضارة أوروبا وأمريكا. أما الحضارة العربية فقد غفلت عن هذا اللون الراقي من ألوان الحضارة. وقد تسرب هذا الزعم إلى العرب أنفسهم في عصورنا الحديثة فكانوا ينظرون بدهشة إلى الألعاب الأوروبية ويعتبرونها من مفاخر الحضارة الحديثة.. لم يعرفها العرب ولم يولوها أي اهتمام. ولكن أستاذنا الجليل رأى بثاقب فكره أن يضع حدًا لهذه الدعوى وأن يبين بالدليل القاطع مدى ما فيها من وهم وافتراء وشمَّر عن ساعد الجد وواصل الليل بالنهار ورحل إلى كثير من الأقطار وانغمس بين المصادر الكثيرة يستخرج من بطونها ما يعينه في موضوعه.

وقد لاقى في سبيل ذلك متاعب لا يقوى عليها إلا أولو العزم من الباحثين المخلصين والذين عالجوا التأليف يدركون المصاعب التي تواجه المؤلف

(☆) نشر بمجلة الرائد. بتاريخ ١٣٨٠/٦/٨هـ الموافق ١٩٦٠/١١/٢٧م العدد (٤٠)

وخاصة عندما يكون موضوع البحث موضوعًا بكرًا لم تطرقه الأقلام من قبل، وربما اضطر إلى قراءة كتاب تبلغ صفحاته المئات من أجل العثور على كلمة أو جملة أو خبر صغير. وربما قضى الليالي الطويلة ساهرًا يستنبط ويستنتج ويقارن بين النصوص.

وأستاذنا الكبير لقي الكثير من التعب المضني ولكنه كعادته تحمل كل ما واجهه من متاعب حتى خرج بسفره القيم.

وقد أبى على أستاذنا تواضعه إلا أن يغفل الحديث عن هذه المتاعب فلم يشر إليها إلا إشارة عابرة. كما سنرى عندما نعرض لمقدمة الكتاب. ولكنني استطعت أن أجره إلى الحديث عنها في أمسية من أمسيات الصيف الماضي فعرفت الكثير مما عانى. وأعجبت بصبره وجلده وقدرته الفائقة على البحث والدرس والمراجعة.

وأستاذنا ـ أمد الله في عمره ـ من ذلك الرعيل الذي أخلص للعلم ووهب نفسه للمعرفة فلم يكتف بأن يتخصص في فرع من فروع المعرفة مهملًا ما عداه إهمالًا تامًا فيجهل نفسه العربية ويغفل عن ثقافته الإسلامية ـ كما يفعل شباب اليوم ـ ولكنه من ذلك الرعيل الذي لم يبق من أعلامه غير نفر قليل نذكر منهم طه حسين والعقاد والزيات وتوفيق الحكيم وأقرانهم أولئك الذين اتقنوا لغتهم وجمعوا بين الثقافتين القديمة والحديثة.

ويبدأ (كتاب «الرياضة البدنية عند العرب») بمقدمتين.. كتب الأولى المرحوم الشيخ عبدالله إبراهيم الفضل الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية بالقاهرة سابقًا وهي مقدمة قصيرة جاء فيها:

(وفي هذا الكتاب الفريد استطاع المؤلف أن يحيط بالموضوع بشكل بديع في مهارة الواثق ويقدمه بشكل متقن واضح).

أما المقدمة الثانية فقد كتبها المؤلف نفسه واستهلها استهلالًا مباركًا ميمونًا ثم قال (وبعد فقد لبثت الحضارة العربية عمرًا مباركًا تؤدي رسالتها في النهوض بالبشرية وإسعاد حياتها ولم يأذن الله بزوالها وإحلال الحضارة

الحديثة محلها حتى أبلت في هذا السبيل بلاء حسنًا. على أن الحضارة الحديثة قد اقتبست منها، وأخذت أخذها في كثير من النواحي، وقد حرص كثير من العلماء والباحثين على دراسة آثار الحضارة العربية لإحياء مواتها واستخراج ذخائرها والكشف عن جهود بناتها في خدمة الثقافة والتربية. ولكنهم قصروا دراستهم على الجانب العقلي وحده كأن القوم لم يعرفوا التربية البدنية أو لم يكونوا يقدرونها حق قدرها.

ولقد يكون السكوت عن هذا قبل اليوم.. سائغًا أما الآن فلا. فقد اجتمعت كلمة الدول العربية وانضوت تحت لواء جامعتها العتيدة تتعاون على الخير وتتخذ الأهبة لاستحياء مجد الآباء ونشر آثارهم في شتى نواحي النشاط.

فاستخرت الله واعتمدت عليه في دراسة الرياضة البدنية عند العرب استداركًا لفائت ومشاركة في حاضر.. فانطلقت في بطون الأسفار جادًا في البحث والتنقيب وبدأت بالعصر الجاهلي وفي الجزيرة العربية طبعًا ثم انحدرت إلى سائر الأقطار ثم عدت من هذه الرحلة البعيدة الشاقة مليء اليدين زاخر الوفاض.

ولست أدَّعي أني بما فعلت قد أوفيت على الغاية ولكني أستطيع أن أقول في ثقة واطمئنان أني حاولت محاولة بذلت فيها كل ما أملك من جهد وعناية، وأني لأرجو وقد أعززت كتابي عن التربية البدنية عن التربية البدنية من ناحيتي العلاج ووظائف الأعضاء - بهذا الكتاب عن الرياضة البدنية عند العرب - أن أكون قد أسديت خدمة إلى التربية الرياضية.

بهذه المقدمة الرائعة قدم أستاذنا الكبير محمد كامل علوي لكتابه وهي مقدمة تعطي القارئ صورة واضحة عن ثقافة المؤلف ونهجه في البحث ورصانة أسلوبه وإجادة لغته واعتزازه بحضارة العرب والإسلام.

وسنمر في رحلة خاطفة لنستعرض بعض موضوعات الكتاب. وقد قسم المؤلف كتابه إلى تسعة أبواب هي الطَرَد (بفتح الطاء والراء) وهو الصيد والفروسية والجواد العربي والرمي والسلاح والرياضة البدنية عند العرب

والألعاب الرياضية والمشي والعدو وأخيراً الرقص ثم ختم كتابه ببيان عن أسماء طيور الصيد وحيواناتها وما يقاربها باللغتين اللاتينية والإنجليزية ثم ثَبْتٌ عن مصادر الكتاب العربية والأجنبية.

وقد بدأ المؤلف بحثه عن الطرد بذكر الآيات القرآنية الواردة في إباحة الصيد ثم ذكر أن (الصيد من أهم ضروب الرياضة عند العرب ومن أحبها إلى نفوسهم) وأخذ يربط بين أسباب ذلك وأثر البيئة فيه ثم تحدث عن الحيوانات المفترسة في جزيرة العرب وعن أسلحة العرب وانتقل إلى الحديث عن طريقة صيد الأسود، وعن تدريب الخيل لملاقاة الأسد واستعان على توضيح ذلك ببعض الصور وعندما تحدث عن صيد الفهد نقل أرجوزة لأبي نواس في نعت الفهد والمؤلف الفاضل معني بالاستشهاد بالشعر كلما وجد ذلك مناسبًا، كما سنرى بعد وهي طريقة جيدة وموفقة ولكنها تفقد قيمتها عندما تنشر المقطوعة من غير أن يصحبها شرح واف لمفرداتها ثم لمعانيها وكم من القراء سيجهد نفسه في مراجعة هذه الأراجيز وشروحها في مظانها من الكتب وخاصة في عصرنا هذا.. حيث غمر أسواقنا الأدبية طوفان من الكتب الخفيفة السهلة التي لا يهمها إلا دغدغة غرائز المراهقين والمراهقات دون أن يكون للغاية والفكر أو اللغة أو الأسلوب أي قدر من الاهتمام وكم من القراء يستطيع أن يفهم أرجوزة كهذه الأرجوزة التي نقدمها للقراء في وصف الشاهي لأبي نواس:

قد اغتدى قبل الصباح الأبلج ... بشهر دان اللون أو اسبهرج
يوفي على الكف انتصاب الزمج ... مشمر ثيابه عن موزج
كان وشي ريشه المديج ... من قائم منه ومن معرج
باقي حروف الأسطر المخرفج ... أبرش أوتاد الجناح أخرج
ينهش سير المقود المتجملج ... من نهم الحرص وإن لم يلتج
ذي مقلة واسعة المحجج ... كأنما يطرق عن فيروزج
من الشواهين كلاف عنفج ... في هامة مثل الصلاء المدبج

وبعد أن أشار إلى صيد الذئب والثعلب قال (ولكنهم كانوا أكثر عناية بصيد

الضبع لما كان ينسب إلى فمه ولسانه من خواص تتصل بأعمال السحر).

أخذني الحديث عن صيد الحيوانات المأكولة اللحم وطريقة صيدها وكعادته حاول أن يربط بين ذلك والبيئة وكان موفقًا فيما وصل إليه من نتائج. ولم يفته أن يستعين بطائفة من الصور. وعرض بكلمة عابرة للخيول العربية الأصلية وأشار إلى ندرتها في عهد النبي وإلى حث النبي أصحابه على تربيتها وتكثيرها. ثم تحدث عن كلاب الصيد وعن كلاب السلوقية وسبب تسميتها بذلك.

وطريقة تدريبها للصيد وأورد أرجوزة في وصف هذا النوع من الكلاب، وأكد عناية بعض المسلمين باصطياد هذه الحيوانات والقبض عليها حية للاحتفاظ بها في حدائقهم وبذلك يكون المسلمون قد سبقوا إلى فكرة إنشاء حدائق للحيوان.

وقاده البحث إلى الحديث عن الطيور الجارحة التي استخدمها العرب في الطرد مثل الباز والصقر وطريقة تدريبها وقدم عددًا من الصور لتوضيح ما أورد.

وعقد فصلًا بعنوان (طيور الصيد وحيواناتها وطرائدها عند العرب) ذكر فيه أسماءها وأنواعها وألوانها وأوزانها والفوارق بينها وبين أناثها وذكورها. وأقوال بعض الشعراء عنها ثم ما تصيده كل منها من أنواع الطيور.

كما عقد فصلًا صغيراً بعنوان (عرق الطيور) وهو فصل علمي شائق وتلاه بفصل عن (الصيد بالفهد) ثم بفصل عن (الكلاب السلوقية) وأسمائها والفرق بين ذكورها وإناثها وكيفية استئناسها وخصائصها وكتب فصلًا قصيرًا عن الظباء وطريقة صيدها وأقوال الشعراء في ذلك. وآخر فصل في هذا الباب عنوانه (أخبار من اشتهر بالطرد من الخلفاء وأقبال العرب وأمرائهم) وهو فصل علمي كله طرائف ختمه بهذه السطور التي تشير إلى اسبقية العرب في فنون الصيد حيث يقول (والصيد رياضة محمودة محبوبة يمارسها الكثيرون من ملوك أوروبا وأمرائها ووجهائها حتى يومنا هذا

فيخرج الواحد منهم للصيد وهو يمتطي صهوة جواده ويخرج معه جماعة من أصدقائه ورجال حاشيته ومعهم كلاب الصيد على نحو ما كان يفعل ملوك العرب وأمراؤهم ولا غرو فقد تشبهوا في ذلك بهم ونقلوه عنهم وقد قطع بصحة تلك الأدلة العلمية والحقائق التاريخية.

وبعد، فلم نتحدث حتى الآن إلا عن باب واحد من أبواب هذا الكتاب ويبقى من أبوابه بعد ذلك ثمانية أبواب لو رغبنا في عرضها والتعليق عليها لاضطررنا إلى تأليف كتاب كامل وليس هذا من غرضنا وكل ما هدفنا إليه الذخيرة العظيمة التي اتحف بها أستاذنا الجليل قراء العربية وما نشك في أنهم قد ادركوا قيمة هذا الكتاب وفي انهم سيحصلون منه على فوائد علمية ربما مرت السنوات الطوال قبل أن يحصلوا عليها في بطون الكتب والمراجع. ومن إيماننا العميق بأن كل باب من هذه الأبواب هو تحفة في حد ذاته فإننا نرى أن نخص بالذكر الباب السادس وعنوانه (الرياضة البدنية عند العرب) والباب السابع عنوانه (الألعاب الرياضية) ففيها الأدلة القاطعة على تفوق العرب والمسلمين في ميدان الرياضة وعلى سبقهم لغيرهم من الأمم في ذلك وعلى أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة متكاملة وأن الطعن الذي يوجه إليها أساسه الغرض والكراهية والتعصب وأنه قد آن الأوان لأن يعرف العرب والمسلمون تاريخهم وفيه من المزايا والفضائل ما يفوق كل تاريخ وأن يعلموا حق العلم بانهم خير أمة اخرجت للناس.

واستمع إلى المؤلف يقول في بداية فصل (الألعاب الرياضية) (العرب قوم ذوو ماضٍ مجيد وتاريخ عتيد ضربوا بسهم وافر في مختلف العلوم والفنون فسبقوا أهل الغرب بعدة قرون).

(والعرب أمة عظيمة لم يغرب عن بالهم ما للألعاب الرياضية من أهمية في تكوين الجسم وتنشيطه فكانت لهم ألعابهم الخاصة بهم وهذه الألعاب على الرغم من مر الدهور وكر العصور كانت ولا تزال هي الأصل الذي نقل عنه أهل الغرب معظم ألعابهم التي اشتهرت الآن في أنحاء العالم شرقًا وغربًا واقترنت أخيراً باسمهم. فإلى العرب يرجع الفضل الأول في تلك الألعاب فمن

المقطوع بصحته أنها صيغت من نسيج عقولهم بل إنها وليدة بيئتهم عاشوا فيها).

واستمع إليه يقول في فصل عنوانه (التمارين الرياضية) يظن بعض المسلمين أن الإسلام لا يعرف الرياضية البدنية وما كان للإسلام أن يهمل أمر الأجسام بعد أن خلقها الله تعالى وأبدعها بحكمته وقد قال تعالى يصف نفسه جل وعلا ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾. وقال تعالى أيضًا ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾ ويبين الله لنا أنه اصطفى رجلًا للملك واختاره لتدبير الأمور وتصريف الشؤون لسعة علمه وقوة جسمه فقال تعالى ﴿**وقال لهم نبيهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليهم وزاده بسطة في العلم والجسم**﴾ وقد كان رسل الله صلوات الله عليهم أصحاء الأبدان أقوياءها فكانت لهم مهابة وجلال وقدرة على مقاومة المشركين والجهال وحدثنا القرآن الكريم أن موسى عليه السلام وكز رجلًا معتديًا فقضى عليه.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجمل الناس بدنًا وأقواهم جسمًا ويقول علي كرم الله وجهه في وصفه (كنا نسير معه وإنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث).

واستمع إليه يقول عن الوضوء في الإسلام (وحركات الوضوء يقصد بها تنظيف الجسم وتنشيطه ووقايته.

أ ـ فتنظيف الفم عدة مرات في اليوم من أهم أسباب الوقاية من مرض الأسنان واللثة.

ب ـ أما غسل طاقتي الأنف بماء بارد أهم سبل الوقاية من الزكام المتكرر.

جـ ـ وغسل الوجه والأذنين واليدين عدة مرات كل يوم هو أحسن وقاية لها مما قد تتعرض له من الأمراض الجلدية والالتهابات.

وبعد ـ فليس في إمكاننا أن نواصل نقل المختارات من هذا الكتاب وحسبنا أن

نثير شوق القارئ إلى هذا الكتاب القيم الذي يدل على ثقافة مؤلفه الواسعة وعقله المنظم وأسلوبه الرصين وإحاطته بالموضوع الذي يتحدث عنه إحاطة تامة شاملة.

لقد أحسنت وزارة المعارف صنعًا بإيداع هذا الكتاب ضمن مكتبات بعض المدارس وحبذا لو أحسن مديرو المدارس والمشرفون على المكتبات صنعًا كذلك فنبهوا إليه أساتذة المدارس والطلبة.

لقاء.. كل أسبوع
ـ ١ ـ (*)

استهواني عنوانه فهو عنوان طريف يذكر بكتاب رائع لكاتب مشهور وشجعني على شرائه رخص ثمنه فثمنه قرش أو قرشان وإن كان سعره الرسمي عشرة قروش أما مؤلفه فشخصية غير معروفة في دنيا الصحافة والتأليف. وإن كانت دار النشر التي التزمت الطبع والنشر دار مشهورة اعتادت أن تطبع كتبًا رصينة في ألوان المعرفة المختلفة.

واسم الكتاب (يوميات مفتش تعليم) وقد كتب المؤلف تحت اسم الكتاب هذه العبارات (جرت الحوادث في الصعيد وفي شوارع القاهرة ـ صور مرحة من صميم الحياة ـ دراسات تحليلية واجتماعية).

واسم الكتاب ـ كما رأى القراء ـ يذكر بكتاب توفيق الحكيم المشهور (يوميات نائب في الارياف) ويمتاز هذا الأخير بدقة الملاحظة وروعة التصوير وجمال التعبير وقارئه يستمتع به استمتاعًا لا حد له.

أما يوميات مفتش تعليم فيبدو أن مؤلفها لم يكن واثقًا من نفسه وكتابه ولذلك اضطر إلى أن يلجأ إلى أساليب يصح أن توصف بأنها سخيفة في نظر المثقفين على الأقل فلم يكتف بالعبارات التي وضعها تحت اسم الكتاب والتي نقلناها قبل قليل وإنما افتتح كتابه بكلمة وضع لها كلمة (رهان) عنوانًا وكتبها بخط كبير ويقول المؤلف في كلمته أيها القارئ الظريف اراهنك بخمسة جنيهات نظير خمسة قروش:

١ ـ إذا بدأت قراءة هذا الكتاب ولم تشغل به عن كل شيء. ولم تكمل قراءته في جلسة واحدة.

٢ ـ إذا لم تجد فيه فوائد اجتماعية قيمة.

(☆) نشر بمجلة الرائد. بتاريخ ١٣٨٢/١٠/٩هـ الموافق ١٩٦٣/٣/٤م العدد (١٥٥)

٣ ـ إذا لم تمسك بطنك بيدك ولم تدمع عيناك من الضحك.

وهذا اسلوب جديد في جذب انتباه القارئ ودفعه للقراءة ولكنه اسلوب فيه حيلة ساذجة وحركة مكشوفة.

والواقع أن الكتاب من الأدب الخفيف الذي يقرأه القارئ للتسلية وتزجية الفراغ ولكن المؤلف سيخسر الرهان لو دخل في رهان جدي ـ لو جاز هذا النوع من الرهان ـ فلقد استمتعت ببعض صفحات الكتاب ولكن الأمر لم يصل إلى ما أورده المؤلف في رهانه. وربما كان حكمي ناقص الاستقرار والتتبع؛ لأنه مبني على وجهة نظري وحدها وأنا إنسان أميل إلى الجد وأكره العبث وأنظر إلى الأمور نظرة جدية ويشغلني دائمًا الجانب المعتم عن الجانب المشرق ولذلك اوثر العزلة وافضل الانطواء على نفسي وأكره كثيراً ما تعارف عليه الناس من ألوان المجاملات.

ولا أريد أن أطيل فسأستعرض الكتاب في لقاء قادم وما نقل للقراء بعض طرائفه ليقول القراء رأيهم.

واعتذر للقراء الذين تعودوا أن نقدم لهم الكلمة الرصينة والفكرة العميقة والبحث المركز فإن فصل الصيف بقوة حرارته وشدة وهجه وكثرة مضايقاته يحول بين القراء وبين الكتاب الجيد والصحيفة العميقة المثقفة. وسأقدم للقراء لونًا خفيفًا يصح أن يهون أذى الصيف وهو الذي يسميه الدكتور طه حسين (لغو الصيف).

لقاء.. كل أسبوع
- ٢ - (*)

بين مؤلف (يوميات مفتش عام) واسمه (عبداللطيف بدوي) - فقد نسيت أن أذكر اسمه من قبل - وبين (الحمير) علاقة عجيبة وحسب القارئ أن يعرف أن أكثر من ثلث الكتاب حديث (حماري بريء) نسب إلى حمار إن صحت هذه النسبة - وربما كان من تأثير هذه (الحمارية) في نفسي أن شغلتها - أي نفسي - أو شغلتني لا أدري الوقت من ذهب - كما يعرف القراء أو كما يعرفون - لقد شغلت نفسي بعد المرات التي ورد فيها الاسم المحترم في الكتاب فوجدتها مائتي مرة.. أي أكثر من صفحات الكتاب فإن عدد الصفحات يبلغ مائة وأربعًا وستين صفحة أي أن كل صفحة لها نصيب من هذا الاسم. هذا عدا ما ورد في الكتاب عن الجحش والجحاش. ولست أدري السر في هذه العناية بهذا المخلوق التي لم تقتصر على صاحبنا المفتش. فلقد كتبت كثير من الكتب عن هذا الحيوان (الذكي) فهناك كتاب (خواطر حمار) لكاتب نسيته وهو أول كتاب قرأته من أوله إلى آخره في بداية حياتي الأدبية وقد اشتريت منه نسخة من مصر في الصيف الماضي وبعثتها هي وطائفة من الكتب مع أحد الإخوان الذي تفضل بايصالها إليّ باستثناء (خواطر حمار) فيبدو أنه راقه ويبدو أنه أصبح أسيرًا له فلم يستطع له فكاكًا ولكنني على غير استعداد للتخلص عن خواطر الحمار فلئن لم يبادر الصديق إلى إرساله - اعني الكتاب لا الحمار - فلأفعلن به الأفاعيل وقد اعذر من انذر.

ومن الذين كتبوا عن الحمار الكاتب الأسباني المعروف جوان رامون خيمنيز والحق أنه لم يصبح معروفًا في عالمنا العربي إلا بعد أن اصدر كتابه (بلاتيرو وأنا) (حماري وأنا)، ويبدو أن هذا الاسم ترجمة حرفية للاسم

(☆) نشر بمجلة الرائد. بتاريخ ١٦/١٠/١٣٨٢هـ الموافق ١١/٣/١٩٦٣م العدد (١٥٦)

الأسباني فإن لاسم الضمير الصدارة في الأسلوب العربي.

كما كتب توفيق الحكيم كتابه (حمار الحكيم) وزعم النقاد أن هذا الكتاب مسروق من كتاب الكاتب الأسباني خمنيز. وهذه القضية سنعرض لها في مقال سينشر بعد حين.

ومن القضايا اللطيفة أن اسم (الحمار) اتخذ لقبا من ألقاب التمجيد في عصر من أزهى العصور هو عصر الدولة الأموية فلقد أطلق على مروان بن محمد الخليفة الأموي المشهور لانه كان شجاعًا جلداً صبورًا متصفًا بكثير من صفات البطولة حتى لقد نسى الناس اسم ابيه ولم يعد يعرف إلا باسم مروان الحمار وإن كان أكثر الناس يلقبون البليد والغبي والتافه بأنه حمار ولسنا ندري مَنْ مِنَ الفريقين على حق؟!

ولا يفوتنا أن نذكر أن صديقنا الأستاذ (اسعد جمجوم) عمل بطاقة رسم على أحد وجهيها وجه حمار وكتب على الوجه الثاني اسمه الكريم ولم افهم السر في ذلك وسالته الإيضاح بعد أن قدم لي بطاقة منها - لا زلت احتفظ بها - فامتنع بدون إبداء الأسباب فهل أستطيع الآن أن أدعوه لإيضاح ذلك لي وللقراء. أم إنه في طوفان من المياه ومشاكل المياه؟

ويذكرني وجه الحمار في بطاقة صديقي بتلك الحكاية اللطيفة التي تروي عن الكاتب البليغ صاحب (المختار) الشيخ عبدالعزيز البشري فقد كان كما يعرف القراء - يلبس جبة وعمامة فخلع مرة جبته وذهب ليتوضأ فانتهز أحد أصدقائه الفرصة ورسم عليها بالطباشير وجه حمار، ولما رجع البشري وأراد أن يلبس جبته رأى وجه الحمار فالتفت إلى اصدقائه وقال: مَنْ الذي مسح وجهه في جبتي؟ وهكذا غلبهم بلوذعيته وسرعة بديهته يرحمه الله.

ومهما يكن من أمر فإن للحمار ميزتين ثابتتين أولاهما صوته المنكر الذي لا يشبه في رداءته وحماريته أي صوت.. وذلك ما يقره القرآن العظيم في سورة لقمان ﴿**إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾ أما الميزة الثانية فقد نسيتها ومن أجل ذلك اتركها لفطنة القراء.

لقاء.. كل أسبوع
ـ ٣ ـ (*)

شغلنا الحمار في المقال الماضي عن مؤلف (يوميات مفتش تعليم) وعن حوادثه مع الحمير والجحاش. وإن لم يفتنا أن ننوه بالعلاقة بينهما، علاقة استغرق شرحها أكثر من ثلث الكتاب واستدعت أن يذكر اسمه ـ اعني الحمار لا المؤلف ـ مائتي مرة ـ وهو رقم قياسي جدير بالتسجيل.

وقد فاتنا أن نتحدث عن مقدمة الكتاب وهي مقدمة طريفة لم يكتبها المؤلف وإنما كتبها صديق للمؤلف استهلها بهذه العبارات (انا صديق للمؤلف وهو صديق للحمير فانا صديق للحمير كما تقرر ذلك النظرية السابعة في الهندسة) وهي عبارة تؤكد العلاقة بين المؤلف والحمير.

ثم يتحدث كاتب المقدمة عن صديق الحمير، عفوًا اقصد مؤلف اليوميات حديثًا يفيض بالثناء والإعجاب ويقول إن عيبه كان ـ إن كان هذا عيبًا ـ أنه لا يبالي بالعادات والتقاليد ولا يهمه رضى الناس إن غضبوا عليه (ولقد سبب له اعتداده بنفسه وعدم مبالاته بالتقاليد كثيراً من المتاعب والتخلف عن الزملاء رغم إتقانه عمله وإخلاصه فيه وهو غير نادم لأنه لا يملك الثمن الذي يقفز به الزملاء من نفاق ورياء).

ولماذا يهتم المؤلف بالعادات والتقاليد وقد آثر صحبة الحمير وهي أمة لها طريقها في الاستهتار وعدم الخضوع للتقاليد.

وليس في هذه المقدمة من عيب إلا أن كاتبها لم يكتب اسمه وإنما اكتفى بأن كتب في نهايتها إنه (صديق الطرفين) يعني المؤلف والحمير لا الجحاش والحمير كما قد يتبادر إلى الذهن.

ويبدو أن كاتب المقدمة سيشغلنا عن مؤلف اليوميات.. فلنعد إليه لنذكر

(☆) نشر بمجلة الرائد. بتاريخ ١٣٨٢/١٠/٢٣هـ الموافق ١٩٦٣/٣/١٨م العدد (١٥٧)

بعض طرائفه مع أصدقائه الحمير. يقول المؤلف الفاضل تحت عنوان (حمار يلقيني في الوحل) (زرت مدرسة قريبة من محطة سكة الحديد وعرضت رغبتي لزيارة مدرسة اخرى بعيدة وكان عليَّ أن أزور مدرستين أكثر الأيام فقد كانت المدارس التابعة لي تزيد عن الخمسين نصفها للبنات يدرس صباحًا والنصف الآخر للبنين تبدأ الدراسة فيه بعد الظهر.. وقد ألغى هذا النظام من عشر سنين ولكن وزارة التربية عادت إليه بنظام الفترة الثانية. ويكاد الضغط يجعلها تعممه.. الفارق الوحيد بين النظامين أن هيئة التدريس غيرها في فترة الصباح..

وركبت الحمار وكان الوقت ظهرًا والحر شديدًا ومشى متباطئًا في السير فوخزته بقدمي ولكن الوخز لم يكن كافيًا ليأتي بآخر طاقته في السير..

وقابلتني نخلة صغيرة فنزلت واتجهت إليها وبدأت اقطع جريدة صغيرة بالمطواة.. وإذا الحمار الذي كان يجر رجله جرًا يجري بعيدًا. وأجرى خلفه بكل قوتي الهزيلة وسبحت في عرقي ولهث نفسي. وتملكني الفزع من ضياعه.. وماذا أقول لصاحبه وهل يصدقني؟ وهل يلزمني بالثمن ولا طاقة لي على دفعه؟! وكانت هذه الأفكار تعوقني عن الجري والمسافة تزيد بيني وبين الحمار اللعين. وانقذني من هذه الورطة كلها رجل قادم من الجهة المضادة فأمسك الحمار وحين رأيته خارت قواي ووقفت حيث أنا..

وعاد الرجل به إليَّ وقد استعدت بعض قواي فأمسكت قلادته وألهبت ظهره بالعصا ثم وثبت عليه. فقد كان حمارًا قميئًا هزيلًا. وأخذت ازغده بكعب حذائي واضربه بالعصا في جانبيه.. وأخذ يسرع.. وسرنا مسافة طويلة ويبدو عليه الخضوع ويسرع دون وخز أو ضرب..

واعترض طريقنا ضحضاح من الماء كان عليَّ أن أعبره للوصول إلى المدرسة وعجبت منه حين تقدم يخوض الماء غير متردد.. ولكن حين توسط الماء ترنح واهتز ورقد في الماء..

ووقعت بجانبه! وامتلأت ملابسي بالماء والطين.. وقمت وقام وسحبته من

الماء اضحك! واقدر ذكاءه في إحكام هذا المقلب النظيف).

ويقول صديق الحمير اعني مؤلف اليوميات تحت عنوان (منافسة بيننا وبين الحمار) وكنت عائداً من مدرسة غربي ادفو، ونظرت في الساعة فقدرت أنني لن الحق القطار إذا سار الحمار هذا السير البطيء ورجوت الحمار أن يسوق حماره وغمزته في جانبيه برجلي ولكن كل هذا لم يجعله يزيد في سرعته. وفكرت في الغريزة البارزة فيه وهي الغيرة فنزلت وقلت (للمكاري) سر بجوار الحمار من ناحيتك وسأسير من ناحيتي ونعقد سباقًا في الجري بيننا نحن الثلاثة ونجحت هذه المحاولة وأسرع الحمار في الجري حريصًا على سبقنا ورآنا الناس فأخذوا يضحكون واتهمونا بالجنون..

وتذكرت حكاية الرجل وابنه والحمار: حين ركب الرجل وترك الولد يمشي قالوا: يا قسوة الآباء. فنزل وركب ابنه فقالوا: يا وقاحة الأبناء، وركبا معًا فقالوا ما هذه القسوة على الحيوان المسكين.. واضطر الرجل أن يعلق الحمار في عصا غليظة طويلة وسارا يحملان الحمار على كتفيهما..

ولم يكن في استطاعتي أن اعمل هذه الحالة الأخيرة ولكن بالتسابق مع الحمار لحقت بالقطار.

لقاء.. كل أسبوع
- ٤ - (*)

قدمنا طرائف من حوادث صاحب يوميات مفتش تعليم مع أصدقائه الحمير. وهذه اليوميات حافلة بطرائف كثيرة يحسن أن يقرأها القارئ في الكتاب. ولكننا مع ذلك نظلم المؤلف إذا اقتصرنا في تقديمه للقراء على هذه الصورة العابثة.

فالواقع أن في الكتاب لمحات تدل على ألمعية وبعد نظر ودقة ملاحظة وقد ينقل لك صورة كبيرة أو فكرة ضخمة في عبارة موجزة أو كلمة تمر في سياق الحديث كقوله يتحدث عن درجة أحد كبار الموظفين (وكان في الدرجة الثانية أو الأولى وكانت هذه الدرجات وقفًا على من ذهب إلى بلاد التايمز حتى ولو عاد لا يعرف إلا كلمتي يس ونو).

وهي عبارة تحكي فصلًا طويلًا عاشه كثير من شعوب الشرق في ظل الاستعمار.

وكقوله (ولم يكن محرومًا من هذه الامتيازات إلا رجال التعليم الذين لا حول لهم ولا يخشى بأسهم. أما رسالتهم الإنسانية فلا قيمة لها عند اليهود).

والمؤلف بارع في السخرية ممن يريد أن يسخر منهم ببراعة عجيبة استمع إليه وهو يصف أحد اليهود فيقول (وسلامون مزراحي المفتش شخصية مثقفة نشيطة يعتبر الحاكم بأمره في التفتيش.

ولكنه يهودي! في مكتبه مروحة ضخمة متدلية ومراوح في السقف ولكن الحر الشديد كان يجعل العرق ينز من جبهته فيكسحه أولًا بيده ثم يجففه بمنديله حتى لا يتسخ المنديل بسرعة).

وأخذ مرة يقارن بين ما عملته شركة الوادي اليهودية في كوم أمبو وما عملته

(☆) نشر بمجلة الرائد. بتاريخ ١٣٨٢/١٠/٣٠هـ الموافق ١٩٦٣/٣/٢٥م العدد (١٥٨)

الهيئة المشرفة على مديرية التحرير فقال (كان قطاوي هذا ذاهبًا وحده أو مع سيده حاكم مصر إلى مشتى أسوان).

وتمهل القطار بعد أدفو لهثا من التعب أو تقريرًا من المهندسين أن رمال الصحراء لا تحتمل سير القطار السريع.

فرأى قطاوي صحراء واسعة مستوية ممتدة من الشرق والغرب تكثر فيها الحشائش والشجيرات «الشيطانية» وهو اصطلاح لشيء يكون بلا صيانة آدمي وتأمل وفكر بذهنه اليهودي الاستغلالي..

وعاد ببعثة من المهندسين والجيولوجيين..

وقاموا ببحوث علمية وفنية.. وصلت بهم إلى أن هذه الصحراء صالحة جدًا للزراعة.

ولا أدري كيف غاب هذا البحث عند اختيار مديرية التحرير التي يدل العمل فيها على فشل ذريع وكثرت عنها الهمسات وعلت حتى صارت صيحات ترددت في جنبات مجلس الأمة بعد أن ضج الشعب بالمقادير التي انفقت وتنفق عليها.. وكأنها تلقى في بالوعة واسعة.. العجيب أن اللجنة المشكلة لبحث حالتها انتهت إلى بحوث دستورية طويلة تبرر بها تصرف السيد مجدي حسنين وزملائه الثلاثة.. وقررت اللجنة الدستورية أن مديرية التحرير مؤسسة خاصة وإن كانت أموالها من ميزانية الدولة!..

وأعترف هنا أني جاهل في البحوث الدستورية بعض الجهل ولم أستطع هضم بحوث اللجنة في هذا الشأن.

وتناقشت مع بعض الزملاء ورجوتهم أن يشرحوا لي هذه المشكلة الغامضة ووصلنا ـ بعد مناقشات طويلة ـ أننا متساوون في الجهل كأسنان الحمار! وصاحب اليوميات واسع الأفق متحرر الفكر يؤكد ذلك الحديث الطويل الذي كتبه عن الأضرحة وتمحيصه الدقيق لبعض معتقدات الناس.

ولعل العبارة الآتية تعطي القارئ فكرة عن فكره المتحرر يقول (والتاريخ يذكر أن الأضرحة كثرت في عهد الفاطميين وزادت مبانيها والاحتفالات

بموالدها.. يلهون بها المصريين عن اغتصاب الملك وتبعهم الحكام والجمهور لما وجدوا فيها من خيرات وأفراح حتى صارت عقيدة دينية تحترم وإن كانت فاسدة ضارة).

واستمع إلى هذا التعليل الطريف لكثرة الأضرحة يقول المؤلف (تكثر أضرحة لسيدي) أو (سيدك أنت) الاربعين ولا أدري السر في هذا الرقم (٤٠) وإن كنت أدري السر في هذه الأضرحة.

هذه الأضرحة منتشرة في الحواري المظلمة. ولقد كنت أسكن في حارة أبو قدرة القريبة من باب الخلق في دور من ٤ حجرات مع ثلاثة من الزملاء منهم الشيخ عبدالفتاح الشعشاعي أي والله حتى اسالوه..

وقد كان ذلك في سنة ١٩١٩م. وكان الشيخ غير معروف وهو يقيم وحده تاركًا عائلته في بلدته شعشاع مركز أشمون. وقد كان إذا ساق الله له سهرة بجنيه يعمل لنا حقل عشاء فاخر بخمسة قروش سمك وقصب.

وقد كنا ندفع في الدور جنيهين كاملين على كل منا ٥٠ قرشًا ولم تكن في البيت إضاءة كهربائية كما هو مفهوم وكانت الحارة منحدرة مظلمة. وعدت مرة ليلًا فوجدت بعد مدخل الحارة يا فطة بالخط الكبير (سيدي الأربعين) وتحتها منظرة داخلها تابوت شيخ هو سيدي الأربعين وفي شباك المنظرة شموع مضاءة وبجوارها صندوق فيه فتحة يضع فيها (المريدون) النقود للشيخ. وتذكرت أن حجرتي مظلمة ونسيت أن اشتري الجاز اللازم كما قدرت أن تكون حجرات زملائي مظلمة أيضًا. فملت على الشموع وأطفأت أربعًا منها ووضعتها في جيبي.. وعدت إلى البيت ووزعت الشموع على الزملاء، وعرفتهم مكانها وأن كل واحد منهم يستطيع إحضار ما يلزمه من الشموع وهو عائد كل ليلة، وبذلك نستطيع توفير ثمن الجاز الذي يمتص جزءًا من الميزانية ونستريح من مسح زجاجات اللمبات نمرة (٥).

وقال كبيرنا وهو الشيخ عبدالفتاح:

أتعرفون يا أولاد ما سر هذه الأصرخة المنتشرة في الحواري المظلمة؟

قلنا: لا منك نستفيد يا سيدي الشيخ..

قال: إن المباول العامة غير متوفرة في القاهرة.. والإنسان حين يعود وخاصة في الشتاء يحس برغبة شديدة في التبول.. فإذا وجد مكانًا مظلمًا مال إليه وتبول فيه ويكثر ذلك فتتصاعد الروائح الكريهة.. وكره اصحاب البيوت ذلك ولكنهم لا يستطيعون السهر طول الليل يطاردون المتبولين.

فاستغنوا عن منظرة (وكان ايجارها لا يزيد عن ريال) ووضعوا فيها تابوتًا ووضعوا في الشباك شمعة مضيئة. فإذا رأى القادم النور بحث عن مكان مظلم يتبول فيه..

وكان الناس كلما قدموا إليها قرأوا الفاتحة لهذا البطل ووضعوا شموعًا في الشباك.. ولكن أصحاب البيوت أرادوا أن يحصلوا على إيجار المنظرة فوضعوا بجوار الشموع صندوقًا.. ويمر المغفل من هؤلاء وليس معه شمعة فيضع قرشًا في الصندوق.. وهكذا انتشرت هذه الأضرحة.

وأخذنا نبحث عنها في حارات أخرى.. وزادت كميات الشمع التي نحصل عليها.

ومن المؤسف أن مؤلف اليوميات لم يتمرس بالكتابة قبل اصدار كتابه هذا.. ولو فعل ذلك من قبل لكان كاتبًا من الكتاب الذين يفخر بهم وبأصالتهم الأدب العربي.. ولكنه فيما يبدو لم يمسك بالقلم ليؤلف إلا بعد أن تجاوزو الستين كما يشهد بذلك صديق الطرفين كاتب المقدمة فهو يقول عن صديقه المؤلف (وعرفت هذا المؤلف أكثر من خمسين سنة).

كما أن الكتاب لو خلا من بعض الحواشي وبعض القصص التي يربطها بما يعرض من موضوعات رباطًا يكاد يكون أوهى من بيت العنكبوت وحديثه الطويل عن علاقته بحمارة خاله، لو خلا الكتاب من ذلك وأمثاله. ولو عني المؤلف بأسلوبه عناية أكثر لكان كتابه هذا من الكتب القليلة التي تفيد وتمتع وتخلد..

سؤال واحد يسيطر على ذهني دائمًا كلما قرأت ذخيرة من التراث الغربي، أو

أطلع على كتاب من الكتب الكثيرة التي تتحدث عن تراثنا الحضاري، وعن المدى البعيد الذي اسهمت فيه الحضارة العربية والإسلامية، وفي بناء الحضارة الإنسانية، وتطوير المفاهيم الثقافية والحضارية لبني البشر.

هذا السؤال هو: ما مدى تأثير هذا التراث لو جرت الريح في رخاء بلاد الإسلام، فلم تمن بنكبة التتار، ولم ترزأ بمصيبة الاستعمار؟

واتصور مئات الملايين من الكتب التي القيت على نهر دجلة في بلاد الرافدين ليعبر الغزاة المتوحشون عليها النهر للأجهاز على بقية معالة الخلافة، وليكتبوا السطور الأخيرة في تلك المأساة الدامية. حتى لقد اسودت مياه النهر لفترة من الزمن وهي تمشي مثقلة الخطى مما تحمل من نجيع البحر وجذاذات الورق المتغير بالمداد.

ويمر الزمن فتنتقض عرى الخلافة من جديد، ويهب الاستعمار بكل احقاده الصليبية الموروثة، فيخطط لالتهام الأرض المسلمة، والقضاء على كل مقومات العزة والغلبة فيها، حتى لا يرتفع لها صوت، ولا تشمخ لها جبهة.. وكان من أبرز هذه المقومات وأعظمها فاعلية:

١ ـ القرآن الكريم.. دستور الأمة الإسلامية ونورها المبين.

٢ ـ بقايا كنوز التراث الإسلامي المجيد، المتخلفة بعد أعاصير هولاكو وطوفانه الوحشي المدمر، وهي معالم نهضتها ومقومات حضارتها.

فنهبت التراث.. وأخذت تدرسه بتؤده وامعان، لتستفيد منه، وتبني حياتها الجديدة أو حضارتها الحديثة كما يقولون على أسسه ومناهجه، وتحول في الوقت نفسه بيننا وبين الاستفادة منه وأخذت تبتعد بشباب الأمة عن هدي القرآن، بما تنفثه في صدور أبنائها من شكوك ووساوس، وتفوق به مجتمعاتها من انحلال وتمزق، وتملأ به قوبها من اعجاب واكبار للحضارة الغربية والثقافة الغربية، والتكنولوجيا الغربية والاستهانة بكل ما يمت إلى العروبة والإسلام، وينتسب إلى العصور الوسطى عصور الجهل والتخلف والظلام ـ كما يقولون ـ وكما اصبحنا نقول دون وعي مع الأسف.

وتحمل إلينا وسائل الإعلام يومًا بعد يوم اكتشاف النظرية الفلانية للعالم البريطاني فلان والنظرية الأخرى للعالم الفرنسي علان.. وهكذا.. فيض من الاكتشافات في العلوم الثقافية الغربية المعاصرة، وقدرتها على الاكتشاف والابداع، وعجز الحضارة الإسلامية عن اقتحام هذه الآفاق العلمية العليا.

ويشعر اللصوص الغزاة سارقو التراث بالصلف والغرور ويحسون بأن الشقة بعدت بينهم وبيننا، فلا يتورع بعضهم من الاعتراف بسبق الحضارة الإسلامية وتاثيرها على الحضارة الحديثة وتتولى ملايين المخطوطات (المتبقي بعد جرائم التتار) الرد على هذه الأكاذيب والمفتريات فتكشف أن الحضارة الحديثة كلها لم تقم إلا على الدعائم العلمية التي وضعناها نحن خلال (العصور الوسطى)!؟

ونشعر أنه لو كانت صلتنا أكثر عمقًا بقرائنا وتراثنا، لاستطعنا ـ على الأقل ـ الصمود أمام اعدائنا من الشرق والغرب إن لم تكتب لنا الغلبة والنصر في ميادين الصراع.. وهو ما كان متوقعًا دون شك.

وأتساءل مرة أخرى: وماذا كان يضم ذلك التراث الموءود في أحضان الموج الهادر في دجلة؟ وما هو مدى التاثير الذي سيحدثه في العالم لو اتيح لتلك النظريات والأفكار أن ترى النور؟ وما هو الدور القيادي البارز الذي كنا نقوم به، لو كنا نقرأ ونطبق ما نقرأ، ونعمل بعزيمة وإصرار على الاستفادة مما نقرأ، وتطوير النظريات والأفكار التي نتعلمها كما كان يصنع أجدادنا خلال (العصور الوسطى)؟

ولكن الأمل أخذ يتجدد في النفوس، بعد أن تعلمنا الاهتمام بالتراث والعناية به، والعمل على نشره بكل الوسائل والأساليب.. فذلك من أولى المهمات التي يجب أن نضطلع بها، ونحن نفتح أعيننا بعد رقاد طويل ـ على الفجر والأمل والحياة.

وإنه ليسرني من الأعماق أن تأخذ مخطوطات المدينة المنورة نصيبها من الاهتمام بين كتب التراث في شتى بقاع العالم، فتعنى بها حكومتنا الرشيدة، وتعمل على تحقيق الاستفادة منها بكل الطرق.. كما تقوم بعثات الجامعة

العربية بتصوير العديد من نفائسها وكنوزها.. وتتوج هذه المجهودات الكريمة بهذا الدليل القيم الذي وضعه الصديق الأديب الكبير الأستاذ علي الخاقاني لمخطوطات المدينة المنورة، وطلب إليَّ مشكورًا الاسهام في كتابة مقدمته بما للمدينة من أهمية بالغة ودور قيادي في تاريخ الحضارة الإسلامية على مدى العصور.

فنحن ـ في الواقع ـ في أشد الحاجة إلى أن نتعرف على تراثنا ونستفيد منه إلى أقصى الحدود، وهذا العمل الضخم الذي قام به الأستاذ الخاقاني يعتبر خطوة واسعة على دروب المعرفة والوعي والثقافة، لما تضمه مكتبات المدينة المنورة من كنوز ونفائس غير أنني أود أن أقول: إن مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت يرحمه الله ليست المكتبة الوحيدة في المدينة وإن تكن أشهر مكتباتها.. ففي المدينة المنورة ـ كما يقول تقرير كان وضعه فضيلة الأستاذ السيد أحمد يس الخياري رحمه الله ـ أكثر من سبعين مكتبة ما بين عامة وخاصة حافلة بنفائس المخطوطات ولكن معظمها معرض للتلف والضياع.

لا شك في أن الخطوة التي قامت بها وزارة الحج والأوقاف بإشراف معالي الأستاذ السيد حسن محمد كتبي وتوجيهات جلالة الفيصل المفدى أيده الله، لجمع المكتبات المتناثرة في مكان واحد وحمايتها وصيانتها ، ستكشف النقاب عن الكثير من المخطوطات النادرة التي لا تزال مجهولة، وبخاصة بعد الانتهاء، من إقامة مبنى مكتبة الملك عبدالعزيز يرحمه الله، فقد بدأ العمل في إنشائها بعد أن وضع عاهل هذه البلاد جلالة الملك فيصل المعظم الحجر الأساسي في بداية هذا العام الهجري.

وسيتيح جمع كافة مكتبات المدينة المنورة في أبهائها وخزائنها، وتزويدها بكل متطلبات المكتبات المتطورة الفرصة للباحثين والدارسين، حتى يتعرفوا على المزيد مما تضمه هذه البلاد الكريمة من نفائس وكنوز إن شاء الله.

وشكرًا جزيلًا على هذا المجهود الضخم لصديقنا الأستاذ الخاقاني.. والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

لكي يكون لحياتنا معنى(*)

من الأمور التي أحبها وأكرهها في آن الكتابة عن مؤلفات أصدقائي فأنا أحبها لأنني أفهم الصداقة فهما واسعا عميقا وأعتقد أن من حق الصديق الكاتب على صديقه الناقد أن يتحدث عن آثاره وأن ينوه بإنتاجه وأن يعرفه إلى القراء وأن يقدمه إلى المحافل الأدبية. كما أن الحديث عن المؤلف الصديق يتيح للناقد أن يسجل من الخواطر والأحداث ما يمد التاريخ الأدبي بروافد جديدة قد تساعد علي تفسير بعض هذه الظواهر الفكرية وتوضيح بعض الاتجاهات الأدبية وكشف بعض الدوافع وتلك أمور لا تتاح لغير الناقد الصديق وهذا لون من ألوان الأدب الرفيع في دنيا النقد يضاف إلى أدب الاعتراف وأدب الرسائل الخاصة بل ربما كان أدق في التعبير والتصوير من هذين النوعين الأخيرين لأن أدب الاعتراف يستطيع صاحبه أن يلونه باللون الذي يروقه ويستطيع أن يكشف أمورا في حياته ويخفي أمورا أخري ويستطيع أن يغتصب بعض الحقائق أو يثيرها كما يستطيع أن يضيف إلى بعض الحقائق كثيرا من الأباطيل التي قد تغير هذه الحقائق أو تسير بها في طريق مضلل مسدود.

ولأن أدب الرسائل أصبح عرضة للتشويه والتزوير من كتابه أنفسهم فبعد أن انتشر في الآونة الأخيرة هذا اللون من الأدب وأخذ الأدباء يستبيحون لأنفسهم نشر رسائل أصدقائهم في حياتهم أو بعد مماتهم فإن من الراجح أن يبدأ الأدباء في التحفظ بالاحتراس ولن يتركوا لأنفسهم حرية التعبير في رسائلهم الخاصة عن آرائهم وأفكارهم الذاتية التي لا يرغبون في أن يعرفها جمهرة القراء؛ لأن رسائلهم أصبحت مهددة بالنشر وأسرارهم أصبحت معرضة للإفشاء.

من أجل هذا فأنا أحب الكتابة عن مؤلفات أصدقائي. ولكنني في نفس الوقت

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة يوم الثلاثاء الموافق ٦ من شهر ربيع الاول عام ١٣٨٧ العدد (٩٨٠).

أكره هذه الكتابة لأن حب الثناء طبيعة الإنسان ولأن أكثر الأصدقاء لا يحبون أن يفرقوا بين مهمة الناقد وبين رابطة الصداقة. ومهمة النقد تفرض على الناقد أن يتعرض للجيد من الأفكار والضعيف منها وأن يميز بين الغث من الاساليب والثمين منها وأن يكون هدفه أولًا وأخيرا أن يقول الحق أو ما يعتقد أنه هو الحق ورابطة الصداقة تفرض على الصديق أن يضحي من أجل صديقه وأن يدافع عن أخطائه وأن يستر على عيوبه وأن يجعل من نفسه (محاميا) عن صديقه فيضحي بكل القيم من أجله وهدفه أولا وأخيرا هو الاحتفاظ بصداقة الصديق وتدعيم هذه الصداقة وترسيخها.. ومن أجل ذلك كان الناقد الصديق بين (نارين) كما يقولون وهو مضطر إلى أختيار أحد أمرين ليس في اختيار أحدهما حظ لمختار كما قال الشاعر الجاهلي.

فكلا الامرين أحلاهما مر كما يقول الشاعر القديم فليس من السهولة أن يضحي الناقد بالقيم العليا من أجل الصداقة كما أن من أصعب الامور أن يضحي الناقد بصداقة قضى السنوات في بنائها وتكوينها وإعلاء صرحها وهذا يفسر لنا تلك الشكوى التي لا تكاد تنقطع من تقارض الثناء بين الادباء والنقاد، ومن طغيان المجاملة في النقد ومن تجسيم الحسنات والتغاضي عن السيئات والمرور العابر بالثغرات والهفوات.

ومن العجيب أن أعلام الأدباء يتساوون مع صغارهم في النفور من النقد والتهيب من الملاحظة والملاحقة والتعقيب ولا يتورعون عن استغلال نفوذهم في الانتقام من ناقديهم بأبشع الوسائل.

وأذكر على سبيل المثال ذلك الموقف (غير الكريم) الذي وقفه طه حسين مع الدكتور زكي مبارك وهو موقف يتصف بالخسة والهبوط النفسي والضعف الخلقي.كما أذكر موقف الأستاذ الفرنسي (المسيو موسيه) من الدكتور زكي مبارك وهو موقف يعبر عنه أصدق تعبير كلمة الدكتور زكي التي يقول فيها (وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه في عقر داره فمضى يعاديني عداء خفيا كانت له آثار بشعة لاتذكرها إلا أشفقت رعبا من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الإنصاف).

وليس من العبث أن يقول حكيم من كبار حكماء العرب في الجاهلية (إن قول الحق لم يدع لي صديقا) ولا من العبث أن يقول فيلسوف يوناني (إن أفلاطون صديقي ولكن الحق أصدق لي منه).

وأين من يقطع رحلة الحياة بغير زاد من الصداقة!؟ ذلك أمر لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الرجال. هذه مقدمة جرت على قلمي حين هممت أن أكتب عن كتابي صديقي الأستاذ الكبير (عبد الله أبو العينين). فلقد تفضل مشكورا فأهداني الكتابين اللذين أصدرهما أخيرا باسم (لكي يكون لحياتنا معنى) و (الكاتب والأفكار) والأستاذ عبد الله مؤلف هذين الكتابين صديق قديم أوشكت أن أقول إنه زميل ثم تراجعت لأنني ذكرت أنني كنت في بداية المرحلة الثانوية حينما كان هو في نهايتها فهي زمالة ناقصة أو غير متكافئة.ثم التقينا مرة أخرى في الدراسة الجامعية خارج المملكة وكنت في أول السلم وكان هو في آخره وزاد من بعد الشقة أنه كان في بلد غير التي كنت بها. ومع أن لقاءنا في هذه المرحلة كان نادرا فقد كان لقاؤنا في المرحلة السابقة متصلا.

كنا نلتقي كثيرا في رحبات الحرم المكي. فقد كان يجلس إلينا جلوسا عابرا لفترات متعاقبة.،لكننا لم نلحظ ولم نعرف عن تعلقه بالأدب أو انشغاله بممارسة الكتابة حتى بعد تخرجه من قسم اللغة الإنجليزية من كلية الآداب ومنذ سنوات بدأت اقرأ له في مجلة القافلة بعض المقالات القصيرة. ثم علمت أنه أصدر كتابا عن الانجليزية لم أتمكن من الحصول عليه إلا بعد أن أهداني كتابيه الأخيرين.

وقد سرني كثيرا أن يتجه الأستاذ الصديق إلى الترجمة لأننا – في الواقع – متخلفون تخلفا كبيرا في هذه الناحية، فلم نترجم حتى الآن شيئا ذا بال مع أن ما كتب عن بلادنا باللغة الإنجليزية قدر لا يستهان به. وكان من أوجب الواجبات أن ننقل كل ما كتب فور صدوره لنتيح للقارئ في بلادنا فرصة الاطلاع على ما كتبه المستشرقون والمستعربون ولكننا لم نفعل حتى الآن.

وحبذا لو لجأت وزارة المعارف إلى الطريقة التي لجأ إليها والي مصر محمد علي باشا حين فرض على المتخرجين طلاب البعثات العائدين من فرنسا ـ وكل بعثاته كانت إلى فرنسا ـ أن يقيم في القلعة ولا يغادرها ليتسلم عمله الوظيفي إلا بعد أن ينتهي من ترجمة كتاب تفرض عليه ترجمته في نطاق اختصاصه.

وبذلك زود المكتبة المصرية بزاد لا يستهان به من الكتب المترجمة في شتي فنون المعرفة.

والكتاب الذي ترجمه الأستاذ الصديق سماه (سبيلك إلى النجاح) وهو عبارة عن خمسة عشر موضوعا صغيرا ترجمه الكاتب المفضال. وتتسم هذه الموضوعات بأنها نوع من التجارب العملية والتي بدأت تهتم بها الولايات المتحدة الامريكية ومعاهدها وصحفها بعد الحرب العظمي ثم اتسعت وانتشرت أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها أخذت تنتشر في الشرق عن طريق الكتب والمجلات.

وهي دراسات عملية نشأت في الولايات المتحدة لمعالجة الأوضاع الجديدة والمشاكل العديدة الناشئة عن تزايد السكان وسيطرة الآلة واتساع الحضارة. وما يخلفه كل ذلك من تعقد الحياة وكثرة المتطلبات وتوتر الاعصاب وتبلبل الأفكار واضطراب النفوس. ومايجره من أمراض نفسية وعقلية وجسمية لها نتائجها السيئة وآثارها الوخيمة.

ولن أتعرض للأفكار الواردة في هذا الكتاب الذي بلغت صفحاته الستين؛ لأنها أفكار صادرة عن غير المترجم المفضال وإن كنت أعتقد صحة الرأي الذي يقول إن اختيار المرء قطعة من عقله لأنني أريد أن افرغ الحديث عن كتب المؤلف الجديدة خاصة وقد اعتذر المترجم المفضال في نهاية كتابه المترجم بأنه (لم يعد الكتاب الاعداد الذي كان يوده له). أما بالنسبة لكتابيه الجديدين فمع أن المؤلف لم يتخل عن تواضعه فإنك تشعر باعتزازه بكتابيه بصورة غير مباشرة.

وقد سمي المؤلف أحد كتابيه باسم (لكي يكون لحياتنا معنى) وسمّى الثاني (الكاتب والأفكار) والاسم الأول عبارة عن عنوان الموضوع الذي افتتح المؤلف كتابه به. أما اسم الثاني فهو عنوان للموضوع الثالث بين موضوعات الكتاب.

ومع أن الاسمين أساسا لموضوعين من موضوعات الكتاب فإن الناقد يلمح في اختيارهما تأثير الثقافة الامريكية وتستطيع أن تلمح البذور الأولى في كتابه المترجم فاسمه كما هو معروف (سبيلك إلى النجاح) وهو اسم يذكرك بكثير من اطلاعه على الأسماء المشابهة التي تتحدث عن الأساليب التي قد تدفع المرء إلى النجاح في الحياة ومعظمها صادر عن الولايات المتحدة الأمريكية.

والانطباعات الأولى التي يخرج بها الناقد من قراءة كتابه (لكي يكون لحياتنا معنى) عبارة عن تجارب ووصايا تصدر عن عقل حنكته التجارب ونفس تمرست بألوان الشدائد. وإذا كنت لا تعرف الأستاذ مؤلف الكتاب معرفة شخصية فإنك تتصوره شيخا ينوء تحت أثقال السنين ورجلا هرما يقف على القمة يعظ ويرشد ويذكر الناشئين والأجيال الجديدة بما وصل إليه من تجارب ناضجة ونتائج عملية.

فأسلوبه هادىء لا تشعر فيه بحرارة الشباب أو حماسته وكلماته سهلة بسيطة واضحة لا تجد فيها كلمة ترتفع عن مستوى القارئ العادي وعباراته محدودة المعاني قل أن تعثر فيها على مجاز أو تشبيه أو كناية. وهذا أثر من آثار إعجاب الكاتب بهذا اللون من الثقافة الإمريكية. وكان من آثار هذا الإعجاب تقديره للكاتب (سلامة موسى) ولهذا الأخير مواقفه المعروفة في محاربة الثقافة الإسلامية والبلاغة العربية.

هذا إذا كنت تجهل حقيقة (عبد الله أبو العينين) أما إذا كنت تعرفه فسترى فيه نضرة الشباب وحيوية الفتوة، وإذن فكيف تعلل هذا (الوقار) الذي يسيطر علي كتاباته؟

والتعليل سهل يسير فالأستاذ أبو العينين شاب مكافح منذ نشأته وهو في صراع مع الحياة وقد استطاع بصبره ودأبه ومثابرته أن يشق طريقه وأن

يتغلب علي كثير من عقبات الطريق ولكن هذا الكفاح الطويل المرير قد أكسب صديقنا الكبير كثيرا من الاتزان والوقار جعله رب أسرة مسؤولًا قبل الأوان. ومن هنا كان السر في هذه الحكمة وهذه الأناة التي يتصف بها صديقنا العزيز. على أن ما لاقاه صديقنا من قسوة الظروف قد أشعل الثورة في وجدانه فأصبح حريصا ـ وربما بطريقة لا شعورية ـ على أن يجنب الشباب كل الشباب عثرات الطريق ومصاعب الحياة، وأن يمهد لهم السبيل إلى المستقبل الأفضل والحياة الأمثل. ومن هنا كانت كتاباته تدور كلها حول المجتمع ومشاكله ومعوقاته ولشدة حرصه على أن يسهل للأجيال الصاعدة سبيل الوصول إلى ما يؤملون من جميل الأهداف فقد اهتم ـ وربما بطريق لا شعوري ـ بتقديم نصائحه وإرشاداته وخبراته في كلمات قليلة وفي أسلوب واضح يتساوى في فهمه المتثقف ثقافة عالية والطفل الذي لا يزال في أول الطريق.

فالأستاذ أبو العينين لا يعترف بنظرية الفن للفن ولكنه يؤمن الإيمان كله بنظرية الفن للحياة وهو يدعو في صراحة بالغة إلى أن يكون الكاتب في خدمة مجتمعه.

فهو رغم إقلاله كاتب ملتزم. وقد اشتغل الأستاذ الصديق بالتدريس فترة غير قصيرة من الزمن. وقد كان لهذا التدريس أثره في تعميق وعيه بمآسي الإنسان. وقد دفعه ذلك إلى أن يتلمس العلاج في كتب علم النفس وفي المجلات التي تعني بالنواحي السيكولوجية.

الحلقة الثانية(★)

لكي يكون لحياتنا معنى

وكتاب الأستاذ (عبد الله أبو العينين) (لكي يكون لحياتنا معنى) من الكتب القليلة التي لا يجد فيها الناقد كبير مجالٍ للمناقشة ومعارضة الرأي؛ لأنه يتحدث عن مشكلات اجتماعية لا يكاد يخلو منها المجتمع وذلك ما دعا الدارسين والباحثين وعلماء النفس إلى أن يتلمسوا لها الحلول. وقد وفق الأستاذ المؤلف توفيقا بارعا في تصوير طائفة من المشكلات وفي تشخيصها وفي اقتراح حلول سليمة لها. ولكن هذا لا يمنعنا من أن نذكر بعض ملاحظات عرضت لنا ونحن نقرأ هذا الكتاب:

١ ـ كتب المؤلف فصلا بعنوان (لنلتقي بفرص النجاح) ولست أدري عما إذا كانت هذه اللام التي بدأ بها العنوان لام الأمر أم لاما أخرى، وأغلب الظن أنها لام الأمر. فإذا كان الأمر كذلك ـ وهو ما ارجحه ـ كان من الواجب حذف الياء في الكلمة الاولى. على أن هذه ملاحظة جانبية على الهامش وما أريد أن أقوله هو أن المؤلف تعرض في هذا الفصل لموضوع الحظ بشكل قد يقنع القارئ بأن المؤلف لا يؤمن بعنصر الحظ.

وأنا استبعد أن ينكر المؤلف عنصر الحظ في حياة الإنسان ويُبْنَى هذا الاستبعاد على معرفتي بشخصية الأستاذ المؤلف وما سمعته من تعليقاته ورأيته من تصرفاته وأرجح أنه لم يهدف في هذا الفصل إلى نكران عنصر الحظ بقدر ما هدف إلى اقناع الشباب والناشئة بعدم التعويل على هذا العنصر لأن في التعويل عليه تثبيطًا للهمم وإضعافًا للعزائم وخلقًا لروح التواكل.

٢ ـ لا يلقي الأسلوب ولا الصياغة اللفظية من المؤلف الفاضل ما يستحقان من العناية، فهو لا ينظر إلى نوعية الجملة من حيث صياغتها البلاغية بقدر ما نظر إليها كوسيلة للتعبير عما يريد في أسرع وقت. ولا يهمه جمال

(★) نشر في جريدة المدينة للنورة يوم الاحد الموافق ١١ من شهر ربيع الاول عام ١٣٨٧هـ العدد (٩٨٤).

العبارة ولا ما تضيفه من ظلال ولا ما تخلقه من خيال فهو من أنصار الأسلوب البرقي ولذلك كان أسلوبه سهلا بسيطًا. وكان لا يكلف نفسه أي عناء في سبيل اختيار الكلمة أو تجديد العبارة ولهذه الاسباب فإن الناقد يعثر في كتابه على طائفة من الكلمات والتعبيرات التي تحتاج إلى بيان توضيح.

نذكر على سبيل المثال عبارة وردت في فصل عنوانه (دورنا في نهضة بلادنا) وهي قوله (فطالب الطب الذي يتخصص في فرع لم يتخصص فيه أحد غيره أو تخصص فيه قليلون تكون فرصة النجاح في فرعه ذلك أكبر من لو أنه تخصص في فرع تخصص فيه كثيرون قبله). فعبارة (أكبر من لو أنه تخصص) مهزوزة الصياغة. وكلمة (خلافه) التي وردت في نفس الفصل حيث يقول الكاتب (إذ إننا نلاحظ شركات كثيرة تقوم بصنع المياه الغازية كوكاكولا وميرندا وخلافه فكلمة (خلافه) بمعنى غير ليست من الكلمات العربية الفصيحة. ولو افترضنا جدلا أنها فصيحة ـ وهي ليست كذلك ـ فقد كان التعبير الدقيق أن يقول الكاتب (وخلافهما).

وفي فصل عنوانه (لكي نعيش في مجتمعنا باحساس) أورد الكاتب هذه الجملة (وهل أخيرا يحق لنا أن ناكل ونشرب) وكان الافضل أن يقول (وأخيراً هل يحق لنا).

ويقول الكاتب في صفحة (٩٣) (ولو واصل صاحبنا بعد ذلك السير في طريقه إلى حيث يريد بعد أن سابت ركبه واضطرب جسمه) وكلمة (سابت) من الالفاظ العامية كما هو معروف.

ويستعمل الكاتب كلمة (ساهم) (مساهمة) بمعناها المتعارف عليه بين الناس والصواب أن يستعمل كلمة أو كلمتي أسهم وإسهاما.

٣ ـ وهناك طائفة من الأفكار فيها مجال للمناقشة مع الأستاذ المؤلف نذكر بعضها على سبيل التمثيل:

(١) يقول المؤلف في فصل عنوانه (وإذا استخدمنا عقلنا) كذلك فإننا نعدل ولا نظلم ونحب ولا نكره ونجد ولا نكسل ونتسامح ولا نحقد..).

وهذه النظرية فيها نظر كما يقولون وإلا فالتاريخ حافل بكثير من العقلاء الذين فعلوا غير ما أشار إليه الأستاذ المؤلف.

ولعله يذكر ذلك العاقل الأديب العالم الذي كان يضع خصومه في التنور المسجور وكان يقرر دائما أن الرحمة ضعف وخور في الطبيعة.

فالعقل لا يحول بيننا وبين هذه المساوىء التي أشار إليها الكاتب دائما الذي يحول بيننا وبينها هو الدين الصحيح والخلق السليم والضمير الحي. ولا شك أن الأستاذ الكاتب كان أقرب إلى الحقيقة في فصله الذي كتبه عن (الرحمة والشعور بالمسؤولية).

ومهما يكن من شأن فإن المؤلف الفاضل جدير بكل تقدير على ما كتبه في تمجيد العقل وفي دفع ناشئتنا إلى احترام العقل وإلى وجوب استخدامه.

(٢) كتب الأستاذ الفاضل عدداً من الفصول عن القراءة وهي فصول قيمة – والحق يقال – حث فيها شبابنا على الاطلاع واستعرض أساليب القراءة ووضع أسسا سليمة للقراءة المجدية.

ولا نملك إلا أن نوجه أصدق الشكر للمؤلف الفاضل على عنايته بهذه الناحية التربوية الهامة، فالقراءة أساس قوي من الأسس التي تقوم عليها نهضة كل أمة. ونحن بحاجة إلى بذل كل الجهود ووضع الخطط من أجل تكوين عادة المطالعة في نفوس طلابنا منذ المرحلة الابتدائية.

وحب الأستاذ المؤلف للثقافة بمعناها الواسع العميق يلمسه الناقد بوضوح في كل فصل من فصول الكتاب.

ولا أريد هنا إلا أن اعلق تعليقا خفيفا على بعض ما ورد في فصل عنوانه (مكتبة بثمن زهيد). وقد أورد المؤلف كلاما عن مكتبة أحد أصدقائه جاء فيه (وسألت صاحبي كيف قلت في بداية حديثك أن مكتبة صديقنا جميلة التنسيق حلوة المنظر والكتب فيها ليست مجلدة أو ذات غلاف مزركش جميل؟

فقال صاحبي إن جمال التنسيق يأتيها من حسن الترتيب والتنظيم فهي موضوعة في رفوف متماثلة الاحجام وإنك لتنظر إلى كتبه فلا ترى فيها

كتابا واحدا وقد نشز عن إخوانه أو وضع في غير مكانه الذي أعد له.

وقد حاولت أن أجد كتابا من كتبه وقد تمزق غلافه الذي اشتراه به فلم اعثر على شيء من ذلك؛ لأن صاحبنا شديد العناية بكتبه وحريص على أن يحفظ لها رونقها الذي اقتناها به.

وقد ذكرتني قصة هذه المكتبة بقصة صديق موظف عرفته أيام كنت طالبا في المرحلة الثانوية وكان هو موظفا.

فكنت ورفاقي لا نستطيع الحصول على ما نريد من الكتب بسبب عدم توفر المال لدينا. وكان هو بحكم أنه موظف يأخذ مرتبا شهريا يشتري كل ما يصل إلى المكتبات من جديد الكتب وكان يمر بنا كل ليلة في مجلسنا المختار من الحرم المكي ليجلس معنا قليلا وفي يده كتاب جديد وكثيرا ما حاولنا أن نستعير منه كتابا من هذه الكتب التي لا ينقطع عن شرائها فكان يتأبى علينا ويرفض رفضا باتا وكنا نتصور أن إباءه ينم عن حرصه على حفظ كتبه جديدة كما كنا نتصور أنه يقرأ ما يشتري من كتب.

حتى سألناه ذات يوم عما إذا كان يقرأ الكتب التي يشتريها بعد أن لاحظنا من حديثه أنه يجهل كثيرا من الحقائق عن كتبه التي يقتنيها وكان رده غير متوقع. فقد قال إنه لا يقرأ هذه الكتب ولما سألناه عن السبب أجابنا بجواب ممعن في الغرابة إذ قال إنه لا يقرأ حرصا على سلامة عينيه.

ولعل القارئ يدهش إذا عرف أن عيني ـ صاحبنا ـ ما شاء الله تبارك الله ـ كانتا ولا تزالان مضرب المثل في القوة والسلامة.

وقد فشلت كل جهودنا في إقناعه بأن القراءة في أوقات محدودة وتحت ضوء كافٍ وبطريقة سليمة لا تجلب أي ضرر للعين. فقد كان مصرا على رأيه وأخشى ما أخشاه أن يفهم الناشئون من القراء أن الهدف من هذا الفصل هو الدعوة إلى تكوين مكتبة للزينة.

ومع أنني أحب أن تبقي الكتب نظيفة جميلة وأوثر أن يتسخ ثوبي على أن لا يتسخ كتاب من كتبي. ومع أنني أفضل أن تتزين البيوت بالكتب من أن

تتزين بشيء آخر فإنني أحب مخلصا أن يكون الهدف الأساسي من تكوين المكتبة هو القراءة. حتى لو تمزقت الكتب.

وفي اليوم الذي يدرك فيه القارئ أهمية القراءة وكيف أنها ضرورية لعقله ضرورة الأكل للجسم. في ذلك اليوم سيبذل الكثير من أجل شراء الكتب وسيحرص على أن تبقى جميلة سليمة نظيفة تسر الناظرين.

(٣) رأي المؤلف الفاضل عن المرأة رأي يتصف بالاعتدال ويدل على فهم عميق بطبيعة المرأة فهو لا ينحرف مع هذا التيار العجيب الذي يريد أن يغير طبيعة الاشياء في عصرنا الحديث وهو اتجاه محمود لمؤلفنا الفاضل يذكر له بكثير من التقدير.

يقول المؤلف الفاضل في فصل عنوانه (الكتابة كهواية):

(ولذلك يحسن بنا نحن الكبار إذا لم نمارس الكتابة أن نبدأ ونتخذ منها هواية كما يحسن بنا أن نحث أبناءنا وبناتنا على ذلك. ولقد قلت وبناتنا لأن الكتابة في الحقيقة تلائم طبيعة المرأة وظروفها الخاصة وذلك لأنه كما ذكرت كاتبة أمريكية عندما تبدأ المرأة كهاوية للكتابة. ثم تصبح محترفة لها فإنها تستطيع أن تمارس الكتابة في بيتها وبالقرب من أولادها وعملها المنزلي فلا تضطر إلى أن تذهب للعمل في دوائر العمل المختلفة التي كثيرا ما تبعدها عن أعمالها وتجعلها تعيش هناك مضطربة البال ومشغولة بما يمكن أو أن يحدث أو لا يحدث لأولادها).

ففكرة الكاتب عن المرأة وضرورة بقائها في بيتها بالقرب من أولادها ومطبخها وعملها المنزلي فكرة سليمة إلى أقصى حد تستدعي منا أن نحيي الكاتب وأن نشد على يده.

أما فكرته عن ملاءمةالكتابة لطبيعة المرأة فهي فكرة نختلف فيها مع المؤلف الفاضل، ولست أدري أي أنواع الكتابة يقصد إن كنت مؤمنا كل الإيمان بأن الكتابة لا تتفق مع طبيعة المرأة وقد أثبتت التجارب اخفاق المرأة في دنيا الكتابة والتاليف ولم تستطع المرأة حتى الآن أن تقدم أدبا نسويا خالدا.

ولعل الاقرب إلى العقول أن توجه المرأة إلى القراءة وأن نغرس فيها عند طفولتها عادة القراءة لأن القراءة توسع آفاقها وتتيح لها أن تضيف إلى ثقافتها الكثير من المعلومات مما يساعدها على تربية أطفالها والإشراف المستمر على دراستهم وتنظيم مذاكرتهم ومعالجة كثير من شؤون الأسرة والبيت.

وإن للمرأة في المطالعة والتطريز والخياطة واشغال الأبرة ما يشغل وقتها ويفيد أسرتها ويملأ فراغها.

(٤) يربط المؤلف الفاضل بين الإنتاج الأدبي والسلوك كما ربط من قبل بين العقل والسلوك وكما خالفناه هناك نخالفه هنا.

يقول المؤلف الفاضل: (ومن الملاحظ أن كثيرا ما يقابل أحدنا من كان يظن أنه مثقف لأنه يكتب ويحاضر ثم يصاب بخيبة أمل عندما نجده فظا غليظ القلب لا تظهر في سلوكه تلك الملامح التي يتحدث عنها عندما يكتب أو يذيع).

ولن أطيل مناقشة الأستاذ الفاضل فأحسب أن أساله هذا السؤال ترى لو طبقنا هذه النظرية على حملة الأقلام جميعا في مشارق الأرض ومغاربها وقررنا أن نخرج من دائرة الأدب كل أديب يختلف سلوكه عن كتابته فكم يبقى في هذه الدائرة؟.

ولن نطيل الانتظار فالجواب معروف سلفا فإن الادباء ليسوا إلا بشرا من البشر رغم أن ذلك الأديب الذي وقف يسأل هل الادباء بشر؟

فهم بشر لهم عواطفهم واشواقهم وآمالهم ونزواتهم وطبيعتهم الآدمية.

لكي يكون لحياتنا معنى
الحلقة الثالثة(★)

وقد ذكرني هذا الحديث بقصة ذلك الأديب القاص الذي كان يكتب للناس قصصا إنسانية رفيعة يمجد فيه الفضيلة والطهر والعفاف ويحارب فيها كل أنواع الرذائل والموبقات حتى لقد سار اسمه في أذهان القراء مرادفا للخلق الجميل. ولكنه كان بينه وبين نفسه يعاقر بنت الكرم. وفي ليلة من الليالي أسرف على نفسه حتى فقد الوعي وخرج إلى الشارع يتطوح ويعربد فقبض عليه العسكر واقتادوه إلى ضابط الشرطة المختص وقد أعادت إليه حركة القبض عليه بعض وعيه.

ولما وصلوا به أمر الضابط بإجلاسه في ركن من الغرفة دون أن يلتفت إليه. إذ كان مشغولا بقراءة قصة جميلة ملكت عليه كل حواسه وفجأة التفت الضابط إلى المتهم نصف التفاتة وقال له: اقرأ هذه القصص الجميلة التي يكتبها الأستاذ (فلان) لتتعلم الخلق النبيل ولتبتعد عن هذه المنكرات وقد أعادت إليه هذه المفاجأة كامل وعيه! إذ لم يكن فلان هذا إلا اسم صاحبنا المتهم وأعاد الضابط القراءة وتكررت العملية مرة ثانية وثالثة وبعد أن انتهي الضابط من قراءة القصة وأغلقها ووضعها أمامه في إجلال واهتمام التفت إلى المتهم وسأله عن اسمه ولم يستطع المتهم أن يقول اسمه الحقيقي إذ ربما لا يصدق الضابط بعد لأي فكيف يكون وقع المفاجأة عليه؟ لقد آثر المتهم أن يترك الضابط في أحلامه الجميلة ولم يشأ أن يعكر عليه صفو ليلته بمفاجأة عنيفة قد يكون لها في نفسه أسوأ الأثر.

(٥) الهم وهو الحزن والغم وقد استعاذ الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم من الهم في دعائه المعروف: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن.

ومن الملاحظ أنه كلما اتسعت الحضارة وتعقدت شؤونها زاد الهم. من أجل

(☆) نشر في جريدة المدينة للنورة يوم الخميس الموافق ١٥ من شهر ربيع الاول عام ١٣٨٧هـ العدد (٩٨٨).

ذلك رأينا بعض المجتمعات الغربية التي سبقت غيرها في ميادين الحضارة تعاني من الهم معاناة قد تصل إلى حد الانتحار.

وفي مجتمعاتنا الشرقية نقابل بعض أخبار الانتحار بكثير من الدهشة لأنها تقع في ظروف لا توحي اطلاقا بهذا الانتحار.

كما حدث بالنسبة لانتحار الممثلة الامريكية الحسناء (مارلين مورنو) فقد كانت في أوج مجدها تملك من أسباب الثروة والغني والجاه والسعادة والجمال والشهرة ما لا يتاح إلا لقلة نادرة من البشر، ومع ذلك فقد استيقظ الناس ذات صباح ليسمعوا قصة انتحار عجيبة لواحدة من أشهر نساء العالم.

لقد شغلت هذه الظاهرة طائفة من علماء النفس وأخذوا يبتكرون لها ألوان المعالجة ولو أفلحت هذه العلاجات في التغلب على أمراض بعض المصابين فإنها فشلت فشلا ذريعا في تخليص الغالبية العظمي من صرعى الهموم.

ولن نعرض هنا لأسباب الفشل فذلك أمر يطول ولكننا نحب أن نذكر أن مؤلف كتاب (لكي يكون لحياتنا معنى) عقد فصلا عنوانه (لماذا الهم) حاول فيه أن يعالج هذا المرض الذي ينحل الجسم ويهرم الصبي علاجا أمريكيا.

وكأن هذا المرض من البساطة إلى درجة يكفي لعلاجه وصفة (أمريكانية) يقول المؤلف الفاضل (فنحن إذا تركنا الهم يتسرب إلى نفوسنا فإنه يأخذ بتلابيبها ويتسلط عليها فلا تعرف كيف تتصرف ولا ما تأخذ أو تدع).

وهذا كلام صحيح ولكن المسالة هي: كيف نحول بين الهم وبين نفوسنا؟ وكيف نستطيع أن نمنع تسربه إلى النفوس.

لم يستطع المؤلف الفاضل أن يقدم لنا حلولا عملية فلا يكفي أن نخرج إلى الحديقة ولا أن نزور صديقا ولا أن نعمل عملا يدويا ولا أن نمارس نشاطا ثقافيا لا يكفي كل ذلك أو شيء منه لمنع تسرب الهم ولا لتخليص النفس منه إن وصل إليها.

كيف أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير الأسود، وأنا أشاهد أمامي مريضا

لا أجد الوسيلة لعلاجه أو كيف أتغلب على الهم وأنا أشكو من ضعف راتبي وأري من هو أقل مني خبرة وكفاءة يفوقني راتبًا ومنزلة.

وهذان المثلان أوردهما المؤلف الفاضل في الفصل الذي نتحدث عنه.

يبدو لي أن الأمر يتطلب دراسة أوسع وتفكيراً أعمق وحلولاً أنجع. وإن كنت مع المؤلف الفاضل في ضرورة إفساح الآمال أمام الشباب وفي خلق جو من التفاؤل وفي خلق روح المسرة في نفوسهم.

(٦) في فصل عنوانه (إهمال واهتمام) تعرض المؤلف الفاضل إلى الحديث عن الفرق بين موظف مهتم بعمله وآخر مهمل له وقال: (وكثيراً ما نلاحظ هذا الفرق أيضًا بين موظف مهمل وموظف مهتم أحدهما يضع المعاملات في درج المكتب إهمالاً ولا يدري في الغد عما يمر به اليوم ويترك معاملات الناس تتكدس بعضها فوق بعض.

ويسبب له إهماله هذا بعد أيام هما فلا يدري ماذا يترك وماذا يدع لتراكم معاملات الناس لديه ويسبب للمراجعين مشاكل لا حد لها.

ونشير إلى ملاحظة جانبية هي أن المؤلف الفاضل أتى بعبارتين تؤديان معنى واحدًا بدون قصد في السطور التي نقلناها. وقد قال عن الموظف المهمل (فلا يدري ماذا يترك وماذا يدع) ومن الواضح أن المؤلف الفاضل أراد أن يقول عن هذا الموظف (فلا يدري ماذا يترك وماذا يعمل) وهو سبق قلم دون شك.

وملاحظة جانبية أخرى من حيث الصياغة فلقد كان من الأوفق أن يكرر كلمة (لا) فتصبح العبارة فلا يدري ماذا يترك ولا ماذا يعمل).

هاتان ملاحظتان جانبيتان. أما الملاحظة الأساسية فهي ما ذكره المؤلف من أن إهمال الموظف لعمله يسبب له (همًّا) وأنا أشك في ذلك كل الشك. ومن المؤكد أن هذا الإهمال لن يسبب له همًّا على الإطلاق.

وهنا تكمن المشكلة إذ إن أقصى ما يطمع فيه المصلحون هو أن يشعر الموظفون المهملون بالهم أو الازعاج فإن هذا الشعور هو بداية السلم إلى وخز

الضمير والشعور بالمسؤولية والوصول إلى الإصلاح المنشود.

ولا أظن أن ذلك قد غاب عن ذهن المؤلف وهو يعالج قضية من أخطر القضايا في حياتنا الاجتماعية ولكنه لجأ ـ كما أتصور ـ إلى أسلوب المعالجة عن طريق الإيحاء وإن كنت أعتقد أن الموضوع أخطر من أن يعالج بهذا الأسلوب إلا إذا كان المراد هو توجيه الشبان الذين لا يزالون على مقاعد الدراسة.

(٧) هل يتعلم الإنسان الضحك؟ أما المؤلف الفاضل فيقرر ذلك في فصله الذي عقده بعنوان (طريق النجاح في أي عمل).

وأنا أختلف مع صديقي الأستاذ في هذه القضية اختلافًا كبيرًا. فالضحك من الأفعال الغريزية حتى لقد فكر بعض العلماء في تعريف الإنسان بأنه (حيوان ضاحك)، وفي رأيهم أن هذا التعريف أدق من التعريف الذي اصطلح عليه منذ قديم الزمان وهو (أن الإنسان حيوان ناطق) ولن نخوض في شرح الفروق الدقيقة بين التعريف فلذلك مجال غير هذا المجال. ولكننا نكتفي بأن نذكر بأن الضحك من الأفعال الطبيعية التي لا تحتاج إلى تعليم.

(٨) في التمثيل لفكرة أن (المحاولة تكسب المهارة) أورد الأستاذ المؤلف صورتين واحدة عن صديق للكاتب الروائي الشهير (سومرست موم) وهي صورة واضحة.

والثانية عن الروائية الفرنسية (جورج صاند). فقد ذكر المؤلف رواية عن الأستاذ أحمد أمين قال فيها عن هذه الكاتبة إنها (كانت تجلس على مكتبها في الساعة الخامسة صباحًا وذهنها خالٍ لا يكاد يشتمل على تخطيط تقريبي لما تكتب ولكنها تجري القلم على القرطاس فتستدعي الصور بعضها بعضًا ويظل القلم يسيل بالقصة سيلًا حتى الساعة الثانية عشرة مساءً أي تظل تكتب سبع ساعات كل يوم).

وهذه الصورة ـ في رأينا ـ لا تقابل الصورة الأخرى لصديق (سومرست موم) لأن هذا الصديق كان يريد أن يكون كاتبًا ولكنه لم يحاول القيام بأية

محاولة جادة في سبيل الوصول إلى هدفه. أما الكاتبة الفرنسية فإن الصورة المنقولة عنها كما تصورتها لا تمثل مرحلة المحاولة والتمرين ولكنها تمثل مرحلة النضج. وكونها تجلس على مكتبها وليس في ذهنها تخطيط واضح لما ستكتب ليس معناه أنها في دور المحاولة والتجربة فإن كثيراً من الكتاب يواجهون هذا الموقف.

وأنا أعرف أكثر من كاتب يجلسون إلى مكاتبهم وليس في ذهنهم موضوع محدد أو أن في ذهنهم فكرة ولكنها مبهمة غامضة وقد يقضون وقتًا قبل أن يهتدوا إلى كلمة أو جملة يفتتحون بها المقال ثم تنهال عليهم الخواطر وتتدفق عليهم المعاني وبعد أن كانوا قد قرروا كتابة مقال قصير يضطرون إلى كتابة مقال طويل وربما كتبوا عددًا من المقالات وقد يتطور الأمر إلى أن يتحول المقال القصير إلى كتاب كبير.

(٩) من مزايا كتاب (لكي يكون لحياتنا معنى) أنه كتاب متكامل ومع أنه قد احتوى على خمسة وستين موضوعًا فإن اتجاهات معينة تسيطر على الكتاب ولو أغفل مؤلفه الإشارة في المقدمة إلى أن فصول الكتاب كتبت أساسًا موضوعات منجمة في فترة امتدت ثلاث سنوات.

لو أقفل المؤلف ذلك وقام بتنسيق آخر لفصول الكتاب. لما استطاعت الغالبية العظمى من القراء أن تكتشف هذه الحقيقة ولدخل في روعها أن الكتاب مؤلف بناءً على خطة موضوعة وتخطيط سابق.

ولا أستثني من فصول الكتاب إلا فصلًا واحدًا انحرف فيه المؤلف عن خط سيره ولم يتقيد باتجاهاته. ويبدو لي أن ذلك حدث من وراء الوعي وأن الذي يتحمل وزر هذا الانحراف شخص آخر غير المؤلف. ذلكم هو سلامة موسى.

وقد ألمعنا فيما سبق إلى إعجاب الكاتب المؤلف بسلامة موسى وقد دفعه هذا الإعجاب إلى أن ينحرف عن الاتجاه الذي كان يسير فيه فكنت تقرأ في فصوله السابقة كلمات تتردد كثيراً مثل الرفق واللين والتسامح وكنت تجد

بعض الأحاديث النبوية الشريفة بلفظها أو بمعناها منتشرة في كتابه كقول النبي صلى الله عليه وسلم (عد من لا يعودك وأهدى لمن لا يهديك) وكقوله عليه الصلاة والسلام (أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتصفح عمن ظلمك. (كنا نقرأ في كتابه وإذا بنا نفاجأ بسلامة موسى يحشر أنفه كعادته ويطل علينا كما تطل المصيبة. المتوقعة وإذا بالمؤلف يطلع علينا عندما ترد على المسيء إساءته فإنك بذلك تمنع الحقد من أن يتسرب إلى نفسك) ويتقدم سلامة موسى بابتسامته الماكرة بديت على كتف المؤلف مشجعًا بقوله له (وقليل من التحليل النفسي للأخلاق ينير بصيرتنا فإن الصراحة مثلًا تخدم الصحة النفسية لأننا لا نتحمل مجهود الإخفاء الذي يتحمله المنافق الموارب).

ويموه سلامة موسى كعادته على المؤلف فلا يترك له فرصة يكشف فيها الإنحراف الذي وقع فيه ولا يسمح له بمحاولة التوفيق بين الاتجاه الذي كان يسير فيه والاتجاه المعاكس.

وبعد فقد كتب المؤلف فصلًا عنوانه (خير ما نهديه لأبنائنا) ونحن نستعير من المؤلف هذا العنوان لتختم به حديثنا عن كتاب (لكي يكون لحياتنا معنى).

فهو خير ما نهديه بأبنائنا من الجيل الصاعد إذا إنه جمع من المزايا ما يجعله فريدًا في بابه فهو مهل الأسلوب واضح اللفظ حافل بكريم المعانى يسيطر على موضوعاته جوًا من التفاؤل وهذه الموضوعات قريبة من عقل الناشئ ووجدانه. يثير حياله وتنير طريقهه وتقوده برفق في الطرق.

الخبرة الموصلة إلى أنبل الأهداف:

لو كان لي ثروة لأهديت لكل شاب في بداية الطريق نسخة من هذا الكتاب ولأهديت لأبيه وأمه نسخة أخرى ولأهديت لكل معلم نسخة ثالثة فهو كتاب جدير بقراءة الشباب الناشئين كما هو جدير بقراءة موجهيهم والمشرفين عليهم والمسؤولين عن تربيتهم داخل المدرسة وخارجها.

كثيرًا ما تلقيت رسائل يستقر فيها مرسلوها عن الكتب التي تصلح لشبان

مراهقين وكثيراً ما وصلتني شكاوى من بعض الآباء والأمهات تحمل تذمرهم من الكتب الشعبية والجنسية التي يكب عليها أبناؤهم ويسألون عن الوسيلة لتخليص أبنائهم من براثين هذه الكتب وكنت ألقى عنتا في الرد وتقرير العلاج لأن الكتب الصالحة مع مزيد الأسف ـ لأطفال في سن المراهقة لا تزال من الكتب القليلة النادرة، مع أن الكتابة للأطفال لون رائع من ألوان الأدب لم يجد العناية الكافية في الأدب العربي.

وأنا أوافق أن الأستاذ (أبو العينين) لم يؤلف كتابه من أجل الأطفال بل ربما ضايقه أن يسلك كتابة إلى أدب الأطفال. ولكن مرحلة الطفولة وهي مرحلة تكاد تمتد إلى الثامنة عشر تعتبر أهم فترة في حياة الإنسان.

ولا شك أن من دواعي اعتزاز الكاتب أن يسهم بأدبه في تكوين أجيال المستقبل كما أن دواعي شهرته أن يذكره الناس وهم يذكرون أجمل فترة في حياتهم.

رأي.. وكتاب(*)

حسن صيرفي شاعر قديم، ولست أعني قدم التفكير والتعبير، وإنما أعني أنه ذو تاريخ طويل في عالم الشعر يمتد إلى أكثر من ربع قرن من الزمان.

وحسن صيرفي يشبه الشاعر العباسي المشهور أبا العتاهية ولست أقصد أنه يشبهه في صفتيه المشهورتين عنه أو في إحداهما وهما الزهد والشح فصديقنا الصيرفي حريص على التمتع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق وهو كريم إلى درجة معقولة لم تبلغ حد الترف.

فهل عرف القارئ الصفة الثالثة من صفات أبي العتاهية؟

لقد اتصف أبو العتاهية بصفة أخرى تلك هي سهولة شعره حتى لو أراد أن يجعل كلامه كله شعرًا لفعل وهذه ميزة يتمتع بها حسن صيرفي في العصر الحديث كما كان يتمتع بها أبو العتاهية في العصر القديم.

نسوق هاتين الملاحظتين بين يدي حديثنا عن ديوان الشاعر الذي أخرجه للناس منذ شهور قليلة وسر هاتين الملاحظتين هو أن الديوان الذي أخرجه الصديق الشاعر ديوان صغير الحجم لا يتفق وهذه الميزة التي يتمتع بها الشاعر ميزة الخصوبة والغزارة وكان القراء وخاصة أصدقاء الشاعر ومعارفه يتوقعون أن يصدر ديوانًا ضخمًا عندما علموا أنه يستعد لطبع ذلك ولكنهم فوجئوا بما لم يكن في حسبانهم عندما رأوا الديوان في حجمه الحالي. وزاد من وقع المفاجأة أن قسما طيبًا من الديوان احتوى على مقطوعات شعرية لا تتناسب وشهرة الشاعر وحجم الديوان يضاف إلى هذا أن غالبية ما نشر في الديوان من القصائد الرصينة مما نظمه الشاعر في السنوات الأخيرة. فهل نفهم من هذا أن الشاعر تعمد إغفال الفترة السابقة من حياته وهي لا تقل عن عشرين عاماَ؟ وهل كان سبب هذا الإغفال عدم رضاء الشاعر عن

(☆) نشر في العدد (٧٢) من مجلة الرائد في يوم الاثنين ١١/٢/١٣٨١هـ ـ ٢٤/٧/١٩٦١م. ص (٣). وللموضوع بقية في العدد القادم من المجلة.

شعره؟ أم أن هناك سببًا آخر؟

هذه أسئلة لا نستطيع الإجابة عليها ولعل الشاعر أو أحد خلصائه يتفضل بإيضاح الحقيقة إلى القراء. قد سمَّى الشاعر ديوانه (دموع وكبرياء) وهي تسمية لطيفة ورقيقة وموفقة سيما إذا لاحظنا أن القسم الأكبر من الديوان شعر نسيب وغزل أما الدموع فالأمر فيها واضح لا إشكال فيه. فقد عصف الحب بالشاعر عصفًا لا هوادة فيه ولا ترفق ويبدو لي أن نحول الشاعر وضعف جسمه ماهو إلا أثر فتكات العيون النجل والأحداق المراض حتى لقد كاد أن ينطبق عليه قول الشاعر القديم.

كفى بجسمي نحولا أنني رجل ... لولا مخاطبتي إياك لم ترني

أمّا الكبرياء فأمر فيه نظر كما كان يقول الأقدمون وإلا فما رأى الشاعر في هذه المقطوعة بعنوان «لن أتوب».

قل لي فديتك ماذا ... تفيده من عذابي؟
ولم تجدد قصدا ... في كل يوم: مصابي؟
أما رحمت ذهولي ... وحيرتي واضطرابي؟
وهل أتيت بذنب ... به أردت حسابي؟
إن كنت تحسب حبي ... ذنبًا فزد في عقابي
لا. لن أتوب وإني ... رضيت فيه بما بي
ما العمر عمر إذا لم ... يقض مع الأحباب
إلى متى يا ملاكي ... تظل في الارتياب؟

ولا أدري ماهو رأي القراء في هذا المبدأ الذي أتى به الشاعر.

ما العمر عمر إذا لم ... يقض مع الأحباب !

فهل الحياة كلها حب؟ وهل تستقيم هذه الحياة بعيدة عن الجد والعمل والإنتاج؟

وسهولة شعر الشاعر هي السر في الكلمات القليلة التي بدأ بها ديوانه فقال هذه صور التي بين يديك هي تجارب إنسان يسمونه شاعرًا فإن استطاع أن

يتسلل إلى قلبك ويظفر بحبك فذلك ما يصبو إليه ولست أدري لماذا أشعر بعدم الارتياح إلى كلمة يتسلل.. فالتسلل كملة تدل على الضعف ولا أريد أن أتعرض للتسلل المعروف في لعبة كرة القدم ولا لتسلل البرد إلى الصدر وما يحدثه من تطورات قد تقود إلى مرض السل وقانا الله السوء.

ولعل إيماني القوى بأدب القوة ودعوتي المتصلة إلى نشره وإذاعته هي السبب في كرهي لهذا التسلل الذي يدل على الرخاوة والضعف وبالمناسبة لست أدري لماذا لم يقدم الأستاذ الصيرفي لديوانه بمقدمة يشرح فيها آراءه واتجاهاته وله آراء كثيرة في الشعر وقضاياه وكانت مناسبة إصدار الديوان فرصة يشرح فيها تلك الآراء والأفكار والنظريات إنها فرصة ما كان ينبغي أن يتركها الشاعر دون أن يهتبلها فحبذا لو تعرض في مقدمته لتاريخ حياته والتطورات التي مر بها في حياته الشعرية وما من شك في أن هذا العمل سيكون عونًا للناقد عندما يعرض لشعر الشاعر بالتحليل والمناقشة ويبدأ الديوان ببيتين من الشعر:

هذه آلام نفسي ... خطرت في ثوب طرسي
صورتها ريشة ... أحرقتها نار لمسي

ولا أريد أن نعرض للصياغة الشعرية في هذين البيتين وإنما نشير إلى أن الشاعر يريد أن يقول أنه كتب شعره بريشة محترقة احرقتها النار التي اشتعلت في كيانه ولست أدري كيف تستطيع ريشة محترقة أن تكتب؟ وهل استطاعت هذه الريشة أن تصور المعنى الذي قصده الشاعر؟ مما لا شك فيه أن الشاعر يريد أن يقول إن شعره يموج بالحياة والحرارة التي تصل إلى درجة الاحراق فهل استطاع بيت الشاعر أن يصور هذا المعنى ذلك ما أشك فيه.

ومن الصدف اللطيفة أنه خطر لي وأنا أقرأ هذين البيتين أن أبحث عن كلمة طرس في معاجم اللغة فلعل لها معنى غير المعنى الظاهر فوجدت أن الطرس كلمة معناها «الصحيفة عمومًا أو الصحيفة التي محيت تم كتبت طرس الكاتب أعاد الكتابة على المكتوب» ومن الواضح أن الصحيفة إذا

محيت ثم أعيدت كتابتها تظهر في صورة مشوهة غير واضحة، فهل الشاعر يقصد هذا المعنى عندما اختار طرس وهل كان يقصد أن يقول الشاعر أن الريشة المحترقة لا تبدو واضحة فكان يضطر إلى إعادة الكتابة مما يوحي بأن الصحيفة كانت موجودة ثم أعيد كتابتها؟ فلئن قصد الشاعر هذا فهي براعة يحسد عليها الصديق الشاعر أما إن كانت غير مقصودة فهي مصادفة غريبة.

وأن نصاحب الشاعر في رحلة قصيرة مع قصائده وأول قصيدة من قصائد الديوان قصيدته «أمجاد المدينة» وهي من غير شك تعتبر من عيون شعر الشاعر ومن القصائد القليلة الممتازة في الديوان التي تقف في القمة.

وقد أحسن الشاعر إحسانًا كبيراً في وضعها في المكان الذي وضعها فيه فهي كما قلنا قصيدة رائعة ممتازة ثم إن من براعة الاستهلال أن تكون فاتحة ديوان يصدر عن المدينة قصيدة تتحدث عن أمجاد المدينة البلد الذي أثر في العالم تأثيراً بعيد المدى.

وتعتبر هذه القصيدة معارضة لقصيدة الشاعر المصري حافظ إبراهيم وعنوانها في الطبعة السادسة من ديوانه (مصر تتحدث عن نفسها) أما في بعض الطبعات السابقة فقد كان عنوانها (مصر فوق الجميع) وربما استعار الشاعر حافظ ذلك من كلمة النازيين المشهورة «ألمانيا فوق الجميع».

ولم يشر شاعرنا الصيرفي إلى هذه المعارضة في ديوانه وليته فعل فإن ذلك لن ينقص من قيمة قصيدته. فالمعارضات في الشعر العربي معروفة مشهورة ولم تتخذ وسيلة للطعن في الشاعر المعارض ومقدرته بل إن النقاد أشادوا ببعض قصائد المعارضة المتأخرة وفضلوها على القصائد الأصلية.

ولسنا نرى أن الشاعر كتب قصيدته دون أن يطلع على قصيدة حافظ فذلك أمر غير معقول خاصة وأن شاعرنا لم ير مانعًا من أن يستعير بعض ألفاظ وتعبيرات وردت في قصيدة حافظ.

ولسنا نرى أن شاعرنا نظم قصيدته فجاءت هكذا مشابهة لقصيدة حافظ

دون تعمد أو قصد فهذا أمر غير معقول لنفس السبب الأول.

فلم يبق إلا أن شاعرنا الصيرفي تعمد معارضة قصيدة حافظ ولكنه لم يشر إلى ذلك. إما لأن الأمر من الشهرة والوضوح بحيث لا يحتاج إلى ذكر أو إشارة وإما لأن الشاعر جرى على عادته في عدم تقديم قصائده ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا في أربع قصائد في ديوانه قدم لكل منها ببضع كلمات.

وربما دفع الشاعر إلى معارضة قصيدة حافظ إعجابه بها وطريقته في الحديث عن أمجاد مصر.

على أن هناك تشابهًا عجيبًا بين الشاعرين يجب أن لا نغفل عنه.

وأول وجه من أوجه الشبه هو أن ثقافتهما الرسمية كما عبر أحمد أمين ثقافة محدودة. فهي لا تعدو دراسة في مدرسة ابتدائية ولكنهما اعتصما بالصبر وكونا نفسيهما عن طريق القراءة على أمهات الكتب وإطالة النظر في مراجع الأدب على اختلافها وحفظ الجيد من دواوين الشعراء حتى وصلا إلى مالم يصل إليه كثير من ذوي المؤهلات العالية في دنيا الشهرة والمجد الأدبي.

أما وجه الشبه الثاني فهو نوع الحياة التي يحياها كل منهما وهو نوع فيه كثير من الحرية والانطلاق وعدم التقيد بما اعتاد الناس عادة أن يتقيدوا به.

أما وجه الشبه الثالث فهو أن كلًا من الشاعرين محدث من طراز فريد. فمعاصرو حافظ يتحدثون عن مجالسه التي يجتمع فيها الفكاهة الحلوة والنادرة الطريفة ومقدرة حافظ على السيطرة على مستمعيه وذلك ما يقال عن الأستاذ الصيرفي. فهو متحدث لبق إذا جلس في مجلس سيطر عليه وملأه بأخباره ونكاته وتعليقاته فلا يترك مجالًا لقائل أو متحدث وهو ينتقل بمستمعيه من بستان إلى بستان في رشاقة وخفة ظل وسرعة بديهة. ولقد أتيح للشاعر المصري المعروف محمد فهمي أن يحضر مجلسًا من مجالس الأستاذ الصيرفي فخرج بعد انتهاء المجلس وهو يقول هذا مدهش هذا أديب بالسليقة.

ومن المؤسف أن هذا اللون من الأدباء قد انقرض في العالم العربي ولم يبق

منهم إلا أفراد قلائل في طليعتهم شاعرنا الصيرفي.

أما وجه الشبه الرابع فهو جودة الإلقاء وقوة الصوت وحسن الأداء وهي صفات يشترك فيها الشاعران.

وقد بدأ حافظ حياته يتيمًا فقيراً وتزوج فلم يدم زواجه أكثر من أربعة أشهر. أما الأستاذ الصيرفي فقد بدأ حياته بداية طيبة حيث نشأ في كنف والده الثري الذي حنكته التجارب وخرجته مدرسة الحياة رجلًا واعيًا ناضجًا وكانت صناعته ولا تزال الصيرفة والصياغة وهما مهنتان مربحتان يدران اخلاف الرزق والمال الكثير. وقد كان يرجو أن يستفيد ابنه حسن من خبرته وأن يخلفه في عمله ولكن (حسن) كان شاعرًا بالسليقة وكان يفضل نظم القصائد على نظم العقود وصياغة القريض على صياغة الذهب. وقد حاول أبوه ـ أمد الله في عمره ـ أن يثنيه عن سلوك هذا الطريق الذي يبعده عن دنيا المال ولكنه فشل وسار حسن في الطريق التي رسمها لنفسه أو رسمتها له الأقدار. فاصبح الشاعر حسن الصيرفي أحد رواد الشعر في بلادنا.

ومن العجب أن حافظًا نظم قصيدته في (تحية عدلي يكن باشا بعد عودته من أوروبا قاطعًا المفاوضة مع الانجليز مستقيلًا من الوزارة) وهذا أسلوب غريب في التكريم والتحية فلم يعرض في قصيدته بكلمة لتحية هذا الرجل بل تقمص حافظ شخصية مصر وأخذ يتحدث عن أمجادها ورأى أن ذلك خير تحية للرجل الذي ذهب للدفاع عن حقوق مصر.. فلما فشل ضحى بالمنصب.

أما شاعرنا الصيرفي فقد نظم قصيدته في التحدث عن أمجاد المدينة مقتفيًا خطوات الشاعر الكبير، يبدأ الشاعر المصري قصيدته بهذا المطلع:

وقف الخلق ينظرون جميعا　　　كيف أبني قواعد المجد وحدي

وقد تنبه الشاعر إلى أن كلمة (أبني) تشير إلى الماضي والمستقبل فبادر إلى ذكر الماضي وقال:

وبناة الأهرام في سالف الدهـ　　　ـر كفوني الكلام عند التحدي

أما(☆) شاعرنا الصيرفي فاستهل قصيدته بهذا المطلع:

وقف الخلق ينظرون مناري   كيف شع الهدى على كل نجد

فكان حديثه عن الماضي ولذا لم ير داعيًا أن يفعل كما فعل حافظ.

وأخذ حافظ في الحديث عن مصر.

أنا تاج العلا في مفرق الشر   ق ودراته فرائد عقدي
أي شيء في الغرب قد بهر النا   س جمالًا ولم يكن منه عندي؟
فترابي تبر ونهري فرات   وسمائي مصقولة كالفرند
أينما سرت جَدْوَلٌ عند كَرْمٍ   عند زهر مدنر عند رَنْدِ

فهل هذا كل مافي مصر؟ رحم الله حافظًا شاعر النيل.

ثم التفت حافظ إلى الحاضر وأخذ في الدفاع عن أبناء مصر والتماس المعاذير لهم ثم عاد ليرد على من اتهم أبناء مصر بالقصور فتحدث عن الأهرام والنقوش التي بها وفن التحنيط الذي اشتهر به قدماء المصريين والتفت إلى ذكر مآثر أخرى فذكر أن أول محالفة في التاريخ عقدها أحد فراعنة مصر وإن مصر كانت مصدر القوانين الإدارية كما كان لها في الفلك يد طولى وأن أقدم شاعر عرفه التاريخ هو (بنتئوْر) الشاعر المصري.

وانتقل من هذا الحديث ليصور حاضر مصر والعقبات التي وضعها المستعمرون في طريقها ثم انثنى إلى أبناء مصر يدعوهم إلى أن يتعملوا وأن يتواصوا بالصبر وإلى أن يتعاونوا ويصفحوا عن الأخطاء وأن لايتركوا مجالًا للأهواء.

وارفعوا دولتي على العِلْمِ والأخـ   لاق فالعلم وحده ليس يجدي
وتواصوا بالصبر فالصبر إن فا   رق قوما فما له من مَسَدِ
خلق الصبر وحده نصر القو   م وأغنى عن اقتراعٍ وعد
شهدوا حومة الوغى بنفوس   صابرات وأوجه غير ربد
فمحا الصبر آية العلم في الحر   ب وأنحى عن القوى الأَشَدُّ

(☆) جزء من الموضوع نشر بمجلة الرائد العدد (٧٣) في يوم الاثنين ١٨/٢/١٣٨١هـ - ٣١/٧/١٩٦١م. صفحة (٤) وللموضوع بقية في العدد القادم من المجلة.

القوي الذين يعنيهم حافظ هم الانجليز ويريد بالقوى الأشد الألمان.

وأما شاعرنا الصيرفي فبعد المطلع المشار إليه قال:

أنا دار الإيمان والمثل العلـ ... يا ورمز الخلود في كل مجد
أنا أن بدد الزمان شعاعي ... لن ترى النور هذه الأرض بعدي
أنا خير البقاع كرمني الله ... بخير الأنام في خير لحد
أنا قابلته بأرحب صدر ... ثم أودعته حشاشة كبدي

هي أبيات في منتهى الروعة والجمال وقد كان في إمكان الشاعر أن يقول كثيراً ولكن طبيعته التي تميل إلى الإيجاز دفعته إلى أن يقول في اختصار:

أنا لا أملأ البلاد ضجيجًا ... خادعًا كالسراب ليس بمجد
أنا فيما مضى صنعت كثيرًا ... وسيبني الجديد لابد زندي

هما بيتان بلغا الغاية في الثناء والمدح هما خير خاتمة للقصيدة وربما كان الشاعر يعتزم أن يقف عند هذا الحد ولكنه وجد أن قصيدته لم تبلغ (سبع) قصيدة حافظ فعاد مرة أخرى إلى الحديث عن المدينة أو لعله نظم القصيدة على فترات متباعدة.

في رحابي ترعرع العلم طفلًا ... ومشى حارسا جحافل أسدى
دوَّخوا قيصرا وطاحوا بكسرى ... ومضوا يتبعون هندا بسند
لم ترعهم جيوش (لذريق) لما ... جاوزا البحر في طلائع جرد
ومضى طارق ببعض ألوف ... يتحدى بعزمهم أي عد
يذرع الأرض لا يهاب المنايا ... ويدك الحصون من غير رعد
سهم موسى ويالَهِمَّةِ موسى ... أنا أرضعتها بألبان نهدى
في سويسرا له مآثر فتح ... وفرنسا وسهلها الممتد
الأثير الذي به يتباهو ... ن لقد كان لي كأطوع عبد
وجيوش السماء يوم حنين ... نصرت معشرى بأكرم جند
والاعاصير والرياح بسلع ... مزقت شمل قاصدي بالتعدي

هذه أبيات تهز النفس هزًا عميقًا. فقد استطاع الشاعر في أبيات قليلة أن

يحيطنا بتاريخ طويل عريض. لقد تحدث عن قصة الهجرة وعن أثر المسجد الشريف وعن فتح بلاد فارس والروم وعن فتح الأندلس وعن قصة عمر مع سارية وعن غزوة حنين وعن غزوة الخندق ووصل إلى نتيجة استطاع بعدها أن يقول:

أنا هذا الذي ذكرت فمن ذا   يرفع الرأس بعد هذا التحدي؟

هذا البيت بموقعه من القصيدة وبما فيه من التساؤل أبلغ من بيت حافظ.

وبناة الأهرام في سالف الدهر   كفوني الكلام عند التحدي

هناك بيت آخر لشاعرنا الصيرفي يقول فيه:

أنا إن بدد الزمان شعاعي   لن ترى النور هذه الأرض بعدى

وهذا البيت بموقعه من القصيدة وبما فيه من تساؤل أبلغ من بيت حافظ.

وبناة الأهرام في سالف الدهر   كفوني الكلام عند التحدي

وهناك بيت آخر لشاعرنا الصيرفي يقول فيه:

أنا إن بدد الزمان شعاعي   لن ترى النور هذه الأرض بعد

وهو ينظر فيه ولاشك إلى قول حافظ.

أنا إن قدر الإله مماتي   لاترى الشرق يرفع الرأس بعدي

وبيت الصيرفي أروع وأبلغ. فقد قصر حافظ تأثير مصر على الشرق فقط أما الصيرفي فقد جعل تأثير تبدد شعاع المدينة يشمل الكرة الأرضية ثم لا تنس الفارق الكبير في التعبير بلن في بيت الصيرفي وبـ لا في بيت حافظ على أن للأخير فضل السبق وإن كان موقع بيت الصيرفي من القصيدة غير مناسب فقد كان عليه أن يتحدث عن أمجاد المدينة قبل أن يتحدث عن تبدد الشعاع وأثر ذلك في الأرض ويبدو بوجه عام أن شاعرنا الصيرفي لا يهتم بعضوية القصيدة.

وقد شارفت قصيدة حافظ على الستين إذ بلغت أبياتها سبعة وخمسين بيتًا بينما لم تتجاوز قصيدة الصيرفي الخمسة والعشرين بيتًا وهذا راجع ولاشك إلى طبيعته الإيجازية ـ إن صح هذا التعبير ـ وإلى قصر نفسه الشعري وإلا

فالموضوع الذي طرقه الشاعر الصيرفي موضوع خصب يصلح أن يكون موضوعًا لملحمة طويلة.

ولشاعرنا الصيرفي شعر حماسي نشر قسمًا طيبًا منه في ديوانه وهو شعر تغلب عليه سمة الحزن فلا نجد فيه العنف والثورة والاندفاع وكأنه شعر نظم بعد تجاوز الشاعر مرحلة الفتوة ورغم ذلك فانت واجد فيه روعة وتأثيراً كما في قصائده «ياعيد» و «نداء الجامعة» و «لقاء» و «بلادي» و «الهدنة» وربما لم تشذ عن ذلك إلا قصيدته إلى الجزائر.. ففيها شيء من الحيوية والحرارة ولكن من المؤسف أن هذه الحرارة تخفت سريعًا بسبب قصر النفس الشعري عند الشاعر فما أن يبدأ القارئ في القراءة حتى يشعر ببعض نشوة الحماسة ولكنه فجأة يجد نفسه في نهاية الطريق.

ومن العجيب أن الشاعر وقد عاصر أحداث فلسطين والجزائر لم يقدم في ديوانه غير قصيدة صغيرة عن الجزائر وقصيدة صغيرة كذلك عن فلسطين ومقطوعة أخرى لم تتجاوز الأربعة أبيات.

على أن الشاعر قدم قصيدة تستحق منا بعض الوقوف.. تلك هي قصيدته «الملحمة أو بورسعيد» ولسنا ندري ماذا يقصد الشاعر بكلمة الملحمة فإن كان يريد المعنى اللغوي أي المعركة فلا اعتراض لنا عليه أما إذا كان يريد بالملحمة المعنى الاصطلاحي المعروف في عالم الشعر فهذا ما يدعو إلى الاعتراض لأكثر من سبب وإن كانت هذه القصيدة تعتبر ملحمة بالنسبة لشعر الصيرفي. فقد شارفت أبياتها على تسعة وعشرين بيتًا وهو رقم قياسي بالنسبة لشعر الشاعر.

وقد وفق الشاعر توفيقًا كبيراً في قصيدته هذه وأعاد إلى الذهن الصورة التي كادت أن تمحى عنه. فرأينا فيه شاعرًا يملك ناصية البيان ويصور بالشعر قصة قومية رائعة. فيها تماسك وفيها وحدة وفيها قوة. واستمع إلى هذا المقطع:

أخي عجبًا ما يشق السماء ... بنهر من النور عبر الفضاء
وماذا ترقرق في جبهتي ... ترى عرقا أم تراها دماء
وذي قطرة يا أخي فوق كفي ... وذي فوق زندي وذي في الفضاء

ليت شاعرنا يسير في هذا الطريق، إنه الطريق الذي يجد فيه الكثير مما يصلح أن يكون أعمالًا فنية راقية تستحق المجد والخلود.

وللشاعر كذلك قصيدة تسير في نفس الاتجاه تقريبًا وهي قصيدته «خيبة» وفيها يصور بأسلوب قصصي واجب العرب نحو لغتهم ونشرها والمكاسب التي يجنونها من وراء إذاعتها والتمكين لها بين المسلمين من غير العرب يفتتحها الشاعر بهذه الأبيات:

متى تشرق الشمس ياموطني ... وثغر الزمان متى يبتسم
وترجع أيامك الضاحكا ... ت وتستقبل النور بعد الظلم
وتهجر الحانك الباكيا ... ت وتعزف لحنا طروب النغم

ولا نحب أن ننتقل من هذه النقطة قبل أن نشير إلى قصيدة (حريق مكة) وهي قصيدة تمتاز عن كل قصائد الشاعر بما فيها من حرارة تبدأ من أول بيت في القصيدة إلى آخر بيت فيها وحبذا لو سلمت من بعض الكلمات التي لم تلمسها يد الشاعر مثل كلمة بذا التي ورت في البيت الخامس.

راعها انها حمى الله في الكو ... ن وقد خصها (بذا) عن سواها

ومثل كلمة رذيل في البيت الخامس عشر:

كالح الوجه كالحقارة كالذل ... رذيلا ملازما لخطاها

ولشاعرنا تأملات يخرج منها بتجربة يصوغها في أبيات قليلة. وإن كان الملاحظ أن أكثر هذه التجارب لا فضل للشاعر فيها إلا فضل الصياغة إذ سبق أن دونها الأقدمون ونذكر على سبيل المثال مقطوعته «الحياة»:

ابتسم للحياة إني أراها ... لا تساوي تجهم التقطيب
واتخذها كلعبة تتلهى ... بلهاها بين الضحى والمغيب
وإذا ما ظفرت يوما بزاد ... أكثر الزاد للرحيل القريب

ونعود مرة أخرى لنواجه الصيرفي شاعر العاطفة ولا ندري ماهو رأي شاعرنا ورأي القراء في هذا اللقب وأغلب الظن أنهم جميعًا سيوافقوننا عليه.. الغزل يمثل في ديوان شاعرنا القسم الأكبر وعناية الشاعر بهذا القسم واضحة فهو القسم الوحيد الذي عني الشاعر بوضع عنوان له هو وجدانيات وهو

القسم الذي يلمس فيه الناقد الصدق الفني.

وأخشى فؤادي فلما يزل ينزاسى من قديم العلعل
عهدت به لهفة للجما ل ومن أجله لا يهاب الزلل
وعودته أن يلبي الندا ء وأن أتنكب وعر السبل

ويبدو أن شاعرنا يسير على الطريقة التي تحدث عنها الأستاذ عباس محمود العقاد وهو يخاطب صديقه المرحوم إبراهيم عبد القادر المازني.

أنت في مصر دائم الترديد بين حب عفا وحب جديد

وطريقة الشاعر في الحديث عن الحب طريقة عجيبة فأنت لا تجد في شعره كله وصفًا لهذا الحبيب أو ذاك وإنما تجد حديثًا عن الوصل والهجر والغدر والوفاء واللقاء والشوق والخوف إلى آخر هذه المعاني التي تفنن الشاعر في تصويرها وفي تلوينها.

والحق أن جميع خصائص الشاعر الصيرفي يجدها الناقد في شعره الوجداني ففيه السهولة والصدق الفني وروعة الأداء وفيه محاولات صادقة للابداع والارتفاع بمستوى شعر الشاعر وتجد ذلك في الصور البيانية الجديدة التي صاغها الشاعر في فهم وإخلاص ورغبة صادقة في تحسين الأداء الفني وتجده كذلك في القوالب الشعرية الجديدة التي اصطنعها الشاعر فخرج بها عن الأسلوب التقليدي الذي التزمه في أنواع أخرى من شعره ويسرنا أن نعلن أن الشاعر نجح في هذه القوالب الجديدة نجاحًا يستحق التهنئة ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل إن الشاعر استطاع بهذه القوالب أن يتغلب على المشكلة التي تعرضنا لها أكثر من مرة في هذه الدراسة وأعني بها قصر النفس الشعري وما لهذا القصر من أثر على إنتاج الشاعر.

وقد(☆) بدأ الشاعر هذا القسم من ديوانه بمقطوعة صغيرة عنوانها البداية.

ومن نظرة رف قلبي إليه فآمنت بالحب بعد الجحود
وأسرفت من بعد بحثًا عليـ ـه إلى ترشفت شهد الوعود

(☆) بقية الموضوع. نشر في مجلة الرائد. العدد (٧٤) في يوم الاثنين ١٣٨١/٢/٢٥هـ - ١٩٦١/٨/٧م. صفحة (٣).

تسللت كالسحر في مسمعيـ ـه وآلفته بعد طول الأبود
فدب الغرام إلى جانبيـ ـه وبادلني الحب دون الوجود

ولا نعرف الأسباب التي جعلت الشاعر يجعلها فاتحة لوجدانياته وفي الديوان ما هو أجمل وأروع إلا أن كان الشاعر يريد أن يقول إنه كان قاسي القلب كما عبر المتنبي عصيِ القياد متمردًا على الحب ولكن هذا المخلوق استطاع أن يقتحم قلب الشاعر المستعصي ثم هرب ولكن الشاعر أخذ في البحث عنه حتى ظفر بوعده وكان سبيله إلى ذلك بيان الشاعر الذي تسلل إلى مسمعي هذا الحبيب فتآلفه بعد طول الأبود والنفار واضطره إلى أن يبادله الحب وواضح أن الشاعر يريد أن يصور عظمة شعره وعبقرية فنه وأى دليل أعظم من أن يتآلف ببيانه المتاجج هذا العصى النافر وأي دليل.

قد اعجبت كثيراً بتعبير الشاعر (ترشفت شهد الوعود) فهو تعبير فني رائع أما كلمة رشفت ففيها كثير من الجدة ولا تستطيع كلمة (رشفت) مثلًا أن تؤديه أما (شهد الوعود) فحسبها أنها شهد ووعد ولكن تعبير الشاعر في البيت الثاني (بحثًا عليه) تنقصه الدقة اللغوية فالمعروف في اللغة أن يكون البحث عن الشيء أما البحث على الشيء فنعتقد أن اللغويين لا يجيزونه.

والبيت الثالث من هذه المقطوعة يشبه بيت شوقي.

وقد جاء من سحر العيون فصادني وأتيت من سحر البيان فصدته

ويبدو لي أن بيت الصيرفي أبلغ من بيت شوقي فالفرق كبير بين قول شوقي الجاف (قد جــاء.. فصادني) (وأتيت.. فصدته) وبين التعبير الرقيق في بيت الصيرفي.

تسللت كالسحر في مسمعيه وألفته بعد طول الإبود

والحديث عن وجدانيات الشاعر الصيرفي يقودنا إلى أن نتحدث عن شيئين أولهما هذا المذهب الواقعي الذي يتجلى بوضوح في شعر الشاعر بعامة وفي شعره الوجداني خاصة وهذا المذهب يسير عليه الشاعر بصورة تدل على وعي وفن وأصالة. فبالرغم من أنه ينقل إليك الحقيقة كاملة كما حدثت فإنه ينقلها إليك في اطار وشته يد الفن ونمنمته ريشة الفنان وخير مثال

على ذلك قصائده (سؤال) و(في المقهى) و(ياليل) وأرجو أن يعود إليها القارئ في الديوان[1] فسيجد فيها تماسكًا قويًا وإبداعًا فنيًا ومتعه تغمر النفس والقلب والشعور.

أما الأمر الثاني فهو فكرة سيطرت على الشاعر سيطرة تامة وملأت عليه أقطار نفسه تلك هي إحياء الكلمات العربية التي اندرجت في العامية حتى كادت تضيع وحسبها الناس من العامية فعلا وهو يرى أن في إهمال هذه تضييعًا لثروة لغوية طيبة وإن في إحيائها تقريبًا للعامية من الفصحى وانعاشًا للغة الكتابة وإثراء لها وايجاد أسلوب وسط يقبل عليه العامة كما يرضاه المثقفون وهذه فكرة نبيلة ولا شك وربما كان الأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني هو أول من بدأ هذه المحاولة ونجح فيها إلى حد كبير.. غير أن ميدان المازني كان النثر أما الصيرفي فميدانه الشعر وقد وفق الأستاذ الصيرفي في محاولته ونجح نجاحًا لا بأس به ولكنه أسرف بعض الشيء فحاول أن يستعمل ألفاظًا لا أصل لها في العربية السليمة كما حاول أن يجتهد اجتهادًا لا أعتقد أن علماء اللغة يقرونه عليه.. ونذكر على سبيل المثال كلمة (أسرير) التي وردت في قصيدته (ليلة الوداع).

وهل قرأت وجودها في كل (أَسْرِيرَ) سطر

نعتقد أن كلمة أسارير مفردها (أسْرِيرَ) كما أن الشاعر منعها من الصرف من غير مبرر. ومثل كلمة (الغلبان) التي في قصيدته (المقهى).

أثبت طرفي في مكان صعودها ببلادة المتحير (الغلبان)

وكلمة تمرمر في قصيدته (ياليل):

ماذا جنيت كذا (تُمَرْمِرُ) (عيشتي) يا ليل صبرًا

هذه (من بحر مرمرة) ومثل كلمة يبصم في قصيدته (وطني)

قبلة يبصمها ثغري عليك اختم الحب بها في شفتيك

البصمة لسيت عربية ولا شعرية

---

(١) ديوان دموع وكبرياء من إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي طبعة ثانية مطابع الكاتب التجارية وعدد صفحاته (١٨٧) صفحة.

(المنرفز) في قصيدته (ليالي العقيق)

واخشى ضجيج النهار المنر فز بالشاعر الساهم الملهم

عروبتها شبيه بدعوى فرنسية الجزائر.

ولا أدري لماذا خطر ببالي وأنا أقرأ وجدانيات الصيرفي اسم نزار قباني وربما كانت العلاقة بينهما هي علاقة (الضدية). فغزل الصيرفي غزل كريم عف وفي قصائده الغزلية تمجيد للسمو النفسي وتقديس للعفاف وترفع عن الانحدار إلى الحديث عن شهوات الجسد (النازلة).

عجبت لنفسي كيف حتى تحررت من الدرن الأرضي في حبها العذري

أما غزل نزار فهو غزل اباحي داعر فيه دعوة صريحة إلى ارضاء شهوات الجسد ونزوات النفس وفيه استهتار بالقيم الأخلاقية وسخرية ملفوفة أحيانًا وصريحة أحيانًا بكل دعوة إلى اعزاز الفضيلة والخلق النبيل.

ويلاحظ الناقد أن شعر الطبيعة في ديوان الشاعر قليل جدًا وهذا شيء يدعو إلى الدهشة. فهذا الشاعر الذي يترنم بالجمال ويتحدث عن أماكن خلواته وهي كما وردت في ديوان الشاعر (العقيق) و(الدوار) و(عروة) و(الجنان) و(قربان) و(العوالي) و(وادي قناة) و(بطحان) و(السيح) و(الحاجر) كلها أماكن حافلة بالوان الجمال الطبيعي الذي خلقه الله وأبدع صنعه من زهر وطير وماء وصخر. فكيف لم يستطع أن يهز وجدان الشاعر فيصوره بريشته وينقله إلى الناس في ألوان ساحرة فاتنة أم لعله كان في شغل عنها بأفراح قلبه وأحزانه.

على أن الناقد يجد بعض الصور القليلة المتناثرة في ديوان الشاعر وهي تدل على مقدرة وإبداع فهو يقول في قصيدته (الليلة الأولى):

وماس قوام النخل من نفح نسمة مهدجة الأنفاس في موكب الزهر

ويقول في قصيدته (ليالي العقيق).

ياليالي الصيف في عروة في حضن المسيل

و (السواني) تنعش السمّار باللحن العليل

والنسيم العاطر المغمور في النور الضئيل
من كوى الغيب تدفق
يترقرق
كلما البدر حبا واختلسا
لمحة من عاشقين التمسا

ويقول:

مات حبي في الربيع
غسلوه بالنجيع
مات والزهر جمال يتبسم
مات والطير طليق يترنم
مات والغدران بالأحباب تنعم
مات في عرس الحياة الفاتنة !!

ويقول:

هنا في شاطئ نائي
تعالى نصرم العمرا
تعالي إن للإغراء
في أرجائه سرا
تعالي نصنع الألحان والأحلام والسحرا
تعالي نرقب الأمواج
كيف تعابث الضفة
تداعبها وتلثمها
كلثم (الشفة الشفة)

نشر الشاعر في ديوانه قصيدتين الأولى (مناجاة العيد) وفيها يقول:

واليوم إذ لاح المشيب بلمتي　　　وعجمت عود العمر في غزواتي

والثانية قصيدته (في الخريف) وفيها يقول:

لقد جئت بعد فوات الأوا ... ن ومن بعدما جف نبع الغزل
ولو زرتني قبل هذا لكنـ ... ـت تسمعت كيف رنين القبل
وكنت تعلمت سحر الحديـ ... ـث وكيف تشاد قصور الأمل
ولكنني في الخريف السخيـ ... ـف وأجواؤه كلها ترتجل

ومن الغريب أن الشاعر لم يتنبه إلى ما في هاتين القصيدتين من أدلة تنقض دعواه التي يعرفها اصدقاءه فهو يصر منذ سنوات طوال على أنه لم يتعد الثلاثين ولا تزيده مرور الأيام والأعوام إلا أصرارًا على هذه الدعوة رغم أن له ابنًا يدرس في الجامعة منذ سنوات ولكنه مع كل ذلك يصر على أنه لم يتزحزح عن الثلاثين. فهل آمن الشاعر أخيراً بأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل؟ أم أن حكم الزمن كان أقوى من أن يستطيع مغالطته والوقوف في وجهه؟ أم أن نبع الغزل قد جف فعلًا في فؤاده؟ أم أن الأمر كما قال شاعرنا القديم:

رأين الغواني الشيب لاح بمعارضي ... فأعرضن عني بالخدود النواضر
وكنَّ إذا ابصرنني أو سمعنني ... جرين فغطين الكوى بالمحاجر

لقد استطعنا أخيراً نضبط الشاعر باعترافاته فهل يكفيه هذا الاعتراف المكتوب بخطه أم أنه سيعمد مرة أخرى إلى المحاماة وأساليبها ليشكك في هذه الاعترافات؟

على أننا نحب أن نطمئن الشاعر ومحبيه بأن قلبه من القلوب الذهبية الأصيلة ولن يزيده مرور الأيام إلا بريقًا ولمعانًا وسيظل قلبه فتيًّا قويًّا لا تنال منه السنون ولا عوادي الزمن فهو من الذين يعنيهم الشاعر في الشطر الأول من بيته حيث يقول:

يا عز هل لك في شيخ فتى أبدًا ... وقد يكون شباب غير فتيان

لقد سرنا مع الشاعر في رحلة طويلة نشهد أنها كانت ممتعة جدًا ونرجو في أن نسجل في ختامها هذه الملاحظات:

١ ـ اغفل الشاعر كثيراً من شعره وإذا كان سيدخر ما اغفل لديوان آخر فنرجو أن لا يطول بالقراء انتظاره.

٢ ـ لم يؤرخ الشاعر لقصائده وليته فعل وخاصة بالنسبة لشعره الغزلي والوجداني ليتمكن الناقد من تتبع الأطوار التي مر بها.

٣ ـ قل أن تعثر في ديوان الشاعر على اخطاء نحوية أو عروضية أو لغوية وهذا دليل على قوة الشاعر وتمكنه من لغته وقواعدها وإن كان هذا لا يمنعنا أن ننبه إلى بعض الأخطاء التي وقع فيها الشاعر كما في قصيدته (وطني) وفيها يقول:

انت محبوبي ومن همت به ... أترى يبلغ صوتي إذنيك
وطني يا مشرق النور متى ... تصعد الآفاق في صنع بنيك؟
وطني يا فاتح الأرض متى ... تنطوي أرضك من صنع يديك؟

والقافية في البيت الثاني كما هو واضح لا تتناسب مع بقية قوافي القصيدة.

كما نحب أن ننبه إلى الخطأ اللغوي في قصيدته (ليلة الوداع).

قد أوعدونا وبروا ... وواصلونا وسروا

والايعاد معناه التهديد والتخويف وهذا معنى لا يقصده الشاعر فهو يريد أن أصدقاءه وأحبابه (وعدوه) ولم (يتوعدوه).

وننبه أيضًا إلى الخطأ الذي وقع فيه الشاعر في قصيدته (الأمل الكاذب).

فأشاحت بوجهها واستدارت ... ثم ألقت بقوس قَزْح إلينا

وكلمة (قوس قزح) تنطق بضم القاف وفتح الزاي لا كما فعل الشاعر حينا سكن الزاي.

٤ ـ لم نتحدث عن القسم الأخير من الديوان وهو الذي يبدأ بقصيدته (سيارتي) إلى نهاية الديوان وكنا نحب أن يترفع الشاعر بديوانه عن أن ينشر فيه هذا اللغو ولا مانع لدينا من أن يجمع الشاعر كل هذا النوع من الشعر وينشره في ديوان مستقل باعتباره أدبًا شعبيًّا. أما أن ينشره مع شعره

القوي الرصين فذلك ما كنا نحب أن لا يتورط فيه الشاعر.

٥ ـ كنا نحب أن يحمل غلاف الديوان رمزًا فنيًّا معبرًا أو صورة جميلة مشرقة تفتح شهية القارئ للمائدة الدسمة التي تنتظره داخل ديوان طباعته الجميلة وورقه المصقول.

٦ ـ أما صدور كتاب أو ديوان في عصرنا الحديث من غير فهرس يعتبر من الأشياء المثيرة للدهشة وهو نقص كبير ولسنا ندري كيف غفل الشاعر أو الناشر في إعداد فهرس للديوان.

وقبل أن نضع القلم نمد يدنا لنصافح الشاعر الإنسان الذي آثر أن يعيش في عالم المثاليات على أن يعيش في عالم النار والذهب الشاعر الذي يقول:

ونحن. ومن نحن؟ ما بالنا؟	نذوب أسى في لعاب القلم
تسيل على الطرس آلامنا	تصور أشباحه للأمم
وتسبح في الأفق أحلامنا	ترف إلى عبقريّ النغم
وتصدح حتى يهب النيا	م ويمشون في الركب نحو القمم
وما الشعر إلا حسيس المَفَن	ولؤلؤ أصداف هذا الخضم

فصول من تاريخ المدينة المنورة
الحلقة الأولى(*)

لقد اغتبطت اغتباطًا لا حد له حين علمت أن تاريخًا للمدينة المقدسة كتبه الأستاذ الجليل السيد على حافظ[1] سيخرج للناس لأن معنى ذلك إضافة لبنة إلى صرح تراثنا الفكري ثم إن تاريخ هذه المدينة العظيمة التي لها دين في عنق كل مسلم لا يزال في حاجة شديدة إلى جهود كبيرة يضطلع بها العلماء والباحثون للكشف عن مجاهله واستجلاء خفاياه فهناك فترات كثيرة من هذا التاريخ لا تزال مجهولة تمامًا يلفها الغموض.. الأمر الذي لا يتناسب مع ما لهذه المدينة العظيمة من أثر بالغ في حضارة العالم وقد ابتهجت أيما ابتهاج لقيام الأستاذ الجليل بهذه المهمة الجليلة التي يتمتع بعدد من المزايا تجعله أهلًا لأدائها.

وأولى هذه المزايا حبه العظيم الواعي للمدينة والحب في أمثال هذه الظروف من مقومات النجاح الأساسية.

وثانية هذه المزايا ثقافته الواسعة المتعددة الجوانب والثقافة الواسعة من أهم العوامل التي توصل إلى الهدف المرجو.

وثالثة هذه المزايا أنه قضى حياته في المدينة وكان على اتصال بكل البيئات المثقفة منها. وهذا يتيح له أن يتعرف على كثير من أخبار المدينة وظروفها وأسرار الحياة فيها ويتيح له كذلك أن يصل إلى كثير من المصادر والمراجع المطبوعة والمخطوطة. وأحب أن أضع كلمة (المخطوطة) في اطار بارز أو بين قوسين كبيرين فإن المدينة ـ كما حدثني أحد كبار خبراء الكتب ـ تزخر بكثير من الكتب المخطوطة النادرة في تاريخ المدينة وقد أكد لي ـ والعهدة له ـ أن هذه المخطوطات وأكثرها وإن لم يكن جميعها لا توجد منه إلا نسخة

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة في يوم الثلاثاء الموافق ٢٩ من شهر صفر علم ١٣٨٩هـ، العدد (١٦٣٥).

(١) ولد السيد علي حافظ سنة ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٨م بالمدينة المنورة، تعلم بها ـ تقلد عدة وظائف زار عددًا من البلدان في آسيا، وأوروبا، ومعظم البلاد العربية.

واحدة. أكد لي هذا الخبير الكبير أن هذه المخطوطات تحتوي على معلومات في منتهى الأهمية عن بعض الفترات المجهولة في تاريخ المدينة. واعتقد أنا أن الأستاذ الجليل خير من يستطيع الوصول إلى تلك المخطوطات في مكانها. بحكم ثقافته من جهة وبحكم لبقاته وصلاته الشخصية ومركزه الاجتماعي من جهة أخرى.

ورابعة هذه المزايا أنه عاصر الظروف والأحداث التي مرت بالمدينة أو عاصر من عاصرها وهذه المعاصرة بالإضافة إلى مزاياه الأخرى تجعله من القلة القليلة التي تستطيع أن تؤرخ للفترة التي برزت بتولي السلطان عبدالحميد الثاني أو قبل ذلك بقليل وهي فترة من أشد الفترات حفولًا بالأحداث والتطورات ولست أعني الناحية السياسية ولكنني أعني النواحي الأخرى العمرانية والاجتماعية والعلمية.. وهي نواحٍ لم تلقَ حتى الآن عناية من أحد وإن كان أستاذنا الشيخ محمد سعيد دفتر دار قد مر ببعضها مرورًا خاطفًا في قصة (الأفندي)، وبدت بعض تلميحات لها في بعض ما كتب أستاذنا الزيدان. وهذه التلميحات لا تنقع غلة وذلك المرور لا يسمن ولا يغني من جوع. لأن المسالة أخطر من ذلك لانها تتطلب المنهج المنظم والعكوف الطويل والدراسة الجادة وهذه تتطلب الإيمان والعزيمة والتفرغ.

قلت إن اغتباطي كان أكبر من أن يحد عندما تلقيت خبر تقديم هذا الكتاب إلى المطبعة في طريقه إلى النشر ثم صدر الكتاب(١) وتفضل مؤلفه الأستاذ الجليل فأهداني - مشكورًا - نسخة منه فماذا في الكتاب؟

لا أريد أن أصل إلى ما في الكتاب قبل أن اقف وقفه قصيرة جدًا عند عنوان الكتاب وعند الإهداء.

وعنوان الكتاب كما رأينا (فصول من تاريخ المدينة المنورة) وهو عنوان بسيط متواضع لا تجد فيه تعاليا ولا تكبرا ولا ادعاء وحتى لو كان منطبقًا على ما في الكتاب فإن اختياره يدل على الدقة وعدم الرغبة في

---

(١) قامت بطبعه ونشره (طبعة اولى) شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر بجدة في عام (١٣٨٨هـ) وعدد صفحاته (٤٠٨).

التهويل والاستعظام وهو تصرف من سمو خلق المؤلف ورقة حاشيته ورقة طبعه.

أما الإهداء فقطعة (شعرية مؤثرة لست أدري لماذا لم يكتبها المؤلف شعرًا؟ مع أنه شاعر يملك ناصية النظم وصياغة القريض. وهذا الإهداء يدل ابلغ الدلالة على (الحب العظيم) المتغلغل في فؤاده لوالديه وإليهما أهدى كتابه وليس في استطاعتي أن اتعرف بصورة تفصيلية على تاريخ هذين الأبوين الكريمين وعلى آثارهما في تربية المؤلف وفي نفسيته وفي اتجاهاته ولكنني أستطيع أن ألمح بين سطور الإهداء تلك العلاقة القوية التي كانت تشد المؤلف إلى أبويه وما كان لهما من آثار بعيدة المدى في حياة المؤلف الجليل.

ويلاحظ القارئ الفاضل أنني وضعت كلمتي (الحب العميق) داخل قوسين لأن الحب أول ما يلاحظه الناقد وهو يستعرض فصول الكتاب. فحب المؤلف لمدينته حب صادق صافٍ خالط اللحوم والدم وامتزج بالقلب والشغاف وحبه هذا هو الذي دفعه - وربما بصورة لا شعورية - إلى الاهتمام بتاريخ هذا البلد الحبيب ومصدر هذا الحب - فيما نعتقد - منبعان أساسيان أولهما هذا النوع من الحب الغريزي الذي ينشأ مع الإنسان منذ طفولته الأولى وتمتد جذوره مع الأيام ويزيده رسوخًا طاقة من الروابط الخفية والمنظورة.

وثانيهما تلك الوشيجة التي تشد قلوب المسلمين بخيوط غير منظورة إلى مدينة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم. وإذا كان الفرنسيون يرون أن لكل مثقف وطنين وطنه الذي ولد ونشأ فيه ثم وطنه الفكري أو الروحي وهو فرنسا.

إذا كان الفرنسيون يرون ذلك وهو رأي لا يخرج عن دائرة الدعوى التي لا تثبت أمام المناقشة والجدل. فالأمر ألذي لا يقبل الجدل هو أن المدينة هي الوطن الروحي لكل مسلم تهفو إليها نفوسهم وتتعلق بها قلوبهم فلا يختلف صغير عن كبير ولا بر عن فاجر فكلهم مشدودون إليها بقوة خفية لا يستطيعون لها دافعًا. وليس عبثًا أن تسمى المدينة بالمحبوبة.

ومن الطريف الذي يذكر في هذا الباب أنني ما قرأت أو سمعت بيت المتنبي الذي يصف فيه خصر ممدوحة أو خصر محبوبته حين يقول:

وخصراً تثبت الأبصار فيه كأن عليه من طوق نطاقا

ما قرأت أو سمعت هذا البيت إلا وخطرت ببالي المدينة النبوية تطوقها عيون المؤمنين وتحيط بها قلوبهم فهي صورة فنية رائعة تنطبق على المدينة انطباقًا باهرًا أقرب إلى الحقيقة إن لم تكن الحقيقة ذاتها.

ولن نحاول هنا أن نتتبع آثار هذا الحب العميق في فصول الكتاب أو بين صفحاته ولكنني أكتفي بإشارة إلى قول واحد ذي أهمية بالغة هو حرص المؤلف - وربما بطريقة غير واعية (لا شعورية) - على أن يقصر بحثه ودراسته على المدينة فقط بل لا يكاد يتجاوز حدودها. ونذكر على سبيل المثال أن المؤلف اختار من الغزوات النبوية غزوتي أحد والخندق واشبعهما بحثًا ودراسة لأن الغزوتين وقعتا في المدينة المنورة داخل حدودها ولم يتعرض لأي غزوة أخرى مهما بلغ تاثيرها.

ومعنى هذا أن المؤلف قد التزم منهجًا محددًا لم يحد عنه وهذه ميزة أخرى تدل على عقلية المؤلف الواعية التي تمتاز بالدقة والتنظيم والفهم العميق.

فصول من تاريخ المدينة المنورة
(الحلقة الثانية)(*)

أشرنا في الحلقة السابقة إلى أن المؤلف قد التزم منهجه الذي حدده في فصول كتابه ونضيف هنا أنه لم يشذ عن ذلك إلا مرة واحدة حين تحدث عن (مدرسة الصحراء في المسيجيد)[1] وليته لم يفعل ليحتفظ لمنهجه بالدقة الكاملة من جهة وليتفادى ما قد يوجه إليه من اعتراضات لإغفاله الحديث عن أمور لها أهميتها البالغة نتيجة لتجاوزه منهجه العلمي.

ولست أدري سر هذا التصرف من المؤلف الجليل، على أن مدرسة الصحراء تحتاج إلى أكثر من هذه الكلمات القليلة التي كتبها المؤلف في كتابه، إنها تحتاج إلى كتاب ضخم يسجل مراحلها المختلفة بالكلمة والصورة والبيانات الإحصائية. فهذه المدرسة فصل قيم من فصول نهضتنا وجهد بارز جدير بالتسجيل والإشادة. وحبذا لو عنى مؤسساها الجليلان بإخراج هذا الكتاب الذي سيكون له أطيب الأثر في تسجيل حقبة من نهضتنا الحاضرة، وحبذا لو ضمَّ إليها الفصول القيمة التي كتبها المربي القدير الأستاذ سالم داغستاني عن هذه المدرسة، كما أن الأسباب التي أوردها المؤلف في بداية الفصل لتبرير تصرفه ليست مقنعة. يقول المؤلف في صفحة (٢٣٣) (هذه المدرسة - مدرسة الصحراء - أسبق مدارس البادية في التأسيس، وجثمت بين أحضان الجبال والوهاد وبين مضارب الخيام في البادية، يشع من مبناها نور العلم على أبناء البادية فينعمون ويتمتعون ويأنسون بنوره الوهاج ولهذه المدرسة - مدرسة الصحراء - بالمسيجيد - تاريخ ينفرد عن تاريخ مدارس البادية الأخرى فهي أول مدرسة أسست بالبادية بالصحراء بين الجبال والشعاب والأودية لتعلم أبناء البادية وهي مدرسة ابتدائية تسير

(☆) نشر بجريدة المدينة المنورة يوم الثلاثاء الموافق ٦ من شهر جمادى الآخرة عام ١٣٨٩هـ العدد (١٦٤١).

(١) اسسها علي وعثمان حافظ في شهر شوال عام (١٣٦٥هـ) واستمرت حتى تسليمها وزارة المعارف في أوائل شهر ربيع الآخر عام (١٣٨١هـ) المرجع الكتاب الذي يعرض المؤلف في هذه الحلقات.

على الطرق العلمية الحديثة. إنها أول مدرسة أسست في البادية بالصحراء في التاريخ الإسلامي، لم تسبقها أي مدرسة أخرى في الصحراء من نوعها لهذا ولقربها من المدينة ولأننا نعرف تاريخها.. فقد افردت لها بحثًا خاصًا في هذه الفصول من التاريخ) فهذه الأسباب التي أوردها المؤلف في السطور السابقة مع وجاهتها ليست مبررًا كافيًا لتجاوز حدود منهجه المرسوم. وإن كان المؤلف يثير هنا قضية جديرة بالدراسة. يقول عن مدرسة الصحراء (إنها أول مدرسة أسست بالبادية في الصحراء في التاريخ الإسلامي).

فهل هذه المدرسة هي أول مدرسة أسست بالبادية في التاريخ الإسلامي؟

الواقع يفرض أن يكون الجواب بالإيجاب؛ لأنني لا أملك أدلة النفي، ولأن المؤلف يقرر ذلك. ومن المأثور عن أسلافنا قولهم (من حفظ حجة على من لم يحفظ) ولا بد أن المؤلف قد تتبع الموضوع في مكانه ثم وصل إلى هذه النتيجة، وهي نتيجة عجيبة أقبلها بغير قليل من التحفظ. وبعبارة أخرى أقبلها إلى حين ففي نفسي منها شيء.

وبطبيعة الحال فإن جميع المثقفين والمهتمين منهم بتاريخ التربية بشكل أخص مدعوون إلى بحث هذه القضية بحثًا ينتهي بهم إلى قرار ما قد وصل إليه المؤلف، أو تقرير عكسه وسواء وصلنا في بحثنا إلى النتيجة التي انتهى إليها المؤلف أو وصلنا إلى نتيجة أخرى، فإن من واجبنا أن نتوجه بالشكر العميق إلى الأستاذ المؤلف على إثارة هذه القضية الهامة والطريفة في آن واحد.

ولعل طرافتها تبدو في أن تاريخ التربية في العالم ولدى العرب والمسلمين من الموضوعات الرئيسية التي سيطرت على اهتمامي فترة طويلة من حياتي، ولا زالت من الموضوعات الأساسية التي تشغلني ولي فيها بحوث ومحاضرات، ومع ذلك فإن القضية التي أثارها المؤلف ظلت بعيدة فلم ألقها أو أصطدم بها إلا وأنا أدرس كتاب (فصول من تاريخ المدينة).

لقد أذكرني الحديث عن مدرسة الصحراء بمشروع ثقافي آخر، أقيم في المدينة واضطلع بخدمته أبناء المدينة، وكان لأبناء البادية فيه نصيب الأسد، وهو

(دار الأيتام). ولم يغفل المؤلف الجليل الحديث عن هذه الدار ولكنه كان حديثًا موجزًا لا يتفق وضخامة هذا المشروع ولا بآثاره الكبيرة فقد أهمل الحديث عن تاريخ تأسيس هذا المشروع والأطوار التي مر بها والأهداف التي قام من أجلها، كما أهمل الحديث عن نقطتين هامتين أولاهما. عدم التعرض للشخص الثالث الذي شارك المؤسسين في فضل نجاح المشروع بعد قيامه وهو للمرحوم (حسني العلمي)[1] وقد كان من الشخصيات البارزة وقد ترك من الآثار ما لا ينسى. والتنويه به عند الحديث عن دار الأيتام لا يقل أهمية عن الحديث عن المحسنين الكريمين المرحومين عبدالغني وعبدالكريم دادا.

وأنا أعرف أن مؤلف الكتاب وحسني العلمي من أبرز شخصيات المدينة وقد التقيا في كثير من المجالات. أنا أعرف ذلك ولكنني أجهل تمامًا وجود أي خلاف بينهما أو أي نوع من التنافر ولكنني لا أستبعده بحكم أنهما ندان متناظران ولكن الذي أستبعده هو أن يكون لهذا الخلاف أثر في تجاهل الحديث عن رجل ممتاز هو حسني العلمي وخاصة بعد أن لقى الله وإذا عرفنا أن مؤلف هذا الكتاب يمتاز بالسماحة والرجاحة أدركنا أن السبب الحقيقي يعود إلى السهو والنسيان.

أما النقطة الثانية فهي إغفال الحديث عن الطريقة التربوية التي كان يطبقها (حسني العلمي) في الدار وهي الربط بين الصناعة والفهم في فترة الدراسة. وتكاد هذه الطريقة أن تصبح أحدث الطرق التربوية في هذه الأيام. وبالمناسبة فهناك المشروع التربوي العظيم[2] الذي اضطلع به أستاذنا الجليل المرحوم السيد أحمد الفيض أبادي وهو مشروع ترك آثارًا بعيدة المدى في نهضة المدينة التعليمية.. هذا المشروع العظيم لم يشر إليه المؤلف.

لم يتحدث المؤلف في مقدمة كتابه الموجز عن منهجه الذي سيسير عليه في كتابه وكل ما أشار إليه هو أن كتابه يجمع بين القديم والحديث ولم أفهم

---

(١) مدير دار الأيتام. وكان يطلق عليه حسني أفندي. ارجع إلى كتاب. مناقشات ومناوشات للمؤلف.

(٢) مدرسة العلوم الشرعية اسست في عام (١٣٤٠هـ) انظر كتاب «مدرسة العلوم الشرعية ت د/ محمد العيد الخظراوي ص (٧).

من كتابه قبل أن أقرأ الكتاب هذا الذي ذهب إليه المؤلف بل فهمت معنى آخر لا يخرج عن نطاق تدوين التاريخ أو كتاب التاريخ الجغرافي. ولكن المؤلف ذهب إلى اتجاه آخر هو أن يجعل من كتابه مزيجًا من التاريخ والإعلام. وفي رأيي أن المؤلف لم يصاحبه التوفيق في هذا الجمع أو المزج؛ لأن القسم الأول من الكتاب قسم يمتاز بالبحث العميق والدراسة الجادة وهذا القسم بهذه الصورة لا يتفق مع القسم الثاني الذي لا يخرج عن نطاق الأخبار الصحفية أو نشرات الإعلام هذا من جهة.. ومن جهة ثانية فإن ضخامة الكتاب تحول دون الاستفادة منه ككتاب للإعلام أو نشره للقارئ العابر فليت المؤلف اكتفى بالقسم التاريخي أو التاريخي الجغرافي المحض من كتابه وهو القسم الأكبر وفصل القسم الثاني في كتاب مستقل فإن هذا أجدى على المؤلف وعلى القارئ الجاد وعلى الزائر العابر. ولعل المؤلف يفعل ذلك - مشكورًا - عندما يعيد طبع كتابه ونرجو أن يتم ذلك قريبًا. على أن المؤلف والحق يقال قد وفق في كتابه توفيقًا لا حد له وفق المنهج الذي اختطه ووفق في اختيار موضوعاته ووفق في الحديث عنها. ووفق في التنسيق بينها ووفق في الأسلوب الذي كتب به الكتاب ووفق في طباعته ووفق في رسم غلافه ووفق في إعداد فهارسه. وأشهد أنني لم أجد عسراً في قراءة هذا الكتاب. بل كثيراً ما استهواني فانطلقت في القراءة متجاوزًا الموضوع الذي فتحت الكتاب من أجله إلى موضوعات أخرى. ولا ينقص من قيمة الكتاب ما أوردته من ملاحظات فيما سبق ولا ما سأورده من ملاحظات فيما يأتي. فالواقع أنه كتاب موفق وأنه كسب كبير لنهضتنا الفكرية وأنه جهد منظم جدير بكل تقرير.

فصول من تاريخ المدينة المنورة
الحلقة الثالثة(*)

بدأ المؤلف كتابه بفصل عنوانه (المدينة المنورة عبر التاريخ) ويذهب بعض اللغويين إلى أن كلمة (عبر) بهذا المعنى الذي رمى إليه المؤلف ليست صحيحة لغويا. وقد راجعت عددا من كتب اللغة فوجدتها تؤيد ما ذهب إليه هؤلاء اللغويون. صحيح أنني لم أتمكن من استقصاء البحث حول هذه النقطة ولكن يبدو من مجموعة الكتب التي راجعتها وكلها من الكتب المعتمدة أن هذه الكلمة تؤدي لمعنى يخالف معناها المتداول بين الكتّاب ومحرري الصحف فليت المؤلف الجليل عدل عن هذه الكلمة إلى كلمة أخرى ولن يعيبه ذلك وهو الكاتب الشاعر والمؤرخ الأديب. أكتب هذا متجاهلا تلك الصيحات التي تنطلق من هنا ومن هناك داعية إلى إهمال اللغة وعدم شغل الناس في عصر الأقمار الصناعية بالبحث عن كلمة استعملت في غير معناها الذي حددته معاجم اللغة. ففي ذلك ضياع للوقت وتقييد لحرية الكاتب وهي دعوات ضالة خبيثة.. فإن اللغة من مقومات الأمة ومن أقوى ركائزها.

أما الفصل نفسه فهو فصل قيّم استعرض فيه المؤلف أهم الأحداث التي مرت بالمدينة منذ عصر ما قبل التاريخ حتى اليوم وهو فصل استغرق (٣٧) صفحة. ومع اعجابي الكبير بالطريقة الممتازة التي كتب بها هذا الفصل فإنني استأذن المؤلف في مناقشة بعض ما ورد في هذا الفصل مناقشة يسيرة عابرة.

١ ـ تحت عنوان (عدوان يهودي قذر) أورد المؤلف ـ نقلا عن معجم البلدان لياقوت ـ قصة (الغيطون) ملك اليهود في يثرب الذي كان ـ فيما تزعم الرواية ـ يفتض كل عروس قبل زوجها. وهي رواية تحتاج فيما أتصور إلى

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة في يوم الجمعة ٩ من شهر جمادى الآخرة عام ١٣٨٩هـ العدد (١٦٤٤).

دراسة ومناقشة. فأنا استبعد حدوثها لأنها تتنافى مع ما هو معروف عن العرب من غيرة على النساء ومحافظة على الحريم غيرة وصلت ببعضهم إلى وأد البنات ومحافظة أصبحت مضرب المثل. فكيف تسنى للأوس والخزرج أن يفرطوا في أعراضهم هذا التفريط المعيب الذي لا يتفق مع خلق العربي وشممه وإبائه.

ليت مؤلفنا الفاضل تجاهل هذه القضية أو عرضها على محك النقد وقابلها بروايات أخرى في مصادرها إن وجدت. فلا يكفي أن ينقلها ياقوت الحموي لتصبح حقيقة واقعة.

٢ ـ وتحت عنوان (الخط الحديدي الحجازي والمسجد والكلية) تحدث المؤلف عن السكة الحديدية ومسجد المحطة والكلية حديثا عابرا فلم يتحدث المؤلف عن سبب إنشاء هذا الخط ولا سبب انشاء الكلية ولا عن الأهداف من وراء قيامها ولا عن الظروف التي مرت بها ولا عن الشخصيات العظيمة التي كانت وراء ذلك وأسهمت فيه بجهودها وما لها ولا عن حفلات الافتتاح وقد حضرتها مجموعة من كبار الشخصيات الإسلامية.

٣ ـ تحدث المؤلف في القسم الاخير من هذا الفصل القيّم حديثا موجزا عن تاريخ المدينة منذ الفترة التي سبقت قيام الحرب العظمى والى اليوم، ومع أن المؤلف الجليل أشار إشارات لها أهميتها وقيمتها فقد كنت أود أن أقرأ فصلا ضافيا عن هذه الفترة، وهي في رأيي جديرة بكتاب مستقل واذا كان المؤلف الجليل قد بذل الكثير من الجهد في استخلاص الحوادث والأحداث التي مرت بالمدينة من الكتب والمراجع الكثيرة ثم قدمها للقراء بهذا الاسلوب الممتاز وبهذه الطريقة الناجحة وذلك ما يسجل له بكل تقدير. وإذا كان المؤلف الجليل قد فعل ذلك واستحق ذلك فإنه لو وجه عنايته إلى تسجيل هذه الفترة البعيدة القريبة من حيث الزمن والبعيدة من حيث الغموض الذي يكاد يلفها وانقراض أكثر من عاصرها أو اتصل بها من قريب أو بعيد.. اقول إن اهتمام المؤلف بتسجيل هذه الفترة تسجيلا تاريخيا علميا دقيقا مفصلا يجمع بين دراسة الظروف السياسية والحياة الاجتماعية

سيجعل له فضل السبق وفضل الابتكار والابداع ولعله فاعل ذلك ـ ان شاء الله ـ في كتاب يصدر قريبا يخصصه لدراسة هذه الحقبة. خاصة وأن ما ذكره في نهاية الفصل الأول من كتابه هذا من إشارات تصلح لأن تكون أساسا لدراسة مفصلة مستوعبة.

٤ ـ في الفصل العاشر الذي عقده المؤلف للحديث عن العلم والتعليم في المدينة كنت أتوقع أن اقرأ فصلا ضافيا عن التعليم في المدينة على امتداد العصور فلاشك في أنه كان للمدينة ماض عريق في خدمة العلم والتعليم وإن كان الظلام يلف كثيرا من فترات هذا الماضي. وهو بحاجة إلى الباحثين الذين يزيلون هذا الظلام لتتجلى الصورة المشرقة عن ذلك الماضي العظيم. كنت أتوقع أن اقرأ هذا الفصل الضافي ولكنني وجدت المؤلف قد افتتح الفصل الذي عقده للحديث عن العلم والتعليم في المدينة بكلمات موجزة عن التعليم في العهود الماضية لم تكتب إلّا تمهيدا للحديث عن الجامعة الإسلامية. وعند حديثه عن (المكتبات الخاصة ومكتبات المدارس) كتب حاشيته لتفسير كلمة مدرسة فقال (المدرسة على ما تعرف عليه قديما المبنى الذي يوقفه أحد الاغنياء أو أحد السلاطين من المسلمين على سكنى أناس مخصوصين وتؤسس فيه مكتبة ولها مدرس يدرس الطلبة وأوقاف لعمارتها ونفقاتها) وهذه الحاشية تصلح لأن تكون أساسا لبحث مطول مستفيض عن التعليم في العصور السابقة لعصرنا الحديث فقد أخبرني أحد العلماء الثقات أنه يوجد بالمدينة سبعون مدرسة معروفة من هذا النوع الذي أشار إليه المؤلف عن المدارس التي اندثرت وهذا العدد قدر ليس باليسير. فكم يكون جميلا لو تتبع المؤلف أخبار هذه المدارس وأخبار مؤسسيها وما قدمته من كريم الأثر وعظيم الإنتاج.

٥ ـ أغفل المؤلف الحديث عن بئر عروة إغفالا تاما ولعل حجته في ذلك أنه لم يتعرض في كتابه إلّا للآبار المأثورة وهي الآبار التي لها صلة مباشرة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم. أما بئر عروة فقد استحدثت في زمن عروة بن الزبير وهو أحد التابعين وهذا صحيح لا جدال فيه ولكن هذه البئر أصبحت

من أهم معالم المدينة وأصبحت تفوق في شهرتها كثيرا من الآبار المأثورة ولعلها البئر الوحيدة التي تركت آثارا عميقة في الأدب العربي كما يعرف ذلك الأستاذ الجليل ثم هي قريبة من زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولمائها شهرة كبيرة.. حتى لقد كان يحمل للرشيد في بغداد كما يروى المؤرخون وليس لبئر أخرى هذه الشهرة. وما دام الأمر كذلك فإن من الواجب ذكرها والحديث عنها.

٦ ـ بقيت كلمة عن المراجع والواقع أن المؤلف في كتابه قد اعتمد على مجموعة من أمهات المراجع وهي مراجع كافية ومناسبة للموضوعات التي طرقها المؤلف في كتابه ولكن يخيل لي أن وضع الكتاب سيتغير لو أن المؤلف لم يقتصر على هذه المراجع وأضاف إليها مراجع أخرى كثيرة أغلبها في متناول يد الباحثين. أقول هذا وأنا اعرف سلفا ما سيقوله المؤلف فهو لم يكتب تاريخا تفصيليا للمدينة المنورة ولكنه كتب (فصولا) من هذا التاريخ. وقد اختار هذه الفصول وليس لأحد أن يعترض على هذا الاختيار. وهذا الكلام صحيح لا غبار عليه ولكنني كنت أتحدث بلسان طائفة كانت تتطلع إلى تاريخ يوجه أكثر عنايته إلى الفترات المجهولة من تاريخ هذا البلد الطيب.

ومع هذا فإنني أستطيع أن أقرر بكل إخلاص وتجرد بعيدا عن أي مؤثرات أن كتاب (فصول من تاريخ المدينة المنورة) كتاب ناجح إلى حد كبير وأنه جهد علمي منظم ودقيق، وانه مفخرة من مفاخر بلادنا في عالم التأليف وأنه جدير بكل تقدير.

رأي.. وكتاب(*)

في العدد (٣٥) من مجلة الرائد كتبت مقالا تحليليا عن الكتاب الفضي لمجلة المنهل وقد[1] قلت وأنا أتحدث عن الشعر في ذلك العدد كلاما أرى من المناسب نقله في بداية هذا الحديث. (نشر في العدد الفضي عدد من القصائد الرائعة وقد جاء نشرها في الوقت المناسب وهي قصائد عربية تشتاقها الأذن لتجلو بها هذا الصدأ الذي ران على القلوب والأسماع من جراء هذا الغثاء الذي يصرون على أن يسموه شعرا ويمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون شعرا.

وليس من غرضى أن أحلل هذه القصائد المحلقة «من التحليق لا من الاختلاف كما نشرت في ذلك العدد وقانا الله شر الاختلاف» ولكنني أحببت أن الفت النظر إليها وخاصة قصيدة الأستاذ محمد السنوسي ولهذه القصيدة رائحة خاصة تبعث في النفس الأنس والسرور والنشوة. استمع إلى الشاعر يتقمص شخصية المنهل فيتحدث عن نفسه.

تلكمو غايتي وهذا طريقي ... أنا ماض رغم الظلام العميق
هدفي واضح وان كان دربي ... مفعما بالصعاب والتعويق
ويقيني هو اليقين وان ضا ... قت حياتي وغص حلقي بريقي
وطريقي بالليل يملأه الاحـ ... ـرار قبلي وكل حر رفيقي
فأعصفي يا رياح عصفا جنو ... نياً فلن تطفئي ضياء الشروق
لن يشل العثار عزمي ولا الا ... خفاق حزمي ولا القنوط وثوقي
أنا ماض رغم الدياجير والأنو ... اء والرعد واللظى والحريق
قدمي ثابت يوطده الإيمان ... بالله والنهى والحقوق
وفؤادي كشعلة النجم وهاج ... على السحب والدجى والبروق

(☆) نشر في العدد (٦٩) من مجلة الرائد. الاثنين ١٣٨١/١/٢٠هـ - ١٩٦١/٧/٣م.

(١) نشرته إدارة مجلة المنهل في عام ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م، وصمم ونفذ وطبع بدار الأصفهاني وشركاه بجدة وقد صدر بمناسبة مرور ٢٥ عامًا على مجلة المنهل التي صدرت عام ١٣٥٥هـ - ١٩٣٧م وقد اشتمل على: ○ تطور المملكة العربية السعودية في ٣٥ عامًا.
○ تاريخ مجلة المنهل في ٢٥ عامًا. ○ مختارات من مجلة المنهل في ٢٥ عامًا.

كلما احلولكت عليه الدياجي ... وادلهمت سرى قوي البريق

☆ ☆ ☆

يا حياة النهى لك الله من دنـ ... ـم كثيف ومن غباء صفيق
يا حياة النهى لك الله من فهـ ... يا حيوف ومن زمان عقوق
يا حياة النهى لك الله لا تأ ... سي ولا تحفلي بغير الحقيق

☆ ☆ ☆

افأرضى تزلقًا أن أرى الجهل ... وأرنو له بعين الصديق
وأداري بلادة الحس والنفس ... رياء وأحتفي بالنقيق
وأرى في مواقف الزيف والزور ... مسوقا مع القطيع المسوق
أفأرضى لقيمتي أن أراها ... سلعة للشراء في كل سوق
منبري منبر العروبة والإسلام ... والشرق والهدى والسموق
ويراعي مجند في قوى البعـ ... ـث وركب النهوض والتحليق

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الدفاع عن لغة القرآن دفاعا مجيدا قويا يستثير الإعجاب ودفاع الشاعر جاء في وقته المناسب بعد أن استحكمت العجمة وبعد أن أخذ الكتّاب يميلون إلى السهولة وينشرون أدبا مهلهلا يعتمد على استثارة الغرائز استمع إلى الشاعر حيث يقول:

لغة لم تزل هي العصب الحسا ... س والوعي نابضًا في العروق
وترى حولها العروبة صفا ... من ضفاف الخليج حتى المضيق
لغة تهضم اللغات وتجري ... طلقا في جليلها والدقيق
طَمَّ تيارها وَعَمَّ فما غا ... رت بغار ولا هوت بسحيق
هات في طرائف وأساليب ... كرام من الجديد والعتيق
وارتفع بالشعور والفكر واحفظ ... آية الذوق في البيان الطليق
وتفنن مما تشاء من اللفظ ... رقيقًا مثل النسيم الرقيق
في شفيف من التراكيب رفا ... ف وجزل من الكلام الوثيق
ودع الرث والغثاء وحاذر ... دعوات الفساد والتلفيق
إن للماء، والكؤوس زجاج، ... رونقًا غير رونق الإبريق

أنت لا تضى لجسمك إلا ... كل ثوب زاه ونسج رشيق
وتعاف الطعام إن قدم الطا ... هي طعاماً في غير صحن أنيق
أفترضي (للفكر) والفكر روح ... لغة كاللقا بكل طريق؟

وهكذا نجد أمامنا شاعرا فحلا مستكمل الأدوات وأنت تقرأ شعره فلا تجد صعوبة ولا التواء في التعبير كما لا تجد غثاثة أو ركاكة أو حشوا أو فضولا. فكل كلمة وضعت في مكانها اللائق بها وضعا محكما فلا قلق ولا نبو وبذلك يعطينا الشاعر الدليل الحي على أن الدعاوى المزعومة من أن الشعر في قوالبه التقليدية يحول بين الشاعر وحرية التعبير هي دعاوى واهية لا تقوم على أساس).

ذلك ما قلناه في ذلك المقال ويطيب لي وقد أخرج الشاعر هذه الباقة الفواحة من شعره في ديوانه الأنيق[1] وتفضل مشكورا باهدائه الي ولم يكتف بذلك بل كتب الي رسالة رقيقة كشعوره جميلة كشعره كريمة كأخلاقه غمرني فيها بكريم ثنائه. وقد جاء فيها (وأرجو أن أقرأ كلمتكم عن هذا الديوان كما أنني أرحب بكل نقد وأسر لكل ملاحظة تبدونها). وأنا أحب أن أطمئن الصديق الشاعر إلى أنني كنت أعتزم قراءة ديوانه وتقديم دراسة عنه حتى ولو لم يتفضل بإهدائه إلى فإيماننا برسالة الأديب وتقديرنا للأمانة التي يضطلع بها الناقد الأدبي وحرصنا على أن نجلو للناس القسم الجديد من انتاج كتابنا وشعرائنا ورأينا الذي ألمعنا إليه فيما سبق عن شعر الشاعر كل ذلك يدفعنا إلى أن نحتفل بديوان صديقنا الشاعر احتفالا يليق بمكانته وفضله.

ولقد تلقيت ديوان صديقنا الشاعر قبل أن القاه وأن أعرفه ثم كان من المصادفات الطيبة أن لقيته في جدة في الندوة الأدبية التي انعقدت لدراسة دواوين الشعراء الأساتذة السنوسي وعارف قياسة والجدع بإشراف الأساتذة الأنصاري ومحمد فهمي وماجد الحسيني. وكان لقاءً جميلا لا ينسى استمعت فيه إلى الشاعر وهو ينشد شعره ويدافع عن نفسه بعد اتهامات النقاد ثم عرفني إليه بعض الأخوان الأدباء فجلست إليه بعض الوقت ثم

(١) طبع بتقديم للاستاذ/ عبدالقدوس الانصاري صاحب المنهل في ١٣٨٠/٤/٢٨هـ.

قضينا معا بعض ساعات كانت من أجمل ساعات العمر ولم نفترق الا وقد انعقدت بيننا أواصر من المودة لا تنقصم على أنني أحب أن اطمئن القراء إلى أن هذا سوف لا يمنعني من إبداء رأيي بكل صراحة. فقد سبق للأستاذ أن أبدى في رسالته ترحيبه بكل نقد وسروره بكل ملاحظة ومن ناحية أخرى فنحن جميعا على رأي شوقي الذي عبر عنه بقوله (اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية)

والحق أنني أغتبط كل الاغتباط بالاستقبال الذي استقبل به ديوان القلائد في الأوساط الأدبية من الأدباء والنقاد وقد أعطي هذا الاستقبال الدليل الحي الملموس على أن الشعر العربي السليم لا يزال يهز النفوس السليمة ولا يزال يحتل مكانته في نفوس الادباء والمثقفين رغم الحملات المعادية ورغم ما أثير من صخب وضجيج بقصد تحويل الذوق العربي الذي تفسده العجمة والتقليد والانحراف إلى هذا الاتجاه المخالف الشاذ.

وأول ما يلفت النظر في ديوان الأستاذ السنوسي هو اسم الديوان وما من شك في أن هذا الاسم من الاسماء التقليدية المعنة في القدم على أن العجيب في الأمر هو كيف مرت هذه القرون الكثيرة دون أن يفطن أحد إلى هذه التسمية مع ما فيها من سحر وجاذبية!! وربما كان السبب هو أن الشعراء القدامى لم يكونوا قد حرصوا بعد على تسمية دواوينهم بأسماء خاصة كانوا يكتفون بإطلاق كلمة ديوان مضافة إلى اسم الشاعر أو لقبه ولم يشذ عن ذلك الا الشاعر الفليسوف أبو العلاء المعري ويخيل إليَّ أن الشاعر أحمد شوقي هو أول من حاول في العصر الحديث الخروج بعض الشيء عن الطريقة التي سار عليها من سبقه من الشعراء فسمَّى ديوانه الشوقيات. ووقف له الخصوم واستطاعوا باستبدال حرف مكان آخر أن يشوهوا هذه التسمية تشويها كبيرا اذ وضعوا بدل القاف كافا فبعد أن كانت التسمية تشير إلى اسم الشاعر أو على الأقل تشير إلى الشوق بما تحمله هذه الكلمة من معان شاعرية سامية وعواطف إنسانية نبيلة أصبحت تشير إلى الشوك وقانا الله والقراء الشوك بأنواعه وجعل حياتنا كلها شوقا كما قال جبران

خليل جبران (أريد أن أموت شوقا ولا أحيا مللا).

حتى خليل مطران زعيم التجديد في الشعر الحديث لم يحاول أن يتخلص من التسمية القديمة فسمي ديوانه (ديوان خليل) ربما وجد شاعر الاقطار العربية في التورية اللطيفة التي يوحى بها هذا الاسم وما يغنيه من ابتداع تسمية خاصة.

وأعود إلى (القلائد) لنعلن عدم ارتياحنا لهذه التسمية وبالتالي عدم ارتياحنا لعنوان مقدمة الديوان التي أطلق لها (قلادة القلائد) وأرجو أن لا يسأل أحدُ عن السر في عدم هذا الارتياح. فأنا في الحقيقة أجهل السر وربما كان طورا خاصا لا تفسير له وإن كنت أوثر أن يختار الشاعر لديوانه الرائع شكلا وموضوعا اسما فيه جمال وفيه رقة وفيه شاعرية ولا أريد أن يتطوع أحد فيفسر لي ما في كلمة القلادة من جمال خاصة وهي تتصل بالمرأة وزينتها. فأنا أعرف ولكنني كنت أوثر أن يختار الشاعر لديوانه اسما فيه عذوبة وفيه رقة وفيه خصوبة.

أما الابيات التي افتتح بها الشاعر ديوانه فهي أبيات راقصة مرقصة وهي خير فاتحة لهذه المائدة الدسمة التي يقدمها الشاعر للقراء:

هذه ألحان قلبي	واغاريد شبابي
هي أحلامي وآمالي	وكأسي وشرابي
وصباباتي وأشجاني	وحبي وعذابي
إنها صورة نفسي	قد تجلت في كتابي

وكلامه في هذه الأبيات يعبر اصدق تعبير عما ورد في الديوان ولا أستثني من ذلك إلا موضوع الصبابات والحب والعذاب. فقد خلا منها الديوان. وقد كنت أريد أن أقول سلم منها الديوان لولا أنني تذكرت أن الإحساس الرقيق والعاطفة الجياشة والشعور عادة تجعل من المستحيل على الشاعر أن يسلم من الحب ومن معاناته وتصوير تهاويله حتى لقد كاد الناس أن يجعلوا من الشعر والحب كلمتين مترادفتين متلازمتين.

على أن الشاعر السنوسي قد لاحظ (العيب) أو بعبارة أدق هذا النقص في ديوانه فذكر عندما كان يتحدث في الندوة التي سبقت الإشارة إليها أن بعض النقاد لاحظ خلو الديوان من الغزل وعلل الشاعر ذلك بأن ظروفه المحيطة به والتقاليد التي تحكم مجتمعه لا يستطيع الانفكاك منها هي التي فرضت عليه أن يستبعد هذا النوع من الديوان واسترعى الشاعر الانتباه إلى قصيدته المشهورة في الديوان من قصة امرئ القيس في (دارة جلجل) وكانه يريد أن يقول: إنه وإن فاته نشر بعض شعره الغزلي للإسباب التي سبقت الإشارة إليها فقد وجد في قصة امرئ القيس ستارا يستطيع أن يعبر من ورائه عن بعض ما ينفعل في نفسه من العاطفة نحو المرأة دون أن يتحرج أو يعرض نفسه للملام. والحق أن شاعرا كالسنوسي في رقته وجيشان عاطفته ولطف شعره يصعب عليه أن يغمض عينيه فلا يرى فنون الجمال وأن يربط قلبه فلا ينفعل بها وأن يحطم قلمه فلا يسجل هذه الانفعالات. والمامول أن يتمكن الشاعر من نشر الكثير من شعره العاطفي في ديوانه القادم.

ويجد الناقد في ديوان الشاعر بعض التعابير التي تدل دلالة قوية على أن شاعرنا السنوسي قد اصطلى بنار الحب حتى انضجته وجعلته يتحدث بأسلوب فيه كثير من الصفاء والعبقرية اقرأ معي هذه الأبيان من قصيدته (ساعة في الريف):

ساعة في الريف في ظل الربى ... بلسم الهم وترياق العليل
وانطلاق شاعري خالص ... للنهى والفكر من قال وقيل
حيث نور الشمس في آصالها ... كسنا القبلة في الخد الأسيل

(ودعك من قال وقيل) هذه وتأمل معي جيدا الشطر الاخير من البيت الثالث تأمل هذا التشبيه الرائع (كسنى القبلة في الخد الاسيل).. فهل يرى سنى القبلة في خَدٍّ الأسيل الا شاعر له في سماء الحب تحليقات وانطلاقات واقرأ هذا البيت الرائع من قصيدته (اللحن السجين).

يا جناحا ضمه (قفص) ... ضمة المشتاق في حذره

وتأمل معي هذا التشبيه الجميل حقا (ضمة المشتاق في حذره) وتصور

الصورة الرائعة لهذا المشتاق لحبيبه الحذر من انفلاته وتصور هذه الضمة الرائعة التي اجتمع فيها الشوق والحب واللهفة والخوف.. فهل يصور هذا التصوير الذي بلغ درجة الإبداع إلا شاعر له في عالم الجمال صبوات وبسمات؟ وقد أحسن الشاعر في تقديم ترجمة لحياته. فقد القت هذه الترجمة أضواء طيبة على حياة الشاعر بالرغم من ايجازها وهذه الأضواء ضرورية للناقد ليستطيع على ضوئها أن ينفذ إلى خصائص شعر الشاعر وإلى أن يتعرف على المؤثرات التي أثرت على إنتاجه ومدى خضوعه لهذه المؤثرات وكان المأمول أن يعرض الأستاذ الكبير كاتب المقدمة أو (قلادة القلائد) إلى الحديث عن حياة الشاعر وأن يربط بين حياته وشعره وخاصة وأن العلاقة بينهما علاقة قوية وقديمة ولكنه لم يفعل ـ وليته فعل ـ اذًا لقدم لنا خدمات أدبية ذات قيمة ودراسة أدبية مستوفاة. وقد قصر كاتب المقدمة حديثه على الدفاع عن الشعر وقوالبه القديمة وعن العامود الشعري وهذا عمل مشكور ما في ذلك شك وخاصة في هذه الأيام التي حاول فيها الباطل بأساليبه الكثيرة أن يغلب على الحق ولكننا مع هذا كنا نؤثر أن لا يغفل الأستاذ الكبير كاتب المقدمة هذه الناحية الهامة في الدراسة.

وحياة[1] الشاعر درس بليغ للمتأدبين من شبابنا الذين يؤثرون الدعة والراحة على الدرس والسهر في معرفة قواعد اللغة وفي التزود من الثقافة بزاد قوي يقيهم شر العثرات ومزالق الطريق.. فلم يكتف الشاعر بالموهبة الشعرية بل أخذ يصقلها بالمران المتصل والقراءة المجدية وقد تجلى أثر ذلك في هذا الشعر الرصين المتماسك الذي يدل على تعمق قائلة، وعلى ثقافته الواسعة، ويبدو أن شاعرنا قد أولى التاريخ عناية خاصة، فهو كثير التحدث عن أبطال التاريخ كثير الالتفات إلى حوادث التاريخ في القديم والحديث.

يقول الشاعر في قصيدته بعنوان (وعد ملكي كريم):

تهز بك الأم الرؤوم وليدها (وباسمك) تسليه غناء وتضجع
وأنت (علىٌّ) في القلوب وكلنا بحبك في دنيا الهوى متشيع

---

(١) بقية الموضوع. نشر بمجلة الرائد العدد (٧٠) الاثنين ١٣٨١/١/٢٧هـ ـ ١٩٦١/٧/١٠م. صفحة (٥، ١٢).

ويقول في قصيدته بعنوان (أم القرى):

نور على البطحاء لماح الذرى ... يهدي القرون ضياءه والاعصرا
آنست فيه سنا من القبس الذي ... (موسى) تشوفه هدى وتنورا

ويقول:

هزمت اشعتها الظلام وزلزلت ... (كسرى) وراء الخافقين (وقيصرا)

ويقول:

فاليوم ينعقد (النَّدى) ويرتقي ... (فاروقك) الثاني (سعود) المنبرا

ويقول:

يا أيها النقباء قد جمعتكمو ... للحق أفئدة تشع تحررا..
أني لأشهد جمعكم فاخالني ... القى (الحُباب) بدأ واعتنق البرا

ويقول في قصيدته بعنوان (قطوف وأصداء):

عربي تكاد أن تلمس القعقاع ... فيه وخالد بن الوليد

ويقول في قصيدته بعنوان العالم العربي:

هي بيعة التوحيد ضد قوى العدى ... عادت كما بدأت من البطحاء
بل بيعة (الرضوان) إلا أنه ... (عثمان) فيها مسجد الإسراء

ويقول في قصيدته بعنوان (فارس الأحلام):

أين (هانيبال) من أقدامه ... أين (نابليون) والحشد الحشيد

والحديث عن ثقافة شاعرنا التاريخية يقودنا إلى ناحية هامة نعتقد أن شاعرنا تفوق فيها تفوقا باهرا تلك هي شعره القصصي فقد حفل ديوانه باربع قصائد نقل فيها من دنيا النثر إلى عالم الشعر قصصا جميلة رائعة والتعبير عن القصص بالشعر ليس عجيبا ولكن العجيب هو هذا التفوق الذي صاحب الشاعر فدل على ألمعية ونبوغ وعلى أن الشاعر يحمل في نفسه بذورا صالحة لمعالجة نوع من الشعر عز على كثير من الشعراء فلم يقدم على معالجته في تاريخ الشعر العربي كله الا نفر قليل من الشعراء. وأول قصة شعرية في ديوانه هي قصة (فارس الاحلام) يبدأها الشاعر بداية قوية

فيها فن وفيها أصالة وفيها جمال.

الدجى يزحف والنجم يرود وهلال الأفق في الأفق وليد
والجبال الشم تستاف السنا والسنا الباهت يطويه الصعيد
والنسيم الطلق لا يهفو به نَفَسٌ يجري ولا غصن يميد
والنخيل الشعث قد مالت بها سكرة الليل وغشاها الهمود
وعذاري البيد يلبسن الأسى من وشاح العيد والعيد جديد
وربي الوادي على أغصانها حبب فاف وازهار رقود
وكأن الكون قد لف الورى صمته الداجي وسجّاه الجمود

وعلى هذا النسق الفريد يستمر الشاعر في تصوير قصة البطل الذي يتحدث عنه وعلى الرغم من أن أبيات القصيدة لم تتجاوز خمسة وأربعين بيتًا وهو قدر يسير بالنسبة للحديث عن قصة بطل فإن الشاعر قد استطاع أن يعطي القارئ صورة واضحة عن البطل في إطار من الجمال الشعري الأخاذ. ونفس القوة التي بدأ بها الشاعر قصيدته انتهى بها فلا تشعر وأنت تقرأها بضعف أو تهافت بل تعيش في عالم محلق من البطولة والمجد.

أما القصة الشعرية الثانية فهي قصة أمرئ القيس مع حبيبته (عنيزة) وصاحباتها وهي المعروفة في الأدب العربي (بدارة جلجل) قصة شعرية فيها جمال التصوير وروعة الفن وقد اختار لها الشاعر قافية رقيقة واسلوبًا فيه نعومة واضحة يتفق مع الموضوع الذي تتحدث عنه القصة أما قصته الثالثة (أنشودة الصقر) هي التي وضع فكرتها الكاتب العالمي الروسي (مكسيم جوركي)[1] فقد وفق الشاعر في إلباسها أردية من الفن الرفيع وفيه تعطيرها بعطور من الذوق السامي والذكاء والألمعية إنها نوع من الشعر الفريد ولا بد أن القراء ينتظرون مني أن أنقل إليهم بعض مقاطع من هذه القصيدة الفنية ولكن لن أفعل فإن نقل بعض أبيات القصيدة دون بعض فيه كثير من الظلم والإجحاف والعقوق للأدب السامي والشعر الرفيع ولعل الذين يعنون بتأليف كتب النصوص بالمدارس المتوسطة والثانوية يختارون هذه القصيدة فيما يختارون.

---

(١) كاتب روائي ومسرحي مرجع المورد الكبير.

أما القصة الأخيرة فقد عنون لها الشاعر (القهر) وهي تحكي قصة سكان هذا الجبل الأشم وأبيات القصيدة وبإلفاظها الرصينة وعباراتها المحكمة وتقفيتها القوية وصعوبة الجبل ووعورة سكانه صعوبة أخلافهم واستمع إلى هذا المطلع الرائع..

أدر اللحن رائعاً جباراً كصدى (الرعد) يملأ الأقطارا

والكتاب يقرأ من عنوانه:

من خصائص شاعرنا الذي نتحدث عن غرامه بالطبيعة والشاعر الحق هو الذي تقوم بينه وبين الطبيعة صلة روحية لا تنفصل. والطبيعة صنع الله البارئ الخالق المصور تقدست أسماؤه ففيها كل ما تشتاقه العين من متع لا ينضب معينها بل وفيها كل ما تشتاقه الأذن من موسقى علوية تحلق بالإنسان إلى عوالم من الطهر والخير والجمال. فالشاعر الذي صفت روحه يجد في الطبيعة صديقًا لا يقدم له إلا الخير صديقًا مبرأ من الشوائب التي لا تخلو منها صداقة بين إنسان وإنسان ثم يجد فيها كذلك مسارح لإلهامه.

والأستاذ السنوسي مغرم بالطبيعة إلى درجة الوله والهيام ويحفل ديوانه بعدد من القصائد عن الطبيعة تصور لنا هذا الهيام وليست المسألة هي إجادة الوصف كما يعبر بعض الأدباء بل إن المسألة أعمق من ذلك بكثير وإلا فكيف كثر حديث الشاعر عن الطبيعة لا في القصائد المستقلة التي أنشأها في الحديث عن لون أو أكثر من ألوان الطبيعة بل حتى في قصائده الأخرى.

وللشاعر أربع قصائد عن الطبيعة هي قصائد (غروب الشمس) و(موكب السحاب) و(ساعة في الريف) و(وليلة الرابية).

واستمع معي إلى هذه الأبيات من قصيدته (غروب الشمس).

نظرت إلى البحر في ساعة وقد جلل الشمس فيه الشفق

وقد جمع الضوء أطرافه وألف أشتاته واتسق

ومالت تودع من يومها نهاراً يودع فيها الرمق

تدلت على الأفق في نشوة ... مضرجة الخد والمعتنق
طواها والحفها صدره ... عظيم من أليم يدعى الغسق
فيالك من منظر ساحر ... نعمت به لحظة وانطلق

واستمع إلى هذه الأبيات من قصيدته (موكب السحاب):

شاقة موكب السحاب وقد سار ... على الأفق ناشراً أعلامه
وزفيف الرياح يخترق الجو ... صفيراً والبرق يجلو حسامه
وازدهته الرعود تختلب النفـ ... ـس جلالاً وتطبيها فخامه
مشمخر الذرى رقيق الحواشي ... سابغ الذيل مسبلًا أكمامه
عيلم تسبح الكواكب فيه ... وتشق الدجى به عوامه
ضربته الرياح فاستقبل الأر ... ض حثيثًا يبثها آلامه
ثائر والسكون يضفي على الكو ... ن جلالا والليل يرعى ينامه
جلل الأرض والسماء وأعيا ... صائل الرعد أن يدرك ركامه

أما قصيدته (ساعة في الريف) فبدي أن أنقلها كاملة إلى القراء، وحيث إن ذلك متعذر فأكتفي بأن أنقل بعض مقاطعها يقول الشاعر في بساطة تتفق مع بساطة الطبيعة.

يا ربى الوادي ويا كثبانه ... رددي صوتي وغني بهديلي
وامنحيني ساعة هادئة ... من حياة الروح والصمت الجليل
واغسلي قلبي بفيض غامر ... هامر من كل ينبوع ونيل
إن في صمتك معنى رائعاً ... من تهاويمي وبحران ذهولي
أي سحر فيك جذاب الرؤى ... عبقري الفن روحي الأصول
شاع في أسرار قلبي وجرى ... يغمر النفس بفيض سلسبيل
يا ربى الوادي وياكثبانه ... غابت الشمس وقد آن قفولي
أنا أودعتك سرّي واثقًا ... أنني أودعت خلي وزميلي
لا تقولي شاعر لم يحتمل ... وحشة الليل وظلماء الأفول
فر من دنياي لما اظلمت ... ناسيًا نهري وزهري وأصيلي
أنا أحيا فيك طيفًا وشذى ... وندى في ظل واديك الظليل

أما قصيدته (ليلة الرابية) فقد ابتدأها بهذه الأبيات:

على الطبيعة بين الرمل والماء أمضيت أحلى سويعاتي وآنائي
أرنو إلى (زرقة) في الأفق صافية وخضرة في أديم الأرض زهواءِ
على كثيب لأذيال الرياح به طرائق من تجاعيد واطواء
وضعت جنبي على جبينه فاتصلت روحي بروح من العلياء علياء
انضو عن القلب أكدارًا وأغسله في موجة من خضيل الروض خضراءِ
أكاد من فرط إحساسي بروعته اغوص في لجنة منه واشطاء

هذه هي القصائد الأربع وفيها الدليل كل الدليل على مدى تعلق الشاعر بالطبيعة وتعشقه لمفاتنها وامتلاء قلبه بحبها وأنت لو عاودت قراءة الديوان فقل أن تجد قصيدة لم يتعرض فيها لوصف الطبيعة والثناء على مباهجها وتفتح صفحة من الديوان كيفما أتفق فتجد قصيدة بعنوان «أم القرى» وهو يتحدث عنها وعن قدسيتها وعن ذكريات الإسلام فيها ولكننا مع ذلك نجد هذه الأبيات:

فالليث يجمع نفسه متحفزًا للوثب حين تراه يمشي القهقرا
والنسر ينفض من جناحيه الندى قبل الصعود إلى السماء مبكرًا
ودخان أذيال السحاب طليعة لسنا البروق تلظيًا وتسعرًا

ثم نفتح صفحة أخرى فنجد للشاعر قصيدة بعنوان «دارة جلجل» ونجد فيها هذه الأبيات:

اسفر الصبح من وراء الروابي وامتطى صهوة الصفون الكريمه
شاقه منظر الطبيعة والنو ر على صدرها يخط رسومه
فرمى طرفه الجموح على الأفق وندّى أنفاسه المحمومةْ
فإذا صفحة من الماء تبدو في تجاعيدها خطوط رقيمة

ونفتح صفحة أخرى بعنوان «مواكب الفن» فنقرأ هذه الأبيات:

ألهمي أصخريه من أشجانه نغمًا أبدًا على فرسانه
وأفيضي على معانيه نورًا كشعاع الأصيل في ألوانه

واسكبي في فؤاده نشوة الفـ ـن وصهباءه وسحر بيانه
وأمدي يراعه برحيق كالندى في صفائه وحنائه
واديري يا ربة الشعر راحاً شعشعت بالزلال من الحانه
واملئي جامه فقد جف حتى كاد ينسى الهوى رضيع لبانه
واعيدي لنا خيالا من الماضي كزهر الربيع في أغصانه
اشرقت في رحابه روضة الشعـ ـر وغنى الهزار في بستانه

وهكذا لو أراد أحد أن يتتبع تأثير الطبيعة في شعر الشاعر لوجد هذا التأثير واضحًا حتى إنه لا يكاد يعثر على قصيدة لم يتعرض فيها للطبيعة بقليل أو كثير.

وشاعرنا مؤمن بعروبته إيمانًا عميقًا لا يكاد يقف عند حد والناقد يلمس في شعر الشاعر هذا الإيمان بصورة باهرة ويحتوي ديوانه على مجموعة من القصائد الوطنية والقومية فيها حنين إلى استعادة الماضي وفيها لهفة إلى أن يرى المستقبل المرموق الذي يرجوه لأمته وفيها دعوة مخلصة إلى جمع القلوب وضم الصفوف وتناسى الأحقاد، وفيها إعجاب بمواقف العرب القدامى وبتاريخهم وفيها ثورة عن الأعداء وعلى دعاة التفرقة وفيها تمجيد للغة العرب. ودفاع عن بلاغتهم وفيها سخرية بدعاة السلام ذوي الأيدي الملونة بدماء الشعوب الضعيفة والمظلومة ويطول الحديث لو أردنا الاستشهاد وعلى القارئ مراقبة الديوان حيث ستطالع في أكثر صفحاته ثورة الشاعر العارمة في سبيل مجد أمته ورفعتها، ويبدو لي أن الشاعر من الداعين إلى أدب القوة وتلمس ذلك من شعره الوطني والقومي كما تلمسه من قصيدته في رثاء أحمد أمين العالم والأديب المصري ولا نعتقد أن إعجاب الشاعر بعبقريته وحدها هو السبب في اهتمامه برثائه وإن كان الشاعر لم يشر إلى ذلك في قصيدته التي تعبر عن تقدير صادق وإعجاب عميق.

لقد أطلنا رحلتنا وكان بودنا أن لا ننتهي منها إلا بعقد موازنة بين قصيدتين نشرتا في الديوان إحداهما للشاعر بعنوان (في موكب الفن) والثانية للشاعر الكبير محمود عارف بعنوان (صوفية شاعر) وإلا بعقد

موازنة أخرى بين قصيدتين أخريين الأولى للشاعر السوري على دمر بعنوان (أغنية) والثانية هي للأستاذ السنوسي بعنوان (ليلة الهجرة) وإلا بعقد موازنة ثالثة بين قصيدة للشاعر وقصيدة شبيهها للشاعر أحمد شوقي ولكننا رأينا أن ذلك سيضاعف من صفحات هذا المقال فآثرنا تأجيل ذلك إلى فرصة أخرى نأمل سموحها قريبًا.

قبل أن نختم هذا الحديث نود أن نشير إلى بعض الملاحظات العابرة.

أرَّخ الشاعر لبعض قصائده وأغفل تاريخ بعضها الآخر ولو لم يغفل التاريخ في كل قصائده لاستطاع الناقد أن يرى تدرج الشاعر في حياته الشعرية وأن يعرف المدى الذي قطعه وأن يوازن بين قصائده في ضوء التسلسل التاريخي.

أقدم تاريخ للقصائد المؤرخة هو عام ١٣٧٤هـ يفهم من هذا أن الديوان يحوي إنتاج الشاعر في الخمس سنوات الأخيرة ذلك ما يظهر من قصائده حتى من بعض القصائد التي لم يؤرخ لها مثل (بطولة الجزائر) و(اليقظة العربية) و(جنكيزخان) و(قطوف وأصداء) و(العالم العربي) و(شذاة الرياض) و(أحمد أمين) وغيرها وهل نستطيع أن نستنتج من هذا أن الشاعر لم يقدم للقراء شيئًا من إنتاجه الباقي مع أن نتاجه الشعري منذ عام ١٣٥٩هـ أي قبل عشرين عامًا هذا ما ترجمه. فإن القصائد التي لم تستطع أن تجد لها تاريخًا تدل طريقة الشاعر في صياغتها وأسلوبها على أنه لم ينظمها إلا بعد أن استحمد وهي تنبه باقي قصائده في القوة والأصالة.

٣ ـ وفق الشاعر في اختيار قوافي قصائده ولم يخنه التوفيق إلا في قصيدة أو قصيدتين.

٤ ـ يلتزم الشاعر في أكثر قصائده الوحدة العضوية للقصيدة. مما يدل على وعي ومقدرة.

٥ ـ يتجه الشاعر في شعره الحماسي نحو العروبة أكثر من اتجاهه نحو الإسلام والعروبة عمود الإسلام ما في ذلك شك ولكن الرابطة الحقيقية التي يجب أن نرتبط بها في عالمنا الذي يموج بالشر والظلم والفساد هي رابطة

الإسلام إنها الرابطة القوية المتينة الكبيرة التي يجب ألا نغفل عنها أو نتهاون في شأنها.

٦ ـ الأخطاء المطبعية في ديوان القلائد كثيرة جداً[1] وليس للشاعر ذنب فيها ولكن حبذا لو عمل بيانًا لتصحيحها فإن الأخطاء المطبعية في الشعر تشوه جماله وأخيراً فلنقف قليلًا لنصافح الأديب الإنسان الذي يؤمن بالإنسانية الأديب الذي يقف مع أمته في معركتها ضد الجهل والاستعمار والاستقلال ويصيح قائلًا بصوت هادر كالرعد.

أملقت من أدبي إذا هو لم يكن ... شعلًا تنير صدى الطريق لمن سرى
وبرئت من قلمي إذا هو لم يكن ... فننا بأحلام العروبة مثمرا
غرس نضجت عليه فيضًا من دم ... حز يؤججه الشعور تأثرا

(١) طبع مرة اخرى ضمن الاعمال الكاملة للشاعر بتاريخ ١٤٠٣هـ الموافق ١٩٨٣م من منشورات نادي جازان الادبي وتضم الاعمال الكاملة: القلائد، الاغادير، الازاهير والينابيع، نفحات الجنوب.

الكاتب والأفكار(*)

١ ـ قال صديقي مؤلف هذا الكتاب: يبدو أن كتاب (الكاتب والافكار) لم يعجبك. قلت له : وكيف عرفت ذلك؟ قال: لأنك كتبت عن كتابي الأخير (لكي يكون لحياتنا معنى) ولم تكتب عن هذا الكتاب. قلت له : أبدًا ليس تصورك في محله. قال: فلماذا اخترت (كي يكون لحياتنا معنى)؟ قلت: الواقع أنني لا أدري سبب هذا الاختيار ربما كان السبب طرافة العنوان وربما كان السبب ـ كما أتوقع ـ أن تكون الموضوعات التي عولجت في (الكاتب والافكار موضوعات فنية) تتطلب جهدًا أكبر ودراسة أعمق. قال: إذن فانت تعتزم الكتابة عنه؟ قلت: بكل تاكيد. قال متى؟ قلت: أرجو أن يكون ذلك قريبًا. قال: ألا تستطيع تحديد موعد لذلك؟ قلت: لا. فأنا غير متفرغ للكتابة والنقد ولا أستطيع أن أمنحهما من وقتي إلا قدرًا يسيرًا. والنقد يتطلب كثيراً من الجهد والوقت.

كان ذلك منذ شهور طويلة وهانذا أعود اليوم إلى (الكاتب والأفكار) فماذا في هذا الكتاب؟

٢ ـ لقد لفت نظري أولًا أن الكتاب قد صدر قبل الكتاب الآخر (لكي يكون لحياتنا معنى) ويبدو أن هذا ما حدا بصديقي إلى تساؤله الذي أوردته في بداية هذا المقال. فقد كان يتوقع أن يكون الحديث عن الابن الأكبر قبل أخيه الأصغر ولكن صديقي نسى أنه أهداني الكتابين في وقت واحد فلم ألحظ الفرق بين عمريهما في مواجهة الحياة وكنت أتوقع أن أجد في (الكاتب والأفكار) موضوعات تعالج شؤونًا أدبية وفكرية على مستوى رفيع. ولذلك كنت أتهيب الإقدام على قراءته تمهيداً لنقده. ولذلك فقد وضعته إلى جانب كتاب (الكاتب وعالمه) للكاتب الإنجليزي (تشارلس مورجان) وهو كتاب لم أقرأه من قبل.

(☆) نشر في جريدة المدينة للنورة يوم الثلاثاء ٢١ من شهر صفر عام (١٣٩٠هـ) العدد (١٨٤٨).

ووجدت الفرصة سانحة لقراءة الكتابين معًا. فهذه طريقتي في دراساتي النقدية وهي طريقة تفتح أمامي آفاقًا واسعة للدرس والتقديم. وتتيح لي مجالًا رحبًا للمقارنة والاستنتاج وقد خيل إلى أن الكتابين يبحثان قضايا أدبية تتطلب البحث الجاد والتفكير العميق. فهل صح ما توقعته؟ ولن أُحدِّث القراء عن كتاب (تشارلس مورجان) الضخم فهو كتاب أو فصول مقتطفة من كتب أربعة للمؤلف بلغت ستة عشر موضوعًا بكل جدية وعمق عن طائفة كبيرة من قضايا الأدب والفن، وكما قلت فلن أحدِّث القراء عن هذا الكتاب فذلك أمر يطول الحديث عنه وإن كنت أرجو أن أفعل ذلك قريبًا.

٣ ـ أما (الكاتب والأفكار) لصديقي الأستاذ (عبدالله أبو العينين) فهو كتاب صغير احتوى على ستة وعشرين موضوعًا. وميزة هذا الكتاب أنه كتاب سهل لا غموض فيه ولا إبهام. ولا يتطلب من قارئه جهدًا في القراءة أو الفهم بعكس كتاب (مورجان) (فالكاتب والأفكار) صورة من نفس مؤلفه وهي نفس فيها ما شئت من صفاء وبساطة ووضوح فلا تجد في كتابه عبارة تتطلب التفكير أو فكرة تحتاج إلى التمعن أو لفظة تستدعي الرجوع إلى معاجم اللغة.

وأنا أستأذن صديقي المؤلف في نقل هذه الفقرات من صفحة (١٢٢) وهي من أواخر صفحات كتابه يقول فيها (قلبه أبيض، أبيض كالحليب لا يحمل حقدًا ولا بغضًا لأحد، بعض معارفه وأصدقائه يحبونه لذلك. والبعض الآخر لا يحبونه ولا يكرهونه ولكنهم مع ذلك يظنون أنه مغفل.. وشيء عجيب فيه أنه لا يرضى بياض القلب بديلًا. من يدري لعله وجد راحة نفسه في ذلك وبعد هذا تسألني هل من المعقول أن ليس هناك من يكرهه فأجيبك بأنه هو على الأقل يعتقد هذا وأنا أقبل أن أتركه وهو يعيش في هذا الحلم الجميل).

لا أدري من الذي يعنيه المؤلف بكلامه هذا؟! فهذه الفقرات ليست فصلًا مستقلًا في الكتاب وليست جزءًا من فصل يتحدث فيه مؤلفه عن شخصية

من الشخصيات. وإنما هي (قسم) مستقل لا يرتبط بما قبله ولا بما بعده في فصل عنوانه (ألوان).

ويبدو أن المؤلف قد تجمعت لديه طائفة من الأفكار لم تكبر بحيث تكون كل فكرة فصلًا مستقلًا ولم يتسع أن يتركها عرضة للضياع والإهمال.

فجمعها تحت هذا العنوان الواسع الفضفاض (الوان). قلت إنني لا أدري من الذي يعنيه المؤلف بكلامه الذي نقلته قبل قليل ولكنني مع ذلك أستطيع أن أقول - وأنا أعرف المؤلف معرفة جيدة - أن هذا الكلام ينطبق تمام الانطباق على صديقي المؤلف.

وطبيعة سهلة بيضاء كطبيعة صديقي المؤلف لا تساعد على الصبر الطويل والجهد المتواصل والدأب المستمر ومن أجل ذلك كانت فصول الكتاب كثيرة وقصيرة وفي الوقت الذي تستطيع أن تقرأ فيه كل موضوعات (الكاتب والأفكار) وتستوعب ما تقرأ لا تستطيع أن تقرأ فصلًا من فصول (مورجان) وتستوعب ما قرأت. على أن الفضل الذي يجب أن يسجل لصديقي هو أنك لا تجد في كتابه تكلفًا أو افتعالًا كطبيعته ولست أعني - بطبيعة الحال - أن في كتاب (تشارلس مورجان) شيئًا من ذلك ولكنني عنيت مؤلفين آخرين يلجؤون إلى التحديد والتخطيط لعيوب فنية أو أسباب غير مقبولة.

٤ - (الكاتب والأفكار) عنوان الموضوع الخامس من موضوعات الكتاب فهو ليس اسمًا يعبر عن موضوعات الكتاب كما جرت عادة المؤلفين. وطريقة صديقي في هذه التسمية ليست متبعة في اللغة العربية إلا بالنسبة للقصص. فقد أخذ مؤلفو القصص القصيرة يطلقون اسم إحدى قصصهم على مجموعاتهم القصصية وكانوا في البداية يضيفون إلى اسم القصة عبارة (وقصص أخرى) ثم عدلوا عن هذه الطريقة وأصبحوا يكتفون باسم القصة المختارة وتابعهم على ذلك بعض الشعراء في تسمية دواوينهم.

وعلى أية حال فإن الذي أريد قوله هو أن كتاب صديقي ليس كتابًا أدبيًّا أو نقديًّا بالمعنى الاصطلاحي الدقيق ولكنه كتاب (تعليمي) يهدف في الدرجة

الأولى إلى تهذيب الناشئة وصقل ملكاتهم وتمهيد الطريق أمامهم.

وصديقي المؤلف (معلم) ممتاز قضى فترة طويلة من حياته في مقعد (الأستاذ) يعلم ويدرس ويرشد ويوجه وقد امتاز على غيره من المعلمين بإيمانه العميق برسالة المدرس.. إيمانًا ملك عليه أقطار نفسه فحتى بعد أن ترك مقعد (الأستاذ) إلى أعمال إدارية كبيرة ظل أمينًا على رسالته كمعلم كما رأينا في كتابيه (لكي يكون لحياتنا معنى) و(الكاتب والأفكار). وفي كتابه المترجم عن الإنجليزية (سبيلك إلى النجاح) فهو مشغول بأبناء الأمة من الناشئة والشباب يرسم لهم الطريق الأمثل للحياة والأفضل ويستحثهم في إخلاص نادر رحب عميق إلى العمل المثمر والبناء النافع.

٥ ـ ينقسم كتاب (الكاتب والأفكار) إلى قسمين: فالقسم الأول حديث عن القراءة والكتابة. أما القسم الثاني فيحتوي على موضوعات اجتماعية متنوعة.

والشيء الذي تلمحه العين بوضوح وهي تقرأ كتابي المؤلف (الكاتب والأفكار) و(لكي يكون لحياتنا معنى) هو التفاؤل. فصديقنا المؤلف متفائل تفاؤلًا مثيرًا فلا تجد في كتابه لمحة من يأس ولا تشع في عباراته بذرة من استسلام. وهذا التفاؤل شيء طبيعي من أديب معلم (قلبه أبيض كالحليب ـ لا يرضى ببياض القلب بديلًا) كما تلمح العين بوضوح كذلك في كتابيه إيمان المؤلف بقيمة الثقافة وهو إيمان فيه حرارة وفيه عمق. ومن الواضح بعد ذلك أن يلمح القارئ مدى حب المؤلف لأمته وشباب بلاده.

٦ ـ شيئان في الكتاب لم يعجباني كثيرًا: أحدهما: هذا الاهتمام البالغ بكاتب ذي اتجاهات شاذة منحرفة هو سلامة موسى. ولأكون منصفًا فإنني أقرر بأن ما نقله المؤلف من كتاباته ليس فيه ما ينطبق عليه. ولكن هذا الاهتمام الذي يوليه المؤلف لهذا الكاتب القبطي قد يغري الناشئين والشباب بقراءة مؤلفاته فيقعون ـ من غير قصد ـ في شراكه وحبائله وهو كاتب غير نظيف) وإن كان لديه القدرة على اصطياد الشبان والمراهقين بوسائله المنافقة الخبيثة.

ثانيهما: عناية المؤلف بتاريخ أوروبا وأمريكا عناية شغلته عن أمته العربية

وتاريخه الإسلامي فأمثلته أكثرها مستقاة من الحضارة الغربية وشخصياته وأبطاله الذين يضرب بهم الأمثال شخصيات أوروبية وأمريكية إلا فيما ندر وأنا لا أريد أن يضرب المؤلف صفحًا عن حضارة العالم الغربي ولكنني أود ألا تطغى الأمثلة الغربية عن الأمثلة الإسلامية؛ لأن ذلك الطغيان سيترك في نفوس شبابنا آثارًا سيئة بعيدة المدى.

فهم ليسوا بحاجة إلى من يغرس فيهم الإعجاب بما لدى أوروبا وأمريكا. إذا استطاعت الاتجاهات الشريرة أن تملأ قلوبهم إعجابًا بكل ما في الغرب من خير وشر. وواجب المربين ورجال الفكر في بلادنا أن يخففوا كثيراً مضار هذا الإعجاب عن طريق غرس الثقة في نفوسهم بأمتهم وتوجيههم إلى عظمة الأمة الإسلامية التي ينتمون إليها.

والتراث الإسلامي حافل بألوان من العظمة والبطولة والامتياز.

وأنا لا أطالب بتجاهل الحضارة الغربية ولكنني أدعو أن نضع إلى جوار ما تفاخر به نماذج من حضارتنا الإسلامية العريقة ليجد أبناؤنا في ذلك مجالاً للمقارنة يحميهم من الفناء والضياع والهروب وإنني لأذكر بهذه المناسبة جهود (بطل) من أبناء أمتنا الإسلامية العظيمة في العصر الحديث هو (شيخ العروبة) أحمد زكي باشا فقد وهب نفسه للدفاع عن الإسلام وحضارته فما أن ينشر خبر عن عمل ممتاز وقع في أوروبا إلا بادر إلى ضرب أمثلة مشابهة من التراث الإسلامي العظيم وعقد مقارنة يخرج منها بتفضيل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية.. وظل طوال حياته يؤدي هذا الواجب الذي فرضه على نفسه بكل جراءة وحيوية وإخلاص.

٧ ـ ومع هاتين الملاحظتين فإنني أقرر أن كتاب (الكاتب والأفكار) مثل كتاب (لكي يكون لحياتنا معنى) من الكتب الرائدة التي يجب أن يقرأها الناشئون والشباب ففيها أفكار سليمة وتوجيهات مخلصة وثقافة واسعة وأفكار حية. فقد صدرت جميعها عن نفس كريمة وطبيعة بيضاء وجهود عظيمة مشكورة تستحق التقدير والإعجاب. وحبذا لو وجد هذان الكتابان طريقهما إلى غرف الدرس وقاعات المطالعة.

مع المستشرق الإنجليزي بودلي في كتابه
«الرسول - حياة محمد»

لم تؤثر دعوة من الدعوات في هذا العالم ما أثرته دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فمنذ برزت دعوته إلى الوجود والناس في شغل شاغل بها، يستوي في ذلك الأقربون والأبعدون،،نعني بالأقربين عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومجتمعه وقومه في الحجاز وفي جزيرة العرب، كما نعني بها كل معاصريه في جميع أجزاء المسكونة.

لقد أدهشت دعوته العظيمة صلى الله عليه وسلم الأقربين فوقفوا منها مواقف ممعنة في الغرابة والعداوة والتحدي. كما أذهلت الأبعدين، فهم معنيون بدراستها والبحث عن خفاياها والتنقيب عن أسرارها.

ولقد وقف منها أعداؤها من أول يوم ظهرت فيه إلى الوجود حتى اليوم، موقفا مناوئا، حاقدا، خبيثا، وسلطوا عليها كل ما بلغه العقل البشري من إجرام وشرور، وخسة، وتعاونت كل قوى البغي والضلال تعاونا وثيقا من أجل تحطيمها والقضاء عليها، ولم يتركوا وسيلة توصلهم إلى هدفهم إلا ركبوها. وكلما لاحت لهم بادرة من بوادر الظفر فوجئوا بما لم يكن في حسابهم، فإذا بالدعوة التي أثخنتها الجراح، والتي تراءت لهم أنها على وشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، تتمرد كالمارد وتنهض كالعملاق وتقف هازئة متحدية.

ولو أرار باحث أن يستقصي هؤلاء الأعداء، وأن يتعرف على ضروب الأسلحة الفتاكة المدمرة التي استعملوها ضد دعوة محمد صلى الله عليه وسلم لأعياه البحث. بل لو جند فريق كبير من الباحثين نفسه لهذا الغرض لما استطاع أن يوفيها حقها من الدراسة والاستقصاء.

ولقد مر على العالم الإسلامي وقت سيطر فيه الأوربيون المتعصبون سيطرة كاملة على كل مقدراته ووضعوا كل ما وصل إليه العقل البشري من أسباب

التجزئة والتمزيق والتفريق والإذابة في خدمة أغراضهم. وظنوا أن الساعة التي طالما ترقبوها قد دنت، وأنه لم يمضِ طويل وقت حتى تصبح الديانة الإسلامية إحدى الديانات البائدة التي لا تعرف إلا في كتب التاريخ والآثار، واخذوا يعدون العدة للاحتفال بيوم النصر على المسلمين الأعداء ورفع راية الصليب.

ولكن السر الكامن العجيب في الإسلام ـ والذي لم يستطع أحد أن يتعرف عليه ـ كان يفعل فعله، وإذا بالرماد يتطاير ليكشف عن جذوة خالدة، حجبها الرماد ولكنه لم يقضِ عليها. وإذا بالشرر يتطاير من هذه الجذوة وينتشر هنا وهناك، فيشعل نارا لا سبيل إلى إطفائها. وإذا بهذا العالم الإسلامي يتثاءب ثم يتمطى ثم ينهض، وإذا باولئك المتعصبين المسيطرين الجاثمين على صدره يفزعون ثم لا يقوون على المقاومة، فينهارون ويهربون.. ويستسلمون.. وتهزهم هذه المفاجاة غير المنتظرة هزا، عنيفا، ويستجمعون هدوءهم ثم يقررون أنه لا بد من معاودة الدراسة لمعرفة هذا السر العجيب.

وتجند الحكومات علماءها وباحثيها وتضع في خدمتهم كل ما يحتاجونه من مال وإمكانات، ويندفع أفراد آخرون إلى البحث متاثرين بالأصداء القوية التي خلفتها الهزيمة، مستفيدين من ظروف عايشوها.

ومن هؤلاء المستشرق الأنجليزي (ر. ف. بودلي) مؤلف كتاب (الرسول ـ حياة محمد). ولا أعرف شيئا عن بودلي هذا، فهو لم يتحدث في كتابه عن أي معلومات يمكن أن نعرف منها تفصيلات ذات قيمة وكل ما عرفناه أنه كان من طبقة الحكام البيض في الهند. وحتى مؤلف كتاب (المستشرقون) لم يزد على أن ذكر اسمه ومؤلفه، وكل ما استنتجناه أن المؤلف إنجليزي لانه وضعه تحت عنوان المستشرقين من الإنجليز. كما وأنه ليس لديه كتاب آخر غير هذا الكتاب، أما مؤلف كتاب محمد عند علماء الغرب فقد قال عنه إنه سمري ولم يضف أي معلومات أخرى.

ومما يذكر أن كلا المؤلفين قد قدم في كتابيها معلومات طيبة عن كثير من

المستشرقين اللذين تحدثا عنهما في كتابيهما، ولكنهما أهملا الترجمة لهذا المستشرق مع أن هذا المؤلف مستشرق معاصر، ومن المؤكد أنه على قيد الحياة حتى آخر عام ١٩٤٥م وهو التاريخ الذي ذيل به تقدمته للكتاب وكتب إلى جانبه (واشنجتن) ومع ذلك فلم يحفل أحدهما بالتعريف به. وليتهما عرَّفا به أو عرَّف بنفسه، فالتعريف به ضروري، لأنه يذكر في مقدمة كتابه أن أول معرفته قدر محمد (كان بين جبل كشمير الشامخة،،كان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى) ويقول إنه بعد عشر سنوات (ذهبت لأعيش بين عرب الصحراء عقب الحرب الأولى، وقد بقيت معهم سبع سنين، أصبحت الخيمة المصنوعة من وبر الجمل داري، والبدو أصدقائي، الصحراء المترامية بلادي) فما هي مهنته في كشمير؟ وما قصته مع جبالها الشامخة؟ ولماذا ذهب ليعيش بين عرب الصحراء؟ ومن هؤلاء العرب الذين يعنيهم؟ ولماذا بقي معهم هذه السنوات الطوال؟.

لا يتعرض المؤلف لذكر شئ يفيد منه الباحث في هذا المجال مع الأسف الشديد، ولكن تعرف المؤلف على الإسلام وعلى (قدر محمد) كما يعبر عن طريق الاحتكاك بنوعين من المسلمين / العرب البدو في صحرائهم والعجم الكشميريين في جبالهم الشامخة، يجعل لكتابه أهمية فريدة، ويعطي تجربته مذاقا خاصا.

وقد كتب (بودلي) تقدمة لكتابه اتبعها بمقدمة، ومن الأهمية بمكان أن نقف عندهما قليلا وألا نمر بهما مرورا عابرا.

يقول المؤلف (كان أول معرفتي قدر محمد بين جبال كشمير الشامخة قبل الحرب العالمية الأولى، وما كان يشجع التواد بين البيض والوطنيين. وما كان يروقني على الرغم من ذلك طريقة تابعيه في ترك ما كان يفعله ليسقبل مكة ويصلي صلاته، كان يعرف قليلا من الإنجليزية فابتدأت بعد مدة أسأله عن ربه الذي يعبده هكذا على الدوام، فكانت دهشتي عظيمة أكتشفت أنه نفس الإله الذي كنت أعتقد فيه وأعبده. وقد ازداد عجبي لما سمعت ذلك العبد، المزق الثياب يتكلم في عدم تكلف عن ابراهيم وموسى

وعيسى ويحيي على أنهم جميعا أنبياء دينه. وكان هذا كل ما وصلت إليه إلى هذه اللحظة. وقد حولني عن متابعة دراستي تحامل زملائي الغربيين على كل شيء لا يألفونه كعقائد سكان البلاد التي نحتلها، واندلاع لهيب الحرب العالمية الاولى.

فالقارئ يلمس في هذه السطور روح الإنصاف كما يلمس الشجاعة الأدبية التي يتحلى بها المؤلف. فهو ـ يعترف بكل صراحة بان السلطات الحاكمة لا تشجع التواد بين البيض الحاكمين وبين المحكومين سكان البلاد.

ويعترف كذلك بتضايقه من طريقة تابعه من ترك عمله ليتوجه إلى الصلاة. ويعبر عن دهشته بصدق، عندما اكتشف أن الإله الذي يعبده هذا التابع هو نفس الإله الذي يعبده المؤلف. وزاد عجبه عندما رأى تابعه يتكلم دون أي تكلف عن أنبياء الكتاب المقدس.

وهذه أمور على جانب عظيم من الاهمية، إذ يجب علينا أن نعرف وأن نعرف المخدوعين من شبابنا أن الأوروبيين ـ كانوا ومازالوا ـ وسيظلون ينظرون إلى الشرقيين نظرة المتبوع إلى التابع والسيد إلى العبد، وإننا مهما سايرناهم وتابعناهم وسرنا معهم في طريقهم فإننا لم نظفر منهم بنظرة إجلال، وأنهم لن يعترفوا بنا أندادا لهم أو بشرا مثلهم وأن الطريق المثلى هي طريقة التابع ذلك العبد الممزق الثياب الذي كان اعتزازه بدينه يدفعه إلى أن يقوم إلى صلاته كلما حان وقتها دون إن يعبأ بغضب سيده أو يكترث بنظراته الشزراء. فهناك السيد الأعظم الذي تعنو له الوجوه وتخضع له الجباه، ملك الملوك، ذو الجلال والعزة والجبروت.

وفي تعبير المؤلف عن دهشته من اكتشاف أن إله تابعه هو إلهه، وعن عجبه من كلام تابعه عن أنبياء الكتاب المقدس باعتبارهم أنبياؤه، تصوير دقيق للجهل الذي ينشره الحاكمون ورجال الكنيسة بين أتباعهم، فهم يبثون الاكاذيب عن المسلمين وعن إلههم الذي يعبدونه ويتهمونهم بمعاداة انبياء التوراة والانجيل كما يعادون نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم. ولذلك كان عجب المؤلف كبيرا عندما رأى فردا تافها من المسلمين في جبل من جبال

كشمير يمجد هؤلاء الأنبياء ويعدهم أنبياء.

ولا يبعد إن تكون هذه نقطة تحول في حياة هذا المستشرق المنصف. ولا يتخلى المؤلف عن صراحته حين يقرر أن الذي حوله عن متابعة دراسته للأسلام (تحامل زملائه الغربيين على كل شيء لا يألفونه كعقائد سكان البلاد التي نحكمها).

ولم يحدث ذلك اعتباطا ولكنه حدث نتيجة تربية طويلة أخضع لها هؤلاء البيض منذ طفولتهم المبكرة، واشربوا روح العداء لكل ما هو شرقي، وخاصة إذا اتصل بالإسلام من قريب أو بعيد. فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا.

ويواصل المؤلف حديثه قائلا (واستمر هذا التحول برهة طويلة وقد مر أكثر من عشر سنين دون إن أكون فكرة واحدة عن المسلمين والإسلام).

وفي كلامه هذا شيء من المبالغة، فما من شك أن أيامه التي قضاها التابع الكشميري الممزق الثياب إلى جانبه قد تركت في نفسه أثرا لا يمحى، ولم يستطع هو أن يتجاهله أو ينساه، كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل. ولعله يعني أنه لم يكوّن فكرة واضحة تماما عن الإسلام والمسلمين ما يتضح ذلك بعد قليل..

ويقول المولف (ثم ذهبت لأعيش بين عرب الصحراء، ولما كنت ضجرا من التعقيدات التافهة التي جاءت بعد الحرب العالمية الأولي وقد بقيت معهم سبع سنين، أصبحت الخيمة المصنوعة من وبر الجمل داري، والبدو أصدقائي، والصحراء المترامية بلادي. وإن ما أعطاني الكشميري عنه لمحة أصبح الآن أمامي تفصيلا، فسمعت القرآن في اللغة العربية المكية العظيمة، وأصبحت أحس دون أن أكون مسلما روعة هذا الدين الذي يتجلى بين العبد وخالقه في الصحراء).

فما هي هذه التعقيدات التافهة التي دفعت رجلًا من (الحكام البيض) ليعيش في الصحراء، هكذا دفعة واحدة من القصر العظيم إلى الخيمة

المتواضعة، ومن الأصدقاء البهاليل إلى البدو البسطاء، ومن الوطن الذي يضاهي جبهة الشمس إلى الصحراء المترامية.

هذا سؤال لا جواب عليه. ولكن هذه التعقيدات التافهة، تعقيدات مباركة لأنها دفعت برجل متحيز لقومه ومعتقداته وموروثاته إلى أن ينضم إلى صفوف المعتدلين المنصفين.

ويبدو من كلام المؤلف أنه أتقن العربية اتقانا جيدا حتى استطاع أن يسمع القرآن في اللغة العربية العظيمة، وأحس روعة الدين الذي يربط بين العبد وخالقه دون وسطاء أو شفعاء أو كهنة. فهل أخذ المؤلف في تعلم العربية قبل أن يذهب إلى الصحراء؟ أم أنه بدأ يتعلمها بعد وصوله إلى هناك؟ ومن هم هؤلاء البدو؟ وهل كانوا يتقنون العربية سليقة؟ وهل يوجد عرب من هذا النوع في عصرنا الحاضر؟ بعد طغيان العامية وانتشار العجمة؟

ونلمس مدى إعجاب المؤلف بنبي الإسلام حين تقرأ قوله (وسمعت عن محمد، الرجل الذي وجد حفنة من القبائل المتنافرة المتنافسة، وجعلهم دعامة امبراطورية من أعظم امبراطوريات العالم قوة، وسمعت عنه أنه الرجل ذو القلب الحار الذي حول الوثنيين وعبدة الأصنام إلى مؤمنين صادقين يؤمنون بإله واحد ويوقنون بالموت والبعث في الحياة الاخرى. لقد رأيت أناسا، تسعين في المائة منهم يقومون بشعائر دينهم لأنهم يعتقدونه.)

وحدثنا المؤلف بعد ذلك عن معلوماته التي كونها عن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم فيقول (وقد تراكمت معلوماتي عن محمد على مر الشهور والسنين ولم يكن هذا نتيجة دراسة متبصرة، فإني لا أعتقد ذلك، ففي خلال هذه الفترة جميعها التي عشتها في الصحراء لم أقرأ أيَّة كلمة مطبوعة عن رسول الله ما عدا القرآن. ولقد حصلت على معلوماتي من مناقشاتي حول نيران المعسكر، وفي خلال رحلاتي الطويلة مع القوافل، وبينما كنت أرقب القطعان في الليل، وفي الواقع لم أبدأ القراءة عن محمد إلا بعد أيام الصحراء مدة طويلة، فلما فعلت ذلك أحسست خيبة أمل عظيمة. لقد لاح لي أن بساطة تعاليم محمد ومثله العليا المتوفرة في

الصحراء قد غمرت تحت محيطات من الروايات والفقه والسياسة).

ويلفتنا المؤلف هنا إلى قضية مهمة هي أن من الخير ألا نثقل على من يرغب في التعرف على الأسلام بالشروح الطويلة والكتابات المفصلة، فحسبهم أن يقرأوا كتاب الله وأن يجدوا من يستمع إلى مناقشاتهم، فإن من أهم مزايا هذا الدين بساطته وسهولته وبعده عن تعقيدات النصرانية واستحالات اليهودية، وقد ذكرنا هذا بنقطة جوهرية من الواجب أن نذكرها وأن نذكر بها، تلك هي ضرورة العودة إلى نظامنا التربوي الإسلامي الذي دام أكثر من ثلاثة عشر قرنا، ونعني به استفتاح حياة الطفل المسلم بالقرآن تحفيظا متقنا وتلاوة مجودة سيترك أبعد الأثر في حياة الطفل وسيزوده بطاقات ضخمة تفيده وتنفع مجتمعه.

وينتقل المؤلف إلى (مقدمة الكتاب) فيذكر أنه كتب كتابه (لمن يرغبون في معرفة شئ عن محمد والإسلام أكثر مما كتبه للشرقيين وطلاب الدين).

ويتبادر إلى ذهنه أن كلامه هذا قد يوحي بأنه لم يهتم بالمعلومات المطلوبة، الاهتمام الكافي، فيبادر إلى القول (وليس معنى ذلك أنني في علاج هذا الموضوع اخذت حريتي فلم ألتزم الدقة أو أنني حذفت أي تفاصيل عن حياة محمد أو من تعاليمه فإن الأمر على النقيض، فالمواد التي في هذه الصفحات أغنى منها في كثير من كتب السيرة، وقد بذلت عناية خاصة في المحافظة على دقة الحقائق على قدر المستطاع وفي حالة تسجيل حياة إنسان لا يعرفه المترجم له معرفة شخصية. وبذلت أيضا ما في وسعي لأتجنب تجني المتعصبين للإسلام أو سوء العرض الذي يجنح إليه المتعصبون المسيحيون).

وهذا جهد طيب مشكور ومحاولة متقنة ومنهج سليم يسير عليه كاتب مسيحي، يرغب التعرف إلى دين يضمر إليه المسيحيون أشد ألوان البغض والعداء.

ويدلك على عقليته المستنيرة هذه الملاحظة الذكية فهو يلاحظ (أن هناك سوء فهم عامًا لمحمد أكثر من أي مؤسس آخر من مؤسسي الديانات العظيمة).

وهذا أمر يدعو إلى العجب لأنه يناقض طبيعة الأشياء.

ويعقد المؤلف مقارنة موضوعية لتوضيح ملاحظته الذكية فيقول (وبينما أننا لا نجد معاصري موسى.. وبينما أننا لا نعرف الا بعض شذرات عن حياة المسيح بعد رسالته ولا نعرف شيئا عن الثلاثين سنة التي مهدت الطريق للسنوات الثلاث التي بلغ فيها أوجه، الا أن قصة محمد واضحة كل الوضوح).

ويوضح هذه الفكرة قائلا (ففي سيرة محمد نجد التاريخ يسدل الظلال والغموض، ونعرف الشيء الكثير عن حياة محمد كما نعرف ذلك عن رجال عاشوا في أزمان أكثر قربا من زماننا، وما كان تاريخه الخارجي وشبابه وأقاربه وعاداته، خرافة من الخرافات ولا شائعة من الشائعات، وما كان تاريخه الداخلي وقد وضح بعد رسالته برواية مبهمة لبشر غامض أو مشوش).

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن القرآن ويصفه بانه فريد في أصالته وفي سلامته، ويذكر طريقة كتابته وجمعه. كما يذكر الصحابة والتابعين الذين حفظوا آثاره وأخباره ونقلوها إلى من بعدهم.

ثم يصف الفرق بين نظرة المسلمين إلى نبيهم ونظرة النصارى إلى المسيح فيقول (إن البدو الذين عشت معهم في الصحراء لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد عنهم، كما يتحدث المسيحيون عن المسيح وأن المرء لا يحس أبدا ذلك الغموض.. إن العرب ليتحدثون عن مؤسس دينهم كما يتحدثون عن شخص يعرفونه).

وبعد أن يوضح أثر إقامته في الصحراء في فهم سيرة الرسول، يستعرض نماذج من كتّاب غربيين كتبوا عن سيرة النبي، فإن وقعوا في مازق لم يعرفوا الخلاص منها، الصقوا به تهما عجيبة، ويسجل بعض آرائهم ثم يبين ما فيها من جهل فاضح وضلال مبين، وينقضها ببراعة وحذق، وينقدها نقدا علميا موضوعيا سليما.

ولن نعرض هنا كل ما أورده المؤلف من قصص وما قفى عليها من نقد

وتصحيح وتعقيب، فذلك أمر يطول الحديث عنه، بالأضافة إلى أنه يضطرنا إلى ذكر ألفاظ جارحة غير كريمة لا تليق إلا بمن صدرت عنهم.

وحسبنا أن نشير إلى مثالين يعطياننا فكرة واضحة عن مدى تغلغل الآراء المكذوبة عن الإسلام ورسول الإسلام في أذهان الأوربيين. فبعد أن يشير المؤلف إلى الحروب الصليبية الأولى يقول (وقد ازداد سوء الفهم منذ ذلك الحين حتى إن لفظة محمد أصبحت بمعنى الكفر بالله، وتطورت لفظة المحمدية في أذهان معاصري شكسبير حتى أصبحت بمعنى آية ديانة مزيفة وعلى الأخص الديانة التي تعبد الأصنام، وأصبحت لفظة محمد تستعمل بمعنى أصنام).

وهكذا انقلب الدين الذي يحارب عبادة الأصنام حربا لا هوادة فيها، انقلب في أذهان الأوروبيين إلى ديانة تعبد أصنام، وأصبح اسم نبي التوحيد مرادفا لمعنى أصنام.

هذا مثال واحد، أما المثال الثاني فهو قول المؤلف (كانت بعض الأفكار المقبولة في تلك الأوقات وهمية خيالية. فقد أظهر محمد في سفر القرية الثانية عشرة، كأمير من أمراء الإقطاع يتلقى الأوامر المسلمية المقدسة، وانه خلق ليكون كردنالا ولكنه لما فشل في أن ينصب نفسه بابا ثار لنفسه بأن ابتدأ بدين جديد).

تلك بعض الأفكار الموغلة في الجهل والكذب والافتراء، ومع بالغ الأسف لم يتصد أحد من مثقفينا الذين يجيدون اللغات الأوروبية لهذه الأوهام والضلالات ولم يكشفوا زيفها، بل إن مما يحز في نفوس المخلصين أن نجد طائفة من الشباب المسلم لا تتورع عن الطعن في الدين الأسلامي والنيل منه ارضاء لأساتذتهم اليهود واستجلابا لعطفهم في سبيل حصولهم على شهادة أو درجة.

وبعد.. فهذا استعراض غير مركز لما ورد في تقدمة كتاب (الرسول ـ حياة محمد) لبودلي ولما ورد في مقدمته، أما الكتاب فيقع في أربعة وعشرين فصلا

وخاتمة. ولنا عودة إليه لنقف مع مؤلفه وقفات طويلة ولسنا نستبق الحوادث حين نذكر القارئ بأن هذا الكتاب لم يسلم من الأخطاء والعثرات، وذلك شئ طبيعي من مؤلف نشأ في بيئة نصرانية تحرص على تلوث أفكار أبنائها وتسميم عقولهم ضد الإسلام. وحسبه أنه بذل ما يستطيع من جهد في سبيل أن يكون منصفا، ولكن من أصعب الأمور أن يتخلى تماما عن كل موروثاته وأن يتقبل كل ما في الإسلام بنفس الروح الراضية التي يتقبله به المسلم. خاصة وأن الإسلام قد نفذ إلى عقله دون قلبه مع الأسف الشديد.

الرسول في رمضان
الحلقة الأولى(*)

هذا اسم كتاب ألفه الدكتور علي حسن الخربوطلي وهو أستاذ متخصص في التاريخ كما يبدو وإن كنت لم أقرأ له كتابا حتى الآن باستثناء الكتاب الذي أتحدث عنه اليوم ـ واذكر أنني عندما كنت في دمشق في الشهر الماضي ـ رأيت في إحدى المكتبات كتابا من مؤلفاته في التاريخ أغراني عنوانه فهممت بشرائه ولكن رفيقي ـ وهو شاب مثقف نصحني ألا أفعل وعلل ذلك بأن المؤلف (الخربوطلي) له من اسمه نصيب في التأليف ومؤلفاته لا تمتاز بالدسمة في التفكير أو التعمق في البحث وتوقفت عن شراء الكتاب لا لاقتناعي برأي رفيقي فحسب بل لسبب آخر كذلك ليس هنا مجال الحديث عنه.

ولكنني لم أملك نفسي ـ في زيارة أخرى لإحدى المكتبات ـ عن شراء هذا الكتاب موضوع الحديث ويبدو أن صغر حجمه من جهة وارتباط موضوعه بالشهر الذي كان المسلمون يتأهبون لاستقباله كانا دافعين قويين حملاني على امتلاكه.

وموضوع الكتاب واضح من عنوانه. أما عنوانه نفسه فقد كنت أؤثر أن يسميه مؤلفه (رمضان في حياة الرسول) لأن حياة الرسول أوسع وأعمق وأبعد أثرا في تاريخ المسلمين والحياة الإسلامية. وإن كان الاسم الذي اختاره المؤلف أقرب إلى أسلوبه وطريقته في البحث. فأسلوبه في كتابه يمتاز بالسهولة والخفة والوضوح لا يتطلب جهدا في فهمه ولا يستدعي توفر ثقافة لمعرفة غاياته ومراميه مع أن من المحتمل أن يكون المؤلف قد لجأ إلى هذا الأسلوب ليجعل كتابه في متناول جميع القراء على اختلاف ثقافاتهم وتباين طبقاتهم وتكون اتجاهاتهم باعتبار أن موضوع الكتاب من الموضوعات

(*) نشر في جريدة المدينة المنورة رمضان ١٣٩٠هـ.

التي تستأثر باهتمام كل المسلمين. فلرمضان سحره في نفوس المسلمين يترقبون قدومه بشوق ويقطعون أيامه بنشوه ويودعون أواخره بحسرة ويختزنون له في نفوسهم مالا يحصر من ذكريات أيامه ولياليه ويمتاز هذا الشهر المبارك أو هذا الركن من أركان الإسلام بجاذبية عجيبة يكاد يستوي في التأثر بها والانجذاب نحوها التقاة والعصاة من المسلمين. فذلك الشاعر الذي يقول:

اذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تقنع بأقداح صغار فقد ضاق الزمان على الصغار

لا شك في أنه بيت النية وصمم العزم على التفرغ للعبادة والأنصراف عن مقارفة أم الكبائر وإلا لو كان يريد غير ذلك فليس هناك من داع لمواصلة الليل بالنهار ولا لاختيار الأقداح الكبار بدلا من الصغار.

والشاعر الآخر الذي يقول:

رمضان ولى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق

يصرح بأجلى بيان عن تهيبه لشهر الصوم المبارك واجتنابه لكل الموبقات في نهاره وليله .ويزيد ذلك المعنى وضوحا في البيت الثاني فيقول:

ما ـ كان ـ أكثره على الافها واقله في طاعة الخلاق

وإلى جانب ما يمتاز به رمضان من جاذبية وسحر فهو يمتاز بأسرار دقيقة. وتتجلى بعض تلك الأسرار في أن طائفة من الناس اتيح إليَّ أن أعرف أو أن أتعرف عليها في ظروف لا مجال لذكرها وهي طائفة ضلت السبيل وعبثت بها الأهواء وكادت أن تهلك لولا فضل الله وسحر رمضان. كانت تسرح وتمرح طوال العام حتى إذا أقبل رمضان ودعت ما كانت فيه من لهو وعبث واستقبلت شهر الصوم بجد وإيمان وإخبات تستقبل نهاره بالصوم والصلاة وليله بالذكر والقيام. وكان لذلك أثره في مقبلات الأيام بالنسبة لهذه الطائفة. فقد صلح حالها واعتدل أمرها وتنكبت طريق الغواية والضلال إلى طريق الهداية والرشد وهي لا تذكر ما منَّ الله به عليها من صلاح وخير وهدى إلا وذكرت رمضان وما يتنزل فيه من بركات ورحمات

وما ذكرت ذلك إلا وفاضت عيونها بالدمع وقلوبها بالخشية وألسنتها بالحمد. وما من شك في أن للوراثة والنشأة والتربية آثارًا بعيدة المدى لا تنكر. فالطفل الذي يوجد في بيت يقدس الدين ويجل الفضيلة ويعتصم بحبل الله ينشأ مطبوعا على الخير مفطوما عن الرذيلة مغمورا بنور التقوى. وحتى لو انحرف عن الجادة فإن لانحرافه نهاية يقف عندها يعود بعدها إلى الصراط المستقيم.

أذكر في هذا المجال سيدة فاضلة فجعت بزوجها في بداية حياتها الزوجية بعد أن خلف لها طفلا وقد توفرت على تربيته والعناية به وأسبغت عليه كل ما تملك من ألوان المحبة والعطف وكانت امرأة حسنة السيرة تحب الدين وتحرص على أداء الفرائض وكثير من النوافل وكان المأمول أن ينشأ طفلها على ذلك ولكن فرط محبتها للطفل الحبيب دفعها ـ عن جهل وغفلة ـ إلى ألا تثقل على ابنها بالصيام بحجة أن ذلك يؤثر على صحته واستمرأ ابنها الإفطار في رمضان وإن كان لا يجاهر به. وبلغ مبلغ الرجال وفقد أصحابه ورفاق أبيه الأمل في صلاحه أو إصلاحه. وافتقدته فترة من الوقت ثم رأيته فجأة وعلى غير انتظار في رمضان فحياني بحرارة والبشر يطفح من وجهه أتعرف أنني أصوم رمضان؟ فقلت له دهشا: هذا غير معقول. فأكد لي ذلك وقال إنني أصلي صلاة القيام وصلاة التهجد. ولم أصدق ذلك ولكنني تتبعت أخباره فوجدت أن ما قاله هو عين الحقيقة. ولم أستطع أن أعلل ذلك إلا بأثر الوراثة والقدوة، فالقدوة والمران أساسان قويان في غرس الفضائل وشحذ الهمم لأداء الفرائض والنوافل.

قلت فيما سبق أن موضوع كتاب (الرسول في رمضان) من الموضوعات التي تستأثر باهتمام المسلمين وقد أشرت إلى سحر رمضان وجاذبيته فكيف إذا كان الحديث عن نبي الهدى صلى الله عليه وسلم في رمضان؟!

إن حب المسلمين والمؤمنين نبيهم حب يتعالى عن التشبيه والتمثيل ويصور ذلك في حياة الرسول أحد زعماء قبيلة ثقيف عروة بن مسعود الثقفي حيث يقول (إنني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه

وإني والله ما رأيت ملكًا في قومه مثل محمد في أصحابه).

بل إن حبه صلى الله عليه وسلم جزء من الإيمان بل لا يكمل إيمان المسلم إلا به (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده ونفسه التي بين جنبيه والناس أجمعين) أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

يحتوي الكتاب على مقدمة صغيرة واثنى عشر فصلًا. يقول المؤلف في مقدمة كتابه: (في الحياة دائمًا فاضل ومفضول فقد شاء الله عز وجل أن يخص بعض مخلوقاته بخصائص ومميزات جعلها تفضل على غيرها وكما أن يوم الجمعة هو أفضل أيام الأسبوع فإن شهر رمضان هو أفضل شهور العام).

وتذكرني هذه السطور بمحاورة لطيفة جرت بيني وبين عميد كلية الآداب بجامعة إحدى البلاد العربية يسمى (محمدًا) وهو حاصل على الدكتوراه في الآداب. وقد قدم إلى بلادنا للحج والزيارة وصحبته في زيارته للمدينة وآثارها الدينية والتاريخية وكان من الطبيعي أن أزيره مسجد قباء المسجد الذي أسس على التقوى ولعله أول مسجد بني في الإسلام وورد ذكره في القرآن الكريم في قوله عز وجل **﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾**.

وبعد أن صلينا في مسجد قباء أطلعته أثناء تفقده لمباني المسجد ومحرابه ومنبره على حديث نبوي مكتوب ونصه «من توضأ في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه ركعتين كان كأجر عمرة».

وفوجئت ونحن نغادر المسجد بأن الدكتور العميد ينكر إنكارًا تامًا هذه الأفضلية التي خص بها هذا المسجد كما وردت في الحديث الشريف ومعنى هذا أنه ينكر الحديث الشريف ودخلت معه في مناقشة طويلة رفض فيها رفضًا باتًا أي أفضلية لمسجد قباء أو غيره من المساجد، وقال كلامًا فيه

تخريف وإلحاد واعترف بأنني عجزت تمامًا عن إقناعه. فقد ركب رأسه وتلبسه عناد عجيب ورفض رفضًا باتًا فكرة الأفضلية ولم يقبل أي دليل عقلي أو نقلي. وتصورت حال طلاب مسلمين يتولى تدريسهم وتثقيفهم أمثال الأستاذ الأجل.. وأرجو أن يكون الأستاذ الدكتور العميد قد قرأ الكتاب الذي نتحدث عنه وقرأ مقدمته وعرف أن في الحياة دائمًا فاضلًا ومفضولًا في الأزمنة والأمكنة وأن الله يخص بعض مخلوقاته من الناس والمواضيع بخصائص ومميزات.

الرسول في رمضان
(الحلقة الثانية)(*)

يقول مؤلف كتاب (الرسول في رمضان) في مقدمة كتابه (كانت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم كلها خير وبركة حفلت بالأمجاد والمكرمات وهذا الكتاب يسلط الأضواء على جانب من جوانب حياة الرسول الكريم في شهر رمضان المعظم).

ويقول المؤلف في موضع آخر من المقدمة (وهذا الكتاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان من كل عام طوال حياته المباركة ويصور كفاحه وجهاده من أجل إعلاء كلمة الله وإعزاز الإسلام ويبرز ثمار النضال من انتصارات باهرة غيرت مجرى التاريخ).

وبهذه السطور يحدد المؤلف موضوعه ويرسم منهجه ولكنه لا يكتفي بهذا الإجمال ولكن يعود إلى التفصيل فيقول (شهد رمضان تحنث الرسول في غار حراء ثم شهد مشرق الإسلام حيث انتشرت أنوار الهداية والحق في أرجاء العالم تبدد ظلمات الضلالة والجهالة وأكرم الله عز وجل شهر رمضان فأنزل فيه كتابه العزيز هدى ورحمة كما خصه المولى بركن من أركان الدين الحنيف وهو الصيام الذي يطهر النفس والبدن ويقرب الإنسان من بارئه العظيم.

(وكان شهر رمضان للرسول صلى الله عليه وسلم هو شهر الجهاد. فقد شهد انفاذ الرسول لبعض سراياه (سنة ١هـ) ثم شهد غزوة بدر الكبرى (سنة ٢هـ) التي كانت أول انتصار للإسلام على الوثنية والجاهلية واحتفلت المدينة في شهر رمضان بأعياد النصر وسط مظاهر الحمد والابتهاج، وشهد رمضان أيضًا تعبئة المسلمين قواهم وحشد جيوشهم للقاء المشركين في غزوتي أحد (سنة ٣هـ) والخندق (سنة ٤هـ) ثم توج المسلمون انتصارات

(☆) نشر في جريدة المدينة للنورة بتاريخ الخميس ٤ من شوال عام ١٣٩٠ العدد (٢٠٣٠).

رمضان بفتح مكة (سنة ٨هـ) وشهد رمضان التالي (سنة ٩هـ) عودة الرسول منتصرًا من غزوة تبوك وقدوم وفد الطائف إلى المدينة يعلن بيعة أهالي الطائف للرسول على الإسلام والطاعة فسقط بذلك آخر معقل للوثنية في الجزيرة العربية. وهكذا شاء الله أن يكرم رمضان إنه شهر انتصارات الرسول وأمجاد الإسلام).

ويختم المؤلف خاتمته بهذا الرجاء الحار فيقول (وأرجو أن يكون التوفيق حالفني في تقديم هذه الصورة المشرقة لشهر رمضان في حياة الرسول. والله عز وجل ولي التوفيق وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين).

والقارئ لكتاب المؤلف يجد أن الكتاب يدور على هذه الموضوعات التي أشار إليها في مقدمته وقد استغرقت (١٧٤) صفحة من مجموع صفحات الكتاب التي تنيف على المائتين. أما باقي الصفحات فقد استوعبت فصلين تحدث فيهما المؤلف عن (صورة من حياة الرسول في رمضان) و(من هدي الرسول في رمضان).

وفي الفصل الأول من هذين الفصلين يتحدث المؤلف عن (الحسين بن علي) الذي ولد في رمضان في السنة الثالثة من الهجرة فيذكر مولده وتسميته وشبهه برسول الله وبعض الأمور الأخرى المتعلقة به. ويتبعه حديث عن زواج الرسول في رمضان من السنة الرابعة للهجرة بأم المساكين زينب بنت خزيمة وعن صداقها وحياتها وأخلاقها، ثم بحديث عن (وفود العرب على الرسول في رمضان من السنتين ٩ و ١٠هـ).

أما الموضوعان الأخيران في هذا الفصل فأحدهما (من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم حول فضائل رمضان) وثانيهما (من سنة الرسول في رمضان). وواضح من عنوان الموضوع الأول أنه يحتوي على مجموعة كريمة من كلام الرسول في رمضان وفضائله. أما الموضوع الثاني فقد تحدث فيه المؤلف عن مدارسة القرآن في رمضان وما ورد في السنة في الحث على ذلك وتحدث عن الصلاة وعن الصوم وآثاره وعن آدابه وسننه وعن فضل الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الاعتكاف.

ويختتم المؤلف هذا الفصل (صور من حياة الرسول في رمضان) بهذه الخاتمة فيقول (كان الرسول ينتظر شهر رمضان ليستعد ويحتفل به وهو الشهر الذي يلقاه جبريل فيه لدراسة القرآن الكريم وإعادة تلاوته وسماعه بالتناوب بينهما كما كان يجتهد في العشر الأواخر منه التماسًا لليلة القدر حتى كان صلى الله عليه وسلم يشد مئزره ويُحيي ليله ويوقظ أهله ويطوي فراشه وكان الرسول يدعو الله في شهري رجب وشعبان قائلًا «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان» فإذا شاهد هلال رمضان أبدى سروره وحبوره وقال «هلال رشد وخير آمنت بالذي خلقك» ويقول لأصحابه عن قدوم شهر رمضان «أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ويحط الخطايا ويستجيب الدعاء وينظر إلى تنافسكم في الخير ويباهي بكم ملائكته فاروا الله من أنفسكم خيراً فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل» ويشيد الرسول بخيرات رمضان فيقول «لو يعلم الناس ما في الشهر من الخيرات لتمنت أمتي أن يكون رمضان السنة كلها».

أما الفصل الأخير من الكتاب فهو بعنوان (من هدي الرسول في رمضان) تحدث فيه عن الرسول وصيام عاشوراء) و(الرسول وهلال رمضان) و(الرسول في إفطاره وسحوره) وعن (تعبد الرسول في رمضان) و(مع الرسول في صيامه) وختمه بالحديث عن صلاة التراويح وزكاة الفطر.

وقد كنت أشرت في بداية هذا الحديث إلى إيثار المؤلف السهولة في الأسلوب وطريقة البحث ولم يخالف ذلك إلا في موضوعين أحدهما حين تحدث عن صيام عاشوراء في الفصل الأخير. ففي حديثه عن صيام عاشوراء تعرض لبحث ابن القيم الجوزية حول هذه المسالة في كتابه (زاد المعاد) وأورد استشكالات أثارها العلّامة ابن القيم مع ردود عليها. والبحث في حد ذاته قيم وطريف ولكن مكانه كتب الدراسات والمطولات فماذا يهم القارئ يوم عاشوراء وعن الخلافات في تحديده بالنسبة للأشهر الهلالية أو الشمسية وعن الأمور الأخرى؟!

ومثل ذلك يقال عن المعجزة التي نقلها المؤلف عن ابن هشام فقد روى في

سيرته كما نقل المؤلف (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا بشجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ثم جاء جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان).

وكان في استطاعة المؤلف أن يكتفي بذلك ولكنه عقب على رواية ابن هشام بتعليقه السهل وهو تعليق علمي منطقي يسمو على إدراك القارئ العادي ويتطلب مستوى معينًا من الثقافة والفهم والوعي.

ويبدو أن المؤلف خشى من أن يتسرب الشك في صحة هذه المعجزة إلى بعض الأفهام فرأى أن يدعمها بتعقيب يزيل الغموض والإبهام وفاته أن كتابه ليس دراسة عميقة ولكنه محاولة مخلصة من أجل (تقديم صورة مشرقة لشهر رمضان في حياة الرسول).

وعلى من يشك أو يبحث في الحلول للمشكلات والاستشكالات أن يتلمسها في مظانها من كتب البحث والجدل والدراسات.

الرسول في رمضان
(الحلقة الثالثة)(*)

نقلنا ـ فيما سبق ـ مؤلف كتاب (الرسول في رمضان) ما يوضح منهجه ويرسم خطته ويوضح طريقته ونستطيع أن نؤكد هنا أن التوفيق قد حالف المؤلف كل التوفيق فاستطاع أن يطبق منهجه تطبيقًا كاملًا وأن ينفذ خطته ببراعة يغبط عليها.. وما أشك في أن عنصرًا لا يستهان به كان له دوره الكبير فيما حققه المؤلف من نجاح وتوفيق عنيت عنصر الإيمان.

لقد أحاط الدكتور المؤلف إحاطة كاملة وساعده على ذلك ذهن صافٍ وبصيرة نافذة ولكن عنصر الإيمان أضفى على كل ذلك عاطفة حفلت به كل موضوعات الكتاب وربطتها برباط سحري يشد القارئ منذ أن يبدأ في قراءة السطور الأولى من مقدمة الكتاب حتى آخر كلمة فيه.

فالمؤلف عميق التدين معتزًا بإسلامه مؤمنًا بقرآنه يكتب مدفوعًا بعاطفة صادقة وبحب مخلص متغلغل في دمه وليس من قبيل المصادفة أن يكتب المؤلف اسمه على كتابه مجرد من أي لقب بما في ذلك لقب الدكتور حتى لقد خُيِّل إليّ في لحظة من اللحظات أن مؤلف كتاب (الرسول في رمضان) علي حسين الخربوطلي شخص آخر غير الدكتور علي حسين الخربوطلي ولم ينف عني هذا الوهم إلا باستشهاد المؤلف ببعض كتبه المنسوبة إليه.

ولسنا بحاجة إلى التدليل على هذا الإيمان بنصوص من كتاباته فكتابه الذي بين أيدينا سلسلة طويلة متصلة الحلقات تشهد جميعها بقوة إيمانه. وننقل للقارئ على سبيل المثال هذا السطور من موضوع عنوانه (محمد في غار حراء) يقول المؤلف الجليل:

(غرس الله في محمد حب الوحدة فأصبح مشغوفًا بفضاء الله الواسع يسبح فيه فريدًا وكانت روحه التي اصطفاها الله تجد متعة أسمى وأروع في الهرب

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة شوال ١٣٩٠هـ.

من الضلال الديني والانحلال الخلقي اللذين سادا الجزيرة العربية آنذاك.

فكان محمد يستسلم لرغبة قوية عنيفة تسيطر على نفسه وتتجه به نحو الوحدة والعبادة. كانت الخلوة لمحمد أعظم مربٍ. فقد صفت قلبه من كل مشاغل هذا العالم ولذا أطلقت عليه الآثار (صفاء بصفاء) وتشربت روحه رويداً رويداً بروح الصحراء اتصلت أسرار الطبيعة بأعماق نفسه وغمرته في قوة حتى لقد أوشكت أن تخرج من فمه تلك الحقائق الخالدة التي انتزعت من (كرلايل) المفكر الإنجليزي المشهور صيحة الإعجاب التي يقول فيها (حقًا إن أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة. ومن الطبيعي أن تجتذب أفئدة البشر فتستمع إليها. ويجب أن يستمعوا إليها أكثر مما يستمعون إلى غيرها فكل ما عداها هباء إذا قورن بها).

وأرجو ألا يحمل بعض القراء كلمة المؤرخ الإنجليزي أكثر من معناها فهو يعني أن أحاديث الرسول نابعة من قلب صاف وأن دينه هو دين الفطرة.

ويقول المؤلف:

(لقد شغل ذكر الله عز وجل قلب محمد صلى الله عليه وسلم وهيمن التفكير في آلائه على حواسه وهو يرجو من الله سبحانه وتعالى أن يلهمه ما يرضيه من العبادات فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يخلو إلى نفسه في غار حراء.. وهناك يقضي محمد شهرًا في خلوة تامة وفي هذا الغار وفي رمضان المعظم نزل الوحي بكتاب الله العزيز القرآن الكريم وبدأ دور جديد عظيم في تاريخ البشرية جمعاء).

وإلى جانب هذا الإيمان الذي وصفناه يجد القارئ المعية ووثبات ذهنية رائعة فعندما كان يتحدث عن (صوم رمضان) في فصل عنوانه (الرسول في رمضان بالمدينة المنورة بعد الهجرة) عرض للشهر الذي فرض فيه الصيام وكان فصلًا قائظًا من فصول السنة. فقال (ورغم صيف المدينة المنورة القائظ فقد أقبل المسلمون جميعًا على أداء فريضة الصيام في خشوع وحماس فتقوى هذه الرياضة الروحية أواصر الأخوة بينهم وينتصر المؤمنون

متعاونين على هذا العدو الشرس أعني الجوع والظما فيصبحون أكثر استعداداً وأوثق تعاونًا لمجابهة أشد أعدائهم من البشر. ويستمر المهاجرون والأنصار على صيامهم ثلاثين يومًا في تحمس زائد فإن هذا الصوم هو شكر يتوجهون به لمانح النعم. وهذا الاختبار الديني التعبدي يحيي الأرواح ويقوي الأجسام. ولأجل أن يعبر المؤمن الصحراوات الرهيبة التي تحيط بهم لنشر الإسلام في أرجاء العالم كي تكون كلمة الله هي العليا كان لا بد لهم من هذا التدريب الذي يعتبر هينًا بالنسبة لما سيلاقونه من الشدائد في فتوحاتهم).

فقد أعطى المؤلف صورة بهيجة لما كان يمتاز به المسلمون الأوائل من طاعة لله ولرسوله ثم لم يكتف بذلك بل ربطها ربطًا رائعًا يدل على ذكاء وعمق بين عبادة الصيام وبين الحياة وكأنه بذلك يرد على أولئك الجاهلين أو الحاقدين الذين يحاولون تطبيق الديانة النصرانية على الإسلام ويبذلون جهودًا ضائعة ليجعلوا من الإسلام ديانة تشبه الديانة المسيحية وليحملوا الإسلام مثل الأوزار التي حملها المنتسبون للنصرانية ثم ليجعلوا من ذلك ذريعة للفصل بين الدين الإسلامي والحياة فيقولون (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ويقولون (الدين لله والوطن للجميع).

ولم يغفل ـ وهو في مجال الحديث عن شهر رمضان ـ عن أن يتساءل لماذا خص المولى عز وجل شهر رمضان المعظم بالصيام؟.

ويجيب عن ذلك إجابة تثير الإعجاب ويربط بين آيات الربوبية وآيات العبودية مستعينًا برأي أحد أعلام الإسلام.

وبعد أن يفيض في الحديث عن رمضان وعلاقته بالصيام والقرآن ينتهي إلى هذه الدرجة (أن الغاية التي شرعت العبادات لتحقيقها لها ناحيتان ناحية إلهية وناحية اجتماعية إنسانية. أما الناحية الإلهية فهي أن العبادة تذكر الإنسان بربه وتشعره بألوهيته وتقوي الصلة به. وفي هذا حياة لضمير الإنسان وتوجيهه إلى الخير والبر والفضيلة وإبعاده عن المنكر والشرور. أما الناحية الاجتماعية للعبادات فإن كل عبادة فرضها الله عز وجل تصلح ناحية من نواحيه وتؤدي إلى خلق مجتمع مثالي. والصوم من أركان قيام

هذا المجتمع. فهو يخلق المواطن الصالح ويوجه سلوكه ويهذب نفسه ويبني اخلاقه ويمني الإرادة القوية في طبعه ويوقظ الضمير في أعماقه والفرد هو لبنة في المجتمع.

(وفي شهر رمضان يرتبط الوجدان بالعمل والفرد بالمجتمع والدين بالحياة) وعندما تحدث المؤلف عن غزوة بدر وجاء ذكر اقتراح سعد بن معاذ ببناء عريش للرسول صلى الله عليه وسلم ثم إقامة هذا العريش. خشي أن يفهم بعض الجهلة أو ضعاف الثقافة الإسلامية أن بناء العريش كان المقصود منه إبعاد الرسول عن المعركة أو تجنبه مخاطر الحرب أو خوفه من لقاء العدو. خشي المؤلف هذا الفهم المريض فبادر إلى القول (وإنه ليبدو من اختلاف السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يلزم العريش طوال المعركة إذ ليس معنى بناء عريش له أن ينقطع القائد عن المعركة التي يحضرها ويديرها فبرغم ما قيل لهم من أنهم أقاموا عريشًا له رووا أنه كان أشد الناس بأسًا وكان أقرب إلى العدو من كل الناس ولا يمكن أن يكون هذا الوصف إلا لمن يزاول القتال ويغشى صفوف المحاربين. ويبدو هذا واضحًا في رواية للطبري. فقد روى أن علي ابن أبي طالب قال لما أنه كان يوم بدر وحضر الباس أتقينا برسول الله فكان من أشد الناس بأسًا وما كان منا أحد أقرب إلى العدو منه).

وفي تحديده لليوم الذي حدثت فيه وقعة بدر يقول بذكاء (كانت وقعة بدر في ١٧ ـ ١٨ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد وافقت ١٥ ـ ١٦ مارس سنة ٦٢٤م فهي معركة ربيع الإسلام وبداية انتعاشه بقوة السيف).

وفي تعقيبه على نتيجة غزوة بدر يقول وكأنه يذكر المسلمين المعاصرين في حربهم مع اليهود يقول (وثبت من معركة بدر أن الفئة القليلة الثابتة غير المتشبثة بالحياة المادية طمعًا في الجهاد في سبيل الله وما يعتقد حقًا تغلب حتمًا الفئة الكبيرة التي تفتقر إلى الإيمان ويدفعها حب المادة إلى النضال في سبيل المال والشهوات).

أما بعد فقد استطاع مؤلف كتاب (الرسول في رمضان) أن يصحب رمضان

في حياة الرسول وأن يحيط بالأحداث وينقل بكثير من المهارة والحذق صورة متكاملة رائعة تنبض بالحياة حتى لكانك تعايشها أو تراها بعينك، وقد تجلى ربط الأحداث والوقائع من بدايتها إلى نهايتها ربطًا محكمًا لا تشعر فيه باي خلل أو اضطراب كما تجلت مهارته في تجميع هذه الحياة الحافلة العريضة وهذا التاريخ الطويل المتشعب في صفحات قليلة لم تكن تجاوز المائتين من الحجم الصغير.

ومع أن المؤلف الكبير لم يضف إلى معلوماتي جديدًا يذكر فإنني اعترف مخلصًا بانني استمتعت بقراءة كتابه (الرسول في رمضان) استمتاعًا لا حد له ونقلني على أجنحة سحرية إلى ذلك العصر النبوي فشاركت فيه بعواطفي وانفعالاتي وعشت أجمل فترة مرت بتاريخ العالم.

أكبر موسوعة في الحديث النبوي الشريف
جهد علمي ضخم
استعراض وتحية
الحلقة الأولى(*)

من المؤكد أن هناك جهودًا فكرية علمية يبذلها جنود مجهولون لا يلتفت إليها الناس لأنهم لا يعرفون شيئًا عنها ولأن النقاد لم يحفلوا بها فلم يلفتوا إليها الأنظار. هذا إذا أحسنا الظن بنقادنا. أما إذا تابعنا أولئك الذين يؤكدون في كل مناسبة خلو حياتنا الفكرية من النقاد فقد انتهى الأمر.

اكتب هذا بمناسبة كتاب لفت إليه نظري صديق كريم من أعضاء أسرة الوادي المبارك ولست أدري أي عبارات الشكر تستطيع أن توفيه ما يستاهل من شكر على هذه اليد العظيمة التي أولانيها.

والكتاب الذي اتحدث عنه كتاب في الحديث وربما دهش القراء وأنا أنقل إليهم هذه الحقيقة. إذ إن كتب الحديث معروفة مشهورة وكلها في متناول يد القارئ والباحث فأي قيمة لهذا الصنيع الذي أتحدث عنه؟!

وأحب أن أطمئن القراء إلى أن هذا الجهد الذي سأتحدث عنه جدير حقًا بالشكر والتقدير والتنويه. فقد رفع عن رجال الفكر الإسلامي تهمة كانت لاصقة بهم كما حل بالنسبة لي مشكلة ظلت بلا حل منذ أخذت في معالجة البحوث العلمية والأدبية حتى اليوم.

ومن المعروف أن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم جمعت في عدد من الكتب أطلق عليها الصحاح والسند والمسانيد وقد عني علماء المسلمين بهذه الكتب عناية فائقة فدرسوها دراسة وافية من حيث السند والمتن ولم يتركوا زيادة لمستزيد حتى لقد صارت هذه الدراسة مضرب المثل في الشمول والدقة والعمق. وأعترف بذلك كل الباحثين من شرقيين وغربيين ولن تجد في تصوير ما وصل إليه علم الحديث من دقة ونضج وكمال أبلغ من قول

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة يوم الخميس ١٣٨٦/٩/٢٤هـ العدد (٨٥٥).

بعض العلماء (لقد نضج علم الحديث حتى احترق) ولكن علماءنا ـ أثابهم الله ـ لم يحفلوا لسبب أو لآخر بجمع هذه الأحاديث وتنسيقها في أبواب تضم كل الأحاديث ثم وضع فهارس وافية لها ترشد القارئ العابر وتعين الباحث الدارس وتختصر الوقت بالنسبة للجميع. صحيح أن بعض العلماء قام بجهد في هذا الصدد فجمع بعض الصحاح ولكنه جهد محدود فلم يشمل الأحاديث الواردة كما لم يُعن بتنظيم الفهارس بطريقة علمية منظمة.

ومن أجل ذلك كان الباحثون ـ من غير رجال الحديث المختصين ـ يعانون كثيراً من الصعوبات عندما يضطرون إلى مراجعة حديث. وقد عانيت أنا بالفعل من هذه المتاعب. إذ يحدث أن أبحث عن حديث لأستدل به في موضوع ما أو أكون على معرفة بالحديث من حيث المعنى ولكنني أريد التأكد من لفظه أو أكون عارفًا بالحديث ولكنني شاك في كلمة من كلماته وأريد النص كما ورد غير واثق مما إذا كان النص حديثًا مرويًّا عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم أو هو أثر صادر عن بعض الصحابة أو التابعين وأرغب التأكد من ذلك.

في جيمع الحالات وفي غيرها كنت أواجه صعوبات كثيراً ما أضطرتني إلى تعديل خطة البحث أو عدم ذكر الحديث وروايته بالمعنى أو تاجيل الموضوع إلى أجل غير مسمى كما يقولون. فإن من الصعوبة بمكان أن أرجع إلى كل كتب الحديث.. هذا إذا افترضنا أن كل كتب الحديث موجودة لدي، أما إذا لم تكن موجود فتلك صعوبة أخرى تضاف إلى الصعوبة الأولى. وقد لاحظت أن الفهارس الموضوعة لأشهر كتب الحديث مثل صحيح الإمام محمد بن اسماعيل البخاري فهارس عامة وليست تفصيلية ولذلك فإنني أراجع في الفهرس بابًا أتوقع أن يكون فيه الحديث المطلوب فلا أجده وربما عثرت عليه في باب آخر لم أتوقع أن يكون فيه وقد يكون ذلك بعد فوات الوقت.

هذه الصعوبات وأمثالها كان يجب أن يتنبه لها العلماء المختصون فيجمعون الأحاديث ويضعون لها الفهارس المفصلة وبذلك يخدمون الأصل الثاني من أصول التشريع الإسلامي وينشرونه بين الناس ويوفرون الكثير من الوقت

والجهد. وكثيراً ما تساءلت عن سبب عدم عناية علمائنا بهذا النوع من الدراسة. وكثيراً ما تطلعت إلى اليوم الذي أرى فيه مشروعًا علميًّا يحقق هذه الغاية.

حتى كان الأسبوع الماضي حيث لفت صديق كريم نظري إلى الكتاب الذي أتحدث عنه وهكذا استقبلت فرصتين فرصة الصيام وفرصة العثور على هذا الكتاب.

والكتاب هو (جمع الفوائد من جامعي الأصول ومجمع الزوائد). ويطالعك على غلاف الكتاب عبارة تقول (الموسوعة الدينية الشاملة التي تعتبر أكبر دائرة معارف في الحديث النبوي والتشريع الإسلامي.

ويبدو أن هذه حقيقة لا غبار عليها. فقد جمع الكتاب أربعة عشر كتابًا في الحديث (الصحيحان البخاري ومسلم والسنن للنسائي وأبن داود والترمذي وابن ماجة والموطأ لمالك والمسانيد لأحمد بن حنبل والدارمي وابي يعلى الموصلي وابي بكر البزار والمعاجم الثلاثة للطبراني الكبير والأوسط والصغير. فجامع الأصول لابن الأثير الجزري ومجمع الزوائد للحافظ الهيثمي).

وقد جمعها الإمام محمد بن حنبل بن سليمان وقد عرفه ناشر الكتاب بأنه الإمام محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي المغربي المولود بتارود بسوس الأقصى في سنة تسع وثلاثين وألف المتوفى بدمشق (سنة ١٠٩٤) وهي ترجمة ناقصة إلى درجة الإخلال ولا شك أن هذا العلامة الإمام الجدير بترجمة وافية ولن يضير الكتاب زيادة صفحتين أو ثلاث صفحات تعرف بهذا الرجل العظيم تعريفًا وافيًّا يتتبعه في جميع مراحل حياته ويصور للناس تصويرًا يحدد شخصيته ويرسم الطريق الذي أوصلته إلى العناية بالحديث النبوي الشريف وتحقيق هذه الخطوة العظيمة التي يتطلع إليها الباحثون من زمن بعيد. لا أريد أن أحمل الأستاذ الناشر وزر هذا التقصير فلعل له عذره وخاصة وأن الفترة التي عاشها الإمام محمد بن سليمان تعتبر من الفترات المظلمة التي قلَّت فيها المصادر التي تُعنى بتراجم الشخصيات العلمية والأدبية.

أكبر موسوعة في الحديث النبوي الشريف. جهد علمي ضخم. استعراض وتحية

الحلقة الثانية(*)

قلت في الحلقة السابقة إنني لا أُحمِّل ناشر كتاب (جمع الفوائد) وزر التقصير في ترجمة الإمام محمد بن محمد بن سليمان لان الفترة التي عاشها تعتبر من الفترات التي قلَّت فيها المصادر ولكنني بعد كتابة ما تقدم، رجعت إلى بعض المصادر التي لدي فوجدت أن صاحب (معجم المؤلفين) ترجم للإمام محمد بن محمد بن سليمان تحت اسم (محمد الرداني) وقال عنه (محمد الرداني ١٠٣٧ ـ ١٠٩٤هـ ١٦٢٨ ـ ١٦٨٣م محمد بن سليمان بن الفاسي الرداني ثم المكي (أبو عبدالله) محدث حكيم رياضي أديب عارف بكثير من الحرف والصنائع ولد بتارود، وجال في المغرب الأقصى والأوسط ودخل مصر والشام والقسطنطينية والحجاز واستوطنه وقلد النظر في أمر الحرمين وبنى رباطًا عند باب إبراهيم بمكة ومقبرة بالمعلا ثم خرج من مكة فانتقل إلى دمشق وتوفى بها.. من آثاره الجمع بين الكتب الستة وغيرها في الحديث وسمَّاه جمع الفوائد لجامع الأصول ومجمع الزوائد. وصلة الخلف بموصول السلف).

أما صاحب (الإعلام) فقد ترجم له تحت اسم (المغربي) ولم يختلف مع صاحب (معجم المؤلفين) في تاريخ ولادته ووفاته بالنسبة للسنة الهجرية أما بالنسبة للسنة الميلادية فقد كتب سنة ١٦٢٧ على أنها سنة ولادته وأتفق مع صاحب المعجم في سنة الوفاة وهو اختلاف يسير سببه ما بين السنة الهجرية والسنة الميلادية من فروق. وقال عنه صاحب الإعلام (محمد بن محمد بن سليمان الفاسي) (وهو اسم له) ابن طاهر الردواني المغربي: محدث عالم بالحكمة والرياضة والفلك من فقهاء المالكية ولد في (تارود) بسوس الأقصى وتعلم بالمغرب ورحل إلى الشرق وجاور بمكة والمدينة سنين ثم نفي إلى دمشق فأقام إلى أن توفى فيها. من كتبه (جمع الفوائد في

(*) نشر بجريدة المدينة المنورة يوم الأحد ١٢/١٠/١٣٨٦هـ العدد (٨٦٤).

الحديث وصلة الخلف بموصول السلف) وهو فهرس لمروياته وأشياخه و(بهجة الطلاب في الاسطرلاب) و(تحفة أولي الألباب في العمل بالاسطرلاب ومنظومة علم الميقات وشرحها والمقاصد العوالي منظومة ومختصر في الهيئة وجدول في العروض واخترع كرة عظيمة واسطرلاب).

معنى هذا أن محمد بن محمد بن سليمان لم يكن رجلًا عاديًا بل كان رجلًا خطيراً إلى حد بعيد. كان واسع الثقافة متعدد الجوانب فهو متحدث له باع طويل في الرياضة والفلك وهو عالم بالحكمة أديب مخترع يتقن كثيراً من الحرف والصنائع ثم هو بالإضافة إلى ذلك طموح واسع الآمال يجوب الآفاق من أجل الثقافة والمعرفة ومن أجل المجد ونيل رفيع المناصب. ولم تحل أسفاره الكثيرة ومطامعه الكبيرة عن اسهامه في التأليف والتصنيف والاختراع ثم هو يعمل لآخرته كما يعمل لدنياه فيبني رباطًا عند باب إبراهيم ومقبرة بالمعلا ويدخل في صراع سياسي مع منافسيه.

ويبدو أنه لم يغفل عن تدوين سيرته كما يظهر لنا ذلك من كتابه (صلة الخلف بموصول السلف) فهو فهرس لمروياته واشياخه ولا بد أنه تعرض فيه لتاريخ حياته. والرجل جدير بالدراسة والبحث والمصادر عنه متوفرة.. فحبذا لو عنى الناشر بإيفائه بعض حقه في صدر كتاب من كتبه يعتبر مفخرة من المفاخر وكنزا ثمينًا لا يستهان به.

وهناك ملاحظة أخرى فقد أورد الأستاذ الناشر أثابه الله (وهذا الكتاب ظهر في عالم المطبوعات منذ (٣٥) عامًا واكتفى الناشر بذلك فلم يعطنا فكرة عن هذه النسخة واين طبعت ومن تولى طبعها. وإذا كانت الطبعة الأولى فما هي الأصول التي اعتمد عليها الناشر السابق؟ وكيف حصل عليها؟ وهل كانت طبعة محققة؟ وما هي الملاحظات حولها؟

هاتان ملاحظتان جانبيتان لا تؤثران بأي حال في هذا العمل الذي يستحق عليه الناشر شكر الباحثين الدارسين بل وشكر المسلمين وأجر العالمين.

فهو عمل مشكور مبرور مقدور.

والناشر (هو السيد عبدالله هاشم اليماني المدني) وهو رجل فاضل من سكان

المدينة المنورة أعرفة معرفة لم تتجاوز دائرة السلام والتحية كلما التقينا بالطريق ونادرًا ما كان يحدث ذلك. ولكن معلوماتي عنه أنه رجل مستقيم نظيف اليد واللسان والضمير وأنه يعمل في شؤون التجارة وأنه رب أسرة سعيدة موفقة. تلك هي كل معلوماتي عن هذا الرجل المفضال. ولذلك لقد فوجئت عندما علمت أنه صاحب اليد البيضاء في إبراز هذه الموسوعة الدينية. ومما لا جدال فيه أنه تكبد كثيراً من الجهد والمال في سبيل إخراج هذا المشروع العظيم إلى الناس وهو يشير إلى ذلك في الكلمة التي ختم بها الكتاب تحت عنوان (خاتمة الطبع) حيث يقول: (وبعد فقد تم بفضل الله تعالى طبع كتاب جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد) وتخريجًا عليه (اعذب الموارد في تخريج جمع الفوائد) والله تعالى يعلم كم لاقيت في طبعه من عقبات كلها ذللت بعناية الله ومساعدته. فقد تطلب الأمر رحلة إلى القاهرة أنا وعائلتي وأولادي بالطائرة مرتين متتاليتين وفي كل منهما تستغرق الرحلة سبعة شهور لأجل الطبع والإشراف عليه، وقد كلفني ذلك الكثير من الجهد والكثير من المال. تحملت كل ذلك برضاء نفس وطيب خاطر مساهمة مني في نشر السنة وحفاظًا لها).

وهذا كلام صحيح يعرفه كل من اصطلى بنار الطبع والتصحيح وهي المتاعب التي تعصف بعزائم الرجال.

وهذا وحده عمل عظيم جدير بالإكبار والإجلال والتقدير فما بالك وقد أضاف إليه السيد الناشر عملًا آخر عظيمًا جعل من كتابه مشروعًا علميًّا متكاملًا ذلك بان قام بدراسة علمية موفقة فخرَّج الأحاديث الواردة في كتاب جمع الفوائد ووضعها في كتاب أطلق عليه (أعذب الموارد في تخريج جمع الفوائد).

ومن المؤكد أن هذه الدراسة كلفته كثيرا من الجهد والوقت واضطرته أن يرجع إلى كثير من المراجع الكبيرة والمصادر الهامة وقد أورد اسماءها في نهاية الجزء الأول من كتابه.

إن جهد السيد الناشر في تخريج الأحاديث لا يقل أهمية عن جهود المؤلف

العلامة بل إنه بعمله هذا قد أضفى على عمل المؤلف أهمية عظمى ولولا ذلك لكان في إطلاق اسم (الموسوعة الدينية الشاملة) كثير من المبالغة لأنها تصبح دراسة علمية ناقصة. أما بعد أضافة كتابة الأستاذ الناشر فقد أصبحت دراسة علمية متكاملة فهو صالح لقراءة الرجل العادي وصالح لمطالعة طالب العلم وصالح للعلماء والباحثين. فكلهم سيجد طلبه ومن أراد منهم الرجوع إلى الأصول الأولى أمكنه ذلك بسهولة ويسر. فقد أوضح الأستاذ الناشر رقم الجزء ورقم الصفحة عند تخريجه لكل حديث. لقد ذهبت لأشتري كتاب (جمع الفوائد) وطلب مني صاحب المكتبة مبلغا تراءى لي أنه كبير ولكنني بعد أن اطلعت عليه فإني على استعداد لدفع ثمنه أضعافا مضاعفة فإنه كنز لا يقدر بثمن. فشكرًا للسيد عبد الله هاشم اليماني باسم الملايين من المسلمين وطلاب الحقيقة والباحثين عن المعرفة.

إن مؤلف كتاب جمع الفوائد من أبناء وطننا ولولا أنه أخرج من مكة لما خرج ومن يدري فربما ألف كتابه أثناء مقامه بالحرمين وأن مؤلف كتاب أعذب الموارد وناشر الكتابين معا من أبناء هذا الوطن فهو من سكان المدينة. وإنه لمن دواعي فخرنا أن تكون هذه الموسوعة العظيمة في الحديث نتيجة جهد اثنين من أبناء أمتنا.

أن كل ما أرجوه أن تمد أحدى الجهات المختصة كرابطة العالم الإسلامي في مكة أو الجامعة الإسلامية في المدينة يدها إلى الناشر المفضال وتدعمه تدعيما ماديا كافيا ليستطيع إعادة طبع الكتابين في إطار من التحقيق العلمي.

وفي الختام نحيي بكل أخلاص وتقدير الرجل الذي يقول (امتزج حب السنة النبوية ودراستها في دمي ولحمي منذ الصبا) إنه مؤلف كتاب (اعذب الموارد في تخريج جميع الفوائد) وناشره معا، الأستاذ السيد عبد الله هاشم اليماني المدني ولم تقصر جهود المؤلف الناشر الفاضل في خدمة السنة النبوية المطهرة على هذين الكتابين ولكن تعدتهما إلى نشر كتب أخرى تحدث عنها المؤلف في ختام الجزء الثاني من هذه الموسوعة العلمية العظيمة.

ترتيب القاموس المحيط
جهد رائع يستحق التقدير

ترى هل فكر شبابنا في هذا التراث الضخم من المعارف الإنسانية الذي خلفه الأجداد؟ هل فكر شبابنا في الجهود العظيمة التي استنفدت أعمار أولئك العلماء الأعلام؟

اذكر هذا بمناسبة صدور الكتاب القيم (ترتيب القاموس المحيط) للأستاذ طاهر أحمد الزاوي وهو عالم فاضل سعدنا بالتعرف عليه قبل ثلاثة أعوام وأهدانا مشكورا مؤلفه القيم (تاريخ الفتح العربي في ليبيا) الذي نرجو أن نخصه بالحديث في فرصة أخرى.

والقاموس المحيط كما يعرف المثقفون هو كما يقول الأستاذ الزاوي في مقدمة كتابه (ترتيب القاموس) من أصح ما ألف في اللغة العربية نقلا وأدقها وضعا وأوسعها مادة. ومنذ أن صدر عن مؤلفه سار في الناس ذكره وأعجبوا به حيث كان وتدارسوه في كل مكان. وقد تلقاه جهابذة العلماء بالقبول وعنوا به شرحا وتعليقا واستخراجا ونقدا وعلى الرغم من القرون التي مرت عليه فإنه لايزال في محل الإعجاب والتقدير ولكن مجد الدين الفيروزبادي مؤلف القاموس لجا إلى طريقة عسيرة في تاليفه مما جعل الاستفادة منه ضيقة ومحصورة في نطاق محدود.

واذكر في هذه المناسبة أن طالبا جامعيا تقدم للأمتحان النهائي في إحدى الكليات الأدبية وكان الامتحان شفويا وطلب منه أحد أعضاء لجنة الامتحان قراءة نص من النصوص وتفسيره ويبدو أن الطالب قد أخطا في شرح إحدى الكلمات فطلب منه عضو من أعضاء اللجنة أن يستخرج المعنى من القاموس وكانت الطامة الكبرى بالنسبة للطالب. إذ إنه لم يلجا إلى القاموس أثناء دراسته وكان يكتفي بمعاجم اللغة الأخرى. ولكنه كان مضطرا إلى البحث عن هذه الكلمة التي اعترضت طريقه وأخذ يقلب في

أجزاء القاموس الأربعة عله يعثر على الكلمة ولكنه في الحقيقة كان يتخبط وخاصة ورهبة الامتحان عليه وست عيون تشخص إليه. وطال البحث وطال الانتظار وتمنى الطالب الخلاص بأي طريقة بدلا من هذا الموقف الرهيب الذي يكاد يقتله خجلا ورهبة وجاءه الخلاص في كلمات تفوه بها أحد أعضاء اللجنة طالبا إليه أن يريح نفسه من عناء البحث. فلديه مهلة طويلة تمتد عاما كاملا إذ ليس من اللائق أن يمنح (الليسانس طالب جامعي لا يحسن الاستفادة من المراجع).

وتأخر الطالب عاما كاملا عن زملائه قضاها في التعرف على أسرار القاموس وكل معاجم اللغة.

هذه الصعوبات وأمثالها لمسها صديقنا الأستاذ طاهر أحمد الزاوي كما لمسها من قبله مئات الألوف من الطلاب والعلماء منذ خرج القاموس إلى الناس قبل أكثر من خمسة قرون. ولكن الأستاذ الفاضل كان أكثرهم عزيمة فرأى أن يقدم للعربية وأبنائها خدمة لا تُنسى فأجمع أمره على تذليل الصعوبات التي تعترض طريق الراغبين في الاستفادة من القاموس وهداه تفكيره إلى أن خير وسيلة لذلك هي اعادة ترتيب القاموس على غرار المصباح المنير وأساس البلاغة وهي الطريقة التي سارعليها الأب لويس شيخو اليسوعي في معجمه المنجد. وقضى الأستاذ الزاوي ـ أمد الله في عمره ـ عشرين عاما في هذا العمل الجليل ولم يكتف العالم الفاضل بترتيب مواد القاموس بل نقل (بعض ما كتب عليه من هوامش تتعلق بتصحيح بعض الكلمات لغويا أو شرح معانيها مفردة لأصحابها كما وضع بعض الهوامش لتصحيح أسماء بعض البلدان أوالأمكنة أو التعريف بها) وهكذا صدر القاموس في ثوبه الجديد موسوعة علمية ضخمة جميلة التنسيق حسنة الترتيب مطبوعة طبعة متقنة.

وإن كان من العجيب حقا إن هذا الجهد الضخم لم يستقبل الاستقبال اللائق به ولولا خشية أن اتهم بالمبالغة لقلت إن جهد الأستاذ الزاوي لا يقل عن جهد صاحب القاموس لأن الطريقة التي سلكها المؤلف في ترتيب

مواد كتابه جعلته بعيدا عن متناول الجماهير فاصبح أشبه بكنز في صندوق زجاجي مغلق يراه الناس ولا يستطيعون الانتفاع به.

ولو عاد الفيروزأبادي إلى الحياة لمضى مسرعا إلى الأستاذ الزاوي يحييه ويعانقه ويحمد له صنيعه في خدمة العروبة ولغة القرآن. وربما كان الأستاذ سعيدا في قبره بعد أن تجدد الانتفاع بكتابه بهذه الصورة الرائعة التي تثلج الصدور وتبهج الفؤاد.

وبعد فهذا كتاب قيم نقدمه إلى وزارة المعارف وإلى جميع المؤسسات الثقافية راجين أن تعمر به مكتبات المدارس على اختلاف ألوانها.. فاقتناؤه ثروة وكسب كبير وشكرا للأستاذ الزاوي على ما بذل من جهد ووقت واكرم تحية.

من أدب الوصايا (*)

المغرب هو هذا الجناح العظيم من أجنحة العالم الأسلامي وتطلق كلمة المغرب على كل الأقاليم الواقعة غرب مصر في شمال إفريقيا وهي ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ولكن الإقليم الأخير هو الذي استأثر بهذا الاسم دونها فكل قطر من الأقطار الثلاثة شرق للقطر الآخر ولكن المغرب مغرب بالنسبة لكل ما دونه من الأقاليم وهو قطعا ليس شرقا بالنسبة لأي إقليم. وكان بعض الجغرافيين يميزون هذا الإقليم بالأقصى فيسمونه المغرب الأقصى. وقد سمي هذا الإقليم فترة من الوقت باسم مراكش عاصمته السياسة.

وبقاء الإسلام في هذا الجناح العظيم إحدى معجزات هذا الدين. فقد قاوم سكانه مقاومة عنيفة تجاوزت كل حد جميع المحاولات التي بذلت للسيطرة عليه، إلى أن جاء الإسلام الذي قوبل هو أيضا بمقاومة قاسية من سكانه تحدثت عنها كتب التاريخ بكثير من الإسهاب والتفصيل. ولكنه استطاع بعد جهد أن يثبت أركانه وأن يتسرب إلى نفوس اولئك السكان المتمردين فيسيطر عليها ويملأها بردا وسلاما واطمئنانا لما استطاع أن يطبع هذا الجزء العظيم من العالم بطابعه فتأتي نتيجة لذلك على كل المحاولات الحربية والدينية والاستعمارية. وحسبك أن تعلم أن ثلاثة من أشد الدول شدة وضراوة وقسوة وعنفا، هي اسبانيا وإيطاليا وفرنسا تسلطت على هذه الأقطار تسلطا ظالما واستعانت بكل ما تملك من أساليب البطش والقوة والجبروت من أجل إضعاف وحدته وتغيير لغته وسلب عروبته وتبديل دينه. ولم تترك وسيلة من وسائل العلم ولا سببا من أسباب العسف ولا سبيلا من سبل القهر إلا استغلته واستفادت منه واستعانت به في سبيل تحقيق غايتها. ولكنها فشلت فشلا ذريعا هدها وحطم أعصابها وجعلها

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة في يوم الثلاثاء الموافق ٢٨ من شهر جمادى الآخرة (١٣٨٦هـ) العدد (٧٥٧).

تضـــرب على غيـر هـــدى فتفتك بالآمنيـن وتعـتـدي على الغافلين وتصنع صنع المجانين.

وهكذا بعد قرن من الاستعمار والسيطرة والظلم تقف هذه الأقطار الأربعة تهتف بدعوة الإسلام وترفع راية الاستقلال وتعلي كلمة الحق وتعلن للإنسانية جمعاء أن دين الله هو الإسلام وأن رسالة السماء هي شريعة محمد وأن العربية لا تفنى ولا تزول لأنها لغة القرآن التي تكلم بها الله.

لقد كتب المغرب العربي بجميع اقطاره صفحات خالدة في تاريخ الحضارة الإسلامية وأسهم إسهاما كبيرا في دعم الحضارة الإنسانية وقدم للبشرية ثمارا ناضجة من بساتين الثقافة والمعرفة والفكر.

ولقد أحسن الإمام العظيم والعاهل المفدى إحسانا ستظل تذكره الأيام في زيارة المغرب لأن زيارته المباركة ستعيد وصل ما انقطع من أواصر الود وربط ما انفصم من وشائج الرحم ودعم ما وهن من أسباب القرابة.

والحديث عن المغرب يذكرني بوصية أدبية بل بقطعة فنية رائعة من الأدب الرفيع. وللوصايا في تاريخ الأدب العربي مكان مرموق. ويبدأ تاريخ (الوصايا) منذ العصر الجاهلي. فقد حفل الأدب الجاهلي بألوان من الوصايا تعتبر ذخرًا أدبيا ثمينا. كما حفلت عصور الإسلام على اختلافها بعدد كبير من الوصايا تدل على عبقرية العقل المسلم وعلى رجاحة الفكر الملهم وعلى سمو القلم البليغ.

وكان يظن أن عهد هذه الوصايا الرفيعة قد انتهى منذ زمن بعيد إلى إن قرأ الناس وصية على مستوى رفيع من الحكمة والبلاغة والذوق كتبها ملك مسلم إلى ولي عهده. فعرفوا أن الدنيا بخير وأن الإسلام إلى رفعة وأن العربية في تقدم.

أما كاتب هذه الوصية فهو البطل المسلم العظيم محمد بن يوسف. وتاريخه معروف ومواقفه لا تزال تقرع سمع الزمن تثير المشاعر وتهز الوجدان وتعصف بالقلوب الضعيفة والعزائم الخائرة والنفوس المترددة.

لقد تحدى الاستعمار الفرنسي وهو في أوج جبروته. ووقف كالطود الأشم لا سند له إلا الثقة بالله التي لا تحد وإيمان بالشعب لا يضعف واخلاص للوطن لا يتزعزع. فلم ترهبه قوة ولم يهزه نفي ولم يعصف به باطل. وهكذا عاد إلى أمته مرفوع الرأس شامخ الهامة باسم الثغر. يعلن للناس عظمة الإسلام وعزة المؤمن وصمود البطل.

وعندما استقرت الأمور بعد عودة الملك المظفر وبويع الأمير مولاى الحسن بولاية العهد بعث الملك محمد بن يوسف إلى ولي عهده بالوصية التي أشرنا إليها والتي ننشر مقاطع منها في هذا المقال كنموذج من نماذج الأدب الإسلامي الرفيع وتحية للبلد الإسلامي الشقيق الذي يستقبل فيصلنا العظيم.

يابني:

ها قد أفاء الله عليك من عوارف أنعامه وأضفى عليك سوابغ قبوله وإكرامه وألف بين القلوب على حبك وأطلق الألسنة بمدحك والثناء عليك فالحمد لله الذي شرح للإيمان صدرك ورفع بالأخلاق قدرك ونشر بالتضحية في الخافقين ذكرك وإياك أن تحيد عن صراط الإسلام القويم أو تتبع غير سبيل المسلمين فإنه لا عدة في الشدائد كالإيمان ولا حلية في المحافل كالتقوى واعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة وتقرب منه بالأعمال الصالحة ذراعا يتقرب منك بالتوفيق باعا واجعل القرآن المصباح المستنير الذي تستضئ به إذا ادلهمت الدياجي واشتبهت عليك السبل وليكن لك في رسول الله صلى الله عليه وسلم وصالحي الحنفاء أسوة حسنة اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده.

يابني:

أوصيك بالمغرب بلدك الكريم ووطنك العظيم مستقر الجد والوالد ومستودع الطارف والتالد خميلتك التي ارتاضت بنسائمها رئتاك وتملت من محاسنها مقلتاك وتغنت بألحانها شفتاك فحافظ على استقلاله ودافع عن وحدته الجغرافية والتاريخية ولا تتساهل في شيء من حريته ولا تتنازل عن قلامة

ظفر من تربته وإياك أن تقبل المساومة على أمنه وسلامة سكانه وإذا داهمته الأخطار أو تهددته الأعداء فكن أول المدافعين وسر في طليعة المناضلين كما أريتني تعرضت معي للبلاء فبدوت بطلا كامل الرجولة تام المروءة واخترت معي من أجل هذه البلاد شظف حياة الشرف على رغد عيشة الاستخذاء وارجع بين الفينة والأخرى إلى التاريخ يحدثك عن همم أجدادك وعزائم أسلافك وكيف أخلصوا النية حبا في حماية هذا الوطن وحياضه من الأهوال والأخطار فجندوا الجنود وأعدوا العدد لاسترجاع مراسيه وتحصين ثغوره ودرء الطامعين وصد المغيرين.. فكن يا ولدي خير خلف لخير سلف وليكن عملك لوطنك ومحافظتك على استقلاله ووحدته أمرا يقتضيه منك شرف المسؤولية وتفرضه عليك تقاليد الأسرة في آن واحد وكن يابني ديمقراطي الطبع شعبي الميول والنزعات. فأنت تعرف أن أسلافك الأكرمين ما وصلوا إلى الملك قهرا ولا اقتعدوا العرش قسرا وإنما كان تقدمهم إلى السلطان ضرورة دعت إليها مصلحة الوطن العليا.. آوى منهم الشعب إلى ركن ركين ولاذ بحصن حصين واجتمعت عليهم كلمته بعد ما وزعتها الأهواء وشتتها الفتن فحموا الذمار ونفوا العار واجتهدوا في رتق الفتوق ورأب الصدوع وحماية البلاد من المطامع ووقايتها مما يتهددها من أخطار.. متعاونين مع أمتهم مقتسمين وإياها الحلو والمر والسراء والضراء فاحرص يا ولدي على تتميم رسالة أسلافك والمحافظة على الأمانة التي من أجلها دعوا إلى الملك وتبوؤ أريكة السلطان وكن من الشعب وإلى الشعب يسعك ما يسعه ويضيق عنك ما يضيق عنه ولا تبخل عليه براحة ولا تضن عليه بمجهود وآثره على قرابتك الوشيجة وبطانتك المقربة فإنه أسرتك الكبرى وعشيرتك العظمى وتذكر أن جدك الحسن الأول كان عرشه على ظهر فرسه لكثرة تنقله في البلاد ومشيه في مناكبها متفقدا للرعية سامعا للشكاة مستأصلا لجرائم البغي والفساد فكن للناس بمثابة الأب الرؤوف والأم الرؤوم ترحم الكبير وتحنو على الصغير وتقضي الحاجات وتعين على النائبات. وتدخل الفرح بالرعية والعناية على القلوب. واعلم يابني أن الحكم خطة يبتلي بها الله من يشاء من عباده فواحد قدرها ورعى الحقوق وصان بها الحرمات

فرجحت بها كفته وكان من المفلحين. وآخر بطر بها وأشر وطغى واستكبر، فخف بها ميزانه وكان من **﴿الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾**.

فكن من الذين رجحت كفتهم ولا تكن من الذين خفت موازينهم ولن يتأتى لك ذلك إلا إذا أخذت أمرك بالحزم واستعنت على الرأي بالعزم، وعملت عمل اليوم في يومه ولم تؤخره إلى الغد وعظمت من عظم في عينيك بالحق وصغرت من صغر بالباطل، وبدأت بالأوكد قبل الأكيد، وقدمت الأوجب فإنه لا تقبل النوافل حتى تؤدى الفرائض، وبدأت بنفسك قبل أن تتجه بالنصح إلى غيرك وكن مخلصا في سرك وعلانيتك. عادلا في رضاك وغضبك ومقتصدا في يسرك وعسرك، مسويا بين الرعية في الحقوق والواجبات. فإنك منهم بمنزلة الأب وهم بمنزلة الأبناء واحذر من المزالق قبل وضع القدم فإن زلة الملوك لا تقال.

يابني:

وانت اليوم كبير الأسرة المالكة وعماد صرحها. وكما تقتضي ولايتك لعهدي أن تخلفني في الأمة تقتضي منك أن تخلفني في أسرتي. إن لهذه الأسرة عليك من الحقوق مثل الذي للأمة عليك فكن أمينا على مجدها غيورا على شرفها. حفيظا لسؤددها وعزها. وصل رحمها وحقق أمانيها. ولب في دائرة المعروف رغباتها ومطالبها واعمل على أن تكون مثلا أعلى لامك علما ونبلا واستقامة وفضلا. واوصيك على الخصوص بأسرتك القريبة وبطانتك الوشيجة، من إخوان وأخوات، وأمهات وكل من يلابسنا في حياتنا الداخلية ويقاسمنا معيشتنا البيتية الخالصة لهؤلاء.. كن منهم بمنزلتي منهم تجبر خواطرهم. وتدخل السرور على قلوبهم وتجعل عزك عزهم وسناءك سناءهم ولا تستأثر بشيء مما أفاء الله عليك إلا ما جعله القانون خالصا لك من دونهم ولا تنس يا ولدي أن المغرب من بلدان الأسلام وأنك واحد من المسلمين.. فضع نصب عينيك تلك الأخوة السامية التي بشر بها الإسلام ودعا إليها وبين حقوقها وواجباتها وبذر حباتها في قلوب معتنقيه حتى

أصبحوا بنعمة الله إخوانا وإن تباعدت أنسابهم وتناءت ديارهم ولا تنس ما أحاط دينك هذه الأخوة من سماحة وسجاحة ورحابة صدر وسعة فكر وبر واقساط حتى مع الذين لا يعتنقونه فاحرص يابني على تثبيت دعائم هذه الأخوه وتقوية أواصرها وكن والمسلمين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وكن شديد الاهتمام بقضاياهم تنصرها في المحافل الدولية وتدافع عنها في المجامع الأممية واعمل على أن تجعل المغرب بحكم موقعه الجغرافي صلة وصل بين الشرق والغرب وأداة ربط بين الحضارتين العربية والأوربية.

يابني:

هذه نصيحتي إليك أقدمها لك أمام الملأ جهارا. بعد ما أسررت بها إليك مرارا وتكرارا ويقيني أنك ستعمل بها لما اعهده فيك من حسن السمع وجميل الطاعة ورضاي ياولدي يحفك في حالك ومالك ودعواتي الصالحة تلاحقك في حلك وترحالك ورجائي في الله سبحانه أن ينير بصيرتك ويطهر سريرتك ويسدد خطاك ويهديك سبيل الرشاد.

المحسن الكبير والانتحار

الأستاذ عبد الكريم الخطيب شاب عصامي مكافح بنى نفسه ولم يعتمد على الآخرين وقد أتيح لي أن ألقاه عدة مرات فلمست فيه عن قرب شجاعته الأدبية وحبه لوطنه وجرأته في سبيله جرأة مبعثها العزة والوفاء والرغبة الصادقة في انهاضه وإسعاده.

وقد أخذ يتمرس بصناعة القلم منذ زمن ليس بالطويل وأقدم في شجاعته على طبع كتابين تفضل مشكورا فأهداني أحدهما. وقد حرصت على أن أوفيه حقه من التعليق والنقد. ولكنّ ظروفا معينة لم تمكني من ذلك وإن كان الكتاب لايزال على مكتبي وأرجو أن أفرغ له.

وعملية النقد تستلزم وقتا وجهدا وصبرا غير قليل بعكس المقالة الصحفية. وهذا بعض عذري للسادة المؤلفين الذين تفضلوا بإهداء كتبهم ومؤلفاتهم إلى ولم يسمعوا رأيي فيها.

وقد قرآت قصة اجتماعية للأستاذ عبد الكريم عنوانها (المحسن الكبير).. وخلاصتها أن رجلا متقدما في السن (ولا أريد أن أقول عجوزا لأن اللغويين يقولون إن العجوز لاتطلق إلا على المرأة الطاعنة في السن وأن بعضهم قد أجاز ذلك) تزوج فتاة في مقتبل الشباب رغما عنها؛ لأن أهلها آثروه بسبب ثرائه على ابن خالها وفتى احلامها الشاب الفقير. وقد انتقمت الفتاة لنفسها بأن انتحرت ليلة الزفاف وعندما علم فتاها وابن خالها بالأمر خولط في عقله ومات.

وجميل من كاتبنا أن يعالج هذه القضايا الاجتماعية الشائكة وأن يسخر قلمه لخدمتها وأن يستغل القصة للوصول إلى الهدف الذي يريد.

ولكنني أحسست وأنا أقرأ القصة أن صديقنا الكاتب كان في سباق مع قلمه فبدأ وكأنه يتعجل النتيجة أو كأنه يسوق القارئ سوقا ليطلعه على النتيجة

التي أعجب بها هو أي أعجاب. فلم يحاول أن يعمق وعي القارئ بأخاديد يحفرها في شعور القارئ ووعيه. بل كان كل همه أن يصل إلى النهاية المحزنة لاعتقاده بأن الفاجعة الأليمة التي أنهى بها القصة كافية جدا لإحداث كل التاثير الذي يرتجيه. ولا أنكر أن لها بعض التاثير في نفوس طائفة خاصة من القراء تسيطر عليها العواطف والانفعالات ولكنه ـ حتى بالنسبة لهذه الفئة يعد تاثيراً وقتيًا لا يستمر طويلا. ولا أريد أن أمانع فأقول أن هذا التاثير ربما أتى بنتيجة عكسية فاتهمت الفتاة باتهامات شتى وأتهم (فتى الأحلام) بالضعف واستعداده الوراثي للجنون.

ربما حرص صديقنا الكاتب على الانتقام من أسرة الفتاة أكثر من حرصه على معالجة مشكلة اجتماعية عويصة. وليته حاول الوضع في حل علاج المشكلة عن طريق تبيان آثارها بتمهل وأناة. وليته لم ينه حياة الفتى والفتاة بهذه النهاية القاسية وليته بسط لهما في الأمل فلعل ذلك أوقع في النفس وخاصة وأن (موضة) الانتحار بين الفتيات قد بدأت في الانتشار فأصبح من الضروري على المصلحين ورجال القلم أن يفرشوا الطريق بالورد. وأن يلتمسوا الحلول التي تساعد على البناء لا على الهدم وعلى تحقيق المزيد من الأطمئنان لا على المبالغة في إثارة الغبار وتعكير الجو وتنغيص الحياة.

ربما اعتذرالكاتب بأن القصة حقيقية فليكن ولكن مهمة الكاتب الفنان الذي يعالج أدواء المجتمع تختلف تماما عن مهمة المخبر أو محرر الأخبار.

شكرا للصديق الأديب وألف تحية.

مع الأيام

مولد قاص:

قرأت في فترات متباعدة بضع قصص لا تتجاوز أصابع اليد بالرغم من أن كاتبها مجهول الاسم في دنيا الصحافة. فقد لمحت فيها بريقا يظهر بين الحين والحين يشبه البريق الذي لا تخطئه العين النافذة عندما تقع على حجر يحتوي على بعض المعادن الكريمة فيدلك على أنك أمام منجم.

ولقد أثار هذا البريق انتباهي ودفعني إلى أن أقرأ قصص هذا الكاتب بشيء من الاهتمام فرأيت أنني أمام فنان موهوب. صحيح أن الريشة تهتز في يده وأن الظلال والألوان قد لا تبدو متناسقة كما يجب.. غير أنك لا تستطيع أن تنكر أنك أمام فنان أصيل في بداية الطريق لم تثبت قدمه بعد ولم يشتد عوده ولكنك تشعر شعورا عميقا بأنك أمام بداية تنبئ عن فن أصيل وموهبة خصبة ولعل أول ما تجدر الإشارة إليه في قصص هذا الكاتب الناشئ أن قصصه جميعا منتزعة من الواقع فهو لا يحلق بك في عالم الخيال ـ كما يفعل الآخرون ـ حتى تنقطع عن دنيا الناس وتعيش في عالم من الأوهام والأحلام فإذا عدت إلى دنيا الواقع شعرت كأنك هويت من شاهق.

فكاتبنا لا يفعل ذلك ولكنه يصور لك الأبطال والشخوص بطريقة تجعلك لا تنكرهم بل ربما رفعت أصبعك ووضعته على واحد منهم وقلت نعم هذا فلان.

فابطاله وشخوصه ليسوا دمى يحركها كما يشاء ولكنهم أناس يعيشون على الأرض يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وتنوء كواهلهم وقلوبهم بالمتاعب والآلام وقسوة الظروف ويسعون في شوق لاهث إلى الاطمئنان والأفراح وبهجة الحياة.

وهذه الملاحظة تدفعني إلى الظن بأن الكاتب يعكس من غير أن يشعر صورا

من حياته وظروفه وربما كان هذا هو سر التوهج والحرارة التي تبدو واضحة في قصصه رغم ضعف أداته وطراوة قلمه. أما لغة الكاتب فهي لغة سهلة واضحة ربما كانت قريبة الشبه باللغة الثالثة التي تحدث عنها توفيق الحكيم في ذيل قصته (الصفقة) وكتب بها القصة نفسها ولكن لغة الكاتب مع ذلك في حاجة إلى مران وصقل ولا بد للكاتب من أن يقرأ بعض كتب القواعد قراءة جادة ليستطيع التغلب على نقاط الضعف التي تظهر بوضوح في أسلوبه.

وكما تبدو تباشير الفجر الأولى من وراء الأفق البعيد مؤذنة بقدوم الفجر، فإن قصص كاتبنا المنشورة في (قريش) تؤذن بولادة قاص هو محمد يوسف شاذلي.

(أنات حائرة)

(أنّات حائرة) ديوان فريد للشاعر العملاق عزيز أباظة، هو ديوان فريد لأنه يخالف ما يعرفه الناس وما تعارف عليه الشعراء في إصدار الدواوين. فديوان الشعر عادة هو كتاب يضم بين دفتيه ما قال الشاعر طوال عمره أو في فترة من حياته في شتى الأغراض الشعرية.

ولكن ديوان (أنات حائرة) ديوان يتفرد بلون خاص هو الرثاء، وليس هذا فحسب بل إن الرثاء في الديوان كله يدور حول فرد واحد وهذا نوع جديد في دواوين الشعر.. فإذا عرفنا أن هذا الفرد الواحد هو زوج الشاعر أو زوجته منعًا للبس أدركنا جدة هذا الديوان وطرافته.

ولم يسبق لشاعر أن قصر ديوانه على رثاء فرد قبل عزيز أباظه باستثناء ديوان صغير سمَّاه صاحبه (اقتراح القريح واجتراح الجريح) وكله في رثاء ولده الذي اخترمته المنية صغيرا ـ ويظهر أنه لم يطبع بعد ـ وهو كما رأينا يدور حول ابن الشاعر.

وقد جرت تقاليد الشعراء في القديم على أنه ليس من اللائق أن يرثي الشاعر زوجته لأسباب ليس هنا مجال الحديث عنها ومن أجل ذلك رأينا شاعرا فحلا كالفرزدق عندما فقد زوجته وكان متعلقا بها ولم يستطع مقاومة رغبته في التنفيس عن ألمه وحزنه لفقدها رثاها بقصيدة افتتحها بالاعتذار عن تصرفه لمخالفة التقليد المتبع فقال:

لولا الحياء لهاجني استعبار   ولزرت قبرك والحبيب يزار

فديوان (أنات حائرة) هو أول ديوان يعبر فيه الشاعر عن مشاعره وآلامه تجاه زوجته الحبيبة.

ويبدو أن فقدان الشاعر زوجته قد فجر شاعريته كما تتفجر العيون من يابس الصخر فلم يعرف عن عزيز أباظة قبل حدوث هذه الكارثة أنه شاعر

يتمتع بكل هذه الحيوية والتدفق والقوة.. وكل ما عرف عنه أنه كان من أصدقاء شوقي وتلاميذه والمعجبين به.

ومن الطريف أنه جمع ما نظم من شعره وذهب به إلى الدكتور طه حسين وقدمه إليه على استحياء يطلب إليه أن يقرأه ويبدي رأيه فيه. ولكنه كان ذكيا فلم يشأ أن يطلع طه حسين على تخوفه من نشر هذا الشعر لأنه ليس شعرا على مستوى رفيع ولكنه لجا إلى أسلوب آخر ـ فقال له إنه متحرج من نشره لأنه لم يتخذ الشعر صناعة ولأنه يكره أن يتحدث الناس عن مدير يقول الشعر. وفوجئ طه حسين بشعر فيه جودة وفيه قوة وفيه صدق فكتب للشاعر يقول له (هون عليك إذًا يا سيدي واحتمل خطبك كما احتملته إلى الآن صابرًا جلدً كريما محزونا مع ذلك أشد الحزن مصورًا حزنك وألمك في هذه الصورة الشعرية السمحة السهلة القريبة التي تبلغ القلوب في غير مشقة وتهزها في غير جهد وتدميها في غير عناء في هذه الصورة الشعرية التي إن لم تبلغ من الروعة ما يبلغه فحول الشعراء. فقد بلغت من السماحة والنفاذ إلى القلوب ما يبلغه الشعر الصادق الذي يصور عواطف صادقة ويترجم عن نفس صادقة).

وبعد أن يتحدث طه حسين عن وسائل احتمال الآلام مسليا ومواسيا لعزيز أباظة يقول (وأنت تستعين على آلامك حين تحس هذا الضعف الذي يوشك أن يدنيك إلى القنوط. بهذا الشعر الخصيب الذي يرضي شعورك الديني ويرضي شعورك العربي ويرضي إكبارك للسلف وإعجابك بالماضي وأملك في المستقبل وتقديرك لمثلنا العليا) ويواصل طه حسين حديثه قائلًا (لقد كنت متحرجا يا سيدي من نشر هذه الصحف لأنك لم تتخذ الشعر صناعة ولأنك تكره أن يتحدث الناس عن مدير يقول الشعر فمن الذي وقف الشعر على الذين يتخذونه لأنفسهم صناعة؟ ومن الذي يمنع الإنسان الحساس من أن يصور إحساسه ويتغنى حزنه شعرا إن واتاه الطبع؟ وما أحسن ما يواتيك طبعك، وهل على الذين ينهضون بأمور الإدارة ومناصبها جناح أن يحسوا ويشعروا ويعبروا عما في نفوسهم من خاطر يخطر وعما

في قلوبهم من عاطفة تثور؟)

ويختتم طه حسين حديثه بهذه الخاتمة الطريفة فيقول (لا عليك يا سيدي احتمل حزنك كما احتملته إلى الآن جلدا كريما ورفه عن نفسك كما فعلت إلى الآن بمثل هذا الشعر الذي أقل ما يوصف به أنه يرفعك عن الاثرة ويجعل من مصابك عزاء لبعض النفوس وعزاء لبعض القلوب) (وصدقني يا سيدي أن شر الخطوب ما كان عقيما يدفع إلى الجدب وخير الخطوب ما كان خصبا يؤلم ويؤذي ولكن الناس يجدون فيه على ذلك نفعا وغذاء).

وهكذا كان مصاب المدير عزيز أباظة[1] هو الشرارة التي أشعلت هذا البركان الذي بدت إرهاصاته بديوان (أنات حائرة) ولولا هذه الكارثة لبقي عزيز أباظة فردًا عاديًا من الناس وإن كان موظفًا كبيراً. ولكن هذه الكارثة ولدت شاعرًا يقول عنه الأستاذ عباس محمود العقاد (ولقد صح في شاعرنا المهذب ما صح في لورد بيرون حين كان يقول نهضت من فراشي ذات صباح فألفيتني مشهورًا).

---

(١) عزيز بن محمد عثمان أباظة، شاعر مصري من رجال الادب واللغة والقضاء، ولد في (الربع ماية) ١٣١٦هـ ـ ١٨٩٨م بالشرقية، وتخرج بالحقوق في القاهرة (١٩٢٣)م، وعمل في المحاماة ثم كان مدعيًا عامًا فقاضيًا، فمن اعضاء مجلس النواب (١٩٢٩م)، وتولى اعمالًا إدارية، فكان حاكمًا عسكريًا بمنطقة القناة (١٩٤١م) فمديرًا لاسيوط (١٩٤٧م)، وعين عضوًا بمجلس الشيوخ، ثم بجمع اللغة العربية (١٩٥٩) والمجمع العلمي العراقي، وتوفى بالقاهرة (١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م).

له مؤلفات مطبوعة كلها شعرية، منها «ديوان» و«إناث حائرة» صدر في شهر يونية ١٩٤٣م و«قيس ولبنى» مسرحية، «العباسة» مسرحية و«عبدالرحمن الناصر»

و«شجرة الدر» و«أوراق الخريف» و«قافلة النور» و«قيصر» وآخر كتبه قبل وفاته «من إشراقات السيرة النبوية».

المرجع. للإعلام للزركلي مج ٤ ص ٢٣٢ .

في بطحاء مكة(*)

رفت الأرض حولها والسماء — وتناهى لها السنى والسناء
وزكا عندها الهدى فهي للكو — ن جمال ورحمة وإخاء
قف ببطحائها قبالة بيت الله — واخشع فإنها البطحاء
بارك الله حولها واجتباها — فزكت في صعيدها الأنبياء
الذبيح الكريم والذابح السمح — حنيف نمتهما حنفاء
رفعا بيتها العتيق على التقوى — فعز الباني وطال البناء
قُدُس تُشرَع الوجوه إليه — ما تراءى صبح وقامت عشاء
وترامى له الحجيج وهم للأين — نهب وللسرى أنضاء
أنفس لليقين ظماى فما تبلغ — حتى بنجاب ذاك الظماء
وقلوب للنور تهفو فما تشرف — إلا ونورها لألاء
قلت للنفس وهي نهب الأحاسيس — ترى وتفتلى ما تشاء
رهبة عند روعته يتساوى — عندها الأيذُون والضعفاء
إيه يا نفس إن تاريخ هذا الكون — ضمته هذه الأنقاء
قرية تغمر العوالم ربا — وسنى وهي صفصف جرداء
عَفَّرَ الدَّهر راسَه في ثراها — وعنت عند قدسها الجوزاء
وجثت عزة الملوك لديها — ومعالي الأمور والكبرياء
قل لأم القرى عدتك العوادي — وسقت رملك الطهور السماء
قد ظلمت الرسول وهو شعاع الله — تُجلى بنوره الظلماء
كيف أنكرت بعثه وهو منذ — أنجبت صدق وعصمة ووفاء؟

(☆) من ديوان أنات حائرة تاريخها: يناير ١٩٤٣م يوافق شهر محرم ١٣٦٢هـ.

على قبر خديجة أم المؤمنين

هذا الجلال لهُ وهذا الرَّونقُ ... وهو المسوَّى بالصعيد الملصقُ
قبر تراه فلا تكاد.. وربما ... ضَوِى الفتى وهو الأعز الأعرق
إن لم يرق للعين فهو مهابة ... تعنو لها نفس ويخشع مَفْرِق
جمع الخلائق في سمو طرازها ... وفريدها هذا الحفيرُ الضيق
يكفيه من عليا المنازل أنه ... يَسنَى بأم المؤمنين ويسمُق
ولقد وقفت به وقد وقبَ الدُّجى ... فتعاظمتني روعة تتدفق
والنفس بالصور الجسام حفيلة ... تُجلى لأم المؤمنين وتمشق
يا أم سيدة العقائل لم يتح ... لكريمة فضلٌ كفضلك مُعرِقُ
قد ثبَّت الإسلام أنكِ كهفُه ... يوم النضال وحضنه المترفق
أرأيته يسعى إليك وقلبه ... مما رأى بحِراء عانٍ مُقْلَقُ
زملته وكففتِ ثورة نفسِه ... وأَساهُ سابغ عطفك المترقرق
وسكبت في أوصاله ثقة فلا ... وهمٌ يطل ولا وساوسُ تَطْرق
فمضى بعينك يُبْلِغُ الكونَ الهُدى ... ثَبْتَ الفؤاد عن الهوى لا ينطق
يهنيك أنك قد ظفرت بواحد ... هو في الوجود الواحد المتفوق
ما في الورى منذ الخيلقة سابق ... لكريمةٍ إلا وزوْجك أسبق
يا روض أم المؤمنين مطهراً ... يهفو له غرب وينزع مشرق
ذكرتني «بالربعمائة» مضجَعاً ... بخديجةٍ أخرى يرف ويعبَقُ
فيها مَشَابِهُ من خديجة جمة ... والقدوة العليا ترام فتلحق
فضل وإيثار وتضحية واعتا ... ب ومعروف يصوب فيغدق
وتمسك بالعروة الوثقى على ... علم بها وتجمل وترفق
ونَبَالةٌ مكسوبة موروثة ... أرسى وطائدها نصاب معرق
ذهبت كما ذهبت بشاشة نعمة ... ومضت كما يمضي السنا المتألق
أنستهما ملء النواظر طفلةٌ ... الحسن في قسماتها والرونق

تختال في حلل النعيم وتنثني ... وترِفُّ في وشي الشباب وتبرق
العيش يندى والبشاشةُ تزدهي ... والأنس سَكْبٌ والمنى تتحقق
والدار حالية الجوانب طلقة ... حتى لكادت بالرفاهة تفهق
سعدت بمسعودين يجمع شملَهم ... حدب وعاطفة وحب غيدق
وأَتَتْ لهم نعم الدنا فتنعموا ... ودنا لهم ورد الهناءة فاستقوا
وتآلفت أرواحهم وميولهم ... كالراح بالعذب الفرات يصَفَقُ
حتى إذا أوفى نعيمهمُ على ... غاياته فتملأوا وتذوقوا
عصف الزمان بركنهم فتصدعوا ... وهوى الردى بملاذهم فتفرقوا
وانجاب أنسهمُ فعين ثرة ... وجوانخ تدمى وقلب مخرَق

وحي يثرب(*)

أتـلـك روابـيـهـا الـعـلا وهـضـابها ... وهـذي الـقـبـاب المشرفات قـبـابها؟
نـعـم إنها مـثـوَى الـرسـول وروضُـه ... تـقـدس واديها وطـاب تـرابها
أفـضـنـا إلـيـهـا خـاشـعـات قُـلـوبُـنـا ... مـلـبـيـةً أحـنـاؤهـا وشـعـابهـا
ولـمـا بـلـغـنـا راوحَـتْـنَـا مـشـارفٌ ... يـرفُّ عـلـيهـا طـهـرهـا وانـتـسابُها
وشـدَّت إلـيـهـا أعـيَن الـركـب روضـة ... تـعـالى عـلى لحظ الـعـيـون جـنـابُها
مـبـاركـة الأفْـنَـاءِ لـمَّـاحـة الـسَّـنـى ... تـضـوع مـسـكًـا سـاحـهـا وقـبـاؤهـا
وقـفـتُ ومـا سـلـمتُ حـتـى تـرادفَـتْ ... خـواطـر نـفـسٍ تـنـتـحـيـهـا مـصـابها
عِـذَابٌ مـن الأيـام أقـلـع أنـسـهـا ... ولم يـبـق إلا مـرهـا وعـذابها
وأطـيـاف ذكـرى صـابها طَـمَّ شُـهَـدهـا ... بـروحـيَ شـهْـدُ الـذكـريـاتِ وصـابها
ذكـرت الـتـي كـانـت تَـمَـنَّـى لـو انها ... تـنـاهـت إلى روض الـرسـول ركـابُها
دعـتـني فـلم أُطلب وثـنـت فـلـم أجـب ... فـكـان بـكـاءُ الـقـانـتـات عـتـابها
وقـلـت لـهـا في قـابـلٍ فـتـهـلـلـت ... فـمـا أن دنـا حـتـى دهـانـا ذهـابها
وددت بـعـيـنـي لـو أجـبـت طـلابَها ... وكـان يـسـيـراً أن يُجاب طـلابُها
ذوت مـثـل أفـواف الـربـيـع ونـوْرِه ... جـفاها الـنَّـدَى وانـحلَّ عـنـها سـحابها
وقـلـت ودمـعـي مـسـتـهـلٌ وأضـلُـعـي ... بـمـا لـعـجـت مـا يـسـتـقـر اضـطـرابها
سـألـتـك ربي أن يَـعـز مُـقـامُـهـا ... لـديـك ويـسـنـى في حماك مـآبها
إلـيك مـثـابي ربَّـنـا ومـثـابُها ... وفـيك احـتـسابها بها وجـلَّ احـتـسابها

(☆) مؤرخه في شهر ديسمبر اعم ١٩٤٢ - ويناير ١٩٤٣ .

ساعة في البقيع [*]

يا تراب البقيع رواحك القطر ... ووالاك يا تراب البقيع
روضة أنت للكرام الميامين ... من الكابرين صحب الشفيع
المباهيل من بناة المعالي ... والمصابيح من هداة الجموع
رضى الله عنهُمُ واجتباهم ... من قيام وسجد وركوعِ
قهروا الدهر بالشهادة والأخلاق ... والنفسَ وبالهدى والقنوع
يوم جزنا باب النساء إلى البطحاء ... نسعى في روعة وخشوع
وجف القلبُ رهبةً وتهاوت ... من مآقيَّ سافحاتُ الدموعِ
أجهش القلب جهشة بالبقيع ... واتنزى في ركنه المصدوع
ذكر العهد: عهد إلفٍ عزيزٍ ... عند عيشٍ سمحٍ وشملٍ جميع
فتلاقى حنينه وحنيني ... وتَبارتْ دُموعُه ودموعي
قال لي صاحبي: رجعت إلى البثّ ... وشيكاً ولات حين رجوع
قلت دعني ألا ترى العيش أقوى ... يوم أقْوَتْ ممن ألفتُ زبُوعي
الصروح التي انقضضن صُروحي ... والضلوع التي احترقن ضلوعي
نبهت هذه القبور.. جوى الوخد ... وهاجت. تبارحَ المضجوعِ؟

هذه أيها السادة المشاهدون[1] مختارات قليلة من ديوان أنات حائرة للشاعر العظيم ضيف أميرنا الكبير الأديب الشاعر عبدالله الفيصل فمن هو هذا الشاعر وما قصة أناته الحائرة؟

ذلك موضوع الحلقة القادمة إن شاء الله[2].

(☆) من ديوان انات حائرة مؤرخه في شهر يناير ١٩٤٣م الموافق شهر محرم ١٣٦٢هـ.

(١) من تاريخ القصيدة يتضح ان الشاعر قد شهد حج عام ١٣٦١هـ.

كما يظهر انها حلقة القاها المؤلف في التلفاز السعودي وكذلك الحلقة الآتية:

(٢) يظهر أن هذه الحلقة وما قبلها وما بعدها حلقات اعدت لتلقى تلفازيا.

أمنية (*)

الحلقة الأولى

أقول وقلبي سابح في شجونه ... وجفني بمنهلّ الدموع غريق
هل الله يهديني إلى حج بيته ... فإني لنزَّاغ إليه مَشوقُ
تنازعني نفسي له فأردُّها ... إلى أمل في قابل فَتَتُوق
وهل أنا مجدود فمفض لروضة ... تضيء بنور المجتبي وتروق
تضوع في أرجائها الطهر والسنى ... وذِكْر كعَرف المسك وهو فتيق
وحل بها عقل عَنَا الدهر عنده ... وخلْق بإكبار الوجود خليق
تسامت بوحدانية عز شأنها ... وعز بها بيت هناك عتيق
تألق وجه الكون من يوم بعثه ... بما جاء يلقيه له ويسوق
حواميم يبلى الدهر وهي جديدة ... جلاها رؤوف بالعباد رفيق
ذكرت سنَى ماضئ والدهر محسن ... وعيشَي ممدود الظلال وريقُ
وزينب لي أنس وأمن ورحمةٌ ... وهذى وعرف ساكب وصديق
لك الله من مجهودة شفها الضنى ... فأضوت ورعيان الشباب أنيق
ومرزوءة في أهلها دك ركنها ... شقيقة نفس غُوضِرت وشقيق
لقد حز في نفسي أساك وهدني ... نواك وإن أصبر فسوف أزوق
لئن حقق الله الأماني لم أبت ... بأم القرى إلا وأنت رفيق
يؤدي جليل الغرض عنك موفق ... أمين على العهد الوثيق وثيق
لعلي إذا جئت المحصب من منى ... وطوفت بالبيت الحرام أفيق
أفيق من الخطب الذي جل خطبه ... ألا كل خطب دونه لدقيق

يقول الأستاذ العقاد عن عزيز أباظة صاحب ديوان (أنات حائرة): (ولقد صح في شاعرنا المهذب ما صح في «لورد بايرون» حيث كان يقول (نهضت من فراشي ذات صباح فألفيتني مشهورًا) (فلم يعرف الراصدون هذا

(☆) من ديوان أنات حائرة نظمها في الإسماعيلية في شهر يوليه ١٩٤٢م.

الكوكب إلا وهو في برجه الأسنى قد جاوز جانبي الأفق وأصعد في سمت السماء).

ولو قضى (عزيز أباظة) عشرين سنة في السعي إلى المكانة الأدبية التي يعرفها له الأدب العربي الآن لما كان في ذلك بالكثير على تلك المكانة لأنه باتفاق الجلة من العارفين شاعر من شعراء الطبقة الأولى في اللسان العربي ومؤلف من مؤلفي القصص التمثيلي المعدودين في هذا الزمان وتلك منزلة رفيعة لا يكثر عليها أن تدرك في عشرين سنة أو فيما يربو على العشرين ولكن الأستاذ عزيزًا لم يعرف بهذه المنزلة في عشرين سنة ولا في عشر ولا فيما دون ذلك من سنين بل عرف بها في اسابيع قلائل بغير مكابرة من أحد ولا رغبة في المكابرة ممن يستطيعها ويهواها).

ذلك ما قاله العقاد في شاعرنا العظيم ولو كنا نسير في عصرنا الحاضر على نفس المقاييس التي كان يسير عليها المتادبون في العصر الجاهلي لأطلقنا على شاعرنا لقب (النابغة) كما أطلقه شعراء ذلك العصر السحيق على قيس بن عبد الله فأصبح يعرف بالنابغة الجعدي وكما أطلقوه على زياد بن معاوية فاشتهر بالنابغة الذبياني لأنهما برزا فجأة إلى الوجود الأدبي بدون مقدمات أو إرهاصات وقدما لأسواق الأدب ومحافل الشعر قصائد ناضجة على مستوى رفيع.

وذلك ما فعله عزيز أباظة في عصرنا الحديث. لقد كان ديوانه مفاجأة مثيرة لكل محافل الأدب إذ لم يعرف الراصدون ـ كما قال العقاد ـ هذا الكوكب الا وهو في برجه الأسنى ولم يعرف أحد قبل ذلك إلا أنه من أصدقاء الشاعر الخالد أحمد شوقي ومن محبيه والمعجبين به.

ويعود الفضل ـ دون مراء ـ إلى تلك الكارثة التي منى بها الشاعر ونعني بها فقدانه لزوجته وهي كارثة تحدث في كل زمان ومكان فلا تترك إلا آثارًا ضئيلة لا تتجاوز حدود الأسرة والمعارف الأقربين، ولكنها تترك آثارًا ضخمة بعيدة المدى حين تنزل على قلب الشاعر وفؤاد الأديب كما حدث بالنسبة لشاعرنا فلم ينفس عن نفسه بالوسائل التي يلجأ إليها العامة من الناس

ولكنه نفس عنها بالكلمة الجميلة والتعبير البليغ واستطاع بذلك أن يجتذب إليه أعدادًا لا تحصى من المثقفين والقراء الواعين يشاركونه هول فاجعته ويستمعون إلى أنينه وتأوهاته بقلوب خافقة وعيون دامعة ونفوس ضارعة.

وهكذا تتحول الكوارث حين تقع على الصفوة من رجال البيان وصناعة القريض إلى نعمة يسعد بها الأدب وتعتز بها الثقافة ثم تصبح جزءًا من تراث الأمة الغالي ولولا هذه الكارثة التي مني بها شاعرنا لفقدت الآداب العربية في أغلب الظن هذه الثروة الشعرية الضخمة ولما عرف الناس شاعرًا عملاقًا يسمى عزيز أباظة.

كان شاعرنا الكبير مرتبطا بزوجته قبل اقترانه بروابط أسرية، ثم بنى بها زوجة له فازداد تعلقه بها تعلقا لا حد له ويبدو من تعبيرات الشاعر أنها كانت زوجة مثالية جمعت الجمالين جمال الخُلُق وجمال الخَلْق كما كانت تتمتع بشخصية بارعة فثقافتها واسعة وعقليتها راجحة وشعورها بمسؤوليتها تجاه زوجها وأولادها عميق مع عراقتها في النسب وعلو منزلتها في الحياة.

وامرأة من هذا الطراز كنز لا يقدر بثمن ونعمة من أجل نعم الله. ولقد أذكرني هذا بما ارتآه بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**﴾ حيث يرون أن المراد بحسنة الدنيا هي المرأة الصالحة بأوسع ما تحمله كلمة الصلاح حين توصف المرأة. كما ذكرني هذا بقول الله تعالى ﴿**وزكريا إذا نادى ربه رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين**﴾.

فإن الله جل جلاله يمن على عبده ونبيه زكريا بأنه أنعم عليه بنعمة لا يفيها شكر هي اصلاح زوجه.

ذكرت كل هذا لأصور هول فجيعة شاعرنا وأن هذه الفاجعة أهل لتفجير الشاعرية في صورة تفجير لم يقف عند إصدار هذا الديوان (أنات حائرة).

ولكنه تعداه إلى مجالات أخرى.

ولنستمع للشاعر العظيم وهو يقدم لنا صورة رائعة عن ذلك الكنز الذاهب:

عشنا على سَحْرِ النعيم ونحره ... حتى تورّدكِ الردى فطواك[1]
نعدو على ورد الوفاق ونوره ... ونبيت لم نعتب على الأشواك
فإذا رأيت الأمر لم آنس له ... شفعت عطفك واستعنت حجاك
وإذا اعتركنا مرة عرض الهوى ... فمحا بسحر عصاه كل عراك
وإذا هفت نفسي لغير كريمة ... جرّذت حزمَك طبَّه ونهاك
فكففتها في حكمة ولباقة ... وبلغت بالمس الرفيق مناك
وإذا النفوس إلى توائمها اهتدت ... سعدت وتلك مراتب الأملاك
وإذا اهابت بي العلا شيعتني ... بصريمةٍ يقظى وعزمٍ شاك
ودفعتني ثبت الخطا مستعصمًا ... بالله مهتديًا بنور هداك
جنبتِني زَلَلَ الصبا وعِثاره ... ومضى يُهذبُ لي الحياةَ صِباكِ

لا تستطيع وأنت تقرأ ديوان (أنات حائرة) للشاعر عزيز أباظة أن تكتم إعجابك بالصور الشعرية التي يرسمها الشاعر لفقيدته العظيمة فهو يرسم لك بتعابيره الشعرية البليغة صورة للزوجة المثالية التي لا يشغلها إلا الوفاء لزوجها والعناية بأولادها والوقوف خلف رجلها تشد أزره وتقوي أمله وتدفعه إلى الأمام. وهذه بعض الصور. فمن قصيدة عنوانها (يوم ميلادي) يقول الشاعر عن زوجته:

فقدتُها خُلَّةً للنفس كافيةً ... تكاد تُغني غَناء الماء والزادِ
وموئلًا أجد الأمن الكريم به ... إذا تَعَاوَدَني بالبغي حسادى
تحنو عليّ وترعاني وتبسط لي ... في غمرة الرأي النصيح الهادي

ثم يخاطبها بقوله:

يا أخت ذي الرونق الموشى من عمري ... وعدل نفسي من الدنيا وأولادي
كنا على أيكة الدنيا ورفرفها ... نختال في نشوة منها واسعاد
والدار حالية تزهو بربتها ... كما أزهي بالنمير السلسل الوادي
تضمنا بجناحي رحمة وهدى ... كالطير تمشي على أفراضها العادي

(١) من قصيدة للشاعر بعنوان «بعد عامين» تاريخها ـ الاسكندرية يونية ١٩٤٤م.

ومن قصيدة عنوانها (وحي الغروب)[1] يقول الشاعر مخاطبًا زوجه:

يا ملاذي إذا افتقدت ملاذي وصديقي إذا تجنَّى صديقي
كيف خَلَّفتِنِي وقد كنتِ روحاً وسلاما أضلَى عذابَ الحريق؟!
من يواري نقصي ويعمل ما اسطاع على حسمه بحزم رفيق؟
من يسري عني إذا شفَّني الهم ويشفِي نفسي؛ ويهدي طريقي؟
وأرى وجهه الصبيح فألفى في تقاسيمه سَنَى التوفيقِ
من معِيني بثاقبِ الرأي يجلُوه وليدَ التذهيب والتحقيقِ؟
من يقيني مصارع اليأس بالتشجيع بزجيه في يقين عميق؟!
من إليه نجوَايَ إن ريعَ صدري بملمٍّ من الخطوب مُحيق؟!

ومن قصيدة بعنوان (ذكريات) يقول الشاعر:

ذكرتك عند أحداث الليالي فإنكِ كنتِ لي منها مجنَّا
إذا نزَلَتْ أشار إليكِ قلْبي وأجهش في أضالعه وأنَّا
فديتك من أطالعه بهمِّي ومن أشكو له بثًا وحزنًا؟!
ومن أفضي له بحديث نفسي ونجواها إذا ما الليل جَنَّا؟!
ومن في أذنه يا زين همس إذا عَمٌّ جفا وأخ تجنَّى
فقدتك زوجة، وأخًا، وأختًا وأمًا برة، وأبًا، وخِدْنا
وناصحة تزف الرأي فصلًا إذا ما أَوْجُهُ الرأي اصطَرَعنَا
وحافزةً لكل عظيم أمرٍ وهادية خطايَ إذا ضللنا
وكنت عليمة بكثير نقصي سواء ما استبان وما استجنا
عرضت له بتهذيب وئيد ومن يهمم بإصلاح تأني
وكنت إذا جهلت بذلت حلمًا فعدت إليكِ معتذرًا مُعَنَّى
وكنت إذا خرجت وضاق صدري سكبت عليه أنسك فاطمأنا

ولن نستطيع أن نقف عند كل بيت من هذه الأبيات أو عند كل صفة من الصفات فذلك يتطلب وقتا طويلا ولكننا لا نستطيع أن نغفل الإشارة إلى

(١) تاريخها - بورسعيد في سبتمبر ١٩٤٢ .

الصور المتكاملة التي رسمها الشاعر للزوجة المثالية في بيت واحد حين قال:

فقدتك زوجة واخا واختا ... واما برة وابا وخدنا

فقد جمع الشاعر في بيته من المعاني والصور مما تقصر عن بيانه الصفحات كما أن من الضروري أن نشير إلى أن حرص الشاعر على إبراز هذه الصفات المعنوية في قوالب متعددة أوردنا نماذج منها نقول إن حرص الشاعر على ابراز هذه الخلائق مدفوعا بدوافع من وراء الوعي يدل على أصالة هذه الخلائق وعلى أنها نعوت حقيقية عاش الشاعر متفيئًا خلالها وليست مجرد كلمات ثناء تقال في معرض الرثاء.

وهناك أمر له أهميته البالغة يلحظه القارئ لهذا الديوان ونعني به سيطرة العاطفة الدينية على الشاعر وزوجه سيطرة ملأت شغاف نفسهما فهما مسلمان حقيقيان محبان لدينهما معتزان بشعائره. ونذكر على سبيل المثال قول الشاعر عن زوجه من قصيدة بعنوان (عرفات):

وقفت أناجي الله عند المشاعر ... وقد خشعت نفسي وجاشت خواطري

وقلت له: قد شفها فإذا بها ... ضنى دب في حال من العمر ناضر

وحاقت بها الأحداث شتى شكوكها ... فلم تلقها إلا بإيمان صابر

وقلت له.. يا رب اقسم صادقًا ... وأنت عليم ربنا بالسرائر

فما برمت يومًا بداء ولا شكت ... لغيرك ما قدرته من مقادر

وما فترت عن شكر نعماك عندها ... ورب صحيح ناعم غير شاكر

فأجزل لها يا رب نعمة منعم ... لديك وطالعها بغفران غافر

وقول الشاعر في قصيدة بعنوان (نجوى):

وأُقسمُ كانَتْ لليتامى دريئة ... تَذُود الأَسى عنهم؛ وتأسو؛ وتُنْصف

وكانت تقوم اللَّيل إلا اقله ... وسمَّارُها فيه مُصلًى ومُصْحف

مَدَامِعُها مِنْ روْعَةِ الذكرِ ذُرَّفٌ ... وأَوْصالُها من خشيةِ اللهِ رُجَّف

تَهجُّدَ أَوَّابٍ وتسبيح قانت ... فلله ذاك القانت المتخوف

وقول الشاعر من قصيدة بعنوان (وحي الغروب):

قلتُ لَّما رأيتها تتهَادَى ... لِلغيبِ في سبح يَمٍّ عميق

وهْيَ مصفرةُ الأديم كما اصفرَّ　　مشوقٌ أضناه نأيُ مشوق
طالعتني بنظرةٍ تجمع العطفَ　　إلى الودّ والوفَاء العَميق
في طوايا صفائها الشكر للهِ　　وتصديق وعدِه المصدُوق
خَصَّها الله بامتحانٍ غليظٍ　　حملَته حمل الشكور المُطيق

ومن مظاهر تلك العاطفة الدينية التي كانت تسيطر على زوج شاعرنا العظيم حرصها على حج بيت الله وإلحاحها على زوجها في ذلك أبلغ الإلحاح وكان زوجها يستأنيها إلى أن وافاها الأجل قبل تحقيق أمنيتها الغالية. يصور الشاعر ذلك في قصيدة بعنوان (أيام التشريق) نقتطف منها قوله:

ولقد ذكرتك في ثلاث منى　　بالمأزمين فعقني صبري
همت الدموع وأجهشت كبدي　　وترنم المسكين في صدري
وذكرت عزمك غير وانية　　والعزم لم يعطل من الأجر
فجعلت أستأنيك معتذرًا　　بممره رث من العذر
لم أنس قولك جد عاتبة　　في أدمع تنهل كالقطر
هبني انتظرت لقابل أترى　　يبقى الزمان لقابل عمري

ونقتطف من قصيدة بعنوان (وحي يثرب) قول شاعرنا:

ذكرت التي كانت تمنى لو أنها　　تناهت إلى روض الرسول ركابها
دعتني فلم أطلب وثنت فلم أجب　　فكان بكاء القانتات عتابها
وقلت لها في قابل فتهللت　　فما أن دنا حتى دهانا ذهابها
وددت بعيني لو أجبت طلابها　　وكان يسيرا أن يجاب طلابها

الحلقة الثانية

من الأمور التي تستلفت النظر في ديوان (أنات حائرة) لشاعرنا العظيم عزيز أباظة ما ورد في الديوان من إشارات تكررت كثيراً عن فقدان أخوة زوجة الشاعر في سن مبكرة، فقد كانوا خمسة تهاووا واحدًا وراء الآخر اخترمتهم المنية وهم في ميعة الصبا وغادروا الدنيا وهم في عمر الورود، ولم يطل المقام طويلًا بزوجة الشاعر ففودرث ولحقت بإخوتها.

يقول الشاعر:

لها الله من مجهودة شفها الضنى ... فاصفرت وريعان الشباب أنيق
ومرزوءة في أهلها دك ركنها ... شقيقة نفسي عوضرت وشفيق
لقد حز في نفسي أساك وهدني ... ندال وإن اصبر خوف أذيق

ويقول:

ذكرت القصير ذا الأبهاء تعلو ... قواعده على كرم وترسى
يرف رفاعة وسنى وبشرا ... كما رفت عروس يوم عرس
ويمرح أهله في ظل سرد ... وشمل غير مشتعب وأنس
فما زالت حرون الدهر تجري ... لغايتها بسعد أو بنحس
فمالوا كالنجوم الزهر خمسًا ... وما كانوا وربك غير خمس
حملت مصيرهم فقضيت حزنًا ... فرحت شهيدة تفديك نفس

ويقول:

شهدت مصارغا ورأيت صرعى ... تهاووا كالشموس الآفلات
منيت بفقدهم فحملت عبئًا ... يشق على الجبال الراسيات
ذويت وراءهم عضوًا فعضوًا ... كما يذوي الصدى من النبات

ويقول:

عصفت بك الأيام حتى لم تجد ... هدفًا لعاصف كيدها إلاك
الموت باغتك بعد أن فرست أخًا ... فمضى واعجل بعدها أخواك

ويقول:

وحاقت بها الأحداث شتى شكوكها ... فلم تلقها إلا بإيمان صابر
أخ.. فأخ ثان. فأخت فثالث ... تهاووا دراكًا كالنجوم الزواهر
تلقت على ضعف مصيبات فقدهم ... ففاءت بفداح من الخطب صاهر

وفقدان كل هذا العدد من الأخوة والأخوات في عنفوان شبابهم كارثة أو إن شئنا الحقيقة سلسلة من الكوارث كفيلة بصدع أعتى النفوس وأصلب القلوب وما كانت زوج الشاعر لتحمل كل ذلك لولا إيمانها العميق بالله

وعقيدتها الراسخة التي لا تتزعزع.

ويظهر أن زوج الشاعر وإخوتها يحملون في كيانهم مرضًا وراثيًّا خطيراً له - بإذن الله - خواص مهلكة تعمل عملها المدمر في أجسامهم، ويبدو كذلك أن بعض هؤلاء الأخوة تزوجوا في سن مبكرة وتركوا خلفهم أطفالًا صغارًا. احتضنتهم زوج الشاعر وأسبغت عليهم الكثير من عطفها وحنانها ورعايتها فلم يشعروا بمأساة اليتم.

ومن غريب أمر هذه الزوجة المثالية أنها كانت تملك ثروة لا تنفد من الحنان والعطف واستطاعت أن تنفق منها بسخاء لا على زوجها وأولاد أخوتها ولكن على كثير من الآخرين.

ولست اريد أن أستقصي كل ما ورد في الديوان عن ذلك ولكنني أكتفي بمقطوعتين[١].

يقول الشاعر في الأولى:

ذكرتك «زين» في دمع اليتامى ... وقد فقدوا بك الكهف الحفيّا
بنو أخويكِ ذاقوا اليُتْمَ مُرًّا ... وفي حِضْنَيْك ذاقوه شهيا
وكنت لهم غداة الروع أُماً ... مفدية وكنت أبا كفِياً
سكبت عليهمُ الأمن المصفَّى ... وخفض العيش والعطف النديا
وما أنساك كالئة نهارًا ... إذا وُعِكوا وحاضنةً عشيا
نسوا في ظل صدرك كل داء ... ويجمع صدُرك الداء الدويا

ويقول الشاعر في الثانية:

ذكرتُك بين باكيةٍ وباكِ ... من أبناء السبيل البائسينا
وحانيةِ الضلوع على يتامى ... بمدرجَةِ الطريق مُرَوّعينا
وجوعي يسألون الناس جهراً ... وغرثي غيرهم لا يسألونا
وكنت غياثهم سكبت عليهم ... يداك البر سلسالًا هتونا

---

(١) من قصيدة للشاعر بعنوان ذكريات وتاريخها في الديوان شهر فبراير سنة ١٩٤٣م يوافق ١٣٦٢هـ.

مسحت دموعهم وبكيت عطفا | لهم وأنلتهم خفضا ولينا
رعاك الله كم بيت كريم | أصيب فكنت ملجأه الأمينا
أسوت جراحه ودفعتِ عنه | وواسيْت الحزينةَ والحزينا
وأقسم كنت تخفين العطايا | وتولين الجميل وتكتمينا
وقد تهبين مما ليس فضلا | وتعطين الكثير وتؤثرينا
مصابك عم من عرفوك طُرًا | وخص فديتُك المستضعفينا

ولا شك أن عناية هذه السيدة الكريمة بالأيتام من أبناء أخوتها هو أثر من آثار حزنها العميق على هؤلاء الأخوة الذين ودعوا الحياة في سن الورود، أما رعايتها للبائسين والأيتام من أبناء السبيل من تعلقها بالدين تعلقًا كبيراً أوردنا بعض صوره. ولعل السادة المشاهدين قد استرعى انتباههم كما استرعى انتباهي قول الشاعر:

وأقسم كنت تخفين العطايا | وتولين الجميل وتكتمينا
وقد تهبين مما ليس فضلا | وتعطين الكثير وتؤثرينا

والبيت الأول يذكرنا بصفة من أبرز صفات المؤمنين الصادقين، كما يذكرنا الثاني بتلك الفئة المؤمنة المعاصرة التي كانت تؤثر غيرها بالخير على نفسها.

هذه صورة الزوجة المثالية والمرأة المخلصة كما تبدو.. وفي المرأة التي قدمها إلينا عزيز أباظة ونعني بها ديوانه (أنات حائرة) ولقد حرصت على أن أنقل للسادة المشاهدين الجانب المعنوي من الصورة فلا شك في أنه السبب المباشر في تفجير ينابيع الشعر في قلب شاعرنا عزيز أباظة تلميذ شوقي وخليفته. لقد كان نعمة على الأدب والفن والثقافة الرفيعة.

فلولا ذلك لما كان هذا الديوان ولا هذا الشعر ولا هذا الشاعر، ولولا ذلك لما كانت هذه الثروة الشعرية الضخمة التي بلغت ما يقارب الأربعة عشر الف بيت من الشعر كما سترى في الحلقة القادمة.

الحلقة الثالثة

استقبلت المحافل الأدبية ديوان (أنات حائرة) للشاعر عزيز أباظة استقبالا حافلا قل أن تجد له نظيرا ولو جمعت كل ما كتب عنه إبان صدوره لخرجت بسفر ضخم.

لقد كان مفاجأة مذهلة للأدباء والنقاد فأجمعوا على الإشادة به والثناء عليه. لم يشذ عن ذلك خصوم شوقي ومعاصروه مع أن عزيزًا يعترف بأستاذية شوقي ويعتز بها. وقد أوردنا في حلقة سابقة رأي العقاد وهو أكبر خصوم شوقي في شعر عزيز أباظة وهو رأي يجل شعر الشاعر ويرتفع به إلى الذروة وقبل أن يفيق معاصرو الشاعر عزيز من الأدباء والنقاد. قبل أن يفيقوا من ذهولهم فاجأهم الشاعر بما لم يكن في حسبان أحد منهم فقد أخرج للناس مسرحية كاملة باسم (قيس ولبنى) فهزتهم جميعًا هزًا عميقًا لأن الشاعر الذي نبع فجأة في الشعر من غير أن يمر بالمراحل التي يمر بها كل شاعر أو بأكثرها على الأقل فلم يره الناس الا شاعرًا كامل الأداة محلقًا في سماء الشعر.

هذا الشاعر الذي نبغ في الشعر الوجداني استطاع بقفزه واحدة أن يقطع المسافات الشاسعة والآماد البعيدة وأن يصل إلى قمة لم يبلغها إلا شاعر واحد في العربية منذ عرف الشعر إلى عصره ونعني به شوقي. فقد كان أول شاعر عربي يكتب المسرحية الشعرية. ومع ذلك لم يكتبها الا في السنوات الأخيرة من حياته بعد أن وصل إلى مرحلة النضج الكامل، أي أنه قطع أربعين عاما ليصل من مرحلة الشعر الغنائي إلى مرحلة الشعر المسرحي أو الدرامي.. أما شاعرنا عزيز أباظة فقد طوى هذه المسافة الهائلة في شهرين أو ثلاثة.

وكان من أثر ذلك أن استقبل النقاد روايته استقبالا حارًا يصعب وصفه. وألبسوه من حلل الثناء ما كاد ينوء به وأصبح شمسا ساطعة كسفت أنوار كثير من الشعراء، وشغلت الناس عن كواكب ساطعة لها مجدها العظيم

وشهرتها المستفيضة. أمثال خليل مطران وعلي الجارم وأحمد محرم وعلي محمود طه. ولم يقتصر الأمر على النقاد بل تجاوزه إلى الكتاب والشعراء وجمهرة من المثقفين في شتى المجالات.

ولعل السادة المشاهدين الذين تابعوا ما قدمنا من حلقات عن عزيز أباظة يذكرون أننا أشرنا إلى أن تاثير الكارثة الزوجية التي مني بها الشاعر لم تقف عند حد الديوان بل تعدته إلى مجالات أخرى.. وأول هذه المجالات هذه الرواية المسرحية (قيس ولبنى) وقد اختار الشاعر موضوعها لأنه ذو صلة قوية بموضوعه أو مأساته. فقصة قيس ولبنى قصة أسرة تعرضت للتفكك والانحلال كما حدث لأسرة الشاعر عزيز. وإن إختلفت الأسباب والظروف والعوامل.

هناك أوجه من التشابه بين القصتين (قيس ولبنى) وقصة (عزيز وزوجه). فقد كانت البداية سعيدة وأنسا ونعيما وبهجة ولكن هذه الحالة لم تدم. فقد مرضت زوج شاعرنا عزيز وآذنت حياتها بالمغيب ثم انطفأ سراجها فتحطم كيان الأسرة. أما قيس ولبنى فقد تحطمت سعادتهما على صخرة الغيرة غيرة أم قيس من زوج ابنها واستطاعت أن تؤثر على أبيه والد قيس ليرغم قيسا على تطليق لبنى تلك التي ملكت عليه عقله وعواطفه. فلم تترك له مجالًا لرعاية أمه. وقد ساعدت أمه ظروف معينة فقد مرض قيس مرضا شديدًا فاهتبلت أمه الفرصة وطلبت من أبيه أن يلزمه بطلاق لبنى بحجة أنها امرأة غير ولود وأن قيسا لو مات لما ترك عقبا وألح الأب على ابنه إلحاحا متصلا، فأبى الابن أشد الإباء أن يطلق لبنى أو يتسرى عليها فحلف الأب ألا يظله سقف بيت أبدًا حتى يطلقها فكان يخرج فيقف في حر الشمس ويجيء قيس فيقف إلى جنبه بردائه ويصلى هو بحر الشمس حتى يفيء الفيء فينصرف عنه ومكث كذلك سنة حتى طلقها.

وقد زادت متاعب قيس بعد تطليقها وتعقدت أموره في حوادث طويلة ليس هنا مجال تفصيلها ويستطيع من يرغب في معرفة هذه التفاصيل أن يرجع إليها في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أو كتاب قيس ولبنى

للدكتور حسين نصار.

المهم أن شاعرنا عزيز اختار هذه القصة موضوعا لروايته الشعرية (قيس ولبنى) لأن بطلها قيس شاعر ولأن موضوعها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمأساة التي مني بها الشاعر الأباظي. وقد وجد فيها شاعرنا مجالًا طيبًا للتعبير عن مشاعره وللتنفيس عن آلامه فهي امتداد لتلك الأنات الحائرة التي صاغها شعرًا حزينًا مؤثرًا ولتلك العبرات التي سفحها في قصائده أنغاما باكية دامية وربما عاد إلى ذلك بعض الفضل في نجاح هذه الرواية نجاحا كاسحا جر حتى خصوم شوقي فكان لهم دور كبير في استقباله متناسين أنه صديق شوقي وتلميذه وامتداد له بل إنهم وجدوا في استقبال الشاعر الجديد فرصة للطعن في الشاعر الأستاذ فيقول صاحب كتب وشخصيات (فما يمكن أن يقرأ الإنسان هاتين الروايتين في وقت واحد دون أن يحس بالفارق الهائل بين الحياة الجادة والصدق الطبيعي في (قيس ولبنى) وبين الموت البارد والتلفيق المتهافت في (مجنون ليلى) من ناحية رسم الشخصيات وإجراء الحوادث والعرض الفني ولا من... والقدرة على الأداء في الرواية الأولى والاطراد والتهافت في مواضيع كثيرة من الرواية الثانية (ورواية مجنون ليلى) أحقر بما لا يقاس من رواية (قيس ولبنى) أحقر من جميع الوجوه التي تقاس فيها الرواية الشعرية.

وفي هذا الكلام تحامل كبير على الشاعر أحمد شوقي وليس من غرضنا هنا أن نعرض له بالتوضيح والتصحيح وحسبنا أن نشير إلى النجاح القاطع الذي حققه الشاعر عزيز أباظة بأول رواياته (قيس ولبنى) التي قوبلت كما يقول أحد النقاد (بالترحيب الخالص والثناء المطلق).

وصمت الشاعر بعد إصدار ديوان (أنات حائرة) و(قيس ولبنى) وقد صدرا في سنة واحدة أو صيف واحد. صمت أربع سنوات ليفاجأ الجو الأدبي بروايته الحديثة (العباسة) وتقوم هذه الرواية كما قامت رواية (قيس ولبنى) على فكرة الأسرة التي تحول ظروف خارجية دون التآمها واستمرار سعادتها وهناءتها. كما حدث للشاعر وأسرته ولن نعرض لتفاصيل القصة

فحوادثها التاريخية معروفة مشهورة ولكننا نشير إلى النجاح الكبير الذي حققته هذه الرواية وهي كما رأينا أثر من آثار ماساته الفاجعة.

ولعل من المناسب أن ننقل كلمة لأحد كبار النقاد عن هذه الرواية يقول صاحب كتب وشخصيات (إن عزيز أباظة بفطرته الطيبة وبطهارة ضميره ونقاوته ثم بتجربته العائلية المقدسة لديه.. موكل بالحديث عن العواطف الزوجية ورفعها إلى مستوى الطهارة المقدسة من جهة وإلى مستوى الإحساس الفني من جهة أخرى..

ولما كانت الحياة الزوجية بحكم هدوئها وتسلسلها قد لا يجد الفن فيها من الوهج والحرارة ما يجعلها تدخل دائرته. فقد توكل بها هذا الشاعر العاطفي ينفث فيها من الوهج ويبعث فيها من الحرارة ما يرفعها إلى المستوى الفني في أعماله كلها سواء في ذلك (أنات حائرة) أو (قيس ولبنى) أو رواية (العباسية).

وسار شاعرنا في طريق المسرحية الشعرية بعد أن احتل زعامة هذا اللون من التعبير الشعري، وبعد أن اعترف له بذلك أقطاب النقد وقادة الفكر وكبار الشعراء.

سار في طريقه فقدم مسرحيته (عبدالرحمن الناصر) ثم (شجرة الدر) ثم (غروب الأندلس) ثم (شهريار) ثم (أوراق الخريف) ثم (قافلة النور) وقدم أخيراً (قيصر). ومن الغريب أنه في جميع مسرحياته كان مشغولا بفكرة الأسرة التي تتصدع أو تنفصم بمؤثر خارجي ولا نستثني من ذلك الا رواية (قافلة النور).

وقد أهدى مسرحية (شجرة الدر) إلى شوقي وقال في الإهداء (إلى شوقي الخالد أزجي أثرا من هديه ونفحة من وحيه تقدير إكبار ووفاء).

ويعلق الدكتور مندور على ذلك بقوله ومن الواضح أن الأستاذ عزيز أباظة كان يستطيع أن يكتب نفس الإهداء على مسرحياته السابقة فكلها أثر من هدى شوقي ونفحة من نفحاته.

وكان عزيز أباظة في مسرحياته باستثناء (أوراق الخريف) و (قيصر) معنيا بتمجيد الإسلام وابراز حضارته وتكريم أبطاله وإلقاء الأضواء على مزاياه الباهرة وهو يصدر في ذلك عن عقيدة إسلامية راسخة وتدين عميق وحماسة مشبوبة.

ومثل ذلك يقال عن تمسك شاعرنا باللغة العربية الفصحى في جميع رواياته بلا استثناء تمسكا دل على أصالته وفحولته وعبقريته.. وعلى إيمان عميق بقدرة هذه اللغة التي تكلم بها الله على النمو والتطور وعلى مسايرة حاجة الإنسان على امتداد العصور والأزمان.

هذا هو عزيز أباظة وهذا هو تراثه الشعري الضخم وهذه زوجته التي فجر حبها في قلبه هذه الينابيع الثرة من الشعر العاطفي الوجداني والدرامي والمسرحي ولعل ما قدمناه عنه على قلته يدفع طلاب المعرفة من أبناء وطننا الغالي إلى قراءة ديوانه ومسرحياته، وما نشك في أنهم واجدون فيه وفيها نتاجا أدبيا نادر المثال.

وقبل أن نبلغ الغاية من هذا الحديث نرى من الواجب أن نتقدم بواجب الشكر لأميرنا العظيم الشاعر الموهوب عبد الله الفيصل فلولا استضافته للشاعر الكبير عزيز أباظة لما كانت هذه الأحاديث التي نرجو من المشاهدين الكرام أنهم قد وجدوا فيها فائدة ونفعا وإمتاعا. أما ختام هذه الأحاديث فقصيدة لا نشك في أن الغالبية العظمى من المشاهدين قد استمعت إليها مرات ومرات على لسان مطرب مشهور. ولكننا لا نشك كذلك في أن قلة قليلة هي التي تعرف أنها لشاعرنا عزيز أباظة. كما أن نفرًا قليلا هم الذين يعرفون أنها إحدى قصائد ديوان (أنات حائرة) والقصيدة طويلة بعنوان (ليلة وليلة) نختار منها هذه الأبيات[1]:

يا ليلة جمعتنا بعد طول نوى ... ذكراك هاجت لنا الأشجان ألوانا

ذكرت ما كان من عرس جلوت به ... على أكرم خلق الله إنسانا

بيضاء هيفاء تحكي الصبح مؤتلقا ... والروض متسقًا والبان ريانا

(١) تاريخ هذه القصيدة ١٣ يونية ١٩٤٣م.

بتنا تضيء ظلام الليل بسمتنا وتستثير شجون الليل نجوانا

قالت وقلت فلم.. تفرغ مقالتنا إلى الصباح ولم تهدأ شكوانا

وحولنا الليل يطوي في غلائله وتحت أعطافه نشوى ونشوانا

فما رأي قبلنا إلفين قد فنيا وجدا وذابا تباريحا وتحنانا

نكاد من بهجة اللقيا وروعتها نرى الدنا أيكةً والدهر بستانا

ونحسب الكون عش اثنين يجمعنا والماء صهباء والأَنسامَ ألحانا

والعمر وصلا، وآمالا مذ للة والغيب مؤْتلِقَ الآفاق مُزْدانا

يا من تعاهدنا ودًا وخالصة وزادنا بعد إيثارا وإحسانا

ومن توافت لنا الدنيا بنضرتها في ظله فإذا الفردوس دنيانا

ومن سعدنا على موشى رَفْرَفِهِ بالعيش طلقًا، وبالاقبال فيْنانا

المونق الخضل الجذلان ملعبنا والضاحك المشرق المأنوس مغنانا

أثابكِ الله من منهَلّ رحمته عنا، وجازاك غفرانا ورضوانا

ظلمتُ ودي وما أَنْصفت برِّكِ بي لو قد وقفتُ عليك العُمرَ شُكرانا

فلم أبت منك مطويا على غضب ولم أبت قلق الجنبين غيرانا

ولا تمنيت إلا أن تسالمني فيك الدنا يا أحب الناس إنسانا

لقاء كل أسبوع(*)

وامامي الآن كتاب ألّفه العالم «موريس مترلنك» عن حياة الأرضه او النمل الاعمى سماه (مملكة الظلام): والأرضة التي يتحدث عنها مترلنك (دودة بيضاء تبنى على نفسها بيتا مستطيلا: ولها شفران تنقر بهما الخشب والآجر والحجارة وهي غير السوسة أو العتة التي تلمس الصوف والثياب)

وقد سبق للمؤلف أن كتب عن حياة النمل (وقد جعل هذا الكتاب تكملة لحياة النمل أو ذيلا له على ما بين الاثنين من البون الشاسع في الوصف والبيئة فكأنه جمع بين النهار والليل والسماء والجحيم. ففي حياة النمل - كما يقول - لا ترى الا ربيعا زاهرا وندى عاطرا وأجنحة ترف ونسيما يهف واهازيج لا تكف وآفاقا لا تخشى صفاءها كدورة وسعادة ما وراءها سعادة. وهنا لا تجد سوى الظلام والنمل والبخب والقذارة ولا تستنشق غير هواء السجون والمنفس والقبور على ان وراء هذا الشقاء كله مثلا أعلى من التضحية).

ويؤكد المؤلف ان الحضارة في عالم الأرضة (تعد أرقى من حضارة النمل والنحل) ويقول مترلنك (إنك لا ترى على هذه البسيطة كائنا أقرب إلينا وأبعد عنا في آن واحد من هذه الحشرات التي تتمتع بانظمة سياسية واقتصادية واجتماعية كأنها عالم إنساني يؤاخينا في آلامنا ومصائبنا).

وهنا مجال واسع للشعراء الذين يحملون شكلا جديدا للاجتماع البشري ويسمو بهم الخيال والتصور الي خلق مثل خاص للأجيال الآتية في نظامها وأحكامها فما عليهم إلا أن يقتربوا من هذه المملكة الهائلة فيجدوا الغرابة مثل في أحلامهم وأغرب مما تتصوره في عطارد والمريخ والزهرة).

(من أجل هذا لم أر من العبث اهتمام مُهْتَم حين يدرس هذه الحشرة العجيبة والكريهة معا التي عرفت أن ترتفع من هوة شقاء هو اشبه شيء

(☆) نشر في مجلة الرائد

بشقاء البشر إلى قمة حضارة لا تختلف من بعض الوجوه عن حضارتنا).

ويحدثنا مترلنك عن الحياة في عالم الأرضة حديثا ينهل اللب حديثا علميا لا مجال فيه للتهويل او المبالغة. ولولا ضيق المجال لنقلت للقراء طائفة كبيرة من المعلومات المدهشة عن مساكن هذه الحشرة وعن النظام الهندسي الدقيق الذي تسير عليه وعن نظمها المعيشية والاجتماعية والحربية وعن علاقتها بغيرها من الحشرات ومن حيث الصداقة والعداوة. وصدق الله العظيم (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق).

وأرجو أن يكون قارئنا الفاضل قد اقتنع بان الحشرات وهي ذات حضارة عريقة ونظم مدروسة مثالية بأنها أمة من الأمم كالبشر.

فهرس تفصيلي بمحتويات الكتاب

طبعت بمطابع مؤسسة المدينة للصحافة «دار العلم» بجدة
ص.ب ٤٧٩٧ جدة ٢١٤١٢ ت ٦٧١٢١٠٠ المملكة العربية السعودية

الإخراج والتنفيذ: **عبدالله سرحان**

إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	ذكريات طفل وديع ـ ط ١	عبدالعزيز الربيع
٢	الشعر الحديث في الحجاز	عبدالرحيم أبو بكر
٣	شعراء من أرض عبقر ـ جـ ١	د. محمد العيد الخطراوي
٤	شعراء من أرض عبقر ـ جـ ٢	د. محمد العيد الخطراوي
٥	في ظلال السماء	محمد هاشم رشيد
٦	على دروب الشمس	محمد هاشم رشيد
٧	على ضفاف العقيق	محمد هاشم رشيد
٨	همسات في أذن الليل	د. محمد العيد الخطراوي
٩	غناء الجرح	د. محمد العيد الخطراوي
١٠	ترانيم العودة	ناجي محمد حسن وفوزان الحجيلي
١١	الفيصليات	عبدالحميد ربيع
١٢	رعاية الشباب في الإسلام ـ ط ١	عبدالعزيز الربيع
١٣	جرح الإباء	أحمد فرح عقيلان
١٤	أضواء على حقائق	محمد المجذوب
١٥	بيت وشاعر	خالد محمد اليوسف
١٦	الحفل المسرحي	إصدار إعلامي عن النادي
١٧	جداول وينابيع	عبدالرحمن رفة
١٨	الجناحان الخالدان	محمد هاشم رشيد
١٩	على أطلال إرَم	محمد هاشم رشيد
٢٠	ثلاثة أعوام مع مسابقة القرآن الكريم	دخيل الله الحيدري ـ ووهبة الجبالي
٢١	رسالة إلى ليلى	أحمد فرح عقيلان
٢٢	في رحاب الجهاد المقدس	إبراهيم العياشي
٢٣	الشيخ محمد بن عبدالوهاب (بحث)	مسلم الجهني
٢٤	في موكب الضياء	أبو زيد إبراهيم سيد
٢٥	الفنون التعبيرية	عبدالعزيز الربيع
٢٦	أباريق النور	محمد عادل سليمان
٢٧	في غيابة الجُب	علي الفقي
٢٨	المدينة المنورة في التاريخ	عبدالسلام هاشم حافظ
٢٩	ذكريات طفل وديع ـ ط ٢	عبدالعزيز الربيع
٣٠	رعاية الشباب في الإسلام ـ ط ٢	عبدالعزيز الربيع

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٣١	حروف في الرماد	محمد صالح البليهشي
٣٢	هموم عربية	ابو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
٣٣	المدينة اليوم	محمد صالح البليهشي
٣٤	لمحات عن حياة الربيع	محمد صالح البليهشي
٣٥	ضفاف الذكريات	مجدي خاشقجي
٣٦	مِبضَع الجراح	إبراهيم العياشي
٣٧	صور وذكريات عن المدينة المنورة	عثمان حافظ
٣٨	قصص لا تنسى	محمد المجذوب
٣٩	تحفة اللبيب	محمد المجذوب
٤٠	مع المجاهدين في باكستان	محمد المجذوب
٤١	المجموعة الشعرية الكاملة ـ جـ ١	عبدالسلام هاشم حافظ
٤٢	مسيرة ٨ أعوام لنادي المدينة المنورة الادبي	محمد صالح البليهشي
٤٣	طيبة وفنها الرفيع	م. حاتم طه
٤٤	أيسر التفاسير ـ جـ ١	أبو بكر جابر الجزائري
٤٥	أيسر التفاسير ـ جـ ٢	أبو بكر جابر الجزائري
٤٦	أيسر التفاسير ـ جـ ٣	أبو بكر جابر الجزائري
٤٧	أيسر التفاسير ـ جـ ٤	أبو بكر جابر الجزائري
٤٨	الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية	د. عبدالله الحامد
٤٩	شاعر الخليج	عبدالله أحمد الشباط
٥٠	أدب ونقد	محمد المجذوب
٥١	ردود ومناقشات	محمد المجذوب
٥٢	دعوة سليمان ـ عليه السلام	علي منسي عشكان
٥٣	حروف من دفتر الأشواق	د. محمد العيد الخطراوي
٥٤	دموع وكبرياء	حسن مصطفى صيرفي
٥٥	في الفكر والأدب «دراسات وذكريات»	د. حسن بن فهد الهويمل
٥٦	دراسات قرآنية ـ المجلد الاول	نادي المدينة المنورة الأدبي
٥٧	الأخطبوط «قصة»	ناجي محمد حسن عبدالقادر
٥٨	طيبة في عيون فنان تشكيلي	فؤاد مغربل
٥٩	تاريخ معالم المدينة المنورة قديمًا وحديثًا	أحمد ياسين الخياري
٦٠	تفاصيل في خارطة الطقس	د. محمد العيد الخطراوي

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٦١	وداعًا أيها الحزن «رواية»	غالب حمزة أبو الفرج
٦٢	نصوص مختارة	محمد المجنوب
٦٣	الأعمال الشعرية الكاملة المجلد الأول	محمد هاشم رشيد
٦٤	الولوج من ثقب إبرة	علي عبدالفتاح السعيد
٦٥	من بدائع الأدب الإسلامي	د. محمد سعد الدبل
٦٦	المنظمة الدولية للشرطة الجنائية، «الإنتربول» ودورها في في مكافحة الجرائم الدولية للمخدرات	النقيب محمد حسن زهير آل شفلوت العمري
٦٧	وقفات على الماء	إبراهيم عمر صعابي
٦٨	شعر ضياء الدين رجب بين الموقف والصياغة	د. عبدالله أحمد باقازي
٦٩	المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ	د. عاصم حمدان علي حمدان
٧٠	التعليم الأهلي في المدينة المنورة (١٣٤٤ ـ ١٤٠٨هـ) دراسة تاريخية وصفية	دخيل الله عبدالله الحيدري
٧١	المجموعة الشعرية الكاملة ـ جـ ٢	عبدالسلام هاشم حافظ
٧٢	آلام وأحلام	محمد المجنوب
٧٣	سلاح الكلمة الشاعرة ـ إسهام النادي الأدبي خلال أزمة الخليج	إصدار النادي الأدبي بالمدينة المنورة
٧٤	تراثنا المخطوط في العلوم التطبيقية والبحتة	مصطفى عمار منلا
٧٥	وقفات في حرب الخليج	محمد بن صنيتان
٧٦	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الأول	أحمد سعيد سلم
٧٧	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الثاني	أحمد سعيد سلم
٧٨	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الثالث	أحمد سعيد سلم
٧٩	ملاعبة الصيد	أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
٨٠	في ذاكرة الصحراء ـ دراسات نقدية في نصوص شعرية سعودية معاصرة	محمد إبراهيم الدبيسي
٨١	ملف العقيق المجلد الأول	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٨٢	آفاق شعرية «قراءة لما وراء النص»	محمد محمود جاد الله
٨٣	اللمعة في صنعة الشعر	د. صلاح الدين محمد الهادي
٨٤	ملف العقيق المجلد الثاني	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٨٥	فن الرماية بالسهام الحديثة	د. عدنان درويش جلون
٨٦	ملف العقيق المجلد الثالث	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٨٧	المستدرك في شعر بني عامر ـ من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ١٣٢هـ ج ١ «الدراسة الموضوعية والفنية»	د. عبدالرحمن الوصيفي
٨٨	المستدرك في شعر بني عامر ـ من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ١٣٢هـ ج٢ «الجمع والتحقيق»	
٨٩	نحن والآخر	د. عاصم حمدان
٩٠	المسرح الشعري «بعد شوقي»	د. محمد عبدالعزيز الموافي
٩١	دراسات أدبية «المجلد الرابع»	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٢	ملف العقيق ـ المجلد الرابع	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٩٣	دراسات في الأدب الإسلامي ـ المجلد الخامس	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٤	ملف العقيق ـ المجلد الخامس	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٩٥	عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ	ناجي محمد حسن عبدالقادر الأنصاري
٩٦	مهد الذهب	عبدالعزيز الحازمي وعلي عودة
٩٧	مسيرة ٢٠ عامًا لنادي المدينة المنورة الأدبي	محمد صالح البليهشي
٩٨	دراسات حول المدينة المنورة	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٩	رائحة الزمن الآتي	إبراهيم الوافي
١٠٠	مدخل إلى تحقيق النص الشعري	د. عبدالرحمن محمد الوصيفي
١٠١	لن أعود إليك	وفاء الطيب
١٠٢	دراسات في الأدب الحديث «المجلد الثالث»	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
١٠٣	عمر بن شبة	د. سلام شافعي
١٠٤	ملف العقيق المجلد السادس	يصدر عن النادي الادبي بالمدينة
١٠٥	أثر وسائل الإعلام في اللغة العربية	د. جابر قميحة
١٠٦	ديوان رشة عطر	مفرج السيد
١٠٧	تأويل ما حدث	د. محمد العيد الخطراوي
١٠٨	نزيف الجرح	سعد سعيد الرفاعي
١٠٩	دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والغربي	د. عاصم حمدان علي حمدان
١١٠	ملف العقيق (المجلد ٧)	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة المنورة
١١١	ملف العقيق (المجلد ٨)	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة المنورة
١١٢	دراسات في الفكر الإسلامي (المجلد السادس)	من محاضرات نادي المدينة المنورة الأدبي
١١٣	عبدالله بن إدريس شاعرًا وناقدًا	د. محمد صادق عفيفي
١١٤	شعر عبدالسلام حافظ	رحمة مهدي علي الريمي
١١٥	كتب ومؤلفون	عبدالعزيز الربيع ـ محمد صالح البليهشي